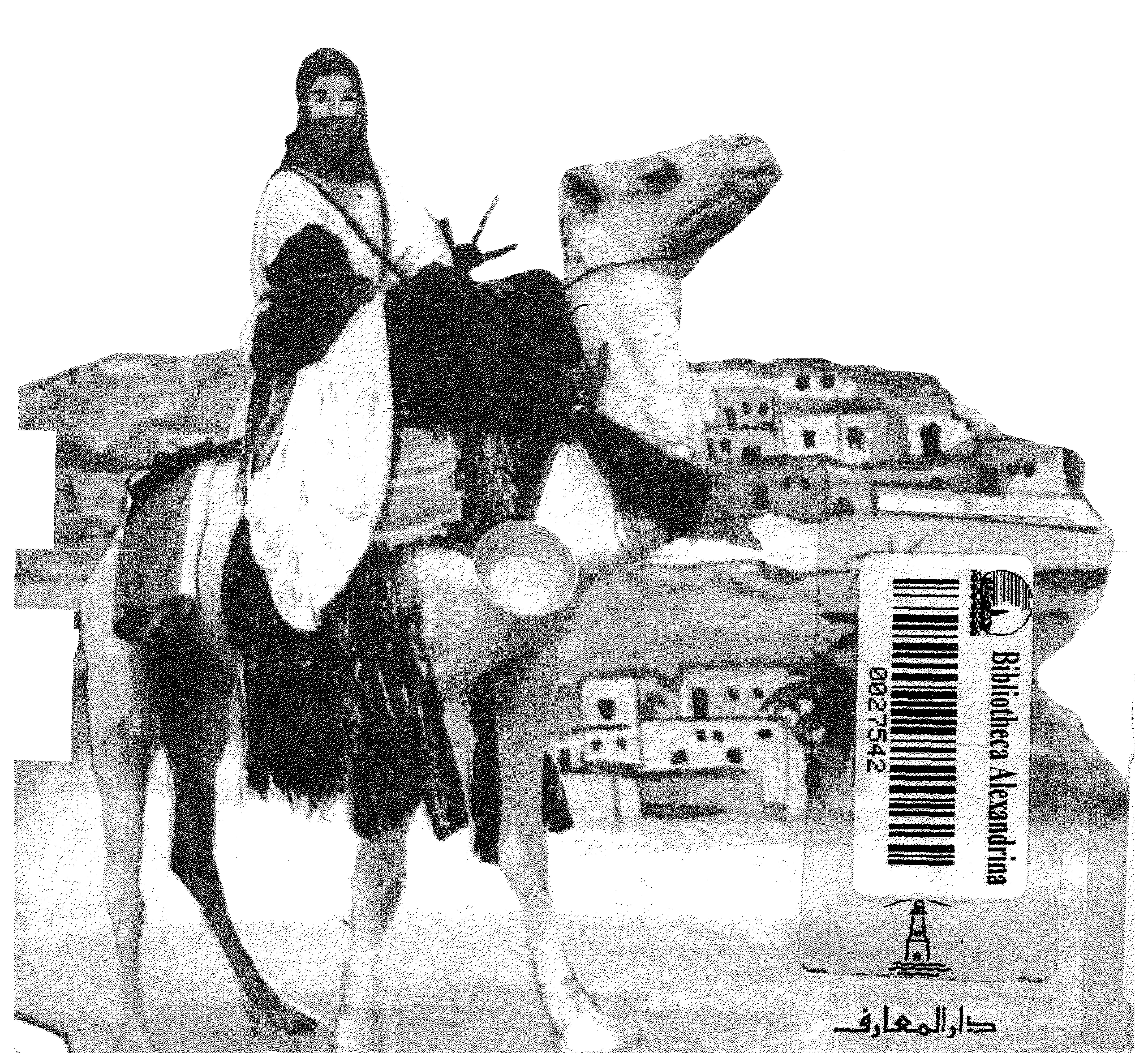
دكتور نبيل صبحى حنا

المجتمعات الصحراوية

فى الوطن العربى

(دراسات نظرية وميدانية)



دار المعارف



المجتمعات الصحراوية في الوطن العربي

(دراسات نظرية وميدانية)

تأليف

دكتور نبيل صبحي حنا

مدرس علم الاجتماع – كلية الآداب – جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٨٤



دار المعارف

تصميم الغلاف : منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج٠م٠ع

إهـداء

الى أستاذى الجليل الدكتور محمد الجوهرى
الذى أشـعل فى حب الصحراء فى
بداية عهـدى بالعمـل الميـدانى ..

مقدمة

يضم وطننا العربى جماعات بشرية تسكن الصحارى والسهول والهضاب والجبال والواحات وهى تحيا بين التنقل والاستقرار فى هذه المناطق بطريقة رشيدة تهدف الى استمرار البقاء من خلال الاستخدام الأمثل لبيئة فقيرة تبعثرت فيها الموارد فى مساحات شاسعة . فبعض الجماعات الصحراوية تعيش حياة استقرار دائم وبعضها الآخر يتسلق المرتفعات فى فترة معينة ويهبط من عليها فى فترة أخرى وبعضها الآخر يجوب الصحراء شتاءا ويحتمى فى ظل الواحات صيفا . هذه الجماعات لها تنظيمها الاجتماعى وثقافتها التى تشترك فى بعض عناصرها مع جماعات أخرى وتظل تحتفظ بالبعض الآخر من العناصر الثقافية التى تميزها عن غيرها ، تماما مثلها مثل أى جماعة بشرية أخرى . وقد كان لهذه الجماعات الصحراوية فى بعض الفترات تنظيماتها العسكرية ، وكانت لها أيضا قدرة على سياسية شئونها .

ويأتى هذا الكتاب الذى خصصته لدراسة المجتمعات الصحراوية فى الوطن العربى اسهاما فى دراسة سكان الصحراء فى مجتمعنا العربى بأنماطهم المتعددة واظهارا لجوانب هامة من معالم حياتهم . وهو يؤكد اهتمامنا بتلك الجماعات التى تستحق الاهتمام وتعتبر جزءا لا يتجزأ من كل دولة فى أمتنا العربية .

وقد أدت ضرورة أن يقدم الكتاب وصف وتحليلا شبه متكامل للحياة الاجتماعية لجماعات الصحراء ان يتم جمع المادة المكونة له وفق خطة محددة ، وان يتم تصنيفها بطريقة تفى بالغرض الذى يهدف الى تحقيقه الكتاب . فقد حوى الكتاب اثنى عشر فصلا موزعة على ستة أبواب رئيسية . وتم

تخصيص الباب الأول لدراسة بدو الصحراء فى الوطن العربى . ذلك أن قطاعا كبيرا من سكان الصحراء يطلق عليهم مصطلح « بدو » . وقد تضمن الفصل الأول تحديدا لأهم الملامح الأساسية للبداوة العربية مع تصنيف لأنماط البداوة بالاضافة الى أن الفصل حوى نماذج لجماعات تمثل كل نمط من الأنماط الرئيسية للبداوة . وتضمن الفصل الثانى فى هذا الباب مناقشة مطولة لموضوع « التوطين » هذا الموضوع الهام الذى لا يمكن أن ندرس بدو الوطن العربى دون أن نتطرق اليه ؛ فهو موضوع مناقشة مستمرة فى الأوساط الأكاديمية وبين من يهتمون بالسياســـة الاجتماعية ، كذلك فان لمعظم الدول العربية تجاربها فى توطين البدو . وقد تم عرض المعلومات الواردة فى الفصل بطريقة يمكن أن يفيد منها الدارس كما يمكن أن يفيد منها المخطط الاجتماعى أيضا ، فنوقش مفهوم التوطين والآراء الخلافيـــة المتعلقة بفكرة التوطين ، والمبادىء الأساسية للتوطين ، بالاضافة الـــى خدمات التوطين ومشكلاته . وانتهى الفصل بنماذج من مشروعات التوطين فى الوطن العربى .

أما الباب الثانى فقد خصص لدراسة ثقافة سكان الصحراء . ويحاول هذا الباب تحليل جوانب متفرقة من ثقافة البدو بهدف فهم الابعاد الاجتماعية لحياتهم . فدراسة الثقافة هنا تنطلق من توجيه خاص وهو تحليل العناصر الثقافية من أجـــل الكشف عن معالم الكيان البنائـــى والتاريخى والواقع الاجتماعى للجماعة . وأود أن اشير الى أن البعض يتصور أن دراســـة الثقافة هى دراسة ترفيهية تقدم صورة من حياة الشعوب لهدف تسلية أو امتاع القارىء . ويتصورها البعض الآخر أنها الدراسة السهلة لبعض العناصر الظاهرة التى يمكن للشخص البسيط أن يحللها ويكتب عنها دون عناء . أو هى عملية سرد أو « رص » للعادات والتقاليد دون نظام ـ أو بنظام ـــ وبشكل يكاد يخلو من المعنى . وهناك أيضا من يرى أن دراسة الثقافة هى محاولة متعسفة لرؤية بعض المعانى التى يفترض أنها مرتبطة بممارسات خاصة . وأخيرا فان دراسة الثقافة تتهم بأنها دراسة ما هـــو غريب .

وترجع هذه النظرة الى ان اصحابها احيانا لا يعرفون ما هى الدراسة العلمية للثقافة وما هى اهدافها . كما ترجع ايضا الى أن بعض من كتبوا عن الثقافة كتبوا كتابات بسيطة ساذجة توفر فيها ما سبق ذكره ، بالاضافة الى أن هناك من الكتاب من كتبوا قصصا وروايات وحكايات واطلقوا عليها كلمة « ثقافة » .

الواقع أن دراسة الثقافة هى أحد الدراسات العلمية وتتميز بأنها تتخذ تراث الشعب موضوعا لاهتمامها ، فنتلمس من خلال دراسته التعرف على تاريخه وواقعه . وتؤدى الدراسة المتعمقة للثقافة — بالاضافة الى تقديم صورة عن حياة الناس — الى تمثل روح الجماعة وادراك القوى المؤثرة فيها ، لهذا فالثقافة هى مرآة عاكسة للتاريخ والواقع الاجتماعى .

فى ضوء ذلك فان الباب الثانى الذى خصص لدراسة الثقافة قد حوى فصلا يشرح اهم خصائص ثقافة سكان الصحراء ، ويدل مضمونه على أن عناصر الثقافة يمكن أن تدل على الواقع الاجتماعى كما أنها لا يمكن فهمها دون التعرف على البعد التاريخى ودون دراسة البناء الاجتماعى للجماعة . وحوى فصلا آخر يقدم تحليلا لما تدل عليه العناصر الثقافية السائدة لدى قبائل أولاد على وما يشير اليه ويتعلق بواقع الجماعة . ولهذا فالفصل يعتبر احد النماذج التطبيقية للفكرة الأساسية التى أوضحناها .

ونظرا لأنه لا توجد جماعة بشرية لا تمتلك نظاما عسكريا أو سياسيا معقدا كان أو بسيطا ، فقد كان من الضرورى التعرف على اشكال التنظيم العسكرى والسياسى فى الصحراء . وهذا ما أفردنا له الباب الثالث الذى حوى فصلين اهتم أحدهما بالتنظيم العسكرى ومجالات استخدامه من خلال استعراض تاريخى للعمليات الحربية والتنظيمات العسكرية التى وجدت فى الصحراء من أجل اغراض مختلفة ، وحوى الفصل الثانى دراسة لطبيعة المشاركة السياسية لأبناء القبائل .

وطبقا للمبدأ الاجتماعى المتفق عليه والمتعلق بعدم وجود مجتمع ساكن لا

يتغير ، ونظرا لأن عوامل التغير تبدو أكثر قوة وكثافة فى وقتنا الحالى فاننا أولينا اهتماما خاصا لموضـــوع التغير الاجتماعى والثقـــافى فى المجتمعات الصحراوية ، فخصصنا له الباب الرابع الذى حوى ثلاثة فصول . ويهتم الفصل الأول منها بعوامل التغير : ونود أن نشير الى أن العوامل التـــى ناقشناها فى هذا الفصل هى العـــوامل التى أدت بالفعل الى تغـــيرات فى المجتمعات الصحراوية فى الوطن العربى فى الفترة الأخيرة . وسوف تمكننا دراسة التغيرات التى حدثت فى مجتمعات صحراوية فى المستقبل من اضافة عوامل اخرى الى العوامل المذكورة فى هذا الفصل . ومن الطبيعى أن يؤدى توفر مادة أغزر عن التغير وعوامله الى اعادة تصنيف لهذه العوامل بطريقة أفضل . واذا كان الفصل قد ركز على عوامل التغير الا أنه حوى أيضا بعض نتائج التغير والآثار المترتبة عليه .

أما الفصلان التاليان فى الباب الرابع فيقدم كـــل منهما نموذجـــا من المجتمعات الصحراوية نوضح فيه عوامل ومظاهر التغير . يوضح النموذج الأول ديناميات التغير فى مدينة ساحلية أما النموذج الثانى فيشرح ديناميات هذا التغير فى واحة وسط الصحراء .

ويقدم الباب الخامس بفصليه نموذجا للمجتمعات الصحراوية التـــى اختبرت عزلة جغرافية قطعت صلتها سنوات طويلة بمصـــادر الحضارة ، ثم اختبرت أيضا فترات من الاتصال بالمجتمـــع الأم الأمر الذى أدى الى تغيرات عديدة . ذلك هو مجتمع جارة أم الصغير أو « واحة الجارة » . ويركز الفصل الأول على العزلة الجغرافية وتقليدية الواحة وذلك من خلال توضيح طابع الحياة الاجتماعية بها ، ويركز الفصل الثانى على الاتصال والتغير . ونود ان نوضح أنه نظرا لصغر حجم الواحة وعزلتها الشديـــدة فانه رغم ضعف التيار الوافد الى الواحة فان تأثيره كان واضحا حتى أن التغير فى الجارة يمكن أن نطلق عليه ــ كما سيتضح فيها بعد ــ التغـــير بمقتضى « الوحدة الواحدة أو العامل الواحد » : سيارة واحدة ، وتلفزيون واحد ، وجهاز تسجيل واحد ... الخ .

اما الباب السادس فى الكتاب ويهتم بالجريمة فى الصحراء فقد حوى فصلا واحدا تضمن دراسة تفصيلية عن عملية تهريب البضائع بين دولتين عن طريق البدو . ويوضح الفصل أن الموقع الجغرافى والظروف المجتمعية تؤثر على نمط الجريمة السائد فى اى مجتمع من المجتمعات .

ونود أن نشير الى بعض المسائل الهامة التى تلقى الضوء على المادة الواردة فى هذا الكتاب وعلى طبيعتها :

● ان الهدف من دراسة المجتمعات الصحراوية هو فهم هذه الجماعات لتحقيق عملية تكاملها مع المجتمعات الأم التى تعيش بينها .

● أن دراسة مجتمعات الصحراء والعوامل التى تؤدى الى تغيرها لا يمكن أن تتم بمعزل عن الرؤية الأوسع لواقع وظروف المجتمع الأكبر الذى يحوى كل جماعة صحراوية . فالأحداث التى تمر بمجتمعات الصحراء ليست منفصلة عن أحداث المجتمع الأكبر ، وسوف توضح ذلك كل فصول هـذا الكتاب .

● تحتوى كل فصول الكتاب علـى نماذج توضيحية من صحراواتنا العربية ، وقد روعى فى جمع هذه المادة أن توضح التنوعات الموجودة بالفعل فى نمط حياة مجتمعات الصحراء فى وطننا العربى ، وأن تكون هذه النماذج من دول عربية مختلفة :

● على الرغم من تخصيص باب كامل لدراسة التغير الاجتماعى والثقافى الا ان معظم الفصول قد حوت مادة توضح الشـكل والبناء التقليدى ثم التغيرات التى طرأت عليه .

ارتكزت المادة الواردة فى هذا الكتاب على المفاهيم والأسس النظرية المتعارف عليها فى مجالى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا فى دراسة المجتمعات البشرية بصفة خاصة . فاذا كان الجزء الأكبر من الكتاب يعتمد على دراسات ميدانية أجراها الباحث بنفسه أو بعض الدراسات الميدانية التى اجراها

غيره فان تحليلها وصياغتها وعرضها قد تم فى ضوء المفاهيم السائدة فى هذين العلمين . **وعلى ذلك فاذا كان الكتاب قد حوى اثنا عشر فصلا فان سبعة فصول منها عبارة عن دراسات ميدانية اجرى الباحث ست دراسات منها بنفسه ولخص دراسة ميدانية قام بها غيره (دراسة الكرك) .**

وقد بدأ العمل الميدانى فى الصحراء فى سنة ١٩٧١ حيث كان الباحث يجرى دراساته للحصول على درجة الماجستير . ولكنه لم يحاول نشر هذه المادة حتى تمكن من تنقيحها واضافة العديد من الموضوعات والتفصيلات التى اقتبسها من مراجع علمية تضمنت أسسا نظرية أو دراسات ميدانيه لكى يتمكن من تقديمها فى شكل يتلاءم وهدف الكتاب الذى يقدم اليوم للمكتبة العربية كمدخل لدراسة مجتمعات الصحراء . وقد تم ذلك على عدة مراحل : ففى فبراير سنة ١٩٨١ وعلى امتداد ثلاثة شهور اتيحت للباحث خلالها فرصة التواجد فى هولندا فى مهمة علمية استطاع الرجوع الى مصادر عديدة عربية وأجنبية تقدم مادة عن مجتمعات الصحراء فى الوطن العربى . ثم اتيحت له أيضا نفس الفرصة خلال فترة وجوده فى السودان من منتصف اغسطس حتى نهاية أكتوبر سنة ١٩٨٢ ، ومن منتصف يناير حتى منتصف فبراير سنة ١٩٨٣ . ففى هذه الفترة تم الرجوع الى بعض المصادر وجمع مادة ميدانية من بعض الاخباريين ساعدت على تدعيم بعض الفصول . كما تمت فى أمسيات نفس الفترة فى الخرطوم تجربة صياغة بعض الفصول النظرية صياغة نهائية . وقد رتب الباحث لرحله ميدانية فى صيف ١٩٨٣ لمنطقه الصحراء الغربية التى اجرى فيها دراسته الأولى ما بين سنة ١٩٧١ ، سنة ١٩٧٣ وذلك بهدف اجراء دراسة تتبعية بعد عشرة سنوات من اجراء الدراسة الأولى . وقد تم اثناء هذه الفترة عمل مراجعة ميدانية واعادة صياغة للمعلومات التى تم جمعها من ثلاثة مناطق هى سيوة ومرسى مطروح وواحة الجارة . كما تم اجراء دراسة تتبعية للتغيرات التى حدثت فيها منذ أن ترك الباحث المنطقة فى سنة ١٩٧٣ . وقد تضمن ذلك — بالاضافة الى العمل الميدانى عملا مكتبيا مثل جمع بيانات من الهيئات والمصالح العاملة فى الصحراء

لهدف استكمال المادة المتعلقة بالتغير . ثم تمت بعد ذلك عملية تصنيف فصول الكتاب ووضعها فى الشكل النهائى .

بناء على ذلك فان هذا الكتاب يضم نوعين من الدراســـات ، نظرية وميدانية . وقد اوضحت نسبة الدراسات النظرية الى الميدانية قبل ذلك . كما انه يضم فصولا جديدة لم تتضمن اية مادة جمعت اثناء الدراسة التى حصلت بها على درجة الماجستير وعددها سبعة فصول هى الفصل الأول والثانى والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع . ويعد الفصل الرابع دراسة ميدانية خالصة . كما تضمن الكتاب اربعة فصول تتضمن دراسات ميدانيه هى الفصل الثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر . وهذه ضمت الدراسات التى ذكرت أننى اجريت دراسة تتبعية لها فى صيف ١٩٨٣ . وقمت باعادة صياغتها واوضحت فى كل فصل التغيرات التي حدثت فى الفترة الأخيرة بحيث فصلت بين المادة التى تم جمعها سنة ١٩٧٢ ، وتلك التى جمعت سنة ١٩٨٣ .

واخيرا فانى اشكر كل من تعاون معى خاصة فى مرحلة العمل الميدانى ، واشكر على وجه الخصوص أهالى واحة الجارة الكرام الذين تربطنى بهم روابط قوية والذين تقبلونى مقيما اقامة دائمة فى مجتمعهم فترات طويلة . انى اكرر شكرى لهذه الجماعات التى عشت بينها واحببتها ، تلك التى مــلأت أمسياتى الصامتة كلاما ومعنى . واشكر ايضا اخوتى الطلبة والطالبات ، فمن أجلهم فكرت فى صياغة هذه الخبرة الميدانية ومن أجلهم كتبتها . وارجو أن يأتى الوقت الذى نجد فيه طلبـــة وطالبات يهتمون بسكان الصحـــراء والمرتفعات ويعشقون الدراسة من واقع معايشة طويلة المدى .

والله يوفقنا جميعـــا .

ديسمبر سنة ١٩٨٣ .

نبيـــل

المحتويات

الباب الأول

بـــدو الصحـــراء

الفصل الأول : بدو الصحراء : نمط المعيشة والاقتصاد .

الفصل الثانى : توطين البدو .

الفصل الأول

بــــــدو الصحراء
نمط المعيشة والاقتصاد

مشكلة المفهوم :

استخـــدم مصطلح « البدو » كما استخـــدم مصطلح « البـــداوة » استخدامات متعددة غير دقيقة . فقد استخدمت لتدل على تلك الجماعات التى تعيش فى خيام وترتبط برعى وتربية الحيوان بصرف النظر عن كونها جماعات متنقلة أو جماعات مستقرة . كما استخدمت فى بعض الأحيان لتعنى نمط الحياة الذى يتصف بالتجوال الموسمى أو التجوال الدائم ، وفى أحيان أخرى تستخدم لتدل على الجماعات التى تعيش فى الصحراء وترتبط بأصول سلالية واحدة بصرف النظر عن نمط الحياة .

والواقع أنه من الخطأ جدا أن نطلق مصطلح « بدو » على أى جماعة بشرية تعيش فى خيام ، فهناك جماعات اثنية تعيش حياة مستقرة ولكنها تسكن الخيام . وهذه الجماعات غالبا ما تقطن منطقة ما وترتبط بالمدن أو الأسواق أو الواحات ، وغالبا ما تعتبر القطعان هى المصدر الوحيد الذى يشكل موردا اقتصاديا بالنسبة لها بالاضافة الى ما تحصل عليه من الزراعة أو من الأنشطة الاقتصادية الأخرى .

ويستخدم الآن مصطلح « البدو » ليعنى شيئين :

الأول : يعنى نمطا للحياة يتسم بالتجوال الموسمى أو المستمر وذلك بحثا عن مصادر الرزق . فهناك كثير من الجماعات البشرية تنتقل من أماكن سكناها فى فصول معينة من السنة متجهة الى مناطق أخرى تتوفر فيها المراعى

أو الأمطار ، ثم تغادرها عند تغير الفصول . ويرى البعض أن حركة هذه الجماعات تتم بشكل معروف وداخل مناطق محددة الا أن الحركة داخل كل منطقة أو أقليم عادة ما تكون عشوائية وغير محددة . ولكن يرى البعض الآخر أن حركة أغلب الجماعات هادفة ومحددة ومنتظمة ولهذا فهم يفضلون استخدام مصطلح Transhumance الذى يعنى الانتقال الموسمى بحثا عن المراعى فى اتجاهات ثابتة منتظمة من المناطق الجدباء فى موسم الجفاف الى المراعى فى مواسم المطر (١) .

الثانى : يشير الى جماعات بعينها تسكن الصحراء وترتبط بأصـــول سلالية واحدة بصرف النظر عما اذا كانت مستقرة أو كانت متجولة . فالكتاب على سبيل المثال يتكلمون عن بدو الصحراء الغربية فى مصر ، وهم ينقسمون الى جماعات مستقرة وأخرى متجولة . فالجماعات البدوية التى تعيش فى مدينة مرسى مطروح هى جماعات مستقرة ارتبطت بالمدينة وبعضها زاوج بين رعى الحيوان وبين العمل فى التجارة أو حتى العمل فى المصالح الحكومية داخل المدينة ، وبعضها الآخر ترك عمل الرعى نهائيا وارتبط بالعمل فى المدينة ومع ذلك فانه يطلق عليهم لفظ « بدو » وفى هذه الحالة يقصد مستخدم اللفظ جماعات اثنولوجية ترتبط بأصول سلالية واحدة مثل قبائل « أولاد على » بصرف النظر عن ظاهرة التنقل والاستقرار . والأمثلة كثيرة ومتعددة على استخدام مصطلح « بدو » بهذا المفهوم . ويرجع الســبب فى اســتخدام المصطلح بهذا المفهوم الى أن البدو الذين يستقرون يظلون من ناحية محافظين على انتسابهم الى نفس الأصول السلالية عن طــريق ممارسة الــزواج الداخلى ، وبالتالى تدعيم الأصول القبلية ومن ناحية أخرى يظلوا يحافظوا على الثقافة البدوية الأساسية الخاصة بالجماعات المتجوله التى ينتسبون اليهـــا .

---

(1) Mitchell D., A Dictionary of Sociology, Routledge and kegan paul, 1968, p. 125.

واذا أردنا أن نفاضل بين الاستخدامين السابقين فاننا نميل الى استخدام المفهوم بالمعنى الأول ، وفى هذه الحالة يعنى مصطلح « البداوة » ذلك النمط من الحياة التى يرتبط بالترحال المؤقت أو الدائم ، ويعنى مصطلح « البدو » تلك الجماعات التى تعيش حياة التنقل . وفى هذه الحالة يعنى المصطلح نمطا للحياة بصرف النظر عن نوعية الجماعة أو خط الانتساب . ويرجع هذا التفضيل الى أن استخدام المفهوم ليدل على جماعات سلالية معينة يؤدى الى قصور فى تحديد خصائص الجماعة لأنه لا يلقى ضوءا على طابع حياتها ، كما أنه يؤدى الى الخلط بين الجماعات المستقرة وغيرها من الجماعات المتنقلة بالاضافة الى ذلك فانه لا توجد جماعة سلالية تسمى « البدو » لكى نطلق هذا المفهوم على من ينتسبون اليها .. ويعتقد المؤلف أن استخدام المصطلح بالمعنى الثانى يؤدى الى تعويق عملية تكامل هذه الجماعات مع المجتمع الأكبر بسبب أنه يحمل معنى التقسيم ..

غير اننا ندرك تماما أنه من الصعب الاتفاق على قصر استخدام المصطلح على المعنى الأول فقط ، ذلك أن جمهور المهتمين بحياة سكان الصحراء كبير فهو يضم دارسين من تخصصات مختلفة ومخططين واداريين وغيرهم ، ومعظم هؤلاء تعودوا على استخدام المصطلح بالمعنى الثانى ، ولعل لهم عذرهم فى ذلك نظرا — كما سبق وذكرنا — لاستمرار حفاظ الجماعات المستقرة على الأصول والثقافة الخاصة بالجماعات التقليدية التى كان يمارس معظمها التجوال . ولهذا فنحن نتوقع أن يظل الاستخدام الثانى سارى المفعول بين المهتمين بالقطاع الصحراوى من المجتمع ولو لفترة معينة يتم خلالها ادراك معنى وأهمية التفرقة بين نمط الحياة وبين تكوين الجماعة وأصولها ، ويتم خلالها أيضا تحقيق قدر أكبر من تكامل البدو مع المجتمعات التى استقروا فيها أو بجوارها ، وتحقيق درجة أعلى من تمثل الثقافة الحضرية للمجتمع الأكبر . والى أن يتم ذلك فسوف يظل معظم الكتاب يطلقون مفهوم بدو الصحراء على مختلف الجماعات التى تقطن الصحراء . ولهذا — وفى هذه المرحلة فقط — يمكن أن نجد حلا لهذه المشكلة وهى استخدام بعض الكلمات الاضافية للمصطلح « بدو » لكى

توضح نمط حياة الجماعة التى نتحدث عنها ، فيمكن مثلا أن يقال « البدو المستقرين بمدينة مرسى مطروح » أو « الجماعات البدوية التى استقرت على أطراف المناطق الزراعية فى محافظة الشرقية » .

ونود أن نشير الى أننا سوف نستخدم كلمة « بدو » فى هـذا الكتاب لنعنى المعنى الأول والثانى ، فعلى الرغم من عدم موافقتنا على اطـلاق كلمة بدو على القبائل التى استقرت ، الا أننا لن نستطيع احداث التغيير المنشود فى استخدام المفهوم الآن لأن التراث ملىء بالكتابات التى تطلق المفهوم على أى جماعة تعيش فى الصحراء متجولة كانت أم مستقـرة . ونأمل أن يأتى الوقت الذى يتم فيه الاتفاق على قصر المصطلح على معنى واحد (٢) . ونود أن نشير بعد ذلك الى بعض الملاحظات :

الملاحظـة الأولى :

أن من يفكرون أو يكتبون عن الصحراء فى المنطقة العربية يعتقدون أن كل الجماعات القاطنة المناطق الصحراوية هم البدو ، فيطلق مفهوم البدو على سكان الصحراء بصفة عامة . ولكن الصحراء — كما سيتضح من الدراسات المعروضة فى هذا الكتاب — يتكونون من البدو (بالمفهوم الأول أو الثانى) ومن غير البدو أيضا . فهناك مثلا جماعات مستقرة تنتمى الى أصول سلالية لا ترتبط بأولاد على من قريب أو من بعيد تقطن الصحراء الغربية فى مصر وهناك الكثير من أبناء وادى النيل يقطنون المدن الصحراوية والمناطق الساحلية دون أن يرجعوا الى أصول بدوية ، ودون أن يكونوا قد مارسوا الترحال أو مارست الجماعات التى ينتمون اليها التنقل بأى شـكل .

الملاحظـة الثانية :

يربط من يهتمون بالصحراء بين البدو وبين طابع الحياة القبلية أو

---

(٢) على الرغم من تفضيلنا لاستخدام المصطلح بالمفهوم الأول لكننا سوف نلتزم على طول هـذا الكتاب بالتعديل الأخير المقترح وذلك لكـى نستطيع أن نوضح للقارىء أصول الجماعات المسـتقرة التى نتناولها .

ارتكاز التنظيم الاجتماعى على البناء القبلى ، فيعتقدون أن البدو هم من يعيشون فى شكل قبائل والعكس صحيح . واذا رجعنا الى ما أوضحناه عن الاستخدامين الشائعين لمفهوم البدو نجد أن مفهوم البداوة لا يجب أن يرتبط بالضرورة بالتنظيم الاجتماعى القائم على أساس القبلية وأقسامها الأساسية . ذلك أن هناك جماعات تمارس التجـوال لا ترتبط بقبائل ، وأخرى تعيش فى الصحراء وترتبط بأصـول سـلالية لا تخضع للتنظيم القبلى . ولكن يجب أن ندرك أن هذا الربط بين البداوة والحياة القبلية يرجع الى واقع معين هو أن معظم بدو المنطقة العربية كانوا — وما زال كثير منهم — ينتظمون فى شكل قبائل . أما الآن فنظرا لانقسام هذه القبائل الى قطاعات مستقلة وفقدان القدرة على تذكر الأصول الأولى لبعضها ، وبسبب اندماج بعض الجماعات التى تنتمى الى قبائل مختلفة عن طريق التزاوج، وبسبب عوامل التغير والتحضر التى أدت الى اضعاف الاحساس بالانتماء للقبيلة ـ خاصة عند البدو الذين استقروا فى المدن ـ يفضل أن تميز بين البداوة وبين التنظيم القبلى وأن ندرك أن وجودهما معا لا يعنى ضرورة وحتمية الارتباط بينهما .

الملاحظة الثالثة :

أنه لوحظ استخدام لفظ « عرب » كبديل أو مرادف لكلمة « بدو » وان كان هذا الاستخدام لم يظهر كثيرا فى الكتابات العلمية المتخصصة . فهذه التسمية تنتشر بوجه خاص بين القرويين والريفيين فى المنطقة العربية عندما يتكلمون عن بدو الصحراء . كما أطلقت نفس التسمية « عرب » اداريا على المناطق الصحراوية التى استقر فيها البدو على أطراف المدن أو على الحدود المتاخمة للمناطق المزروعة فى وادى النيل . وعلى سبيل المثـال يطلق على القرى التى استقر فيها البدو على أطراف الشريـط الأخضر المزروع فى مركز الصف بمحافظة الجيزة بمصر « نجوع العـرب » ومن الواضح أن هذا الاستخدام خاطىء بسبب أن كلمة « عرب » تطلق على شعوب المنطقة العربية بأكملها ، وهى كلمة وتسمية ترتبط اساسا بمسألة القومية وليس بنمط حياة متنقل أو مستقر .

ظهور البداوة :

يرتبط ظهور البداوة بندرة الموارد الاقتصادية أو عدم استقرارها الأمر الذى يدعو الى التنقل من مكان الى آخر . وهذا التنقل عادة مـــا يكون منتظما ، ولكنه فى بعض الأحيان يكون متذبذبا من عام الى آخر . فالجماعة قد تنتقل فى عام ما الى احدى المناطق بينما قد تنتقل فى العام الآخر الى منطقة ثانية . وعادة ما يكون التنقل هادفا ، يهدف أساسا الى العيش والسعى وراء الرزق . وتتحكم فى طبيعة التنقل وكثافته ودائرة التجوال الظروف الطبيعية والامكانيات السائدة فى البيئة التى تعيش فيها الجماعة . كما يهـــدف التنقل أيضا الى ايجاد الظروف الأكثر ملاءمة التـــى تستطيع الجماعة المنتقلة التكيف معها . ولعل هذا يفسر الحركة الموسمية لبعض الجماعات المتنقلة الى مناطق محددة ، ثم عودتها مرة أخرى الـــى نفس المكان عند تغير الفصول .

وتتطلب البداوة منطقة متسعة المساحة لتغذية عدد قليل من الحيوانات والجماعات البشرية ، وهذا لا يوجد الا فى مناطق تعتبر هامشية بالنسبة لامكانية سكنى البشر فيهـــا ، بحيث أنها عادة ما تكون مناطق لا تسكنها جماعات مستقرة ولا تتميز بكثافة سكانية عالية .

أنمـــا البـــــداوة :

هناك أشكالا متعددة للجماعات البدوية فى الوطن العربى ، ويمكن تصنيف هذه الأشكال العديدة بحيث تندرج تحت ثلاثة انماط رئيسية هى البداوة الخالصة ، وأشباه البدو ثم البدو المستقرون . وهناك ملاحظة هامة يجب أن نلفت النظر اليها وهى أن هناك عـــلاقة قوية بين كل من البيئـــة الايكولوجية ، ونمط الارتحال ، والنشاط الاقتصادى . فالبيئة التى تعيش فيها الجماعة وما يتوفر بها من موارد ، وما تتسم به من مناخ متميز تشجع الجماعة على الاستقرار ، أو تشكل عامل طرد يدفع الجماعة الى الهجرة الدائمة أو المؤقتة وبالتالى يحدد نمط الترحال . كما أن موارد البيئة وظروفها الطبيعية هى تحدد طبيعة النشـــاط الاقتصادى الذى يمكن أن تمارســه الجماعة . واذا كنا لا نسلم بأن العـــوامل البيئية الطبيعية هى المحـــدد

الوحيد لنشاط الانسان ، وأن تأثير البيئة يتناسب عكسيا مع درجة تحضره ، فانه بالنسبة لهذه الجماعات التى لم تحظى بمستوى حضارى ووسائل تكنولوجية حديثة يظل تأثير البيئة على تحديد طبيعة النشاط الاقتصادى تأثيرا هائلا . ويجب أن ندرك أيضا أن هناك علاقة بين هذا الثلاثى (البيئة ، ونمط الارتحال ، والنشاط الاقتصادى) فى حالة تفاعله ، وبين شكل التنظيم الاجتماعى للجماعة ، وعلاقاتها مع جماعات أخرى وثقافتها . فالجماعات الرعوية التى تتوغل فى قلب الصحراء لا يمكن أن تتأثر بالجماعات المستقرة ولهذا تبقى ثقافتها بعيدة عن العوامل المؤدية الى التغير ، كما أن العزلة وعدم وجود فرص للارتباط بجماعات أخرى يؤدى الى تقوية الروابط القبلية وصلابة التنظيم الاجتماعى بعكس الحال بالنسبة للجماعات التى استقرت ولو جزء من العام ومارست الزراعة وعرفت الأسواق واحتكت بجماعات لا تنتمى الى أصول بدوية فهى عرضة لتغيرات كثيرة . أما الجماعات البدوية التى استقرت استقرارا دائما ، ووجدت بيئة ملائمة لممارسة أنشطة اقتصادية ترتبط بالاستقرار فقد شهدت تغيرات هائلة وهذا ما سيتضح من النماذج التى سنقدمها فى فصول قادمة .

١ ـ نمط التنقل أو الترحال الدائم :

ويضم هذا النمط جميع الجماعات التى تنتقل طول العام من مكان الى آخر فى ترحال مستمر ، ويرتبط النمط برعى الحيوان أكثر من ارتباطه بأى نشاط آخر . والنموذج الممثل لهذه القبائل البدوية الخالصة هو القبائل المتجولة التى ترعى الجمال فى الأردن . فهذه الجماعات تقود الجمال الى مناطق المراعى لكى توفر لها الغذاء ، وتمد الجمال أفراد القبائل أيضا بكثير من احتياجاتهم فيتطلب مثل هذا النوع من التكيف للبيئة الايكولوجية فنا متنوعا متغيرا يتناسب مع عمليات التنقل . ويتطلب أيضا أن تتوفر لدى الأفراد معلومات خاصة عن أشياء كثيرة تتعلق بحياتهم فى كل منطقة يذهبون اليها ، وأن يكون لديهم بناء مرن يتلاءم مع حاجاتهم ، بحيث أن التواجد فى كل بيئة من البيئات يستلزم نوعا من التكيف ربما تتغير فيه الأدوار وغيرها من الجوانب المكونة للبناء .

والقبائل التى ترعى الجمال أكثر عددا وأقوى من تلك التى ترعى الماشية والماعز ، وذلك بسبب قدرتها على الانتقال السريع وعدم احتياج الحيوان للماء بكثرة مقارنة بالأغنام . لهذا تقطع هذه القبائل مسافات كبيرة وتدخل أيضا فى أعماق بعيدة فى الصحراء . وتنحصر دائرة التجوال من أجل الرعى بين مناطق الاقامة الصيفية التقليدية وهى مناطق قريبة من الحدود الزراعية حيث تتوفر مصادر المياه ، وبين مناطق الاقامة التقليدية الشتوية التى تقع على مسافات مترامية داخل الصحراء ، وهى تصبح صالحة للرعى بعد فترة سقوط الأمطار .

وتميل هذه القبائل أن تقيم فى المناطق التى تذهب اليها فى شكل تجمعات كبيرة نسبيا فى فترة الصيف . ثم تتبعثر وتتفرق الى جماعات أصغر لكى تحسن الافادة من مصادر المياه التى تتوفر فى فترة الشتاء فى مناطق متباعدة . فتعيش كل قبيلة فى اقليم معين تستغل مصادره . وعلى الرغم من أن لكل قبيلة حقها المعروف فى استغلال منطقة معينة ، الا أنه بسبب تقابل بعض القبائل أثناء تجوالها وهى فى طريقها من مكان الى آخر فأحيانا يحدث الصراع بينها . وبصفة عامة فان مسافة الرحلة الواحدة تتراوح بين ١٠٠ ، ١٢٠ ميلا من مكان الاقامة (٣) .

وأود أن أناقش فكرة تتعلق بهذا النمط الذى يطلقون عليه البداوة الخالصة وهى أنه لا توجد بداوة خالصة فيما يتعلق بعملية التنقل والاستقرار . بمعنى انه لا توجد جماعات بدوية تمارس الترحال دون توقف ودون استقرار ولو لفترات قصيرة فى مناطق معينة ، وذلك بسبب حقيقتين :

الأولى : أن الجماعة المتجولة لابد أن تستقر ولو لفترة وجيزة فى مكان معين لامكان الافادة من مصادر البيئة التى توجد بها .

الثانية : أن التجوال داخل دائرة معينة يعنى الاستقرار فى منطقة

---

(٣) Nyrop, Richard F., Area Handbook For Jourdan., The American University, Washington., pp. 78-79.

تنحصر فيها الأماكن التى تكون هذه الدائرة بمعنى أن الجماعة البدوية تلتزم بمناطق محددة ، تتجول داخلها . ولهذا تصبح هذه المناطق هى مناطق استقرارها حتى ولو كانت متجولة داخلها

فى ضوء هذا المفهوم يصبح تصور أن البداوة الخالصة تعنى أن الجماعة تجوب الأرض كلها تجوالا يعتبر تصورا بعيدا عن الحقيقة . وفى ضوء هذا المفهوم أيضا يصبح موضوع التجوال والاستقرار موضوعا نسبيا ، فبعض الجماعات البدوية أكثر ترحالا ، وبعضها أكثر استقرارا ، وبعضها الآخر مستقرا تماما ..

ويعتبر ادراك هذه الحقيقة أمرا هاما بالنسبة لكل باحث . خاصة من يهتم بتصنيف الجماعات البدوية اذ أن التصنيف يمكن أن يتم على أساس غير واقعى اذا لم يدرك الباحث النقطتين السابقتين . بجانب أنه سوف يتجاهل دراسة ظواهر تتعلق بعملية الاستقرار ولو لفترات قصيرة .

وفى ضؤ ذلك تصبح جميع النماذج التى ندرسها هى على قدر من الاستقرار أو التنقل (هذا بالاضافة الى النماذج المستقرة تماما) . وبذلك يتضمن حتى هذا النموذج الذى قدمناه عن البداوة الخالصة قدرا ولو ضئيلا من الاستقرار . وعلى ذلك تصلح هنا استخدام فكرة المتصل الذى تتوزع عليه القبائل الصحراوية بحيث تقع فى أقصى أحد أطرافه القبائل المتجولة طول العام ، وفى أقصى الطرف الآخر القبائل المستقرة تماما .

ويفضل أن نتناول هنا نموذجا من الجماعات البدوية التى تمارس الترحال الدائم ويظهر من خلاله عملية الاستقرار المؤقتة على الرغم من أن الجماعة ترتحل ارتحالا دائما طول العام . فتمارس قبائل البقارة فى السودان التجوال خلال دورة موسمية فى عدة أنواع من الأراضى . وهم يمارسون التجوال بهدف اشباع بعض الحاجات مثل الوصول الى مصادر المياه ومناطق الحشائش ، والبعد عن المناطق التى توجد بها الحشرات ، تلك المناطق التى تجف فيها الأراضى تحت أقدامهم . فمعظمهم ينتقل من المناطق الرملية

الواقعة فى شمال حزام البقارة حيث يقضون الفترة المطيرة الى منطقة الآبار حيث يقومون بالزراعة ، الى شواطىء الأنهار أو المستنقعات حيث يقضون موسم الحر . وربما لا يدرك البعض أن كل اقليم من هذه الأقاليم الرئيسية تضم تربة ونباتات من نوع مختلف ، وأنهم أمكنهم استغلال هذه الاختلافات الاقليمية بطرق منظمة .

وتتكون المنطقة التى تستغلها هذه القبائل من أربعة أقاليم هى :

أ — ببانوسا فى الشمال (أمطار) .

ب — موجلاد (الزراعة والحصاد) .

جـ — جـوز (وهو اقليم يستخدم أساسا فى الانتقال من « ب » الى « د » ثم العودة) .

د — بحـر (وهو اقليم الجماعة من آخر فصل الحصاد الى أول وقت المطـر) .

ويمكن أن يضم لهذه الأقاليم اقليما آخر جافا يستخدم كبديل ويقع جنوب وجنوب شرق اقليم بحر وتعتبره قبيلة الحمر جزءا من بحر .

وترتبط هذه الأقاليم الأربعة بأربعة هجرات تحدث على مدار العام الى كل واحد منها . فتحدث الهجرة الأولى فى شهر يوليو من اقليم موجلاد الى ببانوسا ، وتتم الهجرة الثانية فى شهر ديسمبر من اقليم ببانوسا الى موجلاد ، أما الثالثة فتحدث فى ديسمبر أيضا من اقليم موجلاد الى بحر مرورا بجوز ، والرابعة تحدث فى شهر مايو ويونيو من بحر الى موجلاد مرورا بجوز . وتستغرق عملية الهجرة فى حالة الهجرة الأولى والثانية عددا قليلا من الأيام ، أما الهجرة الثالثة فتستغرق حوالى أسبوعين بينما تستغرق الهجرة الرابعة ما يقرب من شهر . وتتم كل هجرة من الهجرتين السابقتين على عشرة مراحل أو أكثر وليس بلازم أن تتم فى أيام متلاحقة .

ومتى هاجرت الجماعة الى مكان من الأماكن السابقة فانها لا تمكث فى موقع واحد طول الفترة الموسمية التى تقضيها فى المنطقة . وتصل عدد

التحركات من مكان الى آخر الى خمسة وعشرين أو ثلاثين مرة سنويا ، ويعتبر السبب الرئيسى للتحرك داخل كل اقليم هو انتهاء الحشائش والمياه من الموقع الذى يقيمون فيه وان كانت هناك تفاصيل أخرى تتعلق بأسباب الانتقال الى الأجزاء المختلفة داخل كل اقليم وفترة البقاء فى كل موقع داخل الاقـــليم .

وعلى ذلك لا يجب أن ننظر الى تنقلات الحمر الفرعية داخل كل اقليم على أنها مجرد استجابة بسيطة للرغبة الملحة فى التجوال . فعلى الرغم من أن الحمر يحبون التنقل ويحبون الموقع الجديد والنظيف الخالى من الحشرات ولكنهم يضطرون الى التنقل بسبب أن انتهاء الحشائش والمياه من مكـان يقيمون فيه يعنى أنهم لن يجدوها الا على بعد مسافة طويلة . فالتنقل هنا يتم كاستجابة للظروف الطبيعية خلال الموسم . وتعتمد بدوية الحمر الرعاة اعتمادا أساسيا على تفاوت نوعيات التربة والانبات داخل الاقليم الواحد مثلما تعتمد على التفاوت الواسع فى التربة والانبات فى المنطقة الواسعـة بصفة عامة (٤) .

نمط التنقل والترحال الموسمى :

ويعنى هذا النمط أن الجماعة تمارس الترحال جزءا من شهور السنة فقط . وفى هذه الحالة عادة ما يكون للجماعة مكان استقرار أساسى تعيش فيه وتتركه فى مواسم معينة ثم تعود اليه مرة اخرى لتقضى فيه بقية العام . وقد يحدث الترحال مرة واحدة فى العام . وقد يحدث أكثر من مـرة وفى الغالب تمارس الجماعات التى تنتقل موسميا الزراعة والرعى معا . بحيث أنها تستقر فى المناطق التى يمكن زراعتها فى مواسم الزراعة حيث تتوفر المياه ثم عندما ينتهى المـوسم تهتم برعى قطعانها فى مناطق تتـوفر فيها

---

(٤) Abd El Ghaffar, Some aspects of Pastoral nomadism in Sudan, The Sudan National Population Committee and the Economic and Social research Council, Khartoum, 1976, pp. 17-23.

المراعى . بالنسبة لجماعات أخرى فان جزءا من الجماعة البدوية يرتبط بالعمل فى الأرض بينما يرتحل الجزء الآخر بأغنام وابل الجماعة لكى يرعى فى المراعى ثم يعود الى المستقر الأساسى ، وهو المكان الذى تمارس فيه الزراعة . وفى هذه الحالة يكون هناك تقسيم للعمل بين أبناء الجماعة الواحدة ، وتصبح الجماعة تمارس الزراعة والرعى معا . ومن الواضح أن هذه الجماعات أكثر استقرار من غيرها (٥) . وقد تضمن الجزء الذى ورد فى هذا الكتاب عن اقتصاد البدو مثلا لهذه الجماعات . وهناك جماعات بدوية تأثر نمط استقرارها وتنقلها بأعمال أخرى ارتبطت بها مثل بدو جنوب سيناء الذين سنتحدث عنهم فى هذا الفصل .

ولا شك أن هناك عوامل متعددة تتحكم فى عملية التنقل الموسمى . وقد أوضح لنا الدكتور رضا فاضل نوعية العوامل التى تتحكم فى التنقل الموسمى لقبيلة بوير أحمد فى ايران فهى تقيم فى مكان اقامة شتوى ثم تتركه بعد ذلك الى الجبال العالية . واذا كانت هناك عوامل مماثلة وعوامل مختلفة يمكن أن تتحكم فى تنقل واستقرار جماعات أخرى ، الا أن التعرف عليها يطلعنا على نوعية من العوامل الطبيعية والثقافية التى تؤثر فى الترحال . وهذه العوامل هى :

(أ) كمية الكلأ وكمية الماء المتوفر فى المناطق المتاخمة ، وكمية الموارد التى يمكن ادخارها للخريف عند عودتهم الى الموقع مرة أخرى . عادة قبل هطول الأمطار .

(ب) الحالة الفيزيقية للقطعان ، ذلك أنه اذا لم تكن الحيوانات قوية وعفية ، وكانت رديئة أو عليلة من الناحية الصحية فهى لن تقدر على تحمل مشقة الهجرة .

(جـ) تواجد ثلاث أسر (ثلاث خيم) على الأقل لضمان حماية المواشى من السرقة .

---

(٥) صلاح مصطفى الفوال ، تنمية المجتمعات الصحراوية ، أسس نظرية ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٨ ، صص ٨٨ ، ٨٩ .

(د) حد أدنى من الأيدى العاملة لرعاية كل قطيع .

(هـ) توفر موارد استهلاكية كافية ينبغى شراؤها قبل الرحيل .

(ز) رحيل ميمون يحدده رجل دين متجول (٦) .

١ — بدو جنوب سيناء :

والمثال الذى يمكن أن يوضح لنا التنقل الموسمى ، وفى نفس الوقت يوضح لنا الاستقرار الموسمى هو بدو جنوب سيناء . ففى منطقة جنوب سيناء الجبلية التى تمتد من شبه جزيرة سيناء حتى هضبة التيه يعيش ستة آلاف بدوى . والمنطقة تبلغ مساحتها ١٧ الف كيلو متر مربع منطقة مكشوفة ووعرة فى معظم أجزائها الداخلية ، وتتناثر بها بعض الهضاب العالية والجبال وهى متصلة بجبل سيناء الكبير فى الوسط ، وتبلغ قمة أعلى جبل فيها (جبل كاترينة ٢٦٤٢ مترا) . وتوجد بها بعض الطرق السفلية بطول الساحل . ويعيش البدو الذين يسكنون هذه المنطقة فى أماكن متعددة ، وعلى الرغم من أن كل جماعة بدوية تعتبر أحد الأماكن كمكان أصلى أو مستقر أساسى لها ، فان أماكن الاستيطان الدائمة قليلة . وقد سمحت المياه الجوفية الغزيرة التى توفرت فى وادى فيران للبدو أن يستقروا فى مكان واحد عديد من الشهور وأن يزرعوا الفاكهة والخضروات . للبدو فى المناطق المتاخمة للدير ، وقد ارتبط ذلك بتوفير فرص العمل وحفر آبار جديدة الأمر الذى ساعد على عملية الاستقرار (٧) .

وتعيش فى منطقة جنوب سيناء عدة قبائل هى مزينة وعددها ١٫٧٠٠ بدوى وتقطن شرق وجنوب شبه الجزيرة . وقبيلة الجبالية

---

(٦) د. رضا فاضل ، الوضع الاجتماعى والسياسى للمرأة عند البدو الرعاة (بدو بوير أحمد) فى جنوب غربى ايران . مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد الرابع عشر ، السنة الرابعة ، نيسان (ابريل) سنة ١٩٧٨ ، ص ١١٦ .

(٧) Marx, Emanuel., Unpublished Article About Beduins of South Sinai., pp. 4-6.

وعددها ١١٠٠ بدوى وتسكن الجبال العالية . وقبيلة العليقات وعددها ١٠٥٠ بدوى ومكانها الساحل الغربى . وقبيلة القرارشة وتتكون من ٩٠٠ بدوى وتشغل المنطقة من فيران الى الساحل الغربى . ثم قبيلة أولاد سعيد وتبلغ أعدادهم ٤٥٠ بدوى ويعيشون فى الجبال . وقبيلة الحويطات التى تبلغ ٣٩٠ فردا وتعيش فى المناطق الدنيا من فيران . وقبيلة حمادة ، وتتكون من ٢٥٠ بدوى يعيشون فى الشمال الغربى ، وقبيلة الصوالحة وتتكون من ١٦٠ بدوى يعيشون أيضا فى الشمال الغربى . ثم بنى واصل وتتكون قبيلتهم من ١٠٠ فرد ويعيشون فى الطور .

وكما أن كل قبيلة من هذه القبائل تختلف عن غيرها من حيث الحجم فانها تختلف أيضا من حيث الموارد الاقليمية والأنشطة الاقتصادية التى تمارسها . ويقدم لنا عمانوئيل ماركس ثلاثة قبائل منها للتعرف على أنشطتها وكيفية ارتباطها بالمكان . وتعتبر قبيلة مزينة أكبر القبائل وهى تشـــغل أكبر اقليم ويعرف أفراد هذه القبيلة بأنهم يعملون رعاة للجمال والأغنام ، ولكن عمل البعض منهم مؤخرا بحارة والبعض الآخر عمل فى الصيد . ولكن الآن قليل من البدو هم الذين يملكون أغنام بأعداد كبيرة تكفى للاعاشة . وبينما يرتبط تجوال البدو بحاجة القطيع لكن هناك اعتبارا آخر يهتم به البدو وهو أهمية عودة النساء اللواتى يقمن برعى القطيع الى مكان الاقامة مساءا . فطالما أن الفتيات والنساء لابد أن يعدن الى البيت فى المساء لانجاز المهام المنزلية فهم لا يرعون فى أماكن بعيدة ، كما أن أماكن اقامة القبيلة لابد أن تكون قريبة من مصادر المياه اذ غالبا ما تقع على بعد من ٢ — ٣ كيلو متر . ولابد أن تكون قريبة من الأخشاب التى يحتاجونها كوقود الأمر الذى يربطهم بالاستقرار فى مناطق محددة ولا يتيح فرص مناسبة لرعـــى الحيـــوان .

ويعيش أفراد قبيلة أولاد سعيد فوق الجبال غرب دير سانت كاترين فقبيلتهم تمتد بطول طرق المخورين الشرقى والغربى وتتحكم فى أفضل المراعى

الموجودة فى المنطقـــة ولم تترك الا منطقة صغيرة فى أعلـــى الجبال لقبيلة الجبالية . ويعتمد أولاد سعيد بصفة أساسية فى معيشتهم على القطعان التى يرعونها ، ويملك عدد كبير منهم حدائق وبساتين صغيرة على الجبال .

أما قبيلة الجبالية التى تسكن أعلى الجبال فتمتلك عدد قطعان أصغر من القبيلتين الأولى والثانية فهم متخصصون فى عملية فلاحة البساتين . ويحدد ذلك تحركهم واستقرارهم . وهم بالتحديد ينتقلون بين موقعين فقط : فهم يستقرون فى معظم السنة وخاصة فى فترة الشهور الباردة فى المناطق المنخفضة على ارتفاع حوالى ١٦٠٠ متر ، أما فى شهور الصيف فهم ينتقلون الى الجبال للاستمتاع بالهواء وجنى الفاكهة من البساتين (٨) .

ويلاحظ أن هذا الشكل للجماعات البدوية فى جنوب سيناء شكل يميل لأن يقع فى طرف المتصل نحو اكثر استقرار بالرغم من أن الاعتماد الأساسى للقبيلة الأولى على القطعان ، بمعنى أن المهنة الأساسية هى الرعى ـــ الأمر الذى يستلزم التجوال ذلك أنه بسبب قيام النساء بالرعى فان دائـــرة التجوال تبقى محدودة ، بجانب أن الارتباط بالحدائق يجعل الجماعة اكثر ارتباطا بمنطقة دون غيرها وان كان افرادها يمارسون تجوالا محدودا داخل المنطقـــــة .

أما القبيلة الثانية فعلى الرغم ايضا من ارتباط أفرادها بالزراعة الا أن لهم حركة تنقل داخل الاقليم بسبب اعتمادهم الأساسى على الرعى . وهم فى نفس الوقت يميلون الى الاستقرار الموسمى بسبب فلاحة البساتين . ويلاحظ أن دائرة تجوالهم كانت فى الماضى أوسع من دائرة تجوالهم الحالية اذ كانت جمالهم تحمل الحجاج الى مصر ، وكانت تنقل المؤن لرهبان الدير من الطور الى دير سانت كاترين .

ويجب أن ندرك أن فترات التجوال وفترات الاستقرار تتغير بتغير الزمن

---

(٨) عمانوئيل ماركس ، المرجع السابق ، صص ١٠ ـــ ١٣ .

وبتغير الظروف التى تمر بها هذه الجماعات ، والاتجاه العام هو دائما نحو مزيد من الاستقرار ويدل على ذلك أن هذه الجماعات شبه المستقرة فى جنوب سيناء كانت فى الماضى مجرد جماعة بدوية صغيرة تمارس الرعى والتجوال فى الاقليم ، وأحيانا فى كل بقية شبه الجزيرة (٩) وسواء كان البدو شبه المستقرين الآن هم نسل هؤلاء البدو الرحل أو سواء انضمت اليهم جماعات أخرى الا أن النمط الحالى يختلف عن نمط التجوال المستمر الذى كان سائدا فى الماضى .

٢ ـ قبائل الاستقرار الموسمى فى الواحات بالسعودية :

والمثال الثانى الذى يوضح لنا نوعية أخرى من الاستقرار الموسمى قبيلة « بنى مر » بالمملكة العربية السعودية . فالقبيلة تحاول استغلال أربعه واحات تتميز بوجود النخيل ويعرف الاقليم باسم « دايرة المرة » وهو يتكون من مجموعة من المناطق الجغرافية المتميزة ، ويشغله أفراد القبيلة وحدهم على الرغم من أن غيرهم من البدو الرعاة الذين يعيشون خارج المنطقة يكون لهم الحق فى أن يشربوا من آبار منطقة المرة فى أوقات محددة فقط . وعادة ما يترك أبناء القبيلة أنفسهم هذه المنطقة فى الشتاء والربيع الى مناطق الكلأ خارج حدود الاقليم فوجود الآبار داخل منطقتهم يجعلهم يستقرون فيها فى فصول الصيف . ولكن تتفتت القبيلة فى بقية العام الى تجمعات صغيرة يضم كل منها عدد من الأسر الرعوية التى تهاجر وتنتقل بهدف ايجاد مراع أفضل . وعلى الرغم من أن هذه الجماعات تقطع مسافات تقترب من الألف كيلو متر لكى تصل الى أفضل المراعى الشتوية الا أنهم لا يتجولون فى شكل جماعات كبيرة ، ولا يحتاجون الى قيادة من أى نوع ولا يحتاجون الى وساطة جماعات أخرى . لكنهم قد يشتركوا مع قبائل اخرى فى الرعى فى المنطقة التى يذهبون اليها طالما أن الكلأ يكفى كل الجماعات الوافدة الى المنطقة .

ويدفع القبيلة الى الاستقرار فى فصل الصيف الظروف الطبيعية

---

(٩) عمانوئيل ماركس ، المرجع السابق ، ص ٦ .

والايكولوجية المحيطة فيعتبر فصل الصيف من أصعب فصول السنة بالنسبة للقبيلة وبالنسبة للقبائل الأخرى فى السعودية بصفة عامة فيما يتعلق بالمراعى . ففى هذا الفصل يحدث ما يشبه الشح فى الكلأ والشجيرات ويصبح هناك تكالب على الرعى فى المناطق القريبة من الآبار ، ذلك أن القطعان لابد أن توجد بجوار مجارى المياه لتروى ظمأها المستمر بسبب ارتفاع الحرارة ولذلك فان وجود الزراعة ، وبصفة أساسية فى شكل النخيل يعتبر شيئا مرغوبا بالاضافة الى الآبار واذا كانت أشجار النخيل توفر لهم حماية من لهب الشمس فهى تمدهم أيضا بالبلح الذى يتغذون عليه فى وقت الرخاء وتتغذى عليه جمالهم فى أوقات الجدب والقحط . وهناك أيضا البرسيم الذى يعتبر غذاء مفيدا لتغذية الأغنام والماعز بصفة خاصة .

وتمتلك « المرة » أربعة واحات لا تقدم لها ولقطعانها مصادر المعيشة طول العام لهذا تهجرها فى فترة موسمية . ويتضح لنا أثر البيئة ومصادرها الطبيعية على الاستقرار عندما نقارن بين الاستقرار الموسمى لهذه القبيلة وبين الاستقرار الدائم لقبائل أخرى تشغل مناطق للرعى أكثر خصبا ، وتعيش بجوار مصادر مياه أوفر (١٠) .

نمط الاستقرار :

سوف نعتبر أن الجماعات التى تنتمى الى اصول بدوية ولكنها استقرت استقرارا كاملا — أيا كانت أسباب هذا الاستقرار — تمثل النمط الثالث « نمط الاستقرار » لكى يتسق هذا مع ما سبق أن حددناه ، طالما أن هؤلاء البدو ما زالوا على صلة بأصولهم ونمط ثقافتهم الأساسية . وهذا النمط تمثله جماعات عديدة استقرت فى صحراوتنا العربية وفى المناطق العمرانية سواء فى الريف أو المدن . وقد ساهمت فى وجود هذا النمط عوامل اجتماعية

(١٠) Donald Cole, The Enmeshment of Nomads in Sa'udi Arabian Society. In The Desert and the Sown., Edited by Cynthia Nelson. University of California, Berkeley, 1973. pp. 114-116.

وثقافية وسياسية بالاضافة الى عوامل تتصل بتحضر المجتمع الأكبر الذى يعيشون بداخله . وسوف نقدم هنا ثلاثة نماذج لهذا النوع من الاستقرار .

والنماذج الثلاثة التى اخترناها لكى توضح لنا أشكال الاستقرار البدوى فى المنطقة العربية تميزت بأن كل منها يقدم لنا شكلا من أشكال الاستقرار يختلف عن الشكل الآخر من حيث طبيعة الاستقرار وعوامله ونتائجه ، لعل ذلك يسهم فى تعميق فكرة التنوع الشديد فى أنماط وأشكال الاستقرار وتعدد العوامل الفاعلة فيه ، فالدارس للجماعات المستقرة يمكنه أن يجد نوعيات وأشكال متعددة تختلف باختلاف ظروف كل مجتمع وكل جماعة . والنموذج الأول يوضح لنا شكلا من أشكال استيطان البدو فى الريف والمدن بعد تركهم الصحراء ، ويقدم لنا النموذج الثانى بدوا يكونون قرى وواحات بفعل عوامل دينية وحضارية ، أما النموذج الثالث فهو نموذج للاستيطان فى مواقع صحراوية بعيدة تماما عن مناطق التحضر فى المجتمع .

٢ ــ استقرار البدو فى مصر فى القرن التاسع عشر :

استقرت فى مصر جماعات بدوية عديدة فى القرن التاسع عشر ، وذلك بفعل عوامل تتعلق بالبدو وأنفسهم مثل تعلمهم الزراعة ومحاولتهم امتلاك الأراضى الزراعية ثم بفعل عمل الحكومة التى كانت تهدف الى توطين البدو وكسر شوكتهم . فقد نقل محمد على بعض بدو الصحراء الغربية من الهناديين الى مديرية الشرقية حيث استقروا بها . كذلك استقرت قبائل اخرى فى الفيوم وبنى سويف والمنيا . وقد تمكن بعض البدو الذين استقروا فى محافظات مصر من تكوين قرى جديدة ، على سبيل المثال فان كثيرا من كبار مشايخ عائلة « العائد » قد شيدوا قرى جديدة واستقروا بها مع اسرهم وتوابعهم ، فقد شيد الشيخ ابراهيم العائدى كفر ابراهيم ، وشيد اثنين من الأباظية قرى أخرى ، وشيد عياد كريم المهناوى قرية حملت اسمه على بعد حوالى ١٢ كيلو متر شمال بلبيس . وقد أدى هذا الى أن يصبح كثير من مشايخ القبائل البدوية من كبار ملاك الأراضى والعزب وذاب أبناء القبائل فى وسط الفلاحين .

وقد تم حصول البدو على هذه الأراضى واستيطانهم بها بطرق متعددة منها :

١ ــ كانت هناك أراضى تسمى « أطيان العرب » تفرض عليها نصف الضريبة فقط ومن غير المعروف متى أعطيت هذه الأراضى للبدو .

٢ ــ كان نظام العهدة الذى عمل به بمقتضى قرار صدر من محمد على سنة ١٨٤٠ يتضمن تكليف الأعيان وضباط الجيش ومشايخ البدو وغيرهم بجمع الضرائب ودفع المتأخرات والتعهد بتسديد الضرائب المستقلة . وفى مقابل ذلك كانوا يحصــــلون على منطقة شاســـعة من الأراضى معفاة من الضرائب يزرعها الفلاحون التابعون لنظام العهد . وادى ذلك الى حصول البدو على كثير من هذه الأراضى .

٣ ــ حصل البدو ، وخاصة بدو الصحراء الغربية عـــلى كمية من الأراضى تسمى الأباعد (المفرد أبعادية) وكانت هذه الأراضى غير مزروعة ، وحصل عليها البدو بالتدريج وقد استقرت القبائل على مثل هذه الأراضى .

٤ ــ اشترى البدو بعض الأراضى من ملاك آخرين ومن الفلاحين ، واستولى بعضهم على أراض أخرى .

وهناك عوامل متعددة ادت الى استيطان البدو فى المحافظات المصرية كان أولها الأهداف التى وضعها محمد على لادماج القبائل البدوية مـــع الفلاحين ، وضمان استقرارهم والسيطرة عليهم . وقد اتبع فى ذلك طرقا متعددة فقد حاول على سبيل المثال كسر ترابطهم عن طريق تعيين مشايخهم فى وظائف حكومية فعين مشايخ البدو فى وظيفة « ناظر قسم » أو مأمـــور وكان من شأن ذلك أحداث جفوة بين مشايخ البدو وقبائلهم خاصة وأن مشايخ البدو عمدوا الى الانتقال الى المدن والاستقرار بها . أما العامل الثانى الذى أدى الى هذا النوع من الاستيطان هو أن اتجاها عاما ساد فى هذه الفترة لدى جميع الفئات السكانية يؤيد الاستيطان . وكان العامل الثالث هو تعلم أبناء القبائل للزراعة . فقد بدأت قبائل الصحراء الغربية

العديدة التى كانت تشتغل بتربية الجمال والتى كانت مع نهاية القرن لا زالت تنتقل بشكل منتظم بين وادى النيل والواحات ، بدأت فى نفس الوقت تكتسب مهارات زراعية وتستأجر الأراضى من الفلاحين لزراعتها . وقد ارتبط ذلك بتطور وتقدم الزراعة فى مصر . فقد اتسعت الرقعة الزراعية وتغير نظام الرى وحلت المحاصيل النقدية محل الغلال والحبوب ، وقد أحدث هذا تأثيرا مزدوجا على البدو فمن ناحية جعلهم يرون أن اسلوب حياتهم لم يعد هو الأسلوب الذى يمكن من المعيشة الكريمة ، ومن ناحية أخرى شجعهم على الاتجاه نحو الزراعة وملكية الأراضى . وثمة عامل آخر أثر فى استيطان البدو أيضا هو تطور وسائل النقل فى مصر وخاصة السكك الحديدية .

وعلى الرغم من أن هذا الشكل من الاستيطان كان الهدف منه هو استقرار القبائل على مساحات من الأراضى المزروعة وادماجهم مع المزارعين الا أن ذلك قد أدى أيضا الى تفكك البناء القبلى ، فقد انفصل مشايخ البدو عن قبائلهم خاصة بعد استقرارهم فى مدن بالاقاليم بعد ارتقاء أوضاعهم الاجتماعية ، فمع بداية القرن العشرين أصبح الكثير من المشايخ يسكنون المدن وانفصلوا عن أسلوب حياة القبيلة مما زاد من التفكك القبلى (١١) .

٣ ــ استقرار البدو فى السعودية :

والنموذج الذى يمكن أن يعطى لنا صورة عن تعدد العوامل التى يمكن أن تؤدى الى استقرار البدو فى بلد عربى واحد هو دراسة دونالدكول لبدو السعودية ، فيوضح لنا هذا المثال أثر العوامل الطبيعية فى الاستقرار ،

---

(١١) بيير ج : دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة ، ترجمة وتقديم دكتور / عبد الخالق لاشين وعبد الحميد فهمى الجمال ، مكتبة الحرية الحديثة ، جامعة عين شمس ، الطبعة الأولى ، سبتمبر سنة ١٩٧٦ . صفحات : ١٧ ــ ٢٦ ، ٣٧ . أنظر أيضا مزيد من التفصيلات عن أسماء القبائل التى استقرت وأماكن استقرارها فى بقية الفصل المعنون « استيطان البدو » .

كما يوضح لنا أثر العامل الدينى وأيضا أثر العوامل الاجتماعية مثــل المشروعات الحكومية وخاصة مشروعات التنمية .

وقد أدى انتعاش الحركة الدينية فى بدايات هذا القرن الى نوع من التوطن والاستقرار . ففى محاولة تحقيق الترابط والتوحد كأخوان مسلمين استطاعت أغلب القبائل الســعودية الرئيسية أن تؤسس مستوطنات يستطيعوا أن يعيشوا فيها وأن يلبوا سريعا أى نداء للمشاركة فى الجهاد وفيها يستطيعون آداء فرائض دينهم بطريقة أفضل وأكمل كمسلمين حقيقيين . ووضعوا أنفسهم تحت قيادة بعض المشايخ مثل فيصل بن دويش الذى أسس مجتمعا محليا قويا فى الاقليم الخاص بهذه القبيلة فى شمال شرق المملكة العربية السعودية وقد تتبعه أيضا أفرادا من الصفوة المستقرين مثــل عبد العزيز بن سعود الذى وصل الى السلطة بفضل التوافق الذى حدث بينه وبين حركة الاخوان المسلمين .

يمكننا أن نرى من ذلك أن الحماس الدينى كان دافعا يكمن وراء هذا النوع من الاستيطان . وذلك منذ أن بدأوا يفكرون أن حياة البداوة تجعل من الصعب على الشخص — ان لم يكن من المستحيل — أن يصبح مسلما حقيقيا . وبالتالى فان الاستقرار فى هذه الحالة لم يكن استجابة للقوى أو الدوافع الاقتصادية ، ولكنه كان بهدف التعمق فى الدين واتباع الشعائر الاسلامية بحرص ودقة لكى يستطيعوا تكوين جيش مستعد . ويقول كول أن بعض البدو قد هجروا بعض هذه المستوطنات وعادوا مرة أخرى الى حياة البداوة ليس بسبب نقص الحماس الدينى ولكن لأنهم لم يمكنهم فلاحة الأرض لهذا كان عليهم أن يرجعوا الى البداوة لكى يستطيعوا أن يعيشوا .

وفى الوقت الحالى هنــاك عوامل أخــرى فاعلة فى اســتيطان البــدو فى بعض المناطق فقد ادت الفوائد التى ارتبطت بعائد البتــرول الى أن تدب الحياة مرة أخرى فى أماكن الاستيطان . وقد أمكن خروج المياه التى تقع على أبعاد عميقة عن طريق حفر الآبار الحديثة . وتعتبر مشروعات

الحكومة فى معظم الأحيان هى صاحبة الفضل فى هذه التنمية الحديثة خاصة تلك التغيرات التى حدثت فى الجوانب المادية . وقد ساهم كثير من ابناء القبائل فى تنمية هذه الواحات ايضا اذ كانوا يرسلون كل الفوائد التى كانوا يكسبونها من عملهم فى مناطق التنمية الحضرية فى السعودية أو فى معسكرات البترول أو من عملهم فى خدمة الحرس الوطنى فى الدولة الى الواحات . وقد كانت التنمية الحديثة ملائمة تماما للاقتصاد الرعوى الذى تخصص فى الماعز والأغنام التى كانت تنتج أساسا للوفاء بحاجة السوق فى الحضر بدلا من التخصص فى رعى الجمال والأغنام من أجل الوفاء باحتياجات الجماعة القبلية . وفى ضوء ذلك أصبحت لمناطق الاستيطان البترولية أهمية خاصة (١٢) .

٣ ــ استقرار البدو فى سيدى برانى :

تعتبر منطقة سيدى برانى منطقة استقرار لكثير من العائلات البدوية التى استقرت فيها استقرارا دائما . ويوضـــح تتبع تاريخ الاستيطان فى المنطقة نمو التجمع السكانى الذى جعل من سيدى برانى ــ المنطقة الساحلية التى تقع فى الصـــحراء الغربية بمصر ــ منطقة اســـتيطان بدوى دائم ، واتخاذها شكل المدينة ولو فى صورة صحراوية مبسطة .

ويقول اخبارى أن الاستيطان فى المنطقة بدأ باستيطان الشيخ برانى احد أبناء ليبيا الذى أعجبته الاقامة فى هذا المكان بعد عودته من الحج فبنى له كوخا وعاش فيه . وقد اظهر هذا الشيخ من الصفات الحميدة ما جعل الناس يتعلقون به . وقد كان يقدم الماء والطعام والراحة لكل مسافر فى الصحراء . ولهذا عندما توفى أطلق عليه الناس اسم سيدى برانى .

ولدينا تقرير قصير يوضح لنا كيف كانت هذه المنطقة خالية تماما الا من عدد صغير من الناس . فالتقرير يقول أن « سيدى برانى مكان صغير يقع بين مطروح والسلوم ويتكون من ثكنات البوليس ، بالاضافة الى مبنى

---

(١٢) دونالدكول ، المرجع السابق ، صص ١١٦ ــ ١١٨ .

شاحب اللون هو الاستراحة ، ومكتب للموظفين ، بالاضافة الى نصف دستة من البيوت الافرنجية الخاصة بالتجار اليونانيين . وبرانى مكان خال من السكان ، ولكنه فى الصيف يعتبر مكان جميل ملىء بالزهور والنباتات »(١٣).

والملاحظ لسيدى برانى اليوم يجد أنها أكثر عمرانا وتحضرنا من الوصف السابق ويقال أن استقرار البدو فى المنطقة بكثافة ابتدأ يظهر منذ سنة ١٩٥٦ على الرغم من أن بوادر الاستيطان بدأت فى سنة ١٩٤٠ . وقد ساعد على الاستيطان فى المنطقة الساحلية وجود بئر للمياه (١٤) .

ويشتغل اهالى برانى بالرعى ، ولدى البعض منهم حدائق بها أشجار زيتون كما أن بعضهم الآخر يعمل فى التجارة . اما الجماعة التى تسكن منطقة التركز السكانى بالقرب من الساحل ، وخاصة العزبه الغربية فان الرجال يعملون مع الجهات الرسمية الموجودة فى المنطقة ، ويعمل بعضهم كسائقى أو مالكى سيارات أجرة ويعمل البعض الآخر بالتجارة .

ومع زيادة حركة الاستيطان بالمنطقة ، ونظرا لأن برانى تعتبر محطة ومنطقة عبور للمسافر من مرسى مطروح الى السلوم وليبيا فان الشكل العمرانى تطور الى أن اصبح يختلف تماما عن الشكل الذى سبق الاشارة اليه فى بداية عملية الاستيطان .

أما من جهة التجمع البدوى فى برانى فانه يضم أعدادا من البدو ،

---

(١٣) قام المؤلف بجمع المادة الميدانية الواردة هنا عن سيدى برانى من الميدان من واقع اقامة فى المنطقة ذاتها . كما استعان — بجانب ملاحظاته — ببعض الاخباريين ممن يعيشون فى المنطقة سواء موظفين من أبناء الوادى ، أو بدو يقيمون فى برانى بصفة دائمة .

Belgrave D., Siwa, The Aasis of Jupiter Ammon, London, 1923, p. 13.

(١٤) يبلغ عمق هذا البئر ٣٦ مترا . وحتى سنة ١٩٧٣ كانت المياه تستخرج من البئر بواسطة احد الرجال الذى كان يبيع البرميل بمبلغ ٢٥ قرشا .

وعلى سبيل المثال وبصرف النظر عن أعداد البدو الذين يسكنون عمق الصحراء فى نفس المنطقة فان البدو القريبين من الساحل يعيشون فى شكل تجمعات كبيرة يطلق عليها عزب (١٥) . فهناك عزبة العسكر أو العزبة الشرقية وعزبة حبون وغيرها . والمنازل كلها مكونة من طابق واحد وهى متباعدة عن بعضها .

والقطاع التجارى عبارة عن عدد كبير من الدكاكين الملحقة بالمنازل أو المستقلة ، وعادة ما يباع فى الدكان الواحد أكثر من صنف ففيه البقالة والخردوات والأدوات المنزلية والملابس ... الخ ، كما توجد محلات مخصصة لبيع الخضروات . وهناك سوق يقام كل يوم سبت فى برانى .

ويكتمل شكل المنطقة العمرانية فى برانى بقطاع الخدمات والقطاع الادارى فيها فالمنطقة بها قسم البوليس والمدرسة الابتدائية الاعدادية مشتركة . وبها أيضا وحدة للبريد ومستشفى ووحدة بيطرية ومكاتب قطاع تعمير الصحارى ، وسلخانه . وهناك استراحة للهندسة وعمارتين شعبيتين لسكنى الموظفين . وقد أنشأت الحكومة بجانب ذلك مركزا اجتماعيا كبيرا على نمط المراكز الاجتماعية الصحراوية التى أنشأتها الحكومة المصرية فى مناطق صحراوية متعددة . ونظرا لأن سيدى برانى تعتبر محطة للمسافرين — كما سبق وذكرنا — فان بها استراحة على الطريق يقضى فيها المسافر بعض الوقت ، وعادة ما تستخدم كمكان يتجمع فيه من يرتادون هذا الطريق بانتظام .

ويلاحظ فى هذا النمط من الاستقرار أن البدو هم الذين أوجدوا هذا النمط الاستقرارى بتوطنهم فى المنطقة تلقائيا ، واذا كان شكل الخدمات المتوفرة بها قد ساعد على أن تصبح منطقة صحراوية عمرانية تميل الى التكامل

---

(١٥) تسكن كل عزبه « عيله » أو عدة عائلات ، على سبيل المثال تسكن عزبة الحدادين « عيلة محارب » و » عيلة الحداد « و « عيلة طاهر » وعائلات الحبيشات ، والصرصات واخشيبات وبراحصة وجرارى .

فقد كان توفر الخدمات استجابة لمتطلبات الاستقرار ، وقد أدى فى نفس الوقت الى مزيد من الاستقرار خاصة فى المناطق القريبة من الساحل .

النشاط الاقتصادى :

ترتبط الجماعات البدوية بأنشطة اقتصادية محددة ، فهناك جماعات تمارس الصيد وأخرى الرعى أو الزراعة أو التجارة . وفى بعض الأحيان لا تقتصر الجماعة على ممارسة نشاطا واحدا ، بل تمارس أكثر من نشاط .

فمن جهة الصيد اشتهرت بعض الجماعات الصحراوية بصيد الأرانب البرية بواسطة كلاب مدربة كما اشتهرت غيرها بصيد الغزال . ففى بعض مناطق الصحراء الغربية مثلا تعود البدو على صيد الحمام عن طريق الأيدى فقط ، ففى فترة الخريف كانت تصل الى هـــذه المناطق آلاف من أسراب الحمام المهاجرة من أوربا ، وهى اذ تكون مجهدة كـــان يمكن للبدو أن يمسكوها بأيديهم متى حطت على أماكن أو أشياء دنيا . وقد برع البدو أيضا فى تدريب وصيد الصقور . وهم يصطادونها بأن يأخذ البدوى حمامة ويربط جناحيها حتى لا تهرب ويثبت عدد من شعر الخيل معقودا حول جسمها . وعندما ينقض الصقر عليها يتعثر فى خيوط الشعر فيمكن للبدوى أن يمســـك به (١٦) .

ويعتبر الرعى من أهم معالم البداوة وأنشطتها الاقتصادية ، فالرعى مرتبط دائما بالبداوة وبالترحال من مكان الى آخر . ويرعى البدو أنواعا متعددة من الحيوانات مثل الأغنام والأبقار والجمال . وتخدم الثروة الحيوانية البدو فى أغراض متعددة فهى توفر المادة الخام لصناعة الغطاء والملابس ، وتوفر اللحوم والمنتجات الغذائية ، كما توفر المادة الخام للصناعات اليدوية . فالبدو فى الضفة الشرقية فى الأردن مثلا يرعون الأغنام والماعز فى مساحات شاسعة بحيث ان دوائر تجوالهم تكون واسعة جدا . وفى هذه الفترة اذا كانوا يبحثون عن الكلاء للحيوان فهم يعيشون على منتجات هذا الحيوان .

---

(١٦) بلجراف ، المرجع السابق ، صفحات ٢٧ ، ٧٨ ، ٢٩ ، ٣١ .

وعادة ما يرتبط حجم القطيع بخصب المناطق التى يرعى فيها البدو . وقد أدى وعى الدول العربية بأهمية الثروة الحيوانية التى يعتنى بها البدو الى ان تحاول بعضها العمل على تنمية هذه الثروة ، ففى الأردن أيضا بذلت الحكومة بعض الجهود لانشاء مستوطنات يرعى فيها البدو قطعانهم وعملت على تحسين السلالات وتغذية الحيوانات التى تربى من أجل اللحوم او الألبان .

ارتبط البدو أيضا بالزراعة ، سواء كانت الزراعة الموسمية أو الدائمة . وسواء كانت ممارسة الزراعة تتم مع ممارسة الرعى أو أصبحت مهنة وحيدة كما هو الحال بالنسبة لبعض الجماعات . فهناك جماعات صحراوية على الرغم من ان عملها الرئيسى هو الرعى فهى يمكن أن تقوم بعض الزراعات البسيطة فى موسم الأمطار . ولكننا يمكن أن نجد جماعات كاملة قد استقرت وتمارس الزراعة كعمل اساسى مثل تلك الجماعات التى استقرت على حدود بعض المدن فى جمهورية مصر العربية وأصبحت تعمل فى زراعة الأرض على الرغم من انها ظلت محتفظة بمعالم بنائها الاجتماعى التقليدى وثقافتها البدوية الخالصة .

ولا يقتصر المجال الاقتصادى للبدو على ذلك بل امتد الى مجال التجارة . وتدل الشواهد التاريخية على أن اهالى قريش فى مكة قد عملوا فى التجارة . فقد كان التجار الأجانب يجلبون البضائع الى مكة فيأخذها أهالى قريش ويبيعونها لسكان المدن أو القبائل المحيطة وبعد ذلك حصل القريشيون على تصريح من بيزنطة لجلب البضائع الى سوريا وعمل اتفاقات مع رؤساء القبائل التى تقيم فى الطريق لكى يسمحوا للقوافل بالمرور فى المنطقة مرورا آمنا فى مقابل المشاركة فى هذه التجارة . فقد شارك رؤساء القبائل فى الربح ، بالاضافة الى تشغيل أفراد من القبائل كحماة ومرافقين للقوافل (١٧) . ولا شك أن هناك صورا أخرى عديدة لاندماج البدو اليوم

---

(١٧) نيروب ، المرجع السابق ، ص ٢١١ .

وانخراطهم الآن فى أعمال تجارية سوف تتضح فى أماكن اخرى على صفحات هذا الكتاب (١٨) .

والملاحظ أن معظم الجماعات الصحراوية تمارس أكثر من عمل ويعتمد اقتصادها على أكثر من نشاط (١٩) . وعلى سبيل المثال فقد ظهر عند بدو الأردن ــ فى فترة معينة اتجاها نحو الارتباط بالزراعة جزءا من الوقت مع الاحتفاظ برعى الابل والماعز سواء كان ذلك الميل نحو ممارسة اى منها منفردا أو سواء جمع البدو بين الزراعة والرعى فى آن واحد . وتتجول الجماعات التى تمارس الرعى فى مناطق متاخمة للأراضى الزراعية التى ارتبط بها من زرعوها من البدو . وقد كانت هناك أيضا القبائل التى هجرت الرعى تماما واستقرت وتمسكت بالزراعة بينما ظلت بعض القبائل الأخرى مرتبطة برعى الأغنام والماشية عدد من شهور السنة واشتغلت بقية الشهور بالزراعة ويقول رتشارد نيروب أنه من المحتمل أن تتزايد عملية الاستقرار الدائم بالنسبة للقبائل البدوية نتيجة اتساع رقعة الأراضى الزراعية . ويساعد توفر المياه على نجاح عملية الاستقرار ونظرا لأن مشروعات الحكومة للرى والتحكم فى المياه تؤدى الى زيادة الانتاجية الزراعية ، فالزيادة فى أعداد البدو المستقرين تعتبر أمرا متوقعا (٢٠) .

الزراعة والرعى بالتبادل عند قبائل اولاد على الساحل وفى العمق :

والمثال الواضح الذى يظهر كيفية مزاوجة واهتمام البدو بالزراعة

Talal Asad, The Beduin as a Military Force : Notes on some aspects of power relations between Nomads and Sedentaries in historical perspective., In The Desert and the Sown., Edited by Cynthia Nelson, Research Series No. 21, Institute of International studies, university of California, Berkeley, 1973, p. 64.

(١٩) انظر فصل التغير الاجتماعى والثقافى .
(٢٠) ريتشارد نيروب ، المرجع السابق ، صص ٨٠ ، ٨١ .

والرعى معا هو الصحراء الغربية فى مصر . ففى هذه المنطقة الجافة التى تهطل عليها الأمطار مرة واحدة فى العام يمارس البدو كلا الزراعة وتربيـة الحيوان معا . فتقوم على الشريط الساحلى زراعة شتوية وهناك بعض الجيوب التى تعتبر أرضا زراعية جيدة . والأرض فى المناطق الصحراوية الداخلية فى هذه المنطقة صحراوية تستحيل فيها الزراعة . ولكن فى فتـرة الشتاء تنمو فيها الشجيرات وتتوفر فيها ينابيع المياه مما يوفر مناخا صالحا للرعـى .

ويمارس معظم البدو المقيمين على الشريط الساحلى الزراعة بجانب رعى الحيوان ، وتتطلب الزراعة منهم عمليات كثيرة ابتداء من اعداد الأرض للزراعة الى عملية حصاد المحصول وتخزينه الأمر الذى يتم فى فترة الصيف . ولكن مع ذلك فالبدو الذين يزرعون يجبرون على تخصيص جزء من قوتهم العاملة لاطعام الحيوان والعناية به . ففى فترة الشتاء لا تكون هناك فرصة لوجود مراع على الشريط الساحلى لأن معظم الأراضى تكون مزروعة ولهذا فان معظم الحيوانات فى منطقة الحزام الساحلى تتحرك الى داخل الصحراء لكى ترعى هناك فى فترة الشتاء . وتعتمد القبائل التى تسكن عمق الصحراء اعتمادا أساسيا على رعى الحيوان . ويعمل افرادها أيضا كرعاة بالأجر لدى الآخرين — كما سنوضح الآن .

وعلى الرغم من أن البدو فى الصحراء الغربية يمارسون بعض أنواع الزراعة الا أنهم يرون أن اقتصادهم يعتمد اساسا على رعى الحيوان . وأن ما يرعونه من حيوانات يمثل راسمالهم الأساسى ، وتحسب الثـروة لديهم بما يمتلكونه من حيوانات . وتتطلب تربية الحيوان غذاء كافيا وماءا كافيا لها طول العام . وتظهر المشكلة فى فترة الشتاء بين اكتوبر وابريل ، ففى هذه الفترة تختفى كل الحشائش والشجيرات الصالحة للأكل من على الأرض بطول الساحل . وتتفاقم المشكلة فى الفترة بين اكتوبر وديسمبر بصفة خاصة لأن اناث الحيوانات تكون فى فترة حمل وتحتاج الى غذاء غنى . وفى وقت الجدب عادة ما تموت حيوانات كثيرة ولهذا يرسلون الحيوانات

الى داخل الصحراء لترعى هناك بجانب ما يكونوا قد اختزنوه من الدريس (الحشيش المجفف) من الزراعة أو ما اشتروه منه . وتذهب بعض الجماعات الى مشارف دلتا النيل لرعى الحيوان أثناء فترات القحط .

ويرى البدو أن الأسرة الواحدة تحتاج الى أن يكون لديها ستون رأسا من الضأن والماعز كحد أدنى تستطيع أن تتعيش عليه دون أن تمارس عملا اضافيا مثل الزراعة أو العمل كرعاة . وعندما تعتمد الأسرة اعتمادا أساسيا فى حياتها على ما تملكـــه من حيوانات فان نشاطها الاقتصادى يتبع النمط الأساسى السائد فى المنطقة لرعى الحيـــوان — فيتطلب تغذية الحيوانات الموجودة داخل الصحراء للرعى خلال فترة الشتاء ، والموجودة على الساحل خلال فترة الصيف ، وفى هذه الحالة تصبح عمليات حلب الحيوانات وعمل الزبد وجز الغنم وتسويق صغار الحيوانات المولودة والعناية بالحيوان بصفة عامة نشاطات أساسية فى اقتصاديات القطعان ويعتبر الدريس غـــذاء أساسيا يحصلون عليه بطرق متعددة اما بالشراء أو بالحصاد وتؤدى حاجة البدو الذين يعيشون فى عمق الصحـــراء الى الشعير والعلف الـــى أن يوجهوا جزءا كبيرا من القوة العاملة لديهم الى الوفاء بهذه الحاجة .

والملاحظ فى هذا النوع من النشاط الاقتصادى أن البدو الذين يعيشون فى المنطقتين يمارسون جوانب مختلفة فى نفس الدورة الاقتصادية فقد كان هناك تجمع مستقـــر من البدو فى منطقـــة الساحل كان يعمل منهم ٧٥٪ فى الزراعة بينما يرعـــى ٨٪ منهم الحيوان ، وفى تجمعين للبـــدو فى المنطقة الساحلية كان ٧٠٪ من الرجال الذين يضمهم التجمع الأول يعملـــون فى الرعى ، بينما يعمل فى نفس المهنة ٦٠٪ من رجال التجمع الثانى .

ويعتبر هذا الاعتماد المتبادل بمثابة تعاون اقتصادى يتم بين جماعات البدو التى تعيش فى المنطقتين . وقد ظل البدو الذين يعيشون داخل الصحراء — وهم يعتبرون أدنى ممن يعيشون على الساحل — يرتبطون ارتباطا أساسيا بمن يقيمون بالقرب من الساحل .

وقد أدت هذه العملية الاقتصادية الى أزمة بالنسبة للقبائل التى تعيش على الساحل وتضم معظم البدو نتيجة أن البدو يواجهون فى فصل الشتاء موقفا اقتصاديا معقدا فمن جهة تعتبر هذه الفترة هى فترة العمل فى الزراعة بجميع مراحلها . وفى نفس الوقت تحتاج الحيوانات فى هذه الفترة الى من يصطحبها الى عمق الصحراء لكى ترعى هناك . وقد حاولت بعض العائلات الثرية حل المشكلة عن طريق استئجار رعاة ، بينما تمكن فريق آخر من التعاون وتقسيم العمل بين الأقرباء . فذهب فريق من الأقرباء الى الصحراء لرعاية الحيوان بينما بقى الجزء الآخر منهم لزراعة الأرض . وتواجه نفس المشكلة القبائل التى تعيش فى عمق الصحراء فهم لابد أن يبقوا فى فترة الشتاء فى الصحراء للرعى ولكن هذه أيضا هى الفترة التى يجب أن ينتقل فيها من يريد الزراعة الى الساحل ، وربما كانت هذه الحاجة الاقتصادية هى العامل الهام الذى عوق تراكم رأس المال بمعنى زيادة عدد الحيوانات او زيادة المساحات المزروعة (٢٢) .

قبيلة الجبالية : اصحاب حدائق ، صبيان للدير ، وعمال بالأجر :

اذا كان النموذجان السابقان قد أوضحا لنا أثر العوامل الطبيعية على النشاط الاقتصادى البدوى ، فان الدراسة التى أجراها عمانوئيل ماركس عن بدو جنوب سيناء والتى اشرنا اليها فى جزء متقدم من هذا الفصل توضح لنا بجلاء تدخل عوامل أخرى بجوار العوامل الطبيعية كعوامل مؤثرة على الاقتصاد البدوى ، كما توضح مرونة البدو وقابليتهم لتغيير أنواع انشطتهم وفقا للظروف التى تمر بها المنطقة التى يعيشون فيها ، ووفقا لفرص العمل المتاحه . ففى فترة الخمسينات عمل بعض البدو كبحارة وصيادين فى منطقة ميناء الطور . وبجوار الطور كانت هناك محطة حجر صحى للحجاج العائدين من مكة الأمر الذى كان يوفر فرص عمل سنوية

(٢٢) Abdalla S. Bujra, The Social Implications of Developmental Politics : A case study from Egypt., In The Desert and the Sown., op. cit., pp. 147-148.

للبدو . وعندما بدأت مصر فى تنمية الاقليم وعينت الحكومة حاكما مدنيا فى أبو زنيمة وشيدت الطرق بطول ساحل البحر الأحمر وبدأت فى استخدام آبار البترول ومناجم المنجنيز شارك فى مثل هذه الأعمال عددا من أبناء البـــدو .

ويلاحظ أن بدو جنوب ســـيناء كانوا مهتمون قديما بزراعة الحـــدائق والبساتين وذلك عندما كانت فرص العمل نادرة والاتصالات قليلة . وكانت بعض الأسر ــ خاصـــة من قبيلة الجبالية ــ تعتمد اعتمادا اساسيا فى معيشتها على هذه الحدائق . وهم يقولون أنهم يبيعون فاكهتهم فى الطـــور ويشترون الحبوب التى يحتاجون اليها بثمن الفاكهة . ولكن لم يكن معهم ما يشترون به احتياجاتهم من الشاى والقهوة والملابس . ولهذا بحث رجال هذه القبيلة عن عمل فى المنطقة وخارجها .

وكان دير سانت كاترين يأخذ من ٢٠ ـــ ٣٠ شخصا من قبيلة الجبالية للعمل فى الدير وعدد قليل من قبيلة أولاد سعيد . وعلى الرغم من أن الدير كان يدفع أجورا منخفضة بحيث تعتبر أدنى بكثير من السعر السائد لنفس النوعية من العمالة فقد كان العمل فى الدير بالنسبة لهم له ميزتان : الأولى أن العمل كان بجوار محل الاقامة . والثانية انه كان عملا مضمونا فالبدوى كان يظل طول حياته يعمل فى الدير . وكان الدير يقدم لهم بعد احالتهم الى المعاش بعض المواد الغذائية البسيطة لكنها كانت تقدم لهم بانتظام . وعلى الرغم من أن من يعملون فى الدير تظلموا من ضآلة المرتب ولكنهم استمروا فى أعمالهم لأنهم لم يجدوا عملا أفضـــل منه . وقد عمل الجبالية ايضـــا كمرشـــدين للحجاج الذين كانوا يريدون زيارة الأماكن المقدســـة المتعددة المحيطة بالدير والتى ترتبط بموسى النبى . ويفسر الجبالية علاقتهم بالدير بأن جدهم كان عبدا يونانيا يسمى قسطنطين ، وكان ضمن مجموعة عبيد أرسلوا الى الدير عند انشائه لخدمة الرهبان . ويؤدى ارتباطهم بالدير الى تقوية ارتباطهم بالاقليم فهم يرون أن الاقليم هو اقليم الدير . وهم يعتبرون أنفسهم « صبيان الدير » .

ونظرا لصغر حجم الاقليم ، ونظرا لأن الدير لا يتيح فرصا للعمل الا لعدد قليل منهم ، فقد كان الجبالية أول من خرجوا للعمل بالأجر ، ونتيجة لهذا اكتسبوا مهارات كثيرة ، وعملوا فى أعمال البناء وفى حفر الآبار فى كل انحاء شبه الجزيرة . وأصبح الأجر الذى يتقاضونه كعمال يشكل الجزء الأكبر من الدخل الذى يتعيشون منه . ويعمل الرجال فى المدن أو فى مواقع البترول فى أبو رديس . وقد أدى هذا الى ان يقضى الرجال فترة طويلة بعيدا عن الأسرة . وعلى الرغم من حصولهم على أجور من الأعمال التى اشتغلوا بها ، وعلى الرغم من أنهم يقولون أن عائد محصول الحدائق والبساتين لا يكفيهم الا انهم ظلوا يهتمون بحدائقهم ويقطعان الماعز والأغنام التى يرعونها . لقد استمر البدو الذين لم يشعروا أن الأعمال التى ارتبطوا بها يمكن أن يستمروا فيها يحافظون على شكل الاقتصاد التقليدى فقد استمروا فى الرعى وزراعة البساتين كمصدر ثانوى للدخل يمكن الاعتماد عليه فى وقت الحاجة . ولكى يستمر هذا النوع من الأعمال لابد أن تبقى القبيلة ولابد من تقوية الروابط القرابية . ودائما ما يشعر البدوى أن ارتباطه بالأرض والرعى هو ارتباط مشاعر أكثر منه ارتباط مصلحة نظرا لأن كلا الأرض والرعى لا يدرا فائدة كبيرة . فالبدوى يشعر أن الحنين الى المنطقة والأرض هو الذى يرجعه مرة أخرى ، وانه مشدود الى الأرض ، « بحبل سرته » لأنه عند ولادة الطفل يدفن الأب الحبل السرى والمشيمة فى الأرض . ويرتبط الحس الذى يوجد عند هؤلاء الناس بمسألة الأمن الاقتصادى الذى توفره المنطقة ذلك أنهم يدركون انهم اذا بذلوا جهدا أكبر فيمكنهم زيادة محصول البساتين ويمكنهم الذهاب بالقطيع الى مناطق أبعد للرعى . لهذا فكل رجل يغادر المنطقة للعمل فى مكان بعيد يترك قطيعه وقطعة أرضه ليرعاها أبناء قبيلته حتى اذا ما اضطر الى العودة فانها ستدر عليه عائدا ولو بسيطا . أما هؤلاء الذين ارتبطوا بأعمال ثابته ودائمة ومأمونة فقد ارتبطوا بالمدن وان كان حنينهم الى القبيلة مازال موجودا وارتباطهم بها لم ينقطع (٢٣) .

---

(٢٣) عمانوئيل ماركس ، المرجع السابق ، صص ٦ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ .

الفصل الثانى

تــوطين البدو (١)

مفهوم التوطين :

عرف التوطن فى مؤتمر التنمية الاجتماعية للبيئات الصحراوية المنعقد فى مرسى مطروح سنة ١٩٦٥ بأنه : « عملية انسانية متكاملة تتطلب تغييرا فى الظــروف الطبيعية والحضارية القائمة من أجل تنمية الموارد البشريــة والانسانية والاقتصادية ورفع مستوى المعيشة ، وتحقيق قدر من التكامل القومى بادماج البدو بصورة جماعية فى الوحــدات السياسية والقانونية والاقتصادية والفكرية فى المجتمع القومى » ، ويرتبط مفهوم التوطين بفكرة

---

(١) أفاد المؤلف فى هذا الفصل من المصادر الآتية :

(أ) وزارة الشئون الاجتماعية (الادارة العامة للتخطيط) ، مؤتمر التنمية الاجتماعية للبيئات الصحراوية ، مرسى مطروح ١٥ : ١٨ اكتوبر سنة ١٩٦٦ ، صص ٦٣ — ٦٥ ، ص ٧٣ ، صص ٨٧ — ٩١ .

(ب) الأمانة العامة (ادارة الشــئون الاجتماعية) ، رعاية البــدو وتحضيرهم وتوطينهم الجزء الثانى ، دار الطباعة الحديثة سنة ١٩٦٥ . خاصة صفحات : ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٤٨٥ ، ٤٩٢ .

(جـ) مكى الجميل ، البدو والبداوة فى البلاد العربية ، دراسة لأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية ووســائل توطينهم ، سرس الليان سنة ١٩٦٢ ، ص ٢٨ ، صص ٧٥ — ٧٩ .

(د) محى الدين صابر ولويس مليكة ، البدو والبداوة ، سرس الليان سنة ١٩٦٦ ، مركز تنميــة المجتمع فى العالم العربى ، صص ٣٥ ، ٣٦ ، صص ٥٤ — ٥٧ ، صص ٦٢ — ٧٥ .

(هـ) عبد الغفار أحمد ، المرجع السابق ، صص ١٧٤ — ١٧٨ .

الاستقرار . فالتوطين هو محاولة لاحداث الاستقرار للجماعات التى تمارس التجوال (٢) .

ويختلف مفهوم التوطين عن مفهوم التحضر وان كانت هناك علاقة بين كل منهما فالتحضر يعنى اما انتقال السكان الى المناطق الحضرية أو انتشار أنماط السلوك وأساليب التفكير الحضرية ، أو يعنى انتشار السمات أو الخصائص الخاصة بالمناطق الحضرية لدى جماعة ما خاصة تلك الخصائص والممارسات الثقافية المرتبطة عادة بحياة المدينة . وعلى ذلك فان تحضر البدو يمكن أن يعنى انتقال جماعات بدوية الى المدن والمعيشة فيها وما يتضمنه ذلك من تغيرات فى الحياة الاجتماعية والثقافية للبدو كما يمكن أن يعنى انتشار طرق التفكير وأنماط السلوك الخاص بالمناطق الحضرية نتيجة مؤثرات معينة مثل وسائل الاتصال . فالبدو عندما يتعرضون لعوامل تساعد على تحضرهم يمكن أن يستقروا ويتوطنوا فى أماكن معينة ، وعندما يحدث التحضر فى المناطق المحيطة بهم ، يمكن أن يساعد ذلك على جذب البدو الى المناطق الحضرية والتوطن بها . وعندما يزداد تحضر المجتمع بصفة عامة فانه عادة ما يفكر المسئولين بأكثر جدية فى عملية استقرار الجماعات البدوية .

ويختلف مفهوم التوطين عن مفهوم التهجير . فالتهجير عملية ترحيل للجماعات من الى آخر بسبب ظروف اقتصادية مثلما يحدث فى حالة عدم كفاية الموارد ، أو لأسباب سياسية كما هو الحال فى حالة الحروب ، أو بسبب توفر ظروف اكثر يسرا فى المكان الأخير . أما التوطين فهو يتضمن توفير الاستقلال والاستقرار الاقتصادى فى نفس المناطق التى يعيش فيها البدو أو فى المناطق القريبة منها . ويعنى ذلك أن التوطين هو عملية تغيير لظروف البادية الطبيعية واخضاعها للاستغلال الاقتصادى المثمر مع مراعاة الاستثمار الاجتماعى أيضا .

---

(٢) د. محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٩ ، ص ٤٩٩ .

ومن المفضل لكى نفرق بين توطن واستقرار البدو الاختيارى (بمعنى استقرارهم فى مناطق معينة تلقائيا ودون تخطيط مسبق أو اجبار من المجتمع) وبين توطينهم وفق خطط معينة يقوم باعدادها المجتمع لهم (سواء أجبرهم على ذلك أو حاول جذبهم بطرق شتى) أن نسمى الأول « التوطن » وفى هذه الحالة يكون مصطلح التوطن مرادفا لمصطلح الاستقرار (الطوعى) ، وأن نطلق على الحالة الثانية « التوطين » وهو فى هذه الحالة يشير الى تلك المحاولات المخططة التى يتم بناءا عليها الاستقرار وفق برامج محددة غالبا ما ترتبط بمشروعات للتنمية .

الجدل الدائر حول فكرة التوطين :

عندما تطرح فكرة توطين البدو للمناقشة فاننا نجد المؤيدين للفكرة ، كما نجد أيضا المعارضين لها . فوجهة النظر ترى فى التوطين عملا سياسيا واخلاقيا واقتصاديا يهدف الى رفع مستوى المعيشة عن طريق استغلال مساحات كبيرة من الأرض استغلالا أفضل ، بينما ترى وجهة النظر المعارضة أن الاقتصاد البدوى اذا استغل فى التنمية الحديثة فلن نضيف كثيرا الى الاقتصاد القومى . وترى أن البدو فى حالتهم هذه يؤدون خدمة للمجتمع من الناحية السياسية اذ يقومون بحراسة الحدود . واذا كان الفريق المؤيد يركز على المدنية الحديثة فان الفريق المعارض يركز على القيمة الاجتماعية والأخلاقية للبدو ، ويرى أننا يجب أن نحافظ على طابع الحياة البدوية .

وبصفة عامة يعتقد البعض أن البداوة شيئا سيئا بالنسبة للبدو ، وأنها ظاهرة ضارة بالنسبة للمجتمع . وربما تعتقد فى ذلك أيضا بعض المنظمات العالمية ، وتشاركها هذا الاعتقاد معظم الدول التى تضم جماعات من البدو .

ويرجع ذلك الى الاعتقاد الى ما يأتى :

١ — أن الحياة البدوية تتعارض مع سياسية نشر التعليم وتقف معوقا لهما .

٢ — أن هناك صعوبة فى تكوين حكم مثالى توافق عليه الدولة لسكان

هــذه المناطق ، وأن أوضاع هذه الجامعات تسبب مشكلات تتعلق بالضبط السياسى ، فالبدو يفضلون الولاء القبلى على الولاء القومى ، وتتعلق أيضا بقدرة الدولة على تحقيق العدالة فى مختلف قطاعاتها .

٤ — أن نمط البداوة نمط متخلف وبربرى ولا يجب أن يظل موجودا حتى القرن العشرين .

٥ — ان نمط البداوة يمثل فاقدا فى المصادر الطبيعية بجانب ان البدو لا يلعبوا الدور الذى يجب أن يلعبوه فى الاقتصاد القومى .

٦ — أن حياة البدو حياة قاسية وأن الاستقرار يجعل حياتهم اسهل وافضل .

والواقع ان بعض هذه الادعاءات صحيحا وبعضها الآخر غير صحيح ، فانه من الصعب تعليم أبناء جماعات متنقلة ، ولكن من ناحية اخرى لـــم يثبت أن النمط البدوى يتعارض تماما مع كل أنواع التعليم الرسمى .

واذا كانت هناك بالفعل صعوبة فى نقل خدمات الدولة الى المناطق التى يوجد بها البدو . خاصة مع وجود نمط الترحال الدائم — الا أن البعض قد بالغوا فى مسألة تصورهم لسوء صحة البدو . فالبدو يتمتعون بصحة افضل مما وصفوا به . وسوف تظل المجتمعات التى لم يستقر فيها البدو فى مناطق محددة تواجه مشكلات توصيل الخدمات الى هذه الجماعات .
وان كانت بعض المجتمعات قد انشأت المدارس المتنقلة وقوافل الرعاية الصحية المتنقلة ، الا أن هذه الجهود أيضا تواجهها مشكلات متعددة .

أما من حيث الاعتقاد الثالث فانه يصعب بالفعل تكوين أشكال للحكم المحلى ترسمهـا وتحبذها الدولة ، لأن الحيـاة القبلية تفرض أشكالا من الحكم المحلى تتفق وطابع هذه الحياة .. ومع ذلك فقد أدى ازدياد نفوذ الحكومة فى بعض الدول الى بسط نفوذها على مختلف القطاعات حتى استطاعت أن تحقق الولاء السياسى لهذه الجماعات بل استطاعت أيضا أن تحقق قدرا من

التحكم فى شكل الحكم المحلى بالنسبة للجماعات التى استقرت وان ظلت تمارس بعض أشكال التنقل الموسمى . أما مسألة تحقيق العدالة فما زال العرف القبلى والبدوى بالفعل هو القانون الوحيد الذى يحكم العلاقات ويحدد معنى الانحراف ويعاقب على الجريمة لدى معظم هذه الجماعات . وقد ساعدت طبيعة هذه المناطق فى بعض الأحيان على ايواء المجرمين واخفاء الجرائم . الا اننا لا يجب أن ننسى أن العرف السائد بين هذه الجماعات يمكن أن يتميز بالقوة والقدرة على الضبط بسبب قوة الروابط الاجتماعية ، والولاء القبلى ، وعلاقات الوجه للوجه وما الى ذلك .

أما الرأى الذى يقرر أن نمط الحياة البدوية نمط مختلف وبربرى فيصعب الموافقة عليه اذ هو لا يعكس سوى ضعف معرفتنا وخبرتنا بهذه الجماعات ، كما يعتبر نوعا من الأحكام المتحيزة التى تطلقها الجماعات على بعضها .

ويبدو أن الاعتراض على الوجود البدوى والذى يتخذ الجانب الاقتصادى أساسا له هو أضعف الاعتراضات ، فمن المعروف أن معظم المناطق التى يسكنها البدو هى مناطق فقيرة فى مواردها الاقتصادية ، باستثناء المناطق التى اكتشف فيها البترول أو مناطق المناجم . وبالتالى فهذه المناطق لا يمكن استغلالها بطريقة افضل من الطرق التى يستغلها بها البدو . وفى السودان على سبيل المثال استخدم البدو مهارتهم لاستغلال المصادر الطبيعية افضل استغلال الى الحد الذى أدى بهم الى الاسهام اسهاما ملحوظا فى الاقتصاد القومى . ويجب أن ندرك ان استغلال الأراضى التى يعيش فيها البدو بطرق اخرى غير التى يستغل بها البدو هذه المناطق لا يمكن أن يحدث بدون استثمارات واسعة النطاق لرؤوس أموال ضخمة فى مجالات وبيئات وعرة الأمر الذى يضع قيودا على ضمان النتائج . فقد تطلب مثلا الاستيطان فى الجزيرة بالسودان تكاليف باهظة . ويتطلب — الأمر أيضا التأكد من وجود المصادر الطبيعية اللازمة والوفيرة ، فالأراضى التى تشغلها الكبابيش والبجة لا يوجد بها نهر النيل ولهذا فان عملية توطينهم تتطلب اجلائهم عن هـذه المناطق وتهجيرهم الى مناطق اخرى فى السودان ، وهذا سـوف يؤدى الى ضرو

واضح وهو فقدان الموارد الخاصة بهذه المناطق الهامشية التى تستغل الآن استغلالا حسنا . ويمكن أن نستخلص من ذلك أنه فى مثل هذه الحالات التى يستغل فيها البدو بنجاح أراض فقيرة جدا ، فان التوطن وما يستلزمه من اجبار على الانتقال الى مناطق أخرى ســوف يؤدى الى فقدان موارد اقتصادية معينة .

ولكن يلاحظ أن هناك مناطق تسكنها هذه الجماعات لا ينطبق عليها ذلك ، وعلى سبيل المثال فالأراضى التى تسكنها قبائل البقارة فى السودان يمكن أن تصبح ملائمة للاستيطان اذا انفق فيها قدر أقل من رأس المال . ولكن يجب أن ندرك أنه حينما يتوفر المال اللازم لتوصيل المياه الى هذه الأراضى فى كل فصول السنة لأغراض الشرب ورعى الماشية وزراعة الأسوار الزراعية التى تحيط بالأراضى ، وللقضاء على الحشرات التى يتجنبها البقارة الآن فى حركتهم الموسمية فسوف تبقى هناك مسائل تضع قيودا على عملية التوطين وتحيطها بالشكوك هى ما يتعلق بالبدو انفسهم الذين سيواجهون مواقف لم يألفوها ، بجانب احتمال وجود بطالة .

أما من جهة الادعاء الأخير وهو ما يتعلق بصعوبة حياة البدو ، فـان من يعيشون فى المدينة حياة مستقرة دائما ينظرون الى حياة البدو على أنها حياة صعبة وقاسية ، بينما لا يراها البدو كذلك . فحياة البدوى لها صعوبتها ، ولكن البدوى الذى تعود على الترحال لن يكون سعيدا سعادة تامة بالاستقرار مثلما يسعد به المزارع الذى يفلح الأرض . وربما يصعب على من تعودوا على الاستقرار وعلى المخططين الذين لم يفهموا الحياة البدوية فهما حقيقيا الوصول الى هذه الحقيقة ومعرفة أنه يصعب على البدوى أن يدرك أن هناك كسبا من وراء الاستقرار وذلك بسبب أنه يخلط بين الجانب الاقتصادى والجانب الاجتماعى ، فاذا كان التوطين المخطط سوف يؤدى الى التقليل من أعداد القطعان ــ وهذا أحيانا يحدث ــ فان هذا يؤثر على طموح البدوى طالما أن طموحه يتركز حول حجم قطيعه ، فاذا كان حجم القطيع سوف يتعرض للنقصان فان ذلك سوف يؤدى الى التأثير على حياته الاجتماعية وعلى

حريته فى استغلال الفرص المتاحة للوصول الى مكانة أرفع . ويجب أن ندرك أن البدوى أيضا ينظر الى المزارع والى ساكن المدينة نظرة أدنى . فهو يراهما لا يتمتعا بحرية الحركة ، وهو عندما يقارن نفسه بهما يجد نفسه قادرا على الحركة فى اى مكان وفى أى وقت يريده الأمر الذى يقدره تقديرا كبيرا .

والواقع أننا اذا أردنا أن ننظر الى توطين البدو نظرة موضوعية فاننا لا يجب أن نرفض فكرة التوطين نفسها رفضا تاما ، ولا يجب أن ننظر اليها على أنها حدا من حرية هذه الجماعات على التجوال . كما لا يجب أيضا أن نتبنى وجهة النظر المناقضة تماما والتى ترى أن كل الجماعات البدوية يجب أن تتوطن اجباريا فى اى منطقة نريدها وتحت أية ظروف نراها مناسبة لهم دون مراعاة لنمط حياتها وطبيعة نظامها الاقتصادى ، والظروف الطبيعية التى تعيش فيها ، وما يرتبط به من توفر مصادر الغذاء . وعلى ذلك فاننا نرى أن بعض الجماعات المتنقلة يتسم تنقلها بفاقد كبير فى طاقتها وهى تمثل أنماطا منفصلة اجتماعيا واقتصاديا عن بناء المجتمع الأكبر . فى هذه الحالة يعتبر التخطيط لتوطينها هدفا يجب أن يسعى اليه المجتمع ، ويجب أن يبذل المجتمع جهوده المستندة الى وعى بطابع هذه الجماعات لكى يحقق استقرارها وتكيفها لحالة الاستقرار الجديدة . بينما سوف تبقى جماعات أخرى تمارس التجوال الدائم أو التجوال الموسمى . ولا يجب أن نتصور أيضا أن فكرة تنقل هذه الجماعات تحول دون قدرة المخططين على التخطيط لها أو تحول دون ادراجها ضمن قطاعات المجتمع التى تخضع لخطط التنمية ، وقد وضح لنا من دراسة بعض جماعات البدو فى الفصل السابق أن بعض تنقلات البدو وحركتهم مخططة وتخضع لنظام محدد يحقق صالحها الاقتصادى ، كما أن معظم الجماعات المتنقلة تستقر لفترات معينة فى المناطق التى تستغلها . وعلى ذلك تبقى مسألة امكانية اخضاع هذه الجماعات للتخطيط والتنمية والافادة منها كقوى منتجة فى المجتمع متوقفة على مدى قدرة المخططين على فهم أغراض التجوال وارتباطه بالمصالح الاقتصادية ، وعلى فهم طابع البناء الاجتماعى والثقافة البدوية التى ترتبط بجماعات متنقلة ، كما يتوقف أيضا على

تنفاذ بصيرة المهتمين بالبدو وقدرتهم على رؤية امكانيات تنمية قدراتهم لتحقيق أقصى قدر من الانتاجية والتكيف لكل جماعة من الجماعات فى ظل ممارستها لتجوالها الدائم أو الموسمى . والهدف الذى نسعى اليه هو تحقيق التكامل الاجتماعى والاقتصادى لكل جماعة مع المجتمع الأكبر ، جنبا الى جنب مع الاهتمام بمسألة تكيفها للأوضاع الجديدة .

وربما تجد هذه الآراء ما يؤيدها فى كتابات من أسهموا بأقلامهم بابداء الرأى فى موضوع التوطين . ومن بين هذه الكتابات ما كتبه الأسد وكانيسون وهيل عن ضرورة وملاءمة التوطين لجماعات معينة ، وعن ضرورة وملاءمة بدائل أخرى للتوطين بالنسبة لجماعات أخرى . فهم يرون أن الذين يخططوا لتوطين البدو أحيانا يختاروا أولوياتهم اختيار خاطئا . ويرون أنه لا يجب أن نطرح السؤال القائل « كيف نوطن البدو ؟ » ولكن الأفضل أن نطرح سؤالا آخر وهو « ما هى الطريقة الأفضل لجذب البدو وتحقيق تكاملهم واندماجهم فى حياة الأمة بما يعود بالفائدة على البدو انفسهم وعلى المجتمع ككل ؟ » ويقولون أن هذا التساؤل الأخير يكمن وراء محاولات التخطيط التى تمت والتى تتعلق ببدو السودان . فهذه المحاولات كانت ترى فى التوطين أفضل الطرق نحو النموذج المثالى ولكن هذا الفرض يفتقر الى التبرير المقنع . لهذا فهم يرون أن المشكلة الأساسية التى يجب أن نهتم بها هى مشكلة التكامل . وفى بعض الأماكن يكون التوطين هو الحل الأمثل لهذه المشكلة ، وبعد ذلك يبقى علينا أن نجيب على السؤال القائل « كيف يمكننا توطين جماعة معينة من البدو ؟ » فهذه النقطة يجب أن تعتبر مشكلة ثانية وليست هى الموضوع الأساسى . والموضوع الأساسى هو أن نختار نوع التنمية الذى يحقق صالحهم المادى (الأمر الذى لا يمكن التأكد منه تأكدا تاما مقدما) . ولكن هذا يمكن أن ننجح فى الوصول اليه وتكون أساليبنا أساليب عملية اذا أخذنا فى اعتبارنا الجوانب الاجتماعية .

ويلاحظ أن البعض يفترض أن نجاح مشروعات التخطيط لتنمية المجتمع فى مكان معين فى العالم يكون مضمونا اذا طبقت فى أماكن أخرى ولكن هذا

الفرض ليس فرضا مأمونا طالما أن الظروف الاجتماعية تختلف من مكان الى آخر . ومن المعروف أن كل نمط من الأنماط البدوية يتميز بسمات فريدة ترتبط بمشكلات خاصة ، فالبدو المستقرين يعيشون فى شكل مجتمعات محلية ، ولكن البدو يفتقرون الى التنظيم الاجتماعى الذى يؤدى الى تحقيق التنمية بالنسبة لهم على أساس محلى ، لأن ذلك يفترض التعاون المستمر بين اعضاء كل جماعة ، والتنظيم البدوى يفترض أن الناس يغيرون دائما جيرانهم وحلفائهم ومن يتعاونون معهم . وعلى ذلك فان فكرة المجتمع المحلى يمكن أن تكون غائبة تماما عن أن تعتبر نقطة بداية فى تنظيم التوطين . ولهذا فهم ينصحون كل من يتوفر لديه طموح ودافع قوى لتغيير المجتمع البدوى أن ينظر اليه فى ضوء العلاقات الاجتماعية وليس فى ضوء العلاقات الاقتصادية فقط . وفى ضوء القيم التى تحدد وتتحكم فى سلوك البدو ، وفى ضوء نوعية الدوافع التى يمكن أن يستجيب لها البدو . وهم يقولون أننا عندما نقول أن البدو يفتقرون الى التنظيم الذى يمكنهم من تحقيق التنمية فى اتجاه التوطين فاننا لا نقصد أن نقول أننا نعتقد أن تنمية المجتمع المحلى لا يمكن أن تلقى نجاحها بينهم . ولكننا نود أن نقول أن خطط التنمية يمكن أن تجد فرصة أكبر للنجاح اذا انطلقت من ذلك المنظور وركزت على الخلفية الاجتماعية ، وعلى قيمهم ، ونظمهم .

مبادىء اساسية فى توطين البدو

هناك بعض المبادىء العامة التى تتعلق بتوطين البدو ، وهى كلها مستخلصة من التجارب التى تمت والدراسات التى أجريت حول موضـــوع التوطين .

١ ـ فيما يتعلق بخطة التوطين :

— لا توجد طريقة واحدة أو خطة واحدة لتوطين مختلف الجماعات البدوية . فمع أن الهدف النهائى هو توطين البدو وتحقيق استقرارهم وتكيفهم ، الا أن الطرق التى تتبع مع كل جماعة تختلف باختلاف نوعية الجماعة والظروف المحيطة بهـــا .

— من الضرورى اشراك البدو — بأى صورة — فى وضع الخطط الخاصة بهم ، فهذا سيشعرهم بكيانهم ، ويضمن تأييدهم ومساهمتهم مما يضمن نجاح الخطط .

— من الأفضل أن يتم التوطين بطريقة تدريجية ، وأن يتم بناء على أسس مدروســـة تكفل تضامن الجماعة والحفاظ على روحها وعلى الطابع العـــام لها .

٢ — فيما يتعلق بالجوانب الاجتماعية والثقافية والنفسية :

— يجب أن تتفق سياسة التخطيط مع اتجاهات البدو ، والا تتضمن اجراءات التوطين ما يتعارض مع قيمهم ، أو يهاجم مبادئهم أو يهدد أمنهم .

— يجب مراعاة الخلفية الثقافية للبدو ، فلا يجب أن تظهر الاستهانة بتمسكهم بتقاليدهم وعاداتهم حتى ولو كانت لا تتناسب مع الأوضاع الجديدة . وعادة ما يتطلب تغيير العادات والتقاليد جهودا غير مباشرة تحاول

الاقناع بعدم جدوى الطرق القديمة ، وتقدم فى نفس الوقت طرقا عصرية اكثر فائدة .

— يجب مراعاة الجوانب النفسية للبدو مع محاولة تقوية "صلة وزيادة الثقة بينهم وبين الدولة ، وتحقيق الاتصال الروحى والاجتماعى بينهم وبين الجماعات غير البدوية فى المجتمع . وهذا يتطلب المزيد من التوعية الدينية والسياسية والثقافية لاقناع البدو بأنهم جزء لا يتجزأ من المجتمع الأكبر الأكثر تحضرا .

٣ — فيما يتعلق باستخدام الموارد المادية والبشرية المتاحة فى البيئة :

— يجب العمل على تنمية وتنشيط الصناعات المحلية ، وهذا لابد أن يقوم على أساس استخدام خامات البيئة .

— يجب أن تعمم مراكز التدريب التى تعد أبناء البدو لمختلف الأعمال التى تتناسب مع المجتمع الجديد ؛ مع الاكتفاء بالبطاقات الشخصية والعائلية كمسوغ للتعيين والاهتمام برفع الأجور كوسيلة للاغراء .

— من المفيد أن يتم تدريب القـــادة المحليين على الأعمال الفنية والادارية اللازمة لمشروعات التوطين .

— العمل على حث أبناء البدو على العمل فى بيئاتهم بعد التخرج من المدارس أو المعاهد أو الجامعات لكى يساهموا فى تنمأة مجتمعهم ،على أن يكافأوا بما يتناسب مع جهودهم .

٤ — فيما يتعلق بالخبرات والجهود المطلوبة من خارج المنطقة :

يعتمد التوطين بصفة عامة على الجهود التى تبذلها الدولة المهتمة بعملية التوطين ويتطلب هذا مشاركة أجهزة عديدة متخصصة . وفى هذا المجال نحتاج الى ما يأتى :

— أن ندرك أن عملية التوطين تحتاج الى جهود وخبرات فنية متعددة متوفرة فى نطاق المجتمع الأكبر خارج حدود المجتمع البدوى .

— أن نعمل على جذب هذه الخبرات للعمل فى المنطقة ببذل المكافآت والترقيات لتعويض المواطنين الذين يعملون فى هذه المناطق لما يلقونه من مشاق .

— أن نحرص على انشاء معسكرات سكنية مزودة بوسائل المعيشة والترفيه للمواطنين الذين يختارون للعمل فى هذه المناطق .

ولكن نظرا لأن الجهود والامكانيات المطلوبة لعملية التوطين متعددة ومتنوعة فقد أخذت بعض المنظمات العالمية على عاتقها مهمة الاسهام فى الجهود المبذولة داخل الدول الآخذة بسياسة التوطين ، ايمانا منها بأهمية التوطين لحل مشكلات بعض الجماعات المتجولة التى بدأت أعدادها تتزايد . ومن هذه الهيئات والمنظمات التى قامت بجهود فعلية فى التوطين منظمة اليونسكو التى قامت بجهود أساسية فى مجال الدراسات الطبيعية والاجتماعية فى المناطق القاحلة وشبه القاحلة فى العالم ، وقدمت فى هذا المجال دراسات متقدمة ، ونظمت عدة مؤتمرات لمناقشة أهم المسائل المتعلقة بالموضوع . كذلك قامت منظمة العمل الدولية بعمل برامج لتوطين وادماج الجماعات القبلية فى المجتمعات القومية ، ومن أمثلة ذلك ما قامت به فى أمريكا اللاتينية بالنسبة للهنود الحمر . كذلك قامت بدراسة مشكلات البدو والبداوة والتوطين ومشروعاته فى عدة مؤتمرات عن مناطق مختلفة منها الشرق الأوسط وشمال افريقيا ، كما شاركت فى توطين بعض القبائل بالسودان . أما منظمة الأغذية والزراعة فقد شاركت بجهد كبير فى دراسات التربة والمياه الجوفية . وقامت هيئة الصحة العالمية بنشاط موسع تتضمن برامج متعددة لدراسة امراض وآفات بيئات الرعى وذلك لمحاولة التوصل الى القضاء عليها . ومن أهم البرامج التى قامت بها برنامج « فائض الغذاء العالمى » الذى ساهم فى توطين أربعة آلاف فى الساحل الشمالى الغربى . واذا كان هذا الجهد الدولى يعد محاولة لايجاد توازن بين كثرة السكان وبين استغلال الموارد الطبيعية فانه يعكس أيضا حق الانسان فى مستوى كريم من الحياة . وعلى المستوى المحلى قامت المنظمات المحلية والاقليمية بجهود كثيرة فى هذا المجال، وفى مقدمتها المنظمات العربية للجامعة العربية التى نظمت دراسات وعقدت مؤتمرات متعددة لمناقشة المسائل الخاصة بالبداوة العربية .

٥ — فيما يتعلق بالدراسات المطلوبة :

— يجب أن يقوم التخطيط للتوطين على أساس دراسات للتركيب السكانى والتحركات التى يقوم بها البدو داخل الدولة أو خارجها . واذا كانت هناك صعوبة تتعلق بامكانية حصر أعداد البدو فانه يمكن استغلال مناطق التجمع الدائمة أو الموسمية كالمدارس والمساجد والتجمعات حول أضرحة الأولياء لاجراء عمليات الحصر والتسجيل . ومن الضرورى أيضا اجراء دراسات عن التركيب الاجتماعى والثقافة الخاصة بالجماعات التى يراد توطينها .

— يجب أن يسبق عملية التخطيط للتوطين دراسة لطبيعة المنطقة من الناحية الجغرافية والجيولوجية ، ودراسة مواردها المائية والحيوانية ودراسة التربة وعمل خرائط توضح المناطق التى يتعذر استغلالها . وتوضح مناطق المراعى والنباتات المتوفرة فى المنطقة — ويحدد على الخرائط أيضا مناطق تجمع المياه وبقية المصادر المائية . ومن الضرورى أيضا دراسة الظروف الجوية للتعرف على معدل سقوط الأمطار وذلك بهدف تحديد المناطق التى يمكن استغلالها . هذا بجانب حصر مصادر المياه الجوفية وتحديد أعماق وقوى الماء ، وتجميع البيانات الخاصة بالآبار . وتهتم الدراسات أيضا بالثروة الحيوانية وكيفية وتحسين السلالات وعلاجها ووقايتها من الأمراض المنتشرة .

٦ — فيما يتعلق بالأنشطة الاقتصادية المرتبطة بالتوطين :

يجب أن يقوم التوطين على أساس نشاط اقتصادى واحد أو أكثر ، فأحيانا يقوم على أساس الزراعة ، ويتطلب هذا توفر الأراضى الزراعية والمياه اللازمة للرى وبقية مستلزمات الزراعة . أو يتطلب ذلك استصلاح الأراضى ، وايجاد سبل مستحدثة للرى ، وانتقاء الزراعات التى تناسب المناطق الصحراوية مثل اشجار الفاكهة وغيرها . ويتطلب أيضا الاهتمام بالثروة الحيوانية والتصنيع الزراعى للمحاصيل الصحراوية . وعادة ما يرتبط بعمليات التوطين التى تقوم على أساس الزراعة انشاء الجمعيات التعاونية وتمليك الأراضى المستصلحة .

وأحيانا يقوم التوطين على أساس امكانية توفر صناعات معينة ، ويحدث ذلك عندما تتوفر المناطق التعدينية التى تحتوى على الفحم أو المنجنيز أو البترول فى القطاع الصحراوى . وقد أدى هذا فى بعض الحالات الى احلال البدو محل عمال التراحيل فى المجالات التى أمكن للبدو العمل فيها . ويتطلب عمل البدو فى هذه الصناعات اقامة مراكز للتدريب تلحق بالشركات القائمة بالعمليات لتدريب البدو على الأعمال اليدوية والآلية ، واكسابهم خبرات ومهارات فنية يتطلبها العمل .

وأحيانا يقوم التوطين على أساس الصيد وذلك حينما تكون المناطق الصحراوية مطلة على البحار . والمثال الذى نأخذه لذلك هو الصحارى المصرية التى تطل على شواطىء البحر الأحمر والبحر المتوسط ولقد اهتمت بتنمية الثروة المائية فأنشأت مؤسسة للثروة المائية للمساهمة فى دعم الجمعيات التى تمد الذين يعملون فى الصيد بالقروض لتدريبهم على الوسائل الحديثة ، ثم تساعدهم على تسويق منتجاتهم . وقد أنشئت مراكز للصيد فى العريش والغردقة وتم امدادها بوسائل للتسويق مثل النقل ومخازن التبريد . ونتج عن هذا أن اتخذت كثير من الأسر البدوية من الصيد مهنة رئيسية وأقاموا بجوار البحر اقامة دائمة مما ساعد على التوطين والاستقرار .

٧ — فيما يتعلق بالقوانين والتشريعات اللازمة :

— يجب الاستعانة بالقوانين والتشريعات اللازمة للقضاء على العقبات المادية والمعنوية التى تعوق نجاح خطة التوطين أو تقف ضد تيار التحضر .

مراحل التوطين

يمر التوطين بعدة مراحل هى :

١ — مرحلة الدراسة :

وهى مرحلة اجراء البحوث والدراسات الخاصة بعملية التوطين ، وقد أشرنا فى المبادىء الأساسية للتوطين الى أن هذه البحوث والدراسات

يجب أن تكون هى المرحلة الأولى فى عملية التوطين ، كما أشرنا الى أنها تنقسم الى نوعين من الدراسات :

(أ) دراسات وأبحاث اجتماعية وثقافية تجرى على الجماعات البشرية نفسها متضمنة دراسة رغبات وميول ومهارات أفرادها للتعرف على الأوضاع التى تناسبهم ، ولاختيار أنسب الطرق التى تحقق استقرارهم وتوطنهم دون المساس بقيمهم الأساسية .

(ب) دراسات وأبحاث علمية تتعلق بالبيئة والتربة والجوانب الجيولوجية لاختيار أنسب الأماكن للتوطين ، ولاستغلال امكانيات البيئة الى اقصى حد .

٢ — مرحلة التخطيط المتكامل للمجتمعات الاستيطانية الجديدة :

ويتضمن هذا :

(أ) نشر دعوة التوطين بين الجماعات المقصود توطينها وتمهيدهم للحياة الجديدة .

(ب) اعداد البرامج والمشروعات الضرورية للحياة فى المجتمع الجديد .

(ج) وضع تخطيط للتنظيم الاجتماعى الملائم لهذه الجماعات .

(د) تجهيز الخدمات التعليمية والثقافية والصحية ، وخدمات المواصلات .

(هـ) تجهيز وسائل الاتصال ورصف الطرق بين مراكز التوطين .

(و) اعداد خطة الانتاج من حيث مستلزماته وتقدير نتائجه ، وتسويق المنتجات .

٣ — مرحلة التنفيذ وتكييف البدو حضاريا واجتماعيا واقتصاديا للأوضاع الجديدة :

وتعتبر هذه المرحلة هى أصعب المراحل ، ولكنها نهاية كل المراحل ، ذلك أن المرحلتين السابقتين (الدراسة والتخطيط) ، والمرحلة التالية لمرحلة التنفيذ (التقييم والمتابعة) كلها تهدف الى أن يصل الى تنفيذ أمثل يتحقق

من خلاله تكيف البدو من جميع الجوانب للأوضاع الجديدة .. بالاضافة الى ذلك لا يمكن البدء فى المرحلة الخامسة (التوسع والتعميم) قبل أن يثبت التكيف فى المجالات التى سبق ذكرها . ولكن يجب أن نضع فى اعتبارنا أن عملية التوطين لابد أن تواجه مشكلات تتعلق بالمعارضة وسوء التكيف ، وسوف تكون هذه المشكلات حادة فى البداية ، ولكن يمكن أن تقل حدة سوء التكيف بتكرار التعديلات وملاحقة المشكلات بحلول مناسبة ، ومراعاة المرونة فى التنفيذ .

٤ ـ مرحلة التقييم :

وهى مرحلة ضرورية يتم فيها تقييم المشروعات والخطط وتقدير النتائج التى أمكن التوصل اليها . ولا نعنى بالتقييم . تقييم الجوانب الاقتصادية فقط ، بل تقييم الجوانب المعنوية ، وما يتعلق بامكانيات تحقيق التكيف والتأقلم للبيئة الجديدة وللأعمال والعلاقات الجديدة .

٥ ـ مرحلة التوسع والتعميم :

من الطبيعى ألا تبدأ هذه المرحلة الا بعد ان يثبت التقييم أن تجربة التوطين قد نجحت ، وأن النتائج المرجوة قد تحققت أو على الأقل اقتربنا منها . وهذه المرحلة تعنى تعميم التجربة على جماعات أخرى غير الجماعة التى أجريت عليها التجربة الأولى ولكن مع ادراك التفاوت بين الجماعات ويلاحظ أن تطبيق تجارب التوطين لا يمكن أن تتم بصورة موحدة بالنسبة لكل الجماعات فلابد ان تكون هناك مواصفات خاصة لكل عملية توطين ، ولابد أن يختلف التخطيط لكل عملية ـ من حيث التفاصيل ـ وفقا لاعتبارات اقتصادية واجتماعية وثقافية وانسانية .

« الخدمات المرتبطة بالتوطين »

لابد من توفر عدد من الخدمات فى المجتمع التوطينى الجديد ، ذلك أن المنطقة التى سيتم توطين البدو فيها ستصبح منطقة عمران بشرى لا يمكن

أن تستقيم فيها الحياة بدون توفر هذه الخدمات . ولذلك فان نجاح خطة التوطين يرتبط بوجود الخدمات . بجانب أن توفرها يعفى من الاحساس بالمتاعب التى تساعد على ظهور حالات سوء التكيف والحنين الى المنطقة التى كان الفرد يعيش فيها قبل ذلك ، أو الحنين الى ممارسة نمط التجوال الذى تعود عليه . كذلك يؤدى توفر الخدمات الى احساس الجماعة بالاكتفاء الذاتى وسهولة المعيشة دون تحمل مشقة الالتجاء الى مناطق أو جهات أخرى تتوفر فيها هذه الخدمات . ومن أهم الخدمات التى يجب توفيرها الخدمات التعليمية والاجتماعية والطبية والمدنية والاداريه والسكنية . ويؤدى تعرفنا على نوعية المشروعات التى تمت بالفعل والتى اهتمت بتوفير هذه الخدمات الى التعرف على مزيد من التفصيلات التى تتعلق بهذا الجانب :

١ — مشروع معسكر الخدمات المتنقل :

أنشىء هذا المشروع سنة ١٩٦٤ لكى يحقق نقل الخدمات الى البدو فى أماكن تجمعهم ، وتنقسم الخدمات التى يقدمها المشروع الى :

(أ) خدمات طبية : ويخصص لهـــا سيارة عمليات ، وسيارة أشعة لفحص الأمراض الصدرية ، وسيارة ثالثة تستخدم كعيادة خارجية وتستخدم أيضا لصرف الدواء للبدو . ويقوم بالعمل فى هذا المجال أكثر من طبيب بالاضافة الى الصيدلى المختص بصرف الدواء .

ب) الخدمات الاجتماعية : ويقوم بها أخصائى اجتماعى مهمته صرف الاعانات المادية ، وباحثان لدراسة الحالة .

(جـ) الخدمات الدينية : ويقوم بها أئمة ووعاظ يحاولون استخدام الوازع الدينى لحث الناس على التخلص عن العادات السيئة ، والتشجيع على بناء المساجد .

(د) الخدمات المدنية : وهى تقوم بالمهام المتعلقة بالبطاقات الشخصية والعائلية وتسنين سواقط القيد وما الى ذلك .

(هـ) قافلة الاستعلامات : وقد خصص لها سيارة عرض سينمائى ، وفانوس سحرى وأجهزة اذاعة لتقوم بنشر الوعى .

(و) مجموعة الشئون الادارية : وتتكون من مجموعة من السيارات لنقل أدوات المعسكر والمواد الغذائية والمياه والخيام للعاملين بالمعسكر .

(ز) تحسين الثروة الحيوانية والدواجن : ويتم ذلك عن طريق قيام المعسكر بتوزيع السلالات الممتازة من الحيوانات والدواجن على البدو .

(ح) وحدة علاج وترقيم الجمال : وهى تضم طبيب بيطرى واثنين من المساعدين .

(ط) مشروعات الأسر المنتجة : يقوم المعسكر بتعليم الأسر البدوية صناعات البيئة كما يعمل على الارتقاء بما يزاولونه من صناعات لرفع مستوى الأسر ، كذلك يقوم بتقديم الخدمات الجيدة لهذه الأسر ثم مساعدتها فى تسويق منتجاتها . ويقضى المعسكر فى كل منطقة من ٥ : ١٠ أيام تختتم بمأدبة غذاء يلتقى فيها العاملين مع البدو مما يزيد الألفة بين الجميع .

وغنى عن البيان أن لمثل هذا المشروع مزايا متعددة بالنسبة للبدوى ، فهو يساعده على حل مشكلاته الصحية والاجتماعية ، كما يتيح له فرصة التحدث الى المتخصصين فى مختلف المجالات ، هؤلاء الذين يمكنهم ارشاده الى ما يمكنه من أن يتغلب على المشكلات ويتكيف للأوضاع الجديدة ، كما أنه يوفر التوعية الكافية لاقناع البدوى بقبول حياة الاستقرار . فضلا عن هذا فان البدوى عندما يتلقى هذه الخدمات يمكن أن يشعر باهتمام الدولة به وهذا يشعره بانسانيته وقيمته الاجتماعية . ويتيح له فرصة التعرف على حقوقه والتزاماته .

(٢) مشروع مراكز التعمير الصحراوية :

ويعمل هذا المشروع على انشاء مراكز خدمات مبسطة تتوسط مجتمعات البدو الذين يعيشون على الزراعة الموسمية لتقديم الخدمات والمساعدات لهم .

وبنفسا المركز حول مصدر من مصادر مياه الشرب نظرا لارتياد البدو له ، ويشتمل المركز على خزان مياه وحوض لسقى الحيوانات ، ووحدة انارة ، ونقطة شرطة ، ومركز تموين ، ومسجد ... الخ .

(٣) مشروع مجمع الخدمات بنخل :

انشىء هذا المشروع بمدينة نخل بسيناء سنة ١٩٦٣ لتقديم الخدمات للبدو المقيمين فى المنطقة ، ويضم المجمع مدرسة للمرحلة الابتدائية ، ووحدة صحية ووحدة اجتماعية ، بالاضافة الى مجموعة من المساكن لاقامة العاملين فى هذه الوحدات . وقد أفاد المشروع فى تقديم خدمات يصعب دخولها الى المنطقــة .

٤ ــ مشروعات الخدمات المتخصصة :

هناك مشروعات اخرى متخصصة تقام من أجل البدو . ومن امثلة هذه المشروعات التى تمت بالفعل :

(ا) مشروع التعليم الشامل والاعاشة بسيناء : ويهدف الــى توفير التعلم مع الاعاشة الكاملة من مأكل وملبس ومسكن للبدو غير القادرين على الانفاق ، وتبدأ الرعاية من المراحل الأولى حتى نهاية التعليم الجامعى . وقد بدأ المشروع بنتائج محدودة أثبتت نجاحها منها انشاء بيوت لطلبة الذين يعيشون بعيدا عن المدرسة . وقد بلغ عد البيوت سنة ١٩٦٣ سبعة بيوت تضم ٤٦٠ تلميذا . وقد يسرت لهم وسائل الترفيه والتثقيف بجانب الرعاية الصحية والاجتماعية . ثم وضعت التجربة بعد نجاحها فى أيــدى وزارة التربية والتعليم حيث قررت انشاء مؤسسات تتوسط تجمعات البدو ، وتشمل كلا منها مدرسة وبيت للطلبة كخطوة اولى لتعميم المشروع .

(ب) مشروع الطالب بمحافظة مطروح : قامت المحافظة بهذا المشروع تشجيعا للبدو الذين ادركوا بأنفسهم قيمة العلم وسعوا الى تجهيز المبانى اللازمة للمدارس وقد حقق هذا المشروع ما يأتى :

- صرف وحدتين من زى موحد سنويا بالمجان لكل طالب وطالبة بعد انشاء بيت للطلبة فى مرسى مطروح لاقامة أبناء البدو الوافدين الى المدينة للدراسة فى مدارسها .

- توفير الرعاية المادية لمن يلتحق بالجامعات والمعاهد العليا من الطلبة .

(ج) مشروع المدرسة ذات الفصل الواحد بالوادى الجديد :

وقد هدف هذا المشروع الى اقامة مدرسة (عبارة عن فصل واحد) فى كل تجمع فيه عدد مناسب من البدو . ويجمع الفصل من مختلف الأعمار والمراحل حيث يقسم التلاميذ فيه الى مجموعات . ويقوم مدرس واحد بتدريس كل مجموعة فى الوقت الواحد .

« مشكلات وصعوبات التوطين »

نظرا لأن عملية التوطين تتضمن أحداث تغييرات فى نمط الحياة واساليب المعيشة فان المتوقع ظهور مشكلات وصعوبات تتعلق بالتكيف وتتعلق بالاســـتجابة للخطط التى توضع لهدف توطين البدو . واذا كنا نقول أننا نحاول الحفاظ على الكيان البدوى وعدم المساس بالقيم الأساسية للبدو ، الا أن طبيعة التوطين والظروف المرتبطة به ، بالاضافة الى الحاجة الى اقامة المجتمع على أسس علمية سليمة وضرورة اتباع أساليب حديثة عادة ما يؤثر على الأوضاع التقليدية لهذه المجتمعات الأمر الذى يؤدى الى سوء التكيف أو الى اللامبالاة وأحيانا الى المقاومة والصراع .

والمشكلات التى ترتبط بالتوطين مشكلات متعددة فهناك مشكلات ترتبط بكل مرحلة من مراحله . فبعض المشكلات يظهر فى بداية التفكير فى التوطين ، وبعضها الآخر يصاحب مرحلة التنفيذ ، كما تظهر بعض المشكلات كمشكلات لاحقة للتوطين . واذا كانت المشكلات تختلف فى نوعيتها ، من المشكلات التى تتعلق بالدولة نفسها من حيث امكانياتها ومدى توفر المال اللازم ، ومدى توفر الجهات التى تقوم بالأبحاث المطلوبة ، بالاضافة الى المشكلات التى تتعلق بالظروف المناخية ومدى توفر المصادر الطبيعية ، والمشكلات التى تتعلق بالجماعات التى سيتم توطينها ، فاننا سوف نركز هنا على مناقشة هذه المشكلات الأخيرة الخاصة بالعنصر البشرى الذى نود توطينه ، وذلك بسبب أن المشكلات المادية والفنية وغيرها من المشكلات يمكن التغلب عليها اذا اتبعت الدولة التى تقوم بالتوطين الأسس التى يجب اتباعها وقامت باجراء البحوث اللازمة واستعانت بالخبرات والمساعدات المادية والفنية من الجهات المعنية وهذا ما ناقشناه فى الأجزاء السابقة .

واهم المشكلات والصعوبات التى تتعلق بالعنصر البشرى ما يلتى :

١ — سوء تفسير اهداف عملية التوطين :

أحيانا يسىء البدو تفسير اهداف عملية التوطين ذاتها : فهم يفسرونها علـى أنها عملية يقصد بها فرض التجنيـد الاجبارى ، أو الافادة منهم فى تعمير مناطق الحدود .. وهم يرون فى التوطين تغييرا أساسيا فى أسـلوب حياتهم يؤدى الى حصرهم فى مساحة ضيقة من الأرض بعد أن كانوا يجوبون الصحراء دون ما انسان يتحكم فيهم .

ويمكن أن يدرك البدو عملية التوطين أيضا على انها عملية تحقق صالح الدولة ولا تحقق صالحهم . فنظرا لأن بعض الجماعات البدوية كانت تقوم بالاغارة على قرى الحدود لاستكمال النقص فى مواردها ، فقد نظروا الى التوطين على أنه محاولة للتحكم فى حريتهم ، مع أن الهدف كان هو تقليل الخطر الذى تتعرض له المجتمعات الآمنة وفى نفس الوقت تحقيق استقرار البدو وربطهم بمصدر ثابت للرزق .

٢ — مقاومة القادة والشيوخ :

يقاوم قادة المجتمع البدوى التوطين مقاومة شديدة اذ يرونه عملية تؤدى الى تقويض دعائم القيادة السياسية التقليدية ، كما تؤدى الى تغير صورة الملكية وحدودها .

وتأتى المعارضة أيضا من شيوخ هذه الجماعات ، فهم يرون فى الأوضاع الجديدة تهديدا للوضع القبلى ، واذ يعتبر شيوخ القبائل هم الدعائم الأساسية لها فهم يتصدرون لمقاومة عمليات التوطين . ويلاحظ أن هذه المقاومة تخفى وراءها خوفهم على منزلتهم ومكانتهم الاجتماعية التى يمنحها لهم الوضـع القبلى والعشائرى . ويرى البعض منهم أن احكام سيطرتهم على أفراد القبائل والعشائر لا تستمر الا بالابتعاد عن الحكومة وعن سلطانها . ولهذا يرون أن استقرار القبائل وتوطينها فى مناطق معينة يحمل فى طياته القضاء على السلطة التى يمارسونها فى الوقت الحاضر وايذانا بسقوطهم فى المستقبل .

وعلى الرغم من أن بعض زعماء القبائل قد حققوا فوائد مادية من وراء التوطين اذ أصبحوا من كبار المزارعين ، وحققوا نفوذا ومالا لم يكن ممكنا أن يحققوه فى حالة الترحال قبل التوطين ، الا أنهم ظلوا يعارضوا فكـــرة التوطين . ولعل هذا يوضح لنا مدى سيطرة المصالح الشخصية والرغبة فى استمرار النفوذ والسيطرة لدى هؤلاء القادة .

وقد نتج عن ذلك أن ظل هؤلاء القادة — رغم تمتعهم بميزات كبيرة وسكانهم فى المدن — يعملون على ابقاء قبائلهم فى عزلة عن المجتمعات التى يعيشون فيها ، وبالتالى حجبوا عنهم وصول خدمات المجتمع اليهم ، فعاشت هذه الجماعات بعيـــدة عن الافادة من خدمات الدولة وبعيـــدة عن التحضر وقد رأى البعض أن التغلب على هذه المشكلة يمكن أن يأتى عن طريق تجزئة القبيلة الكبيرة الى عشائر وهذا يسهل اضعاف المعارضة الشديدة التى يبذلها قادة ومشايخ القبائل . ويتبع ذلك عقد مؤتمر يضم رؤساء العشائر بحيث يمكن شرح أهداف التوطين لهم ، واذا أبدا هؤلاء الرؤساء معارضة فان الأمر يتطلب الاتصال بمن يليهم فى الدرجة من بين أفراد القبيلة . على أننا يجب أن ننوه الى أن تجاهل مشايخ القبائل أمر غير مأمون النتائج ، ولا يجب أن نتوقع أن يستجيب رؤساء العشائر أو أفراد القبائل لدعوى التوطين بعيدا عن رؤسائهم ، فمن المعروف أن هناك الولاء القبلى للقبيلة ممثلة فى رئيسها أو شيخها ، ومن المعروف أن هذه القيادات عادة ما يكون لها نفوذ كبير بحيث ان اية جهود يمكن أن تبذل بعيدا عنهم يكون مصيرها الفشل . ولهذا يفضل بذل جهد كبير مع هؤلاء الرؤساء والمشايخ لاستمالتهم وكسبهم لصف الدعوة .

٣ — مخاوف البـــدو :

يخشى أفراد القبائل أن يهدد التوطين التقاليد الأساسية للقبيلة . فالبدوى يعتقد أن استقراره وممارســـته لمهنة جديدة ســـيبعده كثيرا عن التقاليد والعادات البدوية المحببة الى نفسه . ولهذا يجب على القائمين على عملية التوطين بذل الجهد لتوضيح أن التوطين لا يتعارض مع عاداتهم الأساسية .

كما يجب وضع برنامج تثقيفى يبتعد عن الشكليات والتعقيد الذى يأنفه البدوى . والبدوى أيضا يتخوف من التوطين بسبب خوفه من عدم درايته بأساليب الحياة المدنية المستقرة ، فهو لا يعرف شيئا عن الاقتصاد المنزلى وممارسة التجارة وغيرها . وهو يشعر أن استقراره فى منطقة معينة يتطلب منه أن يبيع أرضه وماشيته بعد فترة قصيرة ويبقى بعد ذلك عالة على غيره . ولهذا لابد أن يراعى القائمين على عملية التوطين توفير وسائل الانتاج لكل عائلة ، وتمكينها من تنظيمه بشكل يدر أرباحا على المستغلين له حتى يأمن البدوى على مستقبله ، ويألف حياة الاســـتقرار فتصبح الأرض عنصرا من عناصر حياته .

وهناك نوعية أخرى من المخاوف هى مخاوف البدو من الحكومة . معظم القبائل لديها حساسية تجاه أية محاولة تقوم بها الحكومة وتتعلق بالقبائل . وعلى سبيل المثال فهم يفسرون أية عملية احصاء سكانى تقوم بها الحكومة على انها تهدف الى بسط نفوذها وتحطيم استقلالهم وتجنيد أفرادهم اللائقين للخدمة العسكرية اجباريا .

وترجع هذه الحاسية والخوف الى أسباب تاريخية بعيدة نمت وتطورت عبر الزمن وادت الى نوع من النفور — ان لم يكن العداء من السلطة . فهم ما زالوا يعتبرون أنفسهم احرارا من أية واجبات تلقى على عاتقهم . بل هناك جماعات لا تعترف بوجود الدولة وتعتبر نفسها مستقلة عنها . ولعل هذا يرجع الى سوء الادارة الذى واجهته البلاد العربية فى ظل الحكم التركى ويرجع الى التعسف والمصادمات المسلحة التى وقعت بينهم وبين السلطة الأمر الذى طبع السلطة فى أذهان أعضاء القبائل بطابع الظلم والتعســـف والسعى وراء القمع لا اكثر . وهذا أدى الى نفورهم من مجرد اســـــم الحكومة . وقد ساهم فى تدعيم هذا الاحساس وتقويته صورة بعض موظفى الجهات الرسمية الذين يعينون فى هذه الأماكن لخدمة أهل البادية فبعض منهم يبدى من التصرفات ما يؤكد استخفافهم أو احتقارهم لهذه الجماعات .

٤ ــ مشكلة ملكية الأراضى :

ومن عوائق التوطين أيضا مشكلة ملكية الأراضى ، ذلك أن نظام الملكية فى المسارح البدوية ملكية مشاعة ، فالدار التى يتجول فيها البدوى هى دار القبيلة كلها . وهذه الملكية تعرضت لظروف وملابسات متعددة فى ظل اختلاف نظم الادارة الأجنبية ، وكذلك تنوع صور الملكية .

وهذه المشكلة تقلل من حرية العمل فى تخطيط مشروعات التوطين وقد تؤدى الى عدم نجاحها ذلك اذا ما وزعت الأراضى المستصلحة طبقا للنظام القبلى . ويحتاج تحقيق تقبل البدوى لنظم جديدة للملكية وتمثله لها واحترامه لقواعدها الى عملية تطبع وتحتاج الى صبر من جانب من يهدفون الى تغيير أحد المعالم الرئيسية للبناء الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع البدوى .

٥ ــ طبيعة الترحال لدى البدو :

من أهم معوقات التوطين تعود البدو على التنقل والترحال . فالبدوى يتعود على الترحال بسبب ندرة المياه وبسبب ظروف المعيشة . كذلك فان تفشى الأمية وانعدام الاتصال الثقافى بالمجتمع الأم جعل خبرة البدوى محدودة وأصبح يرى أن حياته ترتبط بحريته فى التجوال وممارسته للأعمال البدوية التقليدية . والأمر يحتاج فى هذه الحالة أكثر من مجرد الاقتناع البسيط ، فهو يحتاج بجانب عقد الندوات والمناقشات وفتح الحوار مع مختلف القيادات البدوية الى أن يشعر البدوى نفسه بأن عائدا أفضل سوف يجنيه اذا استقر فى مكان معين .

توطين البدو فى الوطن العربى

اهتمت الدول العربية بتوطين البدو والعمل على وصولهم الى مستوى حضارى لائق . وقد عقدت جامعة الدول العربية عدة مؤتمرات لمناقشة عملية التوطين ومحاولة التعرف على طرق التغلب على الصعوبات التى تعترض هذه العملية ، ووضع الحلول للمشكلات التى تنجم عن التوطين . ومن أمثلة

هذه المؤتمرات ، مؤتمر الخبراء العرب للشئون الاجتماعية والعمل الذى عقد بالقدس سنة ١٩٦٥ (٣) .

وعلى الرغم من وجود مشكلات كثيرة تتصل بعملية التوطين فى الوطن العربى الا أن هناك عوامل كثيرة ساعدت على قبول بعض الجماعات البدوية للفكرة . ومن هذه العوامل :

١ — أن بعض أبناء الجماعات البدوية قد نالوا حظهم من التعليم وذلك بسبب قرب الجماعة من المناطق الحضرية ، أو بسبب وصول خدمات التعليم الى المناطق الصحراوية . فقد ساهم هذا فى ايجاد من يستطيعون قبول الأفكار الجديدة واقناع غيرهم بها .

٢ — أدى تجنيد أبناء الجماعات البدوية الى ان يخرجوا من عزلتهم ، ويحتكوا بثقافة المجتمع الأم فى المدن وغيرها . وقد أثر ذلك على عاداتهم وقيمهم التقليدية .

٣ — أدى انشاء معسكرات للجيش فى المناطق الصحراوية الى قيام روابط بين افراد الجيش وبين البدو مما ادى الى انتقال بعض القيم والوسائل الحديثة اليهم ، كذلك أدى قيام بعض المشروعات بجوار المناطق التى يعيش فيها البدو الى تأثيرات مماثلة .

٤ — أدى انتشار وسائل المواصلات ووسائل النقل الحديثة وتعبيد الطرق الى القضاء على عزلة كثير من الجماعات البدوية سواء عن طريق وصول الخدمات والبضائع والوسائل الحديثة اليهم ، او عن طريق انتقال البدو انفسهم الى المدن بهدف الزيارة أو التجارة او غيرها .

---

(٣) لقد شاركت المحافظات الصحراوية بجمهورية مصر العربية فى دراسة شاملة للمشروعات التى نفذت وتنفذ بهدف طرح مقترحاتها بشكل يفيد لجان المؤتمر ولذا أعدت ادارة البحوث الفنية بالوزارة استمارة بحث لجمع البيانات من المحافظات ومن المشروعات الخاصة بعملية التوطين .

٥ ـ امتد نفوذ الدولة الى المناطق البعيدة بحيث اصبحت معظم الجماعات تخضع للنظام العام للدولة مما أثر على قوة وشيوع القانون والمحاكم العرفية وترب أبناء هذه الجماعات من التعامل مع القانون السائد فى الدولة ، وعلى سبيل المثال أدى تطبيق نظام الادارة المحلية فى مصر واشراك البدو فى حكم انفسهم الى قبولهم لسلطة الدولة .

٦ ـ أدى تعامل البدوى مع الأساليب الحديثة ، واستخدامه للوسائل التكنولوجية العصرية الى ادراكه لمدى فائدتها وتقديره للعائد منها . وقد أدى هذا به الى أن يقارن بين تمسكه ببقاءه فى حالة التجوال دون أية امكانيات مع اصراره على عزلته عن المجتمع الكبير وبين المنافع التى يمكن أن يحصل عليها فى حالة الاستقرار والاقتراب من أجزاء المجتمع المستقرة والانتفاع بخدماتها وما يوجد بها من وسائل حديثة .

٧ ـ أدى النزاع بين الدول على الحدود الى نوع من التوطين السياسى بهدف الدفاع عن هذه الحدود .

نماذج من تجارب الدول العربية فى توطين البدو :

اهتمت معظم الحكومات العربية بتوطين البدو ويرجع ذلك الى انتشار أعداد كبيرة من البدو فى أراضيها . ويؤدى تقديم تجارب بعض الدول فى هذا المضمار الى التعرف على الجهود التى تبذلها كل دولة وفى نفس الوقت الوقوف على نماذج من مشروعات التوطين .

التوطين فى مصر :

من المعروف أن الصحارى تمثل نسبة كبيرة من مساحة جمهورية مصر العربية ولما كانت طبيعة الصحراء جافة وقليلة المطر بوجه عام فان البدو عادة ما يبحثون عن الأماكن التى يسقط فيها المطر . ولما كان سقوط المطر يأخذ شكلا منظما فنجد أن البدو يضطرون للرحيل بقطعانهم الى المناطق المطيرة

فى مواسم المطر . كما أن البدو يتجمعون ايضا فى الوديان والمناطق المنخفضة التى تنمو فيها نباتات فوق الهضاب أو فى السهول لترعى فيها اغنامهم . ونجدهم أيضا يعيشون فى شكل جماعات صغيرة حول الآبار . وعلى الرغم من أن نسبة كبيرة من بدو مصر قد استقروا وتوطنوا تلقائيا فى محافظات مثل البحيرة والشرقية والفيوم وقنا ، الا أن جماعات اخرى ظلت تمارس التجوال وتعيش حياة غير مستقرة صعب معها توصيل الخدمات اليهم مما ادى الى التفكير فى موضوع توطينهم . بالاضافة الى ذلك فانه منذ انشاء المؤسسة العامة لتعمير الصحارى سنة ١٩٥٩ وهى تحاول استغلال موارد المياه ، وتنمية الموارد الأخرى بالصحراء ، وتحقيق التوسع الزراعى تمشيا مع خطة التنمية . وكان على المؤسسة لكى تحقق ذلك أن تهتم بالتوطين وأن تعمل على مواجهة المشكلات التى تتعلق به . ولكن هذه المشكلات لم تكن عسيرة الحل طالما أن البدوى ينتقل أساسا بسبب حاجته الى مورد ثابت للرزق ، وطالما توفر له المورد الثابت فانه يمكن أن يستقر على أن تكون ظروف الاستقرار مناسبة له وأن يقتنع بها . وقد حدث ذلك فى غرب الاسكندرية اذ حينما نجحت الزراعة اضطر البدوى الى الاستقرار ، وهذا يثبت أن عملية التوطين ترتبط اساسا بايجاد مورد ثابت للرزق يناسب البدوى .

ويمكننا أن نميز مشروعين اساسيين للتوطين فى مصر :

١ — مشروع التوطين فى الساحل الشمالى للصحراء الغربية :

تعيش مجموعات البدو فى هذه المنطقة على الزراعة ورعى الأغنام . وهم ينتمون الى قبائل أولاد على ويدينون بالدين الاسلامى وكان يعيش معظمهم فى الخيام .

ويعتبر مشروع توطين البدو بالساحل الشمالى بالصحراء الغربية هو أفضل نموذج لتوطين البدو فى جمهورية مصر العربية ، ذلك أن هذه المنطقة تمتد بطول ٥٢٠ مترا من غرب الدلتا وحتى الحدود الليبية . وتتميز هذه المنطقة بارتفاع نسبى فى معدل سقوط الأمطار واعتدال مناخها عن باقى المناطق

الصحراوية الأخرى فتعتمد المنطقة على الأمطار التى تسقط بمعدل ١٥٠ ملليمتر ، غير أنها تعد أمطارا غير كافية لغرض الزراعة ، بالاضافة الى عدم انتظامها . وقد توجت الجهود التى بذلت من اجل توطينهم بالنجاح خاصة فى منطقة غرب الاسكندرية اذ عملوا فى الزراعة الى جانب الرعى ، كما تركوا الخيام أو استخدموها فى الصيف الى جانب البيوت ، كما انشئت لهم المدارس .

وقد بدأ التوطين فى مطروح بمجموعة دراسات فنية عن التربة وعن طبيعة المنطقة من الناحية الجغرافية والجيولوجية ، فأعدت خرائط لكل المناطق التى نفذت فيها عمليات التوطين التجريبية وتم تحديد صلاحية أراضى المنطقة للزراعة ، مع دراسات لمصادر المياه . كذلك اجريت دراسات تتعلق بالثروة الحيوانية وتتعلق بعملية الرعى وأعدت ايضا خريطة جوية لمناطق الرعى . وقد اتجهت مجموعة من الدراسات الى البحث عن النباتات المحلية والأجنبية لتحسين الغطاء النباتى . واسست مراكز توزيع البذور والشتلات النباتية الجيدة ، وتم تحديد ما تتحمله المراعى من حيوانات .

كذلك أجريت بعض الدراسات الاجتماعية والنفسية . وذلك فى مجال الاهتمام بالجانب البشرى ، فحاولت أن تتعرف على ثقافة البدو والدوافع التى تكمن وراء سلوك البدو ، والتعرف على استجاباتهم لأعمال التنمية وغير ذلك .

وبعد أن استكملت الدراسات بدأ تنفيذ مشروعات الخطة فى المنطقة وهى تقوم على اساس خطة تنمية اقتصادية واجتماعية تتم بالتعاون مع بعض منظمات الأمم المتحدة فى بعض مناشط الخطة . وذلك فى شكل اتفاقيات بين كل من جمهورية مصر العربية وهذه المنظمات .. وقد قامت خطة التنمية على أساس التكامل الاقتصادى ، واستهدف الجانب الاقتصادى منها انشاء مناطق رى كاملة تشمل استصلاح واستزراع حوالى ٥٠٠٠٠ فدان (مشروع ناصر) ، كما تتضمن انشاء منطقة رى بالاضافة الى مياه الأمطار — وتستصلح فيها

٣٠٠٠٠ فدان ، وأيضا منطقة مراعى ووديان تعتمد على مياه الأمطار وتتمثل فى بعض الأودية وتقدر مساحتها بحوالى ٦٠٠٠٠ فدان للزراعة والرعى ، ثم التوسع تدريجيا فى منطقة سيدى برانى بحيث يمكن زراعة البساتين فى هذه المنطقة .

وقد كان من ضمن أساسيات هذه الخطة الاهتمام بتربية الدواجن ونشر الصناعات التقليدية كمصادر للدخل ، كما كان تشجيع السياحة الداخلية والخارجية من ضمن أهداف الخطة أيضا .

وانطلاقا نحو هدف تعبئة الجهود البشرية وتوجيهها انشئت مجموعة من الجمعيات التعاونية ذات الأهداف المتعددة ، كما أنشىء اتحاد تعاونى على مستوى محافظة مطروح . وفى ظل نظام الادارة المحلية أمكن تدريب البدو على نظم القيادة الجديدة ، وتقوية علاقاتهم بالنظام السياسى لربطهم بالمجتمع القومى .

وكان من نتائج هذه التجربة أن تم استصلاح وزراعة ١١ الف فدان ، ووزع ستة آلاف منها على البدو فى الوديان . كما تحسنت مساحات كبيرة من المراعى . ولهذا نجد أنه قد تقدمت زراعة البساتين ، انتشرت صناعات السجاد ومعاصر الزيتون وصناعة التين . وقد أدى ذلك الى زيادة الدخل السنوى وزيادة متوسط دخل الأسرة . وقد زاد عدد المنظمات التعاونية ، كما زادت الخدمات المختلفة ، وعلى سبيل المثال زادت الخدمات الصحية ، اذ تم انشاء المستشفيات والصيدليات ، وكذلك الخدمات التعليمية والاجتماعية فأنشئت المدارس والأندية الرياضية ، ونما النشاط الدينى ، وتغيرت أشكال المساكن التقليدية .

٢ ــ مشروع التوطين بسيناء :

سيناء شبه جزيرة تقع على الطرف الأعلى للبحر الأحمر بين خليج العقبة شرقا والسويس غربا . ولسيناء اهمية استراتيجية اذ تعتبر مفتاح

جميع الطرق الموصلة بين وادى النيل والأردن وفلسطين والحجاز . ويعيش فى سيناء عدد كبير من البدو .

وقد أعد مشروعا متعدد الفروع والأهداف لتطوير هذا المجتمع فى عشر سنوات ، وتضمن المشروع استصلاح الأراضى وتمليكها للبدو وتحويلهم الى مجتمع زراعى ، وقد كان للمشروع أهدافا أخرى مثل استغلال الســواحل الشمالية والتوسع فى نشاط الصيد . ونظرا لأن سيناء غنية بالثروة البترولية فقد كان المشروع يهدف الى انشاء صناعات التعدين ، وتحويل البدو الى مجتمع صناعى ومنحهم الحرية فى العمل .

التوطين فى الدول العربية الأخرى :

اهتمت الدول العربية الأخرى خارج مصر بتوطين البدو ، فقد قامت العراق على سبيل المثال باجراء مسح احصائى لكل منطقة يسكنها البدو ، وحددت مواقع الآبار ومصادر المياه فى المناطق الصحراوية ، كذلك عملت الحكومة على تشجيع الزراعة لكى تساعد هذه الدول على الاستقرار .

أما سوريا فقد نجحت حكومتها فى توطين انصاف البدو فى قرى . وقد وضعت الأراضى التى يمكن استخدامها كمراع تحت تصرف الرعاة وذلك باعتبارها ملكية عامة ، كما تم تحويل الأراضى الصالحة للزراعة الى حقول للقمح والشعير بالاضافة الى زيادة دخل البدو ٣ مليون هكتار فى المناطق الجرداء ونصف الجرداء . وقد أدى هذا الى زيادة دخل البدو من الزراعة .

وفى ليبيا أهتمت الحكومة بوضع برامج للبدو فأنشأت مؤسسة الاستيطان الزراعى ، وخصصت مبلغ كبير للانفاق على عمليات التوطين . وأقــامت الحكومة كذلك عدة مشروعات فى محافظات طرابلس والزاوية والجبل الأخضر أدت الى استيطان ٦٧٢ عائلة . كما أجرى مسح لوضع خرائط مســـاحية للزراعة ولانشاء مزارع جديدة .

أما السعودية التى يعيش فيها عدد كبير من البدو تتفاوت نسبتهم من

منطقة الى أخرى فقد نفذت أيضا عدة مشروعات تخدم عملية التوطين ، ومنها مشروع وادى الشهباء وكان يهدف أى استصلاح ٤٠٠٠ هكتار وتوزيعها على الف أسرة وقد ساهمت فى هذا المشروع أكثر من جهة . وحدد له أن يبدأ فى سنة ١٩٦٥ ، وينتهى فى سنة ١٩٧٥ . وهناك مشروع وادى السرحان . وقامت فيه الحكومة بتوزيع مضخات الآبار السطحية ، كما وزعت بذور البرسيم لزراعتها . ولكن لم يكتب لهذا المشروع النجاح بسبب عدم دراية المزارعين باستخدام المضخات ونضوب مياه الآبار وعدم صلاحية الأرض المستخدمة . كذلك هناك مشروع وادى التبوك ، وكان يهدف الى توطين حوالى ٢٤٠٧ شخص وذلك عن طريق استصلاح حوالى ٩٤٣٣ هكتار ، كما يتضمن توزيع المضخات والآلات الزراعية .

ولما كان بدو الأردن يتوزعون فى شكل أنماط ، اذ هناك البدو الذين يسكنون بيوت الشعر ويقومون بتربية الابل والأغنام ويعيشون فى البادية ، والبدو الذين يسكنون المغائر ويربون الأغنام ويعتبرون أكثر اتصالا بالحضر ، والفئة التى تملك الأرض وتعمل فى الزراعة — بالاضافة الى تربية الأغنام وبعض الابل — وهم بالطبع أكثر استقرارا ، فقد قامت الحكومة بعدة مشروعات مثل مشروع مياه الأمطار لاستخدامها أثناء الجفاف ، ومشروع الحفر المائية الكبيرة فى مناطق تجمع المياه ، والمشروع التجريبى لتوطين البدو وزرع أنواع من المحاصيل والأشجار . ولقد نتج عن ذلك ظهور الكثير من القرى على أطراف الصحراء بجانب الكثير من المناطق .

وقامت حكومة الأردن بعمليات توطين اجبارية وذلك باتباع وسائل مختلفة لجأت اليها بسبب ظروف الجفاف المتواصل الذى استمر عدة سنوات . كما تمت عملية توطن جماعات أخرى بمساعدة السلطات المسئولة وذلك بعد أن قبل البدو ذلك نتيجة لسريان التيار الحضارى بينهم ونتيجة لحرص الدولة على تحسين أوضاعهم . وفى نفس الوقت تم توطين بعض الجماعات تلقائيا نتيجة لانخراط بعض أبنائها فى الجندية وارتباط البعض الآخر بالأعمال المدنية .

الباب الثانى

الثقـــافة

قناع عاكس للتاريخ والواقع الاجتماعى .

الفصل الثالث : الخصائص العامة لثقافة الجماعات الصحراوية .

الفصل الرابع : الثقافة والواقع الاجتماعى عند قبائل أولاد على . (دراسة ميدانية) .

الفصل الثالث

الخصائص العامة لثقافة المجتمعات الصحراوية

من الطبيعي أن نتوقع أن تحوى الثقافة البدوية عناصر ثقافية نوعية مثل تلك التى توجد فى اى ثقافة اخرى . فهى تحتوى على عناصر مادية مثل ادوات العمل وادوات الطهى والأثاث والملابس وغيرها . وتحتوى أيضا على عناصر لا مادية مثل العادات والتقاليد والمعتقدات والأعراف . وللثقافة الصحراوية أيضا جانبها الضمنى المخفى الذى يمكن التعرف عليه فقط من خلال تحليل السلوك الظاهر أو الأشياء المادية الملموسة ، ولها أيضا جانبها الصريح الذى يمكن ملاحظته مباشرة . ويمكن أن نلمس فى الثقافة البدوية وجود ذلك الفارق الذى نلمسه دائما فى دراسة أى ثقافة بين النموذج والواقع ، أو بين المثل الأعلى والسلوك الفعلى . وتتميز عناصر الثقافة أيضا بالثبات النسبى . وتلعب العوامل المجتمعية دورا مؤثرا فى ثقافة المجتمع البدوى يشبه ذلك الدور الذى تلعبه فى أى ثقافة . من واقع التسلح بهذا الفهم يجب أن يبدأ اى دارس لثقافة مجتمع الصحراء .

غير أننا من واقع تسليمنا لواقعية ظاهرة التعدد والتباين الثقافى التى تميز الثقافات العالمية يمكن أن نلمح تميزا لثقافة مجتمعات الصحراء عن ثقافة مجتمعات أخرى مثل المجتمعات الحضرية او الريفية . ويرجع هذا التميز — خاصة فى حالة الجماعات التقليدية التى لم تتأثر بعوامل التحضر الحديثة — الى أسباب عديدة . فقد يكون التميز الثقافى راجعا الى اختلاف الجنس أو الانتماء السلالى مثلما هو الحال عندما تنتمى الجماعات البدوية الى أصول

قبلية تختلف عن الأصول التى ينتمى اليها أغلبية سكان المجتمع الذى تعيش فيه . فى هذه الحالة ربما تظل الجماعة الصحراوية تتوارث الجماعات التى انحدرت منها . ويساهم فى استمرار بقاء الثقافة الفرعية العزلة الجغرافية لهذه الجماعات وبعدها عن تيارات التغيير . وقد يكون التميز الثقافى راجعا الى أسباب وعوامل اقتصادية . فنوعية النشاط الاقتصادى الذى تمارسه الجماعة — وقد يختلف من منطقة الى أخرى — يتطلب مواجهة مشكلات والوفاء بمتطلبات تساعد على ظهور أشياء مادية ونماذج سلوكية ترتبط بهذا النشاط . فالرعى على سبيل المثال نشاط اقتصادى يتطلب نوعا من التكيف يختلف عن ذلك الذى يتطلبه نشاط الزراعة . ويعتبر نوع المحصول وتنميته تحت ظروف معينة وكمية المياه المطلوبة سببا فى التنوع الثقافى .
وعلى الرغم من أنه من عدم الدقة القول بأن العوامل البيئية هى العوامل المحددة للثقافة فانه من عدم الدقة أيضا تجاهل هذه العوامل نهائيا . فنحن اذا استعرضنا الأنشطة الاقتصادية المختلفة التى تمارسها الجماعات الصحراوية بمكننا أن نتعرف على كيفية اسهام العوامل البيئية فى نوعية النشاط الاقتصادى الذى يؤثر بدوره فى تشكيل الثقافة السائدة . فهناك قبائل عديدة تعيش فى المناطق الصحراوية وتعتمد على الرعى . وتنخفض كثافة السكان فى هذه المناطق وهذا يؤثر على شكل التجمعات التى تضم أعدادا قليلة من البدو يرحلون معا عندما ينضب الطعام من المنطقة التى يعيشون فيها . أما الجماعات التى تعيش فى مناطق وفيرة المياه وتعمل بالزراعة أو بصيد الأسماك أو بجمع ما تجود به الطبيعة فان اقامتهم تكون مستقرة كما تزداد كثافتهم السكانية فى المكان الواحد ، وتوفر لهم المحاصيل فائضا من الانتاج ، كما توفر لهم وقت فراغ يساعد على نمو انشطة جديدة لا تتوفر لغيرهم . ويجب أن ندرك حقيقتين : الحقيقة الأولى ، أنه لا يوجد عامل بيئى واحد يؤثر فى النشاط الاقتصادى وبالتالى يؤثر فى نمط الثقافة السائد . والحقيقة الثانية هى أن الكفاح مع البيئة من أجل اشباع الحاجات الأساسية للانسان يؤدى الى وجود ثقافة نوعية تستمر على حالها — نسبيا — طالما بقيت ظروف البيئة مستمرة ، وتتغير بعض معالمها اذا تغيرت هذه الظروف ،

ذلك أن الفائض من الوقت ومن الطاقة الانسانية يعتبران وقودا ضروريا لتغير الثقافة (١) .

اهم السمات المميزة للثقافة فى الصحراء :

● الثقافة الصحراوية هى محصلة تفاعل النشاط الانسانى مع البيئة من أجل اشباع الحاجات البشرية :

يعكس التراث الثقافى لمجتمعات الصحراء — خاصة التقليدية منها — بجلاء كفاح الانسان وجهوده من أجل اشباع حاجاته البشرية كالحاجة الى الطعام والراحة والمأوى وتأمين نفسه ضد ما يهدد حياته فى ضوء امكانيات بيئة محدودة الموارد . والعناصر الثقافية التى يمكن أن توضح هذه الخاصية بجلاء هى عنصر الثقافة المادية ، فالانسان فى اشباع حاجاته الى الطعام فى هذه البيئة الجرداء تعلم الانتفاع بما تجود به البيئة من ثمار كالتمر وما يمكنه زراعته من محاصيل كالشعير لكى يفى بحاجته الى الطعام . وفى بحثه عن ذلك تعلم كيفية حفظ الثمار وتحويل الحبوب الى دقيق ثم تحويلها الى خبز . وتوضح لنا طريقة صنع الخبز لدى الجماعات الصحراوية التقليدية ذلك التفاعل بين الانسان والبيئة لاشباع الحاجة . فالبدوية تحول الحبوب الى دقيق عن طريق عملية الطحن التقليدية بالرحى . ثم تمزج الدقيق بقليل من الملح مع الماء فى « طشت » وتقوم بعجنه . وعندما تصبح العجينة يابسة تبسطها الى رغيف مسطح مستدير يبلغ سمكه حوالى ١½ بوصة . ثم يذهبون به الى النار وبعدها يضعون الرغيف على الرمل الساخن ثم يضعون فوقه أيضا كمية من الرمل الساخن . ويعتمد الوقت الذى تستغرقه عملية صنع الرغيف على درجة الحرارة (٢) . وفى هذه الحالة تعتبر الرحى

---

(١) وزارة الشئون الاجتماعية ، مؤتمر التنمية الاجتماعية للبيئات الصحراوية ، مرسى مطروح مرجع سابق ، ص ص ٢٣٨ — ٢٤٠ .

(٢) Falls E., Three Years in the Libyan Desert, London, 1913, p. 19.

كثقافة مادية وطرق اعداد الرغيف ثقافة لا مادية ابتكرت لاشباع الحاجة من خلال امكانيات البيئة .

ويدل المسكن البدوى والأثاث الذى يحويه أيضا على محاولة الانسان الانتفاع بمعطيات البيئة . فالبدو عادة يسكنون الخيام التى تصنع من صوف الجمال أو الأغنام التى تنسج وتخيط معا . كما تغطى الأرض أيضا بالحصر أو السجاجيد التى تصنع يدويا من أصواف الحيوانات المغزولة . ومن المعروف أن الجمال والأغنام هى الحيوانات الموجودة فى البيئة الصحراوية والتى حاول الانسان استغلال صوفها لهذه الأغراض . وتشير الخيمة الشتوية السميكة الى محاولة التكيف للجو البارد (٣) . أما الخيمة الصيفية المتسعة الخفيفة فهى محاولة للتكيف لحرارة الصحراء الشديدة . كذلك فان الأثاث والمفروشات تشير الى محاولة استغلال البيئة بأقصى ما يمكن . فالأغطية المختلفة تنسج من الوبر والوصوف ، والأخراج تصنع ايضا من الصوف الأبيض أو الملون وتعمل لها شراريب من الصوف والشعر .

وتدل ملابس البدو على نفس الحقيقة ، وعلى سبيل المثال يرتدى بعض البدو فى الشتاء ما يسمى « بالجعدان » وهو رداء مصنوع من جلد الضأن غير المدبوغ يرتديه البدوى مقلوبا ، أى يكون صوفه الى جهة الظهر ويؤتى بطرف منه فوق الكتف الأيمن والطرف الآخر تحت الابط الأيسر ، ويعقد الطرفان على الصدر . وتصنع النعال أيضا من جلد الحيوان . وتصبغ النساء ملابسهن بصبغات مصنوعة من جذور النباتات المتوفرة فى البيئة (٤) ..

● تحوى الثقافات الصحراوية عناصر وممارسات موروثة (ربما من أصول نجهلها) ، وهى تشبه تلك العناصر التى توجد لدى جماعات غير صحراوية وان اختلفت فى الشكل والمسمى :

---

(٣) بلجراف ، المرجع السابق ، ص ص ١٨ ، ١٩ .

(٤) اللواء رفعت الجوهرى ، شريعة الصحراء . عادات وتقاليد ، وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ، القاهرة ، سنة ١٩٦١ ، ص ص ٣٢ — ٣٥ .

لا يمكن النظر الى ثقافات الجماعات الصـــحراوية على أنها ثقافات مختلفة تماما عن ثقافات غيرها من المجتمعات . وربما هذا ما دعانا الى استخدام كلمة « ثقافة متميزة » مفضـــلين هـــذا المفهوم عن مفهوم الثقافة المختلفة . فكثير من عناصر ثقافات الجماعات البدوية وغيرها من الجماعات المستقرة فى الصحراء تتشابه من قريب أو من بعيد مع ثقافات ريفية أو حضرية . وربما يرجع ذلك الى تشابه الأصول . وعلى سبـيل المثال فان قاعدة الزواج من ابنة العم ، تلك القاعدة الصارمة التى أشرنا اليها فى اكثر من موضع فى هذا الكتاب هى ليست تقليدا خاصا بالمجتمع الصحراوى . فهى تنتشر بين جماعات ريفية وحضرية أيضا ، وان كان التمسك بهـا بدرجة أقل . وكل الفارق اذن يصبح فى درجة التمسك بالتقليد ، وليس فى تفاوت واختلاف نوعية التقليد . وتؤدى التغيرات التى تحدث فى المجتمع الصحراوى الى اضعاف التمسك بمثل هذه الممارسات ، هذا بجانب أن البدو يستجيبون للانتقادات التى توجه الى هـــذا الجانب . وقد وجهت انتقادات عديدة الى من يتمسكون بزواج الفتاة من ابن عمها الا اذا سمح لها هو بذلك ، وناشد البعض أبناء قبائل أولاد على أن يقلعوا عن هذه العادة لأنها تتضمن نوعا من القهر فى حالة عدم رضى الفتاة الزواج من ابن عمها (٥) .

كذلك فان ظاهرة الأخذ بالثأر اذا كانت تعتبر ممارسة منتشرة بين أبناء الصحراء فهى أيضا منتشرة بين جماعات أخرى مثل تلك التى تسكن صعيد مصر . وترجع جذور تلك العادة الى الجاهلية اذ كان العرب فى الجاهلية يعتقدون أن الرجل اذا قتل يخرج من رأسه طائر يدعى (الهامة) وحلق فوق قبره . فلا يزال يرفة قائلا « اسقونى اسقونى » حتى يثأر له . ويتشابه عرف الأخذ بالثأر فى الصحراء مع نفس العرف السائد فى مناطق أخرى ، ففى البادية اذا وقعت حادثة قتل فان أهل القتيل الأقربون قرابة تصـــل

---

(٥) خيرالله فضل عطيوة ، رحلة الألف عام مع قبائل أولاد على (بدون ناشر ، سبتمبر سنة ١٩٨٢ ، ص.١٧٩ .

الى الدرجة الخامسة يطاردون القاتل وأهله الأقربين الى الدرجة الخامسة طلبا للثأر . فاذا أخذوا بثأرهم فقتلوا القاتل أو أحدا من أهله الأقربين انتهى الأمر . وعادة ما يتحتم على القاتل الرحيل عن المكان (٦) . ومن الواضح أن هذا العرف يتشابه الى حد كبير مع ما هو سائد فى مناطق غير صحراوية .

وتوضح طرق الرقص الشعبى التقليدية السائدة فى الصحراء تشابهها الشديد مع رقصات عديدة تنتشر بين الجماعات الريفية . وعلى سبيل المثال فان وصف الراقصتان البدويتان الذى ورد فى كتاب (ثلاثة أعوام فى الصحراء الليبية » يشبه وصف الراقصات التقليديات فى الريف المصرى . فالفتاتان كانتا تدوران وسط دائرة واسعة من البدو ، وتحمل كل منهما فى يدها عصا تضعها فوق رأسها . وكانت ترتدى كل راقصة جلبابا اسود ذى أكمام طويلة وحزام وسط قرمزى . وكل الفارق بين الراقصة البدوية والراقصة الريفية أن الراقصة البدوية ترقص وهى مغطاة الوجه تماما (٧) .

ويلاحظ أن بعض الممارسات التى تبدو دخيلة على الاطار والخلفية الثقافية للبدو يمكن أن تكون موروثة أو منقولة من جماعات تختلف ثقافتها عن ثقافة الجماعة البدوية . وعلى سبيل المثال فان الممارسة التى ذكرها اللواء رفعت الجوهرى فى كتابه شريعة الصحراء تحت عنوان « زيارة البحر » وتتضمن قيام بدو سيناء فى القديم جدا بتقديم الذبائح للبحر يمكن أن تكون عادة وثنية متوارثة . فهو يذكر أنهم كانوا يقومون كل عام بعد الربيع بزيارة البحر بخيامهم ويذبحون الذبائح ويرمون رؤوس الذبائح وأرجلها وجلودها فى البحر ويقولون عند رميها « هذا عشاك يابحر » ويطبخون باقى اللحم فيأكلون منه ويطعمون المارة . كذلك ذكر ممارسة أخرى أسماها « زيارة الشجر » وتتضمن قيام نساء بعض البدو باكرام بعض الأشجار وزيارتها وتعليق قطعا من النقود القديمة والحديثة والخرز وحب العدس على

---

(٦) اللواء رفعت الجوهرى ، المرجع السابق ، صص ٥٨ ، ٥٩ .
(٧) فالز ، المرجع السابق ، ص ١١ .

الشجرة . وتعليق أباريق الزيت فى بعض أغصانها . كما تتضمن أيضا تقديم النذور . واذا كان اللواء رفعت الجوهرى قد ذكر أن هناك احتمال أن يرجع ذلك الى الأهمية القصوى للأشجار الظليلة فى الصحراء (٨) ، الا أن الاحتمال الأكبر أن تكون هذه الممارسات موروثة من جماعات مارست عبادة البحر أو الأشجار .

● تتأثر كثير من جوانب الثقافة فى الصحراء بنسق المعتقدات الدينية أو غير الدينية . ويمكن تفسير هذه الجوانب والنماذج التى تبدو غير منطقية بالرجوع الى نسق المعتقدات الذى كونته الجماعة عبر فترات تاريخية طويلة .

سكان الصحراء — مثلهم مثل أية جماعة أخرى — لهم نسق معتقدات تكون خلال مئات بل آلاف السنوات . وقد كان هذا النسق محصلة خبرات وتجارب مع عالم الطبيعة وعالم المجهول ومحصلة العلاقات التى استعارت فيها الجماعة بعض هذه العناصر من جماعات أخرى . فالانسان يكون من خلال علاقاته الناجحة أو الفاشلة مع الطبيعة بهدف تسخيرها أفكارا عن طبيعة الأشياء ، وعندما ترسخ هذه الأفكار تمثل معتقدات بعدها يبدأ الانسان يفكر فى كيف يسلك تجاه عالم الموجودات الطبيعية . وقد أدى فشل الانسان فى بعض الأحيان فى تفسير كثير من ظواهر الطبيعة الى اعتقاده فى ارتباط هذه الظواهر المرئية والمحسوسة بكائنات غير مرئية تتحكم فيما لم يستطع هو التحكم فيه من عالم الظواهر . ولهذا كون الانسان أفكارا عديدة عن العالم غير المرئى ، ونظم ممارسات للتعامل مع هذا العالم اتقاءا لشره أو استرضاءا له أو طلبا لمعونته ومساعدته .

والجماعات الصحراوية — خاصة البدائى والتقليدى منها — لابد أن تكون قد كونت معارف ومعتقدات بهذه الطريقة خاصة أن العلاقة مع عالم الطبيعة تعتبر علاقة دائمة ومكثفة . ولم يكن فى كثير من الأحيان لهذه الجماعات خلفية علمية تمكنها بسهولة من تفسير الظواهر الطبيعية خاصة

---

(٨) اللواء رفعت الجوهرى ، المرجع السابق ، ص ٥٢ .

المفاجيء وغير المتوقع منها . وهذا يعطى بلا شك فرصة لتكوين تفسيرات ومعتقدات شتى ربما لا ترتبط كثيرا بحقيقة الأمور . لهذا ليس غريبا أن نجد لديهم الكثير من المعتقدات . وهذا يفسر أنواع السلوك العديدة مثل تعليق الأحجبة والتعاويذ على أبواب الخيم . ويفسر التجائهم الى العرافين وغيرهم ممن يقومون بالأعمال الغيبية .

في ضوء ذلك فهناك معتقدات عديدة لدى الجماعات الصحراوية . وعلى سبيل المثال تعتقد بعض الجماعات القبلية فى افريقيا أن هناك مكان فى الصحراء يتحول فيه كل الرجال الى كلاب وقت غروب الشمس . ويطوفون الغابات المظلمة ويصف الناس كيف وصل بعض الأفراد الى هذا المكان وعادوا أحياء . وقد ادعى احد الأشخاص أنه تزوج من هذه البلاد ، وذات ليلة وصل عدد من الكلاب الى كوخه وحملوا الزوجة وعادوا بها الى نفس المكان (٩) . وقد كونت الجماعات البدوية أفكارا عن الأرواح والعفاريت . فتعتقد بعض الجماعات أن العفريت يأتى فى صورة حصان أو قط .

والشخص المهتم بدراسة المجتمع الصحراوى لن يقتصر فى دراسته لهذا الجانب على سرد أنواع المعتقدات فقط أو ايضاح مدى اختلافها عن معتقدات جماعات أخرى كما يحدث مع كثير من الدارسين . فان تفسيرا لكثير من أنواع السلوك البشرى يمكن فهمها — كما ذكرنا منذ البداية — بالتعرف على نسق المعتقدات . وعلى سبيل المثال فان تعرفنا على وجود معتقد التشاؤم يمكن أن يفسر لنا عزوف البدوى عن السفر فى وقت كان يجب فيه السفر . أو تراجعه عن الغزو فى وقت يتطلب الغزو . ويؤدى اعتقادهم فى العرافين الى تأثر قراراتهم الخاصة بالحركة والتجوال تأثرا كبيرا بآراء العرافين والمنجمين الذين يعتقدون أن لهم خبرة كبيرة بالنجوم وبنحسها أو سعدها . فاذا هم نهوهم عن سفر أو غزو عدلوا عنه . ولا يمكن للدارس أن يفسر التجاء البدوى الى أفعال غيبية لحماية حيواناته من الذئاب والنمور

---

(٩) فالز ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

والضباع الا فى ضوء فكرة شدة اعتقاد البدوى فى الرقى . فيؤدى هذا الاعتقاد بالبدوى أن يستريح الى ان الرقية يمكن أن تحمى الغنم ومن أمثلة الرقى التى تستخدمها بعض جماعات البدو للحماية من الذئب والضبع والنمر الرقية التى يقولون فيها عن الحيوان المفترس : « ... اذا جاء من الوادى لجامه هادى واذا جاء من العدوة لجامه هدمة ، واذا جاء من البطين (رأس الجبل) لجامه شريط . وفى آذانه فاس ، وفى خشمه فاس ، وفى يديه فاس ، وفى رجليهفاس ، نرميه فى البحر الدواس بيننا وبينه الخله وسبع جمال محملة غلة » (١٠) .

لا يمكن النظر الى نسق معتقدات سكان الصحراء على أنه يحوى معتقدات مشابهه لما ذكرناه فقط ، بل أن هناك نسق المعتقدات الدينية . وقد اشار الكتاب الذين درسوا المجتمع الصحراوى فى اكثر من موضع الى تمسك الجماعات الصحراوية بالدين واحتواء نسق معتقداتهم على الكثير من المعتقدات الدينية .

ويمكننا أن نقدم نموذجا واحدا من المعتقدات الدينية هو الاعتقاد فى الأولياء . فالبدو يعتقدون فى الأولياء اعتقادا شديدا . وأحيانا يطلق على الولى كلمة الشيخ أو المرابط . ويعتقد البدو فى الأولياء الأحياء ، وهم المشايخ الذين اكتسبوا صيتا حسنا وسمعة حميدة . ويحترمهم البدو احتراما شديدا . وهو اذا تدخل فى أى خلاف فان كلمته تكون هى المسموعة . وبجانب الأولياء العموميون الذين يعتقد فيهم المسلمين مثل الامام الشافعى والسيدة زينب ويوجد أولياء محليون ، بمعنى أن الولى يكون معروفا فى نطاق منطقة محددة . وعلى سبيل المثال فان البدو فى الصحراء الغربية بجانب اعتقادهم فى الأولياء العموميون فلهم اولياء محليون مثل سيدى حمد فى منطقة المثانى ، وسيدى جاب الله وله قبة بين حتاوة وسملة . والشيخ مفتاح ابن عم الشيخ حمد . الذى اشتهر بالأعمال الصالحة هو وأسرته . وسيدى أبو سطل الذى يقدم الماء للمسافرين فى الصحراء عن طريق سطل « كوز » . وسيدى برانى

---

(١٠) اللواء رفعت الجوهرى ، المرجع السابق ، ص ص ٥٣ ، ٥٤ .

الذى سميت منطقة برانى بأسمه . أما سيدى العوام فهو أشهر الأولياء المحليون فى مطروح وله جامع كبير فى مدينة مطروح يحمل اسمه . ويعتقد البدو فى أن عائلات معينة يمكن أن يكون جميع أفرادها أولياء . فتوجد أيضا فى الصحراء الغربية عائلة جرارى التى يثق معظم سكان الصحراء الغربية أنهم أولياء صالحين .

ويرتبط الاعتقاد فى الولى بقصة ترتبط بحياة الولى وبمجموعة من الكرامات والأعمال الصالحة التى يقوم بها . فالبعض يوصفون بالتقوى والبعض الآخر بمساعدة الناس فى مواقف صعبة ، أو يقومون باظهار الحق فى موقف ضاع فيه الحق . وتتنوع كرامات الأولياء وقدراتهم ، فهناك الولى الذى لديه قدرة على الشفاء وخاصة ما يتعلق بالعقم ، وهناك الولى الذى يكون نصيرا للمسافرين مثل سيدى عبد القادر (١١) . وهناك الولى الذى ينبعث النور من قبره مثل سيدى العوام .

ويحتفل البدو بالولى بصور متعددة أهمها الموالد . فسيدى العوام يقام له احتفال سنوى حيث يقضى الناس عدة أيام فى الخيام حول المسجد . ويقدم الناس النذور والأضاحى باسم الأولياء وعند أضرحتهم .

ونود أن نشير فى النهاية الى نفس ما أشرنا اليه فيما يتعلق بالمعتقدات غير الدينية ، وهو أن السلوك يتأثر تأثرا كبيرا بالمعتقدات . وخاصة تلك المعتقدات الدينية الذى يعد الاعتقاد فى الأولياء أحدها .

● تتضمن الأفعال والممارسات الثقافية — التى تبدو للمغترب عن هذه الثقافة وكأنها ممارسات لا منطقية — معانى رمزية لا يمكن فهمها الا عن طريق البحث التاريخى أو من خلال فهم أساسيات البناء الاجتماعى .

وعلى ذلك لا يجب أن ينوه باحث الى غرابة عنصر من عناصر التراث

---

(١١) فالز ، المرجع السابق ، ص ٢٢ .

أو يتندر بما يعتقد أنه لا منطقي ، فان ذلك يشير الى قصور قدرتنا على أن نتعرف على الأصول التاريخية التى تشرح مغزى الظواهر ، أو يؤكد عجزنا عن أن نربط بين عناصر البناء الاجتماعى والظواهر التى نلاحظها . وسوف نقدم أولا مثال يوضح لنا عدم قدرتنا على تفسير الظواهر ، ثم نقدم أمثلة أخرى لظواهر وممارسات أمكن التعرف على منطقها من خلال الرؤية التاريخية أو ربط السلوك الظاهر بالجوانب الكامنة فى البناء الاجتماعى .

المثال الأول يتعلق بظاهرة « الغولة » . تلك التسمية التى تطلق على الأرملة فى واحة سيوة . وهى تسمى بالسيوى (تيمزانك) . فأهالى سيوة ظلوا يعتقدون فترة طويلة من الزمن أن الأرملة تصبح نذير شؤم على من يراها بعد فترة معينة من وفاة زوجها . وهناك طقوس تتعلق بهذه الوصمة التى تلحق بالمرأة بعد وفاة زوجها ، وتتعلق بعملية شفائها من هذه الوصمة . فبعد وفاة الزوج وفى الطريق الى المدفن تصحب الأرملة مجموعة من النساء الصديقات الى عين للماء حيث تأخذ حماما بطريقة طقوسية . وتقص ضفائر شعرها وأظافرها وترتدى ثوبا لونه أبيض أو أخضر . وتعيش الأرملة فى الفترة التالية لوفاة زوجها فى حجرة عالية موصودة الأبواب والنوافذ تاركة ما تبقى من شعرها وأظافرها دون عناية . وتتردد على المرأة بعض الفتيات أو المسنات من أقاربها لاحضار الطعام والماء اليها . وقد ذكر البعض أن والدها أو أخيها يمكن أن يقوم بهذه المهمة . وكان أهالى سيوة يعتقدون أن أى شخص تقع عليه عين الغولة غير هؤلاء الأشخاص يمكن أن يلحقة أذى شديد (١٢) .

وفى نهاية فترة الحداد . ينذر منادى البلدة أهلها بأن الغولة سوف تخرج من عزلتها . ويقول بعض الاخباريين أن الأطفال كانوا يأخذون الطعام

---

(١٢) انظر مزيد من التفاصيل التى تم جمعها عن طريق العمل الميدانى فى سيوة وتتعلق بموضوع الغولة وذلك فى الفصل التاسع ، الجزء الخاص بتغير المعتقدات فى الواحة .

ويتسلقون سقف بيت الأرملة ثم يصيحون لمدة تقرب من النصف ساعة قائلين « احذروا .. احذروا .. أرملة المتوفى ستخرج غدا » . لهذا يخرج جميع جيرانها من مساكنهم ويقضون الليلة فى الحدائق أو فى مناطق اخرى من الواحة . ولا يجرؤ اى شخص أن يسير فى هذه المنطقة مساءا .

وتجتمع مجموعة من النساء فى الحجرة السفلى من منزل الأرملة حيث تقضى الليل كله فى البكاء والنحيب . وقبل الفجر تترك الأرملة منزلها بمصاحبة النساء حيث تذهب الى مقبرة زوجها فى صمت . ويجب عليها ألا تنظر الى الوراء اثناء سيرها وألا تتكلم مع النساء . وتصل الأرملة الى قبر زوجها حيث تزوره ثم تستحم فى حوض ماء مجاور للمقابر وفى هذه الحالة تكون قد تطهرت وبرأت تماما من التأثير الضار الذى يمكن أن تصيب به من تقع عينها عليه (١٣) .

---

(١٣) ونود أن نشير الى أن بعض الكتاب قد جمعوا معلومات من اخباريين تشير الى بعض التفاصيل المختلفة . وعلى سبيل المثال يقال أن الغولة تتمشى فى المنطقة النائية فاذا وقع نظرها على شخص غريب قادم الى سيوة فانها ترجع الى بيتها وتخلع ثوبها الأبيض وتكون قد برأت من لعنتها وتخلصت من قدرتها على ايذاء الناس وتصبح صالحة للزواج .

ويقول اخبارى آخر أن الغولة تتسلق فى الصباح سطح بيتها بحثا عن شخص تنظر اليه ، وعندما ترى شخصا تصرخ وتبكى ثم تخرج مع مصففة شعرها وتزور مقبرة زوجها ثم تذهب الى أحد الآبار لتستحم ثم تعود الى منزلها . وبعد ذلك يمكن أن يزورها الناس .

ويقال أيضا أن الزوجة أحيانا تمل العزلة فتدفع شخص غريب الى أن يذهب وينظر اليها حتى ينكسر سحرها وتتحرر . وكان الأهالى قديما يحكون عن عجوز ارادت النظر الى أرملة لكى تعتقها من عزلتها ، وعند محاولتها الاقتراب من المكان سقطت من على السور فى الشارع وكسر ساقها .

Walter Cline, Notes on the people of Siwah and El Garah in in the Libyan Desert , General Series in Anthropology, 1936,. p. 51.

ويعتبر معتقد الغولة فى صورته التقليدية معتقدا غريبا من حيث أنه لا ينتشر بين أبناء المجتمع المصرى ، ولا ينتشر أيضا بين جماعات صحراوية أخرى غير واحة سيوة . فالصحراء الغربية التى تضم واحة سيوة تحوى أيضا جماعات بدوية عديدة ولكنها لا تعتقد فى « الغولة » . واذا كنا لم نستطع فى حدود معرفتنا الحالية أن نجد تفسيرا منطقيا لهذا المعتقد فان ذلك يرجع الى قصور معرفتنا وعدم محاولتنا — حتى هذا الوقت — تتبع أصول المعتقد والمصادر التى نقل عنها أهالى سيوة المعتقد . ويمكن أن يؤدى البحث التاريخى فى المستقبل الى الوصول الى تفسير مقبول للظاهرة . ويلاحظ أن عدم معرفتنا بالأصول والتفسير هو الذى يعطى فرصة أكبر لتعدد الشائعات والتخمينات المتعلقة بتفسير الظاهرة ، كما أنه يعطى فرصة للمبالغات وتعدد الروايات كما سبق ورأينا .

واذا كنا تناولنا معتقد الغولة على أنه مثال لتلك الظواهر الثقافية التى تنتظر التفسير فاننا سوف نناقش أمثلة ثلاثة لظواهر ثقافية أخرى قد توصل البحث الى تفسيرها ، وهى توضح أن الظواهر الثقافية التى لا نكترث بها مثل الملبس وغيره أو تلك التى نراها غريبة مثل الوشم والنقوش التى تزين بها القبائل أجسام أفرادها لها دلالة اجتماعية هامة . والمثال الأول يتعلق باللثام الذى يرتديه الطوارق ، أما المثال الثانى فيتعلق « بالشلوخ » تلك العلامات الوجهية التى تظهر على وجوه أبناء القبائل . ويتعلق المثال الثالث بالوشم الذى يمكن أن نلاحظه يميز مناطق متفرقة من الجسم فى بعض القبائل أيضا .

تعيش قبائل تسمى الطوارق فى جنوب الجزائر والأجزاء الجنوبية من مالى والنيجر . كما يوجد امتداد أيضا لبعض جماعات الطوارق فى الأراضى الليبية . وتصل قوافلهم حتى فولتا العليا ونيجيريا وتشاد ومراكش وغيرها من البلاد الافريقية . وعلى الرغم من أن بعض الطوارق قد استقروا فى الواحات

الصحراوية والمجتمعات المحلية الزراعية جنوب السودان الا أن معظمهم بدو رعاة يرعون قطعان الجمال والماعز والأغنام . وترعى الجماعات التى تصل الى الجنوب الماشية . وهم يعرفون دائما بأنهم سكان صحراء ، ولكن الأكثرية منهم تعيش خارج هذا الاقليم حيث يقومون برعاية قطعانهم فى مراع أغنى فى مراعى جنوب السودان والساحل فى حزام السافانا (١٤) . ولا يوجد احصاءا دقيقا لأعداد الطوارق لكنهم يقدرون بربع مليون طارقى ولغتهم تعتبر من اللغات الحامية . وهم ينتمون الى النوع القوقازى من منطقة البحر المتوسط . غير أن هناك جماعات عديدة منهم تعتبر مختلطة الدماء .

ويرتدى الرجل الطارقى جلبابا ولثاما أزرق يتدلى من على قنطرة الأنف وحتى أسفل الذقن . ولا يمكن رؤية شىء من جسم الشخص سوى اليدين والقدمين ومنطقة حول الأنف (١٥) .

ويطلق على **اللثام** بلهجة الطوارق لفظ « تيجلموس » ، وهو يعتبر قطعة زى مميزة وهامة جدا بالنسبة للطوارق . ويتكون الزى الطرازى للطوارق من الثوب الداخلى والثوب الخارجى الذى يمتد من الأكتاف وحتى مستوى الركبة . وليس للرداء الداخلى أكمام لكن الرداء الخارجى به أكمام واسعة . واما أن يكون الثوب أزرق أو أن يكون أبيض . ويرتدى الطارقى ايضا العمامة واللثام الأزرق ، وهى تعتبر أكثر قطع الملابس تكلفة للطارقى . واللثام عبارة عن شريط طويل من القماش مكون من شرائط ضيقة من الأقمشة المنسوجة معا . وهى تصنع وتصبغ فى نيجيريا . واللثام الواحد من النوع الجيد يمكن أن يكلف الطارقى حوالى خمسة وعشرون دولارا ، وهو

---

(١٤) Louise E. Sweet., Peoples and Cultures of the Middle East. Vol. 1. Depth and Diversity., The Natural history Press., Garden City New York, 1970. p. 296.

(١٥) لويس سويت ، المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .

يعتبر مبلغا كبيرا بالنسبة للطارقى . والطارقى الذى لا يمكنه توفير هــذا المبلغ يمكنه استخدام شريط آخر عادى لونه أبيض أو ازرق من اى نــوع من القماش خلال اليوم .

ويرتدى الطارقى اللثام عن طريق لف القماش حول الرأس ليكون عمامة منخفضة ويجلب الطارقى بعد ذلك نهايته على الوجه . ويغطى طرف القماش الأعــلى (بالعرض) منطقة الأنف بينما يعلق بقية القماش على المنطقة الواقعة تحت الذقن . ولذلك لا يظهر من وجه الطارقى الا منطقة العينين . واذا حدث وشد الطارقى اللثام الى اقصى درجة عليا له فلن يستطيع اى شخص أن يرى من وجه الطارقى الا خط عرضى ضيق جدا هو الذى يترك مفتوحا . وفى هذه الحالة لا يمكن رؤية العينين الا بصعوبة . ويلاحظ أن ارتداء اللثام عملية صعبة بالنسبة لأى شخص غير مدرب عليها ، كما أن هناك اختلافات فى طرق ارتدائه وفى حجم المنطقــة التى يتركها الطــارقى مكشوفة (١٦) .

ويرتدى الطوارق اللثام طول الوقت : فى جلوسهم ، وفى رحليهم ، وأثناء أكلهم وتدخينهم . والبعض ينامون به . وهم عندما يرغبون فى الأكل يرفعون اللثام قليلا بحيث يمكنهم ادخال الطعام فى الفم ، ولكن فى نفس الوقت يحرصون على ألا يظهر من الفم أى جزء . والطارقى الذى يخفض لثامه من على منطقة الوجه لكى يأكل يكشف عن دنو مكانته ، فهو اما أن يكون عبدا أو أن يكون عضوا فى قبيلة الرقيق . فعضو قبيلة النبلاء لا يمكن أن يظهر فمه .

ولا يرتدى الطــارقى اللثام الا عندما يقترب من ســن الرجولة أى فى سن السابعة عشرة . ويلاحظ أن الطارقى الشاب غير الملثم والعبد هما اللذان يقومان بمعظم الأعمال المتربة مثل رعاية القطيع . ومن الجــدير بالاعتبار أن المرأة تذهب هنا وهناك وتتجول حرة غير ملثمة مهما كانت حالة

---

(١٦) المرجع السابق ، ص ٣٠٠ .

الطقس . فالمرأة تقوم فقط فى حالة تعبيرها عن الخجل أو فى حالة الرغبة فى اخفاء وجهها بجذب الشال على المنطقة الدنيا (١٧) .

والتعرف على وظائف اللثام هو الذى يوقفنا على الأهمية الاجتماعية لهذا الجزء من الملابس الذى يمكن أن يفسر تفسيرات عديدة . والوظيفة الأولى للثام لا تتعلق بالجوانب الاجتماعية . فاللثام يقى الفرد من الرمال والأتربة فى الصحراء . ولهذا ففى فصل الجفاف يطوى الطارقى طرف العمامة عند منطقة الفم والأنف وذلك حينما يسيرون فى شكل قافلة . ولكن يرتدى الطوارق أيضا اللثام حينما لا يكون هناك الا القليل من الأتربة حينما يستقرون داخل حدود المخيم الذى يعيشون فيه . ولعل ذلك يؤكد أن اللثام ليست له هذه الوظيفة فقط ولكن له وظائف اجتماعية أخرى .

فمن الوظائف الاجتماعية للثام أنه يخدم ضرورة حفظ الخصوصية الشخصية للفرد . فالطارقى يشعر أنه من العيب أن يظهر فمه أمام بقية جماعته ، ويساعده اللثام على الاحتفاظ بهذه الخصوصية . فالطوارق يفترضون أن كشف الوجه يتضمن انتهاكا للقانون الأخلاقى ، ذلك الانتهاك أو المخالفة التى تدنى من مكانة من يقترف ذلك وتحط من مركزه أمام نفسه . ويجب أن نلاحظ أن التحديدات والقواعد المرتبطة بارتداء اللثام شديدة الصلابة ومصاغة بطريقة رسمية . ويدل على ذلك أن انتهاكها يمثل تعد وانتهاك للجوانب الحيوية فى الحياة الاجتماعية (١٨) .

ويحدد اللثام وطريقة ارتدائه المكانة الاجتماعية للشخص . وعلى الرغم من أن طريقة ارتداء اللثام تختلف من شخص الى آخر ، فان عدم الحرص على ارتداء اللثام يشير الى مكانة دنيا . فهؤلاء الذين لم يكونوا حريصين على ارتداء لثامهم كانوا ينتمون دائما الى قبائل الرقيق الدنيا ، أو كانوا من طبقة العبيد . فهم يذهبون الى العمل واللثام معلق على ذقونهم أو حتى

---

(١٧) المرجع السابق ، صص ٣٠٠ — ٣٠١ .

(١٨) المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

تحت منطقة الذقن . ومنهم من يرتدونه أعلى من ذلك لكنهم لا يهتمون بحبكه مثلما يفعل النبلاء (١٩) .

ويؤكد ارتباط اللثام بالمكانة الاجتماعية أنه على الطارقى أن يرفع لثامه الى درجة أعلى فى منطقة الوجه عندما يقف أمام شخص ذو مكانة مرتفعة أو ذو سلطة أو مهابة معينة . أما الشخص الذى يشغل مكانة أعلى فانه سيحتفظ باللثام على الوجه ولكن فى منطقة أدنى بالنسبة للثام الشخص الذى يشغل مكانة أقل . وعادة ما ترتدى جماعة الرفقاء اللثام عند طرف الأنف عندما يخرجون معا خاصة عندما يكون ذلك خارج حدود مضرب الخيام .

ولا يرتبط الاختلاف فى ارتداء اللثام فقط باختلاف المراكز وعمليات التدرج الاجتماعى لكنه يرتبط بالعلاقات الثنائية داخل النسق القرابى . فالشخص يرفع اللثام الى منطقة عالية من الوجه أمام حماه أو حماته دلالة علـى وجود علاقات الاحترام والتحاشى فى نفس الوقت . وهنا نلاحظ أن اللثام يستخدم لتحديد المسافات الاجتماعية . فالمسافات الاجتماعية ترتبط بوجود العلاقات الاجتماعية تلك التى تعتبر جزءا مكونا للمجتمع . فالعلاقة تعنى مسـافة اجتماعية سواء كانت هذه المسافة قريبة أو بعيدة . فحتى العلاقـات المكثفة والتى تتسم بالقوة هى علاقات تضيق فيها المسافات الاجتماعية الى حد كبير . ومن الطبيعى أن كلا الاقتراب والابتعاد الاجتماعى بين الأفراد هو خاصية من خصائص الحياة الاجتماعية (٢٠) .

واللثام يؤكد ويدعم المسافات الاجتماعية من خلال استخداماته المختلفة . وقد اتضح لنا مثلا أن الاستخدامات الخاصة باللثام توضح علاقات التدرج والسمو .

وللثام أيضـا طبيعة طقوسية ليس فقط بسـبب الآداب السلوكية

---

(١٩) المرجع السابق ، صص ٣٠٠ ، ٣٠٥ .
(٢٠) المرجع السابق ، ص ٣١١ .

(البروتوكول) وما يتعلق بالتدقيق فى السلوك فى الرسميات ، ولكن بسبب أنه يرتبط بفكرة المقدس . وعلاقات التحاشى التى ترتبط به . فمنطقة الفم ترتبط بمشـــاعر الخجل وترتبط بالتلوث ، ويقوم اللثام باخفائها وتحقيق عملية التحاشى على الرغم من تفاعل الأفراد .

وفى مواقف معينة يســتخدم الطارقى اللثام (وهو نــوع من الاخفاء والاحتجاب الفيزيقى لحل مشكلة احتمال وجود صراع فى الدور . فهو بجذب اللثام على منطقة الوجه يفرض مسافة اجتماعية بينه وبين غيره . وعندما يفعل ذلك فانه يعفى نفسه من الدخول فى موقف تفاعلى لا يرغب فيه . ويصل بذلك الى درجة اعفاء نفسه من التزاماته فى الموقف الاجتماعى بالنظر الى الطبيعة التهديدية لمثل هذه المواقف التفاعلية . ويمكن أن يحقق من وراء حجب نفسه أيضا الاستقلال والهيبة (٢١) .

والمثال الثانى هو ما نلاحظه على أوجه بعض أبناء القبائل من علامات تسمى ((**الشــلوخ**)) . فالشلوخ كلمـــة تدل على الخطوط المرســـومة على خدود الشخص نتيجة العضد بالموسى . ولا يشــمل هذا المفهوم العلامات الموسومة على الجباه كما هو الحال عند القبائل النيلية فى جنوب السودان ، أو العلامات الناتجة عن الكى بالنار أو بعض المواد الحارقة للوجه مثل ما يوجد عند النوبة فى كردفان (٢٢) .

والشلوخ تخدم وظائف اجتماعية وترتبط ارتباطا شديدا بجوانب عديدة تهم أفراد الجماعة . وعلى سبيل المثال فالشلوخ تحدد نوعية القبيلة التى ينتمى اليها الفرد . ولهذا عادة ما تلتزم القبيلة بشلخ واحد ولكن الشكل النهائى للشلخ يمكن أن يختلف فى بعض تفاصيله من بطن الى آخر ، بل يمكن

---

(٢١) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢٢) يوسف فضل حسن ، الشلوخ . أصلها ووظيفتها فى سودان وادى النيل الأوسط ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم سنة ١٩٧٦ ، ص ٩ .

أن يختلف أيضا حتى بين أفراد الأسرة الواحدة . واذا اخذنا قبائل الشيقية فى السودان كمثال فاننا نجدها تنفرد بشلخ خاص عبارة عن ثلاثةخطوط أفقية متوازية يمتد أوسطها عند الفم حتى أقصى الخد . وهناك قلة من الشـيقية تضع أربعة خطوط متوازية . والشيقية هم أكثر القبائل السودانية اهتماما بهذه الشارات التى تميزهم عن سـواهن . وهم حريصون عليهـا لعـدة أسباب . أولها أنهم كانوا أقوى قبيلة فى منطقة استراتيجية تحتل الجـزء الشمالى من منطقة الفونج الاسلامية . ونظرا لأنهم كانوا يقومون بحماية قبائل أخرى فقد حرص أفراد الشايقية على تمييز أنفسهم عن غيرهم عن طريق الشلوخ . أما قبائل العبدلاب التى أنشأت أول مملكة عربية فى حوض وادى النيل الأوسط فهى تتمسك بشلوخها الخاصـة أيضا . فقد اتخـذ العبدلاب لهم شلخا خادما هو عبارة عن ثلاثة خطوط عمودية متوازيـة ينتصفها خط أفقى . وقد أتى تمسك هذه القبيلة بالشلخ المميز لأنهم أرادوا أن يميزوا أنفسهم عن غيرهم من السكان وفى نفس الوقت يميزون أنفسهم وهم يشنون الحروب ويخوضون المعارك مع قبائل أخرى (٢٣) .

وقد أوضح يوسف فضل حسن أن للشلوخ أيضا وظيفة دينية . فهو يقول انه عندما تجاوز الولاء الدينى والصوفى الولاءات القبلية المنتشرة فى البلاد ، واصبح سلطان الشيخ الصوفى يمتد الى آفاق بعيدة تتجاوز التقسيمات القبلية التقليدية فقد أدى ذلك الى بروز تجمعات طائفية أسلسها الولاء للشيخ « شيخ الطريقة » ومن ثم كان الولاء للطريقة (فى اطار العقيـدة الاسلامية) أرحب من الولاء القبلى الضيق . وقد عبرت الشلوخ عن هذا التغير فى المجتمع السودانى فأصبحت تميز ابناء الطائفة الدينية بعد أن كانت تميز ابناء القبيلة . وصارت شلوخ الشيخ أو أسرته رمزا للمضمون الجديد الذى يربط بين اتباع الطريقة الجديدة (٢٤) .

---

(٢٣) يوسف فضل حسن ، المرجع السابق ، ص ص ٥١ ، ٥٥ ، ٥٨ .

(٢٤) المرجع السابق ، ص ص ٦٢ ، ٦٣ .

وتستخدم الشلوخ أيضا لتخدم وظيفة جمالية . فقد أدت قلة تعرض النساء للأخطار وعــدم خروجهن خارج حمى القبيلة أن يصبح الاحتفاظ بالشلوخ ذات المفهوم القبلى أقل ضرورة لهن . لهذا وان كانت عملية التشليخ قد التزمت فيما بعد بالشلخ القبلى المعروف الا أنها أصبحت تؤدى بطريقة تهدف الى أن تجعل المرأة أكثر جاذبية وسحرا . وأصبحت عملية التشــليخ مهنة فنية دقيقة تقوم بها شلاخات متخصصات يحرصن فى آدائهن عــلى ما يرضى الذوق ويناسب وجه المرأة . ويلاحظ أن الأغلبية كانت تفضــل الشلوخ الطويلة العريضة العميقة المرسومة على وجه عريض (أو مستدير) ومكتنز باللحم اذ أنها تبدو منتفخة ومن ثم أكثرجاذبية منها على المــرأة النحيفة (٢٥) .

وللشلوخ أيضا وظيفة وقائية وعلاجية . فالطفل الذى يولد لامرأة سبق أن توفى أولادها قد يغير شــلخه القبلى ويســـتبدل بشلخ من قبيلة أخرى ويعتقد الناس بذلك أنهم يغيرون ملامح الطفل فيموهون بذلك على ملك الموت لأنه لا يجد الشلوخ التقليدية على خديه . أما اذا ولد الطفل بعد مــوت والده فانهم يغيرون الشلخ أيضا لكى لا تتعرف عليه روح أبيه وتخطفه للموت . وربما يصنعون شلخا عموديا واحدا لكى يمنعوا روح أبيه عن أن تحلق فوقه (٢٦) .

والمثال الثالث الذى نؤكد به فكــرة أن عناصر الثقــافة التى تبدو لنا غريبة فى ممارسات سكان الصحراء يمكن أن نجد لها تبريرا اجتماعيا فى تراثهم ، **ما يتعلق بالوشــم والنقوش الجسمية** . وهى قريبة الشــبه من الشلوخ . فكثيرا ما نلاحظ أشكالا من الوشم على مناطق متفرقة من أجسام أبناء القبائل سواء كانت بلون أزرق أو أحمر أو كانت تشبه النقوش فى الجسم بنفس لون الجسم . ففى احدى القبائل السودانية يمكن أن نجد وشما على صدر الشاب . وأحيانا ينتشر هذا الوشم او النقش الجلدى

---

(٢٥) المرجع السابق ، صص ٧٤ ، ٧٥ .
(٢٦) المرجع السابق ، ص ٨٣ .

لكى يغطى كل منطقة الصدر . وعادة ما تتم عملية الوشم فى احتفال طقوسى بين دقات الطبول ووجود الفتيات على وجه الخصوص . والمغزى الذى يكمن وراء الوشم والاحتفال الطقوسى الذى يرتبط به . هو أن عملية الوشم على الجلد تتضمن ألما يجب أن يحتمله الشخص . وكلما زادت النقوش كلما دل ذلك على زيادة قدرة الشخص على تحمل الألم . وهـــذا يؤهله لأن يحصل على مناصب قيادية فى القبيلة . ولهذا فان الفتيات يقبلن الزواج ممن تتسع منطقة الوشم على صدورهم او على أجزاء اخرى من اجسادهم . وفى نفس هذه القبيلة التى تسمى «المورلى» تخزم الشفة الدنيا للفتاة وتوضع بها سلوك فضية . ويعد ذلك اعلانا عن أنها قابلة للزواج بجانب الهدف الجمــــالى .

وفى قبائل أخـــرى تجرى احتفالات سنوية يستعرض فيها الرجـــال ما يملكون من أشياء مادية ، ويشير هذا الى قوتهم وشهامتهم ويهدف هذا الى جذب انتباه الفتيات اليهم وقبولهم الزواج منهم أيضا . فالرجل فى قبيلة الشلك يرتدى فى هذا الاحتفال جلد النمر الذى اصطاده بنفسه . ولا يمكن أن يرتدى جلدا ثمينا استطاع شراؤه مما يدل على أن المكانة تكتســـب بسبب توفر قوى بدنية وقدرة على الاقدام أكثر مما تكتسب بسبب كبر السن أو الحكمه . وهذا يحقق اعجاب الفتاة به وقبولها الزواج منه كما سبق وذكرنا .

الفصل الرابع

الثقافة والواقع الاجتماعى
عند قبائل أولاد علىَ
((دراسة ميدانية))

يتضمن هذا الفصل دراسة تحليلية لبعض عناصر الثقافة البدوية السائدة لدى بدو صحراء مصر الغربية بهدف الكشف عن المعالم الاجتماعية والواقع الاجتماعى للجماعة .

أولا
عادات وتقاليد دورة الحياة

دورة الحياة هى ذلك الاطار الذى تنتظم داخله عادات وممارسات ثقافية ذات دلالة تحليلية قيمة . ولا يوجد شعب يخلو تراثه من عادات وتقاليد متصلة بدورة الحياة . وما سنحاوله هنا نفس ما اتبعناه فى الفصل السابق — وهو التعرف على الممارسات الثقافية ، ثم محاولة النفاذ الى ما وراءها نقرأ ما تدل عليه من واقع اجتماعى .

١ الميلاد :

يوضح لنا كل ما يتعلق بالحمل والولادة والعقم متغيرات اجتماعية عديدة فى حياة البدو ، فالبدوى والبدوية بعد الزواج مثلهم مثل أفراد جماعات بشرية عديدة أخرى ينتظرون أن يحدث الحمل سريعا اذ لا توجد لديهم أفكارا تتعلق بتنظيم الأسرة خاصة تلك الجماعات التقليدية التى لم تصلها الى الآن الأساليب الحديثة لتنظيم الأسرة أو تأجيل الانجاب . وبجانب أن المراة ترى فى

الانجاب اكتمالا لانوثتها وسعادتها الزوجية وتدعيما لمركزها فى الأسرة فهى تعتبر أن الحمل بشير خير يجعل منها امرأة كاملة بين البدويات ، لهذا سريعا ما تخبر به غيرها من النساء . ويعتبر العقم عند البدو شيئا معيبا غير محبوب ، فهو يشعرها بالنقص كما أنه يزعزع مكانتها فى الأسرة . ونظرا لأن الخدمات الصحية لم تكن تصل الى البدو فى الماضى فقد كانت الوسيلة الوحيدة لديهم للتأكد من العقم هو مرور سنة أو سنتين على الزواج دون حمل. وكان العقم يعزى دائما الى المرأة ، ولا يثبت عقم الرجل الا اذا تزوج اكثر من مرة ولم ينجب . أما الآن وقد وصلت الخدمات الصحية لبعض القطاعات البدوية فأصبحت هناك وسائل اكثر علمية للتعرف على العقم وعلاجه أيضا . ولكن مع ذلك فقد ظل البدو يخضعون للتراث التقليدى الذى يفسر الحمل بمعتقدات غيبية ، فهم يعتقدون مثلا أن المرأة العاقر قد تكون مربوطة « ربطة جن » ، ولهذا يلجأون الى الفقهاء لحل هذا الربط .

أما اذا حدث الحمل فان البدو يتخذون احتياطات معينة تتناسب مع معتقداتهم ، وفى نفس الوقت هناك احتياطات يجب أن تتخذ نجدهم لا يهتمون بها اهتماما كبيرا . فيحرص البدو جدا على عدم تبليغ المرأة الحامل أية أخبار محزنة أو مخيفة خوفا من حدوث الاسقاط . فاذا حدثت وفاة وكان الميت عزيزا عليها فانهم يخفون عنها ذلك اذا أمكن ، وهم يمنعونها أيضا من زيارة المقابر لنفس السبب . كذلك يخشى البدو من الآثار التى تترتب على « الوحم » . فالسيدة التى تتوحم على شىء وهى حامل يجب أن تجاب طلباتها لئلا يسقط الجنين من بطنها أو على الأقل يتألم بالداخل اذ يعتقدون أن الجنين هو الذى يطلب وليس السيدة الحامل . ولهذا يعتقدون أنه اذا توحمت المرأة الحامل « وهرشت » فى جسمها ولم تحصل على طلبها فسيظهر ذلك فى جسم المولود . ولذلك فاذا مر بدوى بامرأة حامل وكان بيده شيئا يؤكل فلابد أن يعطيها مما فى يده حتى ولو لم تطلب منه خوفا من حدوث آثار الوحم .

واذا كان البدو يتخذون احتياطات شديدة بالنسبة للوحم فان احتياطات

اقل تتخذ بالنسبة لبعض الأعمال التى تمارسها المرأة الحامل وقد تضرها بالفعل مما يشير الى عدم وعى البدو فى هذا الجانب أو يشير الى تمسك البدو بالأدوار المحددة فى المجتمع للمرأة بحيث لا يقوم الرجل بها حتى فى حالة الحمل . فالمرأة البدوية تقوم بجهد كبير فى الأعمال المنزلية طول اليوم ويصعب أن يتحمله غيرها عنها اثناء فترة الحمل . والمرأة البدوية تعفى فقط من بعض اعمالها فى الفترات الأخيرة من الحمل هى رعى الغنم بعيدا عن الخيمة واتيان المياه من البئر .

اما بالنسبة لعملية الوضع ، ففى ظل الثقافة التقليدية للبدو تحاول البدوية أن تحدد موعد الوضع بناءا على معرفتها بالوقت التقريبى لحدوث الحمل . وتعتبر البدوية أن تغير شكل البطن واصفرار الوجه دليلا على أن الجنين ستتم ولادته فى نفس الأسبوع . والمرأة البدوية تضع مولودها وهى جالسة اذ تخشى أن تنام فيؤدى ذلك الى « كتمان نفس المولود » وهى تجلس بين أربعة سيدات تسندها كل منهن من جانب . ولكى تتمكن من عملية الدفع اثناء الوضع فهى تمسك بطرفى حبل أو حزام مدلى من سقف الخيمة . وتساعد المرأة البدوية فى عملية الوضع بدويات من كبار السن بجانب « داية » متخصصة فى ذلك .

وقد حدثت تغيرات فيما يتعلق بهذا الجانب فقد بدأ بعض البدو يقبلون على الطب الحديث لعلاج الأمراض المتعلقة بالحمل والولادة . ولكنهم مازالوا يفضلون الولادة فى المنزل حتى مع وجود الطبيب . كذلك يفضلونها فى العيادة الخاصة للطبيب — اذا اضطروا لذلك — وليس فى المستشفى نظرا لأنهم يقضون أكبر فترة ممكنة مع السيدة التى تضع مولودها الأمر الذى يصعب تحقيقه فى حالة الولادة فى المستشفى .

وتدلنا تسمية المولود على ابعاد اخرى فى حياة بدو الصحراء ففى احدى المناطق عندما زار « خروشوف » مصر أعطت احدى العائلات مولودها اسم « خروشوف » ، كذلك هناك من سميت مولودها « عبد الناصر » وهذا

يشـــير الى وجود اتصال ووعى بالمجتمع السياسى الذى يعيشون داخل اطاره . ويظهر أثر الدين عندما يذهبون الى المشايخ لاختيار أســماء دينية لأطفالهم ، وتظهر المعتقدات غير الدينية ومدى تأثرهم بها عندما نجدهم يطلقون على مواليدهم أسماءا تهدف الى التحقير من شأنهم مثل « خيشة » و «شوال» ، و « كوز » و « فنجان » ظنا منهم أن ذلك يطيل عمره ويضمن حياته (١) .

ويتم فطام الطفل بأن تضع الأم على ثديها « شطة » أو أى مادة كريهة ، كما أنها تحكم اغلاق الثوب الذى ترتديه من ناحية فتحة الصدر أما بالخياطة أو باستخدام « دبوس » . ويأكل الطفل بعد فطامه البسكويت ويشرب لبن الماعز . وعادة ما يتم فطام الطفل فى سن عام أو عامين ويلاحظ أن عملية فطام الطفل لم تخل أيضا من الارتباط بمعتقدات معينة ، فأثناء محاولة الفطام يدعى فقية ويأكل بعضا من البلح وما تبقى منه يأكل منه الطفل كل يوم بلحة ، وأثناء ذلك تمارس الأم عملية الفطام .

أما عملية **ختان الأطفال** عند البدو فهى تتم بالنسبة للذكور وليس الاناث ويتم ختان الذكور فى شكل احتفالى يتقبل فيه والد الطفل النقوط . ويشير بعض البدو الى أن ختان الذكور أمرا حتميا فهم يعتقدون أن الدين أمر به . وكــان الختان يتم عند البــدو عن طريق كبار الســن . فيقوم البــدوى المسن بعملية القطع ثم يضع على الجرح نبات « فيطوط العنصل » بعــد حرقه وصحنه بحيث يصبح ناعما . ولكن حدثت بعض التغيرات فى عملية الختان وهى تعكس أثــر اقتراب بعض الجماعات البدوية من المــراكز الحضرية . فيقوم بهذه العملية فى بعض المناطق ممرض ويستخدم المواد الطبية الشائعة مثل الميكروكروم والبدرة وغيرها فى التغيير على الجرح .

وتعكس لنا عملية التنشئة الاجتماعية وطرق العناية بالوليد وبالأطفال تقليدية الأساليب التى يستخدمونها ، وطبيعة البيئة التى يوجدون فيها ثم

---

(١) يلاحظ أن نفس هذا المعتقد والممارسة تسود بين ابناء وادى النيل فى مصر .

جانبا من جوانب الأدوار المنزلية . فبعض الجماعات البدوية تعطى للطفل بعد فترة الرضاعة زيت بذرة القطن كغذاء دائم منذ يوم ولادته الى بلوغه سن أربعين يوما .. ويسمون هذا الزيت (الحساء) . ويقولون أن هـذا الزيت يقيه شر البرد ويجعل عنده مناعه ضد نزلاته . وتقوم الأم بوضـع الزيت فى فم الطفل بيدها . ويشير الى عدم تعرف البدو على المنتجات الحديثة الخاصة بملابس الأطفال أنهم يلفون أطفالهم فى قطع من القماش ، هـــذا يحدث بالذات لدى القطاعات التى تعيش فى اعماق الصحراء ، وتترك الأم طفلها أثناء انشغالها فى الأعمال المنزلية ، وحيث لا تتمكن من حملة عـــلى ظهرها فهى تضعه فى مرجيحة عبارة عن قاعدة مرتبطة بأربعة حبال تتدلى من سقف الخيمة ويوضع فيها الطفل والغرض وضعه فى مكان أعلى من الأرض ابعاده عن الرطوبة وتلافى اصطدام أحد الداخلين الى الخيمة به . وفى توزيع الجماعة البدوية للأدوار المنزلية جعلت أمر العناية بالطفل والسهر عليه مسئولية الأم وحدها .

وتعكس الممارســـات الثقافية التــدرج الاجتماعى داخــل الأسرة ، ولنأخذ مثلا ما يتعلق بالفروق بين الذكور والاناث . فمن ينظر الى ممارسات الجماعة البدوية يجدها تميز تمييزا شديدا بين الذكر والأنثى وتعطى للذكر مكانة أعلى من الأنثى ، بل ان وجود ممارسات محدد فى ميلاد وسبوع الذكر وغياب مثلها تماما فى حالة الأنثى يوضح ليس فقط تدنى مكانة البنت بـل يوضح عدم الرغبة فى انجابها على الاطلاق وما يرتبط بذلك من ألوان التفرقة التى تحدث خلال الحياة . فبمجرد ولادة الطفل والتعرف على نوعه يعلن الناس موقفهم من المولود فاذا كان المولود ولدا تلقت الأم التهانى ، أما اذا كان بنتا فانه يكتفى الناس بأن يقولون للأم « حمد الله على السلامة » وكأن الأم لم تنجح فى مهمتها ، ولهذا فان صحتها وسلامتها فى هذه الحالة هى الأهم من المولود الجديد ، وبناء عليه فان اطلاق « الزغاريد » وما شـابه ذلك من صور التعبير عن الفرح لاتتم فى حالة ولادة البنات . فالســبوع دائما يحتفل به بالنسبة للأولاد حيث تقاد الشموع ويوزع البسـكوت والحلوى والعسل والسمن والدقيق والفول السودانى .

وتدلنا أيضا ممارسات الزواج على اللائق وغير اللائق فى المجتمع البدوى . فمنذ سن ما قبل المراهقة تضع الثقافة البدوية قيودا على علاقات الجنسين ببعضهما وتفرض قيودا أيضا على مجرد التحدث عن هذه الاختلافات وخاصة ما تعلق بالجوانب الجنسية . فمن العيب أن يتكلم انسان عن هذه الجوانب أمام ذويه . وقد لوحظ أن الرجال اذا سئلوا عن أمور خاصة بالنساء فانهم لا يجيبون ويدعون أنهم لا يعرفون لأنهم لا يتدخلوا فى أمور النساء . وفى بعض الأحيان يكون الواقع أنهم لا يعرفون وفى أحيان أخرى يكون هذا خجلا بسبب اعتقادهم أن ذلك نوعا من العيب وفقا لمحددات ثقافتهم . وفى احدى الجلسات لوحظ أن أبناء أحد الرجال قد تركوا الجلسة وخرجوا من المكان خجلا من الكلام عن الزواج أمام الأب ويتيح ذلك الفرصة للصغار أن يتعلموا ما يتعلق بالجنس خارج نطاق الأسرة فقط وليس داخلها .

ويظهر لنا التراث الثقافى المتعلق بالميلاد مدى رسوخ الدين عند البدو ومدى تمسكهم به . كما يظهر لنا أيضا مدى تعايش معتقدات شعبية جنبا الى جنب مع المعتقدات الدينية . فتمسك البدو بالدين يتضح من كثير ممارساتهم ومن طبيعة نظرتهم الى الأحداث التى يمرون بها . فبدو هذه المنطقة لم توجد لديهم تفسيرات خرافية تتعلق بعملية الحمل . بل يرون أن الحمل يأتى من الله نتيجة الاتصال الجنسى بين الرجل والمرأة . ويفسرون اسقاط المرأة الحامل بأنه من الله . وعلى الرغم من حدوث بعض حالات الاجهاض العمدى فى حالات الطلاق أو غيرها الا أن معظم البدو يرون أن الاجهاض عملا محرما دينيا لهذا لاياتونه . ويعتقد البدو أن الطفل الرضيع الذى يموت يذهب الى الجنة لأنه لم يفعل أى خطأ . وعندما يخطىء الطفل يقولون له « ربك يوديك النار » . وهم يؤذنون فى أذن المولود اذا كان والده قد توفى قبل ولادته . أما المرأة التى تموت وهى تلد فيعتقدون أنها ستحاسب على حسب أعمالها ، وأن وفاتها أثناء عملية الوضع لا يعنى أنها مذنبة وبالتالى ليست لها علاقة بحسابها فى اليوم الأخير .

أما المعتقدات فيدل على انتشارها الكثير من الممارسات والأشكال

المادية التى يعلقونها مثل الاحجبة . فالأحجبة تعلق فى صدر وملابس الطفل وقاية له من الحسد ومن الأمراض ، وتعلقها المرأة المتعوقة (التى يموت أولادها بمجرد ولادتهم) طلبا للشفاء من هذا الداء . وهم يذهبون للفقهاء لكتابة الأحجبة لهم ولأولادهم للوقاية ضد مختلف الأمراض . وتقوم المرأة التى يموت لها أولادها بمجرد الميلاد بحمل الطفل المولود ، وتدور به على البيوت وتستجدى له ما يعطيه لها الناس من أجل أن يعيش . وأحيانا يلبسون الولد ملابس البنت بعد ولادته ، وأحيانا يلبسونه حلق لكى لا يحسده الناس . وهناك أيضا معتقدات أخرى تتعلق بالميلاد ولها تأثير على الاتجاه نحو الأشخاص ونحو الأشياء . فالبدو يكرهون الطفل الذى تموت أمه وهى تلده ويسمونه « اشكل » وهذا يؤثر على معاملته والاتجاه نحوه ويعتقدون أنه اذا قلب شخص خلاص السيدة التى تلد فهى لن تنجب مرة أخرى . ولهذا لابد أن تعيده الى وضعه الأول وتضع عليه شعير وملح حتى تتمكن من الانجاب مرة أخرى . أما المتعسرة فى الولادة فتكتب ورقة تذيبها فى الماء لتسهيل الولادة . ومن الواضح أن مثل هذه المعتقدات أو الممارسات يمكن أن تؤدى الى تعقيد مواقف لها الطابع البيولوجى الخالص وتتطلب علاجا طبيا خالصا . فقلب الخلاص يؤدى الى تعقيدات واحتياطات ونماذج سلوكية مجهده دون داع ، بجانب أن عسر الولادة يحتاج الى اجراء اكلينيكى وليس الى ورقة مذابة فى الماء .

الزواج :

تعكس المحددات الثقافية للزواج ابعادا كثيرة فى حياة البدو الاجتماعية ، وهى فى ذاتها تتأثر بعوامل وظواهر متغيرات اجتماعية كثيرة . فمواسم الزواج - على سبيل المثال - عند البدو هى مواسم الرواج الاقتصادى عندما تكبر الأغنام وتباع فى الأسواق . وهو أيضا الموسم الذى يلى حصاد الشعير . هذا بجانب مناسبات الأعياد والمواسم الدينية . كذلك فان طبيعة البيئة والعلاقات بين البدو لم تجعل هناك فرصة لوجود فترة للخطوبة بالمعنى المعروف فى المجتمع المصرى . فالشاب عندما يطلب الفتاة يمكن أن يتزوجها

مباشرة بعدها بفترة قصيرة . وحتى اذا كانت هناك فترة طويلة بين طلب الفتاة وزاوجها فلا تتم تلك الزيارات والممارسات التى تتم لدى معظم قطاعات الشعب المصرى .

ويبدو أن مجتمع الصحراء الغربية هو مجتمع ((**الزواج المرتب**)) . فهناك صور متعددة لهذا النوع من الزواج . فالأب يمكن أن يختار زوجة لابنه ، واذا حدث واختار الابن فتاة يرغبها فان موافقة الأب يعتبر شرطا ضروريا لاتمام الزواج . واذا عصى ابن أبيه فى هذا الأمر فيمكن ألا يدفع الأب المهر . وعندما يتقدم شاب لخطبة فتاة فان والدها هو الذى يوافق أو يرفض تزويجها له اذ يرى أنه يعرف أفضل منها . وقد حدث — بسبب شيوع سلطة الأب على ابنه — أن وافق آباء على تزويج بناتهم من رجال مسنين فى حين كانت البنت فى سن صغيرة لأن معايير الأب كانت تدفعه الى قبول الشخص الذى يرى أنه شخصا محترما ويمكنه أن يريح ابنته . وعلى الرغم من عدم وجود نظام « الخاطبة » كطريقة للزواج الا أن وساطات بعض كبار السن ومحاولات التوفيق التى تقوم بها النساء بطريقة تطوعية يمكن أن تؤدى الى حدوث الزواج . ومن الواضح أن نظام الزواج المرتب فى هذا المجتمع يتلاءم مع وجود سلطة الكبار داخل الأسرة ، بل انه يمكن أن يكون نتيجة لها .

والزواج المبكر هو زواج مفضل أيضا فى المجتمع البدوى ، والشخص دائما يشعر أن الأبناء عزوة ويرغب فى تزويجهم قبل موته ولهذا يتزوج مبكرا . ويحدث الزواج المبكر (تقريبا من ١٦ — ١٨ سنة) بين الجماعات الأكثر تقليدية والتى لم تصلها بعد الخدمات التعليمية أو تلك التى لم تقبلها . والزواج المبكر يتناسب مع طابع الحياة البدوية ومع الملكية والمسئولية الأسرية عن النشاط الاقتصادى سواء كان نشاطا رعويا أم زراعيا الأمر الذى لا يتطلب من الشخص استعدادا ماديا — بصفته الشخصية — وبالتالى لا يؤخر زواجه ، وعادة ما يدفع الأب لابنه المهر ويتكفل بكل التجهيزات المتعلقة بالزواج .

ويظهر الزواج المرتب والوصاية على الشخص المتزوج أيضا فى العرف المتعلق بعقد القران عند البدو . فعند اتمام عقد الزواج الذى لابد أن يحضره مندوب عن العريس ومندوب عن العروس يرسل المجتمعون شخصا الى العروس التى تكون جالسة فى ركن من الخيمة وراء ساتر ويسألها « من وكيلك » فتقول « فلان » ولابد أن يسمع كل شخص حاضر فى المجلس تحديدها للشخص الوكيل الذى عادة ما يكون هو الأب أو اى شخص آخر كبير السن اذا لم يكن الأب موجودا . وبعد تحديد العروس للوكيل يكون له الحق فى الاتفاق على اى شىء خاص بالعروس وفق ما يراه مناسبا .

وترتبط فكرة الزواج المرتب عند البدو بأهمية القرابة . فبدو الصحراء الغربية يفضلون الزواج بين الأقارب . وهم يقولون « جن تعرفه أحسن من ملاك متعرفهوش » ويصل تفضيل زواج الأقارب الى الحد الذى تعتبر فيه البنت مخطوبة لابن عمها بالميلاد ودون وجود اتفاقات مسبقة . فطالما أن الفتاة لها ابن عم فليس لها أو لذويها حق قبول اى شخص متقدم للزواج منها الا بعد استئذان ابن عمها والحصول على موافقته والا كان له حق التدخل وفض الاتفاق طالما لم يستشار فيه أو يوافق عليه . وتشير الكلمة المستخدمة للتعبير عن موافقة ابن عمها على زواجها من شخص آخر الى مدى صرامة هذا القانون العرفى . فهم يقولون أن البنت لا تستطيع أن تتزوج (شخص غير ابن عمها) الا اذا « سامحها » ابن عمها . . . وكأنها مرتبطة به وملتزمة به أو كأنها اخطأت وأعطته وعدا بالزواج لا يمكنها الفكاك منه الا اذا سامحها هو .

ويرتبط ذلك أشد الارتباط بأهمية القرابة عند البدو ـ كما ذكرت ـ فالمجتمع البدوى مجتمع قبلى تلعب القرابة دورا هاما فيه فى توجيه مختلف جوانب الأنشطة الاجتماعية . ومن الواضح أن الالتزام بهذا القانون العرفى له آثار على عملية التوافق الزوجى وغيرها . فبعض الشباب استغلوا حقهم هذا وظلوا تاركين بنات عمومتهم دون أن يتزوجهن ودون أيضا أن يسمحوا لهن بالزواج كنوع من الاذلال بسبب الخلافات العائلية . كذلك تزوجت بعضهن من أشخاص يشتهرون بسوء السمعة بسبب قوة القانون العرفى .

وقد خضع المهر من حيث مقداره وطريقة دفعه لتغيرات كثيرة تتناسب مع التغيرات التى تحدث فى المجتمع • فالطريقة التقليدية التى كانت سائدة كانت تقضى بان يذهب والد العريس المتقدم الى والد العروس ، فيحدد الثانى المهر الذى كان يختلف من قبيلة الى أخرى . وبعدها تقرأ الفاتحة ويأخذ الأب المبلغ فيشترى به « الحمول » وهو الحصير والسجاد والمفروشات، كما يشترى صندوق أو شنطة وطشت للغسيل وأطباق ... الخ . كذلك كان العريس يقدم للعروس ما يسمى « بالكسوة » وهى تعنى الجهاز . وهو يتحدد بحسب مقدرته ، ويقدم ايضا سوار من الفضة . ويحدث فى بعض الأحيان تنازل من جهة والد العروس عن جزء من المهر فاذا حضر ذوى العريس ومعهم بعض الأفراد من كبار القبيلة فان والد العروس قد يتنازل عن جزء من المهر ويقول « تركت كذا اكراما لفلان » ويقول بعض الاخباريين أن الأب ، يجهز ابنته بالمهر كله أو بجزء منه ، وفى حالة بقاء جزء من المهر فانه يشترى به بعض الأغنام التى تربى مع أغنامه باسم ابنته ويجوز لها أن تأخذها فى أى وقت لتصبح ملكا لزوجها .

واذا كان المهر بهذه الصورة نوعا من المساعدة فى تكوين الحياة الزوجية وليس مظهرا للشراء ، فان تطورات أخرى قد حدثت فى هذا المجال : وعلى سبيل المثال فقد ارتفع المهر فى بعض المناطق الصحراوية . وخاصة تلك القريبة من المراكز الحضرية أو من المناطق التى تروج فيها تجارة البدو اذ وصل الى ٥٠٠ جنيه أو ١٠٠٠ جنيه مصرى سنة ١٩٧٠ . وقد تميز المهر بارتفاع شديد لدى الجماعات البدوية التى عملت فى تجارة البضائع الواردة من ليبيا وارتفع دخلها من هذا العمل .

وتظهر احتفالات الأفراح والزفاف تشابها كبيرا بين عادات اهالى الصحراء وبين تلك السائدة بقية قطاعات المجتمع المصرى مع وجود اختلافات تعكس اثر اختلاف البيئة والمستوى الاقتصادى . فالاحتفال بالأفراح يتم فى الخيام . واذا كانوا يسكنون المنازل فانهم ينصبون الخيام فى الخارج حيث يجلس فيها الرجال بينما تجلس النساء داخل المنزل . ويحضر البدو الى

الفرح دون دعوة لأن توجيه الدعوة يشير الى أن الشخص الداعى يطلب رد النقوط ، بجانب أن تماسك الجماعة وصغر حجمها يجعل موعد الفرح معروفا للجميع ولا يحتاج الأفراد الى دعوة نظرا لروابط القرابة التى تربط بينهم . ويأكل الناس فى الأفراح من الذبائح التى تذبح سواء ذبحها أصحاب الفرح أو قدمها الناس مجاملة واسهاما وتعضيدا للاسرة .. ويلاحظ أن الأسرة صـــاحبة الفرح عادة ما تقدم على ذبائح كثيرة فى الأفراح . بل أن بعض الذبائح تقدم اكراما لأشخاص بعينهم مثل الغريب أو من يرافق العروس . وتوجد فى الصحراء أيضا ظاهرة « الحنة » المنتشرة فى المجتمع المصرى سواء بالنسبة للعريس أو العروس . وفى الصحراء تتم تحنية العروس فى بيت أهلها حيث تتجمع حولها النساء وهى تجلس فى الوسط على كرسى . وتقوم بتحنية يديها ورجليها سيدة من وعاء ملىء بالحنة . وبعد التحنية تغرس فى الوعاء بعض الشموع بينما تغنى الفتيات على صوت الطبل . وأحيانا يتم تحنية الموجودات أيضا . أما العريس فيقوم بتحنيته مجموعة من الشبان ، وهو لا يذهب الى بيت العروس فى ليلة الحنة . والرقص أيضا فى الأفراح ظاهرة توجد عند البدو . فالراقصة البدوية (الحجالة) ترقص بين الرجال وهم جالسون فى شبه دائرة يصفقون ويغنون لها .

اما زفة العروس والجهاز فقد طرأت عليها تغيرات تعكس اثر التحضر . فقديما كانت العروس تزف مع الجهاز ، وكانت عادة تحمل على الجمال أما الأغطية التى تكون جزءا من جهازها فكانت هى زينة الجمال . وكان دخول الجهاز الى البيت يصاحب دائما « بزغاريد » النساء . وبتفريغ السـلاح « اطلاق النار » وعندما عرف البدو السيارات أصبحت العروس تزف فى سيارة مع جهازها ، فتزور المساجد وهى داخل السيارة ، أما دوران العروس سبعة مرات حول خيمة العريس فقد بدأ يختفى بالنسـبة للبدو الذين سكنوا البيوت ولم تعد هناك امكانية للدوران حول البيت الـــذى عادة ما تلتصق به بيوت أخرى .

وتشير عملية فض البكارة فى المجتمع البدوى الى تشابه القيم المتعلقة

بالشرف لدى البدو وغير البدو على السواء . ويمكن أن يرد ذلك الى تلك الوحدة فى القيم التى تشترك فيها جماعات متعددة تعيش فى اطار مجتمع واحد رغم ما بينها من اختلافات ويمكن أن يرد أيضا الى ذلك التشابه الذى يوجد فى القيم والممارسات المرتبطة بها بين الشعوب الشرقية أو الجماعات التقليدية . والاختلافات التى توجد بين المجتمع البدوى وغيره من المجتمعات التقليدية فى مصر هو اختلاف فى التفاصيل وكيفية الآداء . فالبدوى مثلا بسبب ان ثقافته تحدد أن تغطية الوجه يعتبر نوعا من الاحتشام يجب أن يحدث فى مواقف عديدة فان خمار الوجه لا يكشف عن العروس أثناء فض بكارتها . وتحدث فى المجتمع البدوى نفس الاختلافات والتفاوتات التى تخضع للتفاوت الطبيعى فى السلوك الفردى فى آداء هذا العمل ، فالبعض مازال يتبع الطريق التقليدى لفض البكارة فى العلن بحضور عدد من أقارب العريس والعروس (من النساء) ووقوف جمهور كبير خارج الحجرة ، والبعض الآخر يفضل تضييق نطاق من هم موجدون داخل الحجرة بينما يطلب بعض الشبان أن يتم فض البكارة والعريس منفرد بعروسه وان كانت النتيجة يمكن اعلانها للجمهور المنتظر بالخارج على « الحرام الأبيض » أو عن طريق تعليق الحرام فى حجرة العروس لكى يراه الزوار فى الأيام التالية . وهناك اختلافات أخرى عديدة تتعلق بحسن معاملة العروس أو التشدد معها فى هذا المجال ، فالبعض يرون أن الملاطفة واجبة ويقولون « ان البنت اللى أحسنت بيها هى اللى تقابلك فى الجنة » بينما يرى البعض الآخر أن قوة العريس وشجاعته وعدم تردده معيارا لرجولته . وترجع هذه الاختلافات الى طبيعة تنشئة الشخص ومصادر معرفته الجنسية ، وفكرته عن الزواج ودور العلاقات الجنسية فيها ، ثم نظرته الى المراة وما الى ذلك من متغيرات. كذلك فان رد الفعل تجاه الفتاة التى يكتشف أنها ليست بكرا يتأثر بعوامل متعددة ، فعلى الرغم من أن الحكم المقبول فى هذا المجتمع هو قتلها الا أن ظروف وعوامل متعددة قد تبقى على حياتها . وبصفة عامة فهذه الحالات نادرة جدا فى المجتمع البدوى .

وهناك بعض التقاليد التى مازالت متبعه لدى البدو وهى لا تخلوا من الدلالات الأجتماعية أيضا . ومن هذه التقاليد ما يسمى بـ « **سوار اللبن** » فيقدم أهل العريس الى أم العروس يوم الزفاف « سوار اللبن » الذى هو كمية من النقود كمقابل لارضاعها للعروس من ثدييها أثناء طفولتها . وفى بعض الأحيان تأخذ العروس هذا المبلغ من العريس وتذهب لتقديمه الى أمها بعد سبعة أيام من زفافها . وتشبه هذه التقاليد مثيلها من التقاليد التى توجد لدى شعوب كثيرة أخرى وتتضمن تقديم مقابل لتربية الفتاة أو تعويض عن فقدانها بأى شكل من الأشكال . وهذه الممارسة لا تخلوا أيضا من معنى اجتماعى هو تقدير دور الأسرة عموما والأم بصفة خاصة فى تنشئة الفتاة والحفاظ عليها .

ومن التقاليد السائدة أيضا لدى الصحراء الغربية **الكسوة** . والكسوة هى الملابس التى يهديها العريس الى عروسه قبل الزفاف . فيجب على العروس أن ترتديها يوم الزفاف وتدخل بها الى بيت الزوجية . وحتى اذا كانت هذه الملابس منخفضة القيمة عن تلك التى اشتراها لها أهلها فهى يجب أن ترتدى الكسوة ، اذ أن دخولها بيت الزوجية مرتديه الملابس التى اشتراها لها أهلها تعنى احتقار وكراهية وعدم تقدير هدية الزوج ، ولهذا لا تجرؤ عروس على عدم ارتداء الكسوة أثناء الزفاف والا أصبحت مكروهة . وغنى عن البيان أن هذا التقليد يعزز علاقات الود بين الزوجين منذ بداية حياتهما اذ هى اعلان عن تقدير الزوجة لهدية زوجها .

المــوت :

توضح العادات والتقاليد والمعتقدات السائدة عند البدو أن ظاهرة الموت وما يرتبط بها من ممارســات متأثرة تأثرا شــديداً بالدين . وهذا ما تدل عليه دراسة ثقافات أخرى غير الثقافة البدوية . واذا كانت البيئة والظروف الاجتماعية يمكن أن تسهم بنصيب فى تشكيل الممارسات الثقافية المتعلقة بالموت فان للدين النصيب الأكبر فى احداث هذا التأثير . وما سنحاولة هنا

هو توضيح هذا الأثر من واقع المادة الميدانية التى تم جمعها من الصحراء ..

يحاول البدوى أن يتلو بعض الآيات القرآنية قبيل النوم اذا شعر بخوف من أن يأتيه الموت أثناء النوم . واذا ذهب بدوى الى الحج فانه يحرص على أن يشترى كفنه من هناك تعبيرا عن أنه مستعد لأن يتجه الى الله مباشرة بعد الحج . ويدل تحمل البدو لحدوث الموت وتسليمهم بـه وتقبلهم اياه على أنه أراده الله وعلى توفر عنصر الايمان بالخالق . واذا حدثت الوفاة فان أول كلمات نسمعها هى « انا لله وانا اليه راجعون » وهم يعتبرون أن الشخص الذى يتوفى يوم الجمعة هو من الصالحين ، أما من يموت أثناء الحج فهو اكثر صلاحا . وعندما تحين الوفاة فهم يوجهون الشخص ناحية القبلة أثناء ، الاحتضار ، ولتسهيل خروج الروح يقرأون القرآن . وتتلى الشهادة فى الأذن اليمنى للشخص ويقولون أنها تتلى أيضا أثناء سير الجنازة . ويعتبر البدو أن تجهيز الميت . وغسله شيئا واجبا يجلب « الثواب » للشخص القائم به . ولهذا لا يتقاضون عليه اى اجر بل يتسابق البدو لاحضار لوازم الميت ، كما يقومون بعملية الغسل بكل عناية . ويجب أن يكون الشخص القائم بالغسل تقى ومتدين ومصلى ويحفظ القرآن ، وربما يكون شيخ الجامع . ولا يمكن أن يشترك رجل فى غسل امرأة أو العكس ويوصى المدينون ذويهم قبل الوفاة بالاكثار من قراءة القرآن عليهم بعد وفاتهم .

وتدل عملية **التنبؤ بالموت** على تدخل عوامل أخرى بالاضافة الى الدين فى التأثير على الثقافة المرتبطة بهذا الجانب . وربما يرجع ذلك الى أن التنبؤ بالموت عملية صعبة يصعب آدائها بنجاح فى كل الأحوال لهذا يلجأ الشخص الذى يحاول التنبؤ الى أكثر من وسيلة غيبية — غير الدين — خاصة وأن المعرفة الدينية فى هذا الصدد تقرر « أن العلم بساعة الوفاة عند الله وحده » . وعلى ذلك فان هناك أساليب متعددة للتنبؤ بالوفاة مثل الأحلام . فالشخص عندما يحلم أنه قد وقع فى بئر عميقة فان هذا يعنى طول العمر ، واذا حلم بأنه وقع من على ظهر جمل فان هذا يعنى

أن حادثا سوف يحدث له . أما اذا اتى شخص ميت فى حلم لأحد الأحياء وأخذ منه شيئا أو سرق شيئا من المنزل فان ذلك يعنى ان شخصا من المنزل سوف يموت . وعندما يحلم بدوى بأن شخصا قد خلع ضرسه او اضرمت فيه النار فان ذلك علامة على قرب موته . ويؤكد أحد الاخباريين أن كثيرا من الاشخاص قد علموا بيوم موتهم وماتوا فى اليوم الذى حددوه . ويعتقد البدو أيضا أن الشخص الصالح قد يرى فى نومه ما ينبىء بموت أحد الأشخاص .

ويعتقد البدو فى غيبيات اخرى كمؤشرات لحدوث الوفاة فاذا طلب شخص بطيخ فى غير أوانه فان ذلك يعتبر نذيرا بموته ، وينطبق هذا عموما على طلب أية فاكهة فى غير آوانها . كما يعتقدون أن عواء الكلب ينبىء بقرب الموت . ويعتقدون أيضا فى الفأل الذين ينذر بالموت : فكلمات أهل الولاية او كلمات الأشخاص الآخرين ممن يعتقد فيهم الناس يمكن أن تكون دالة على الوفاة . كما أن أية كلمات تسمع مصادفة أثناء مرض شخص كأن يقول أحد المارة فى الطريق « مفيش فايدة » هى أيضا فأل ينذر بالموت . ويرى البدو أيضا أن خبرة كبار السن تعطيهم فرصة أن يخبروا بما اذا كان الشخص سوف يموت أم سوف يعيش . ومن الواضح أن هذه الغيبيات توجد لدى جماعات أخرى ، وهى تشير الى التنبؤ بالوفاة فى تلك الثقافات أيضا . كما أن احترام المجتمع البدوى لكبار السن وتقديره لهم على أنهم ذوى خبرة أدى الى الرجوع الى رأيهم كمحددين للوفاة .

ونظرا لان الوفاة تعنى توقف الجسم عن الحركة فيلجأ البدو أيضا الى التنبؤ بالوفاة عن طريق ملاحظة الجسم وفحصه ، وهذا يدل على قدر من الوعى والمعرفة فهم يقومون « بجس النبض » والتأكد من ضربات القلب ، وحركة اليدين والرجلين . أما تغير لون الجلد فلا يهتمون به اذ يعتقدون أن بعض الأشخاص لا يتغير لون وجههم . كذلك لا يهتمون بفقدان الميت للشهية قبل الوفاة كمؤشر لحدوث الموت اذ يعتقدون أن بعض الأشخاص تنفتح شهيتهم قبل الموت بينما لا يشعر غيرهم بشهية للأكل قبل الموت بالاضافة

الى ذلك يعتقدون أن حشرجة معينة تصدر من الشخص يمكن أن تكــون نذيرا ينذر بوفاته .

وتظهر بعض عادات وتقاليد الموت تشابه البدو فى جانب من ثقافتهم مع ثقافة وادى النيل ، بينما يظهر بعضها الآخر مدى التميز الثقافى الـذى يرتبط عادة بتميز ظروف البيئة التى يعيشون فيها . فمن جهة التشابه يحرص البدو ـ مثل غيرهم على اغلاق عين الميت واغلاق فمه عن طريق قطعة من القماش تربط من الرأس الى أسفل الفم بحيث تؤدى الى اغلاقه . وعادة ما يطلب البدوى من ذويه أن يسامحوه عما اساء به اليهم اذا ما احس بقرب وفاته . والبدو لديهم أيضا ـ مثل غيرهم ـ ما يعرف « بالتعديد » ، فالمرأة تقول أبيات معينة وترددها وراءها غيرها ، هذا بالاضــافة الى الصراخ والعويل كوسيلة للتعبير عن الحزن عند النساء . ويتصدق البدو بملابس الميت على الفقراء وخاصة عند القبر . أما اذا كان الأقرباء فى حاجة اليها فانهم يأخذونها . ويفضل البدو دفن الميت فى نفس يوم الوفاة . واذا لم يتمكنوا من ذلك قضى كبــار الســـن الليلة بجواره . والبدو يجاملون بعضهم ـ مثل بقية الجماعات ـ فى مناسبات الوفاة ، فالشخص قد يذبح شاة أو عنزة ، ويقدمها لجاره كنوع من المساعدة فى التكلفة التى يتحملها اهل المتوفى . أما من حيث الاختلاف فان البدويات يرتدين الحزام الأبيض كعلامة للحداد بينما يرتدى النساء فى وادى النيل الملابس السوداء لنفس الغرض . واذا كان أبناء الوادى يعتقدون أن الروح قد تنتظر أحد الأشخاص الأعزاء فلا تخرج الا بعد قدومه ، فان أحد الاخباريين قد أكد عدم وجــود هذا المعتقد عند البدو ، واكد أن ما يحدث هو محض صدفة .

ويوضح لنا ما يتعلق **بوصــية الميت** التشابه والاختلاف . فالبدوى يوصى ذويه بالوصايا التى يحرص عليها كل شخص فى معظم الثقافات . فهو يوصى اولاده بأن يسلكوا سلوكا حسنا ، وقد يوصيهم بأن يتصدقوا عليه أو يذبحوا له . ويوصى ذويه ايضا وصايا بخصوص المال والديون . وينفذ أغلب الناس الوصية أما خوفا من الله أو خوفا من الناس الذين يمكن أن

يفشوا سر عدم تنفيذهم للوصية . والقليل من البدو فقط هم الذين لا ينفذون الوصية . ولدى البدو عرفا خاصا بهم هو أن الوصايا الخاصا بالأموال والتركات لابد أن يقولها الشخص فى حضور ثلاثة أو اربعة اشخاص ، فهو يوصى أمامهم أقاربه بشأن توزيع ممتلكاته وطريقة سداد ديونه وغيرها . وأكد أحد الاخباريين عدم وجود وصايا تتعلق بطريقة الغسل أو تحديد الأشخاص الذين يحملون الميت ، وذكر أن ذلك اذا حدث فانه يكون حالات فردية نادرة .

ويعتبر صوت المرأة هو الوسيلة الوحيدة للاعلان عن الوفاة فى بيئة الصحراء . فهى قادرة بصوتها وصرخاتها على تعريف بقية البدو الذين يعيشون فى نفس المنطقة بحدوث الوفاة . ويساعدها على ذلك اتساع المكان وخلوه بحيث لا يوجد ما يعوق انتشار الصوت ووصوله الى مسافات بعيدة . ونظرا لصعوبة نقل الموتى فى الصحراء ، فعلى الرغم من أن البدوى يفضل أن يدفن بجوار المكان الذى يعيش فيه الا أنه فى حالة حدوث الوفاة بعيدا عن مكان الاقامة (وخاصة فى حالة الجماعات الرحل) فيتم الدفن بجوار المكان الذى حدثت فيه الوفاة .

ثـانيا

حزام المرأة البدوية
الأصول ، والوظائف ، والمحددات الاجتماعية

ترتدى المرأة البدوية حزاما فوق جلبابها . وينتشر ارتداء الحزام لدى معظم بدويات مصر ، وخاصة من يسكنون الصحراء الغربية . فلا يمكن أن ترى بدوية وهى غير مرتدية الحزام خاصة خارج الخيمة أو خارج المسكن . وهى ترتدية طول اليوم اثناء اداء اعمالها المنزلية ، أو فى حالة خروجها لرعى الغنم ، أو أداء أى عمل خارج الخيمة . ولا يمكن أن تظهر المرأة بدون حزام الا أمام عدد قليل جدا من الأشخاص . فهى يمكن أن تخلعه فى وجود صبايا أو أمام زوجها ، لكنها لا يمكن أن تظهر بدونه أمام أقاربها - حتى أمام والدها .

وتلف المرأة البدوية الحزام على وسطها عدد من اللفات (بحسب طول الحزام) ثم تشبك طرف الحزام على جنبها « بدبوس » ، ولكن بعض السيدات كبيرات السن يربطنه من الأمام لأنهن يعتبرن أن « الدبوس » زينة للصغيرات ، ويحتم الوقار عليهن بسبب كبر سنهن الا يتزين بهذه الصورة . واللون الأحمر هو اللون المميز للحزام الذى يلتف على وسط المرأة البدوية فى الصحراء الغربية ولكنه يتدرج من الأحمر الزاهى الى الأحمر القاتم وفقا لسن المرأة ، ذلك أن اللون الزاهى مناسب للفتيات أما القاتم فيناسب المتقدمات فى السن . ويقول أحد الاخباريين أن اللون يمكن أن يتغير فى مناسبة واحدة فقط هى الحداد : فحزام المرأة البدوية فى فترة الحداد لونه أبيض وتتحدد مدة ارتداء الحزام الأبيض وفقا لاعتبارات كثيرة تتعلق بتقدير كل امرأة لفترة حزنها على الميت . لهذا فهى قد تكون اربعون يوما وقد تمتد الى عام كامل . ويرى البعض أن البدو يكرهون ارتداء حزام الحداد .

وقد يصنع الحزام من الصوف أو من القطن أو من الاثنين معا . ولا يمكننا تحديد مقاسات معينة للحزام لا من حيث الطول أو العرض أو السمك لأن هناك أطوال وأنواع عديدة ولكن يقال أن متوسط طوله من مترين الى ثلاثة أمتار بحيث يلف أكثر من مرة على الوسط ، أما العرض الذى يظهر على وسط المرأة البدوية فهو عادة ما يكون فى حدود من ٢٥ ــ ٣٠ سم . وبصفة عامة يقال أن عرض وسمك الحزام يشير الى ارتفاع ثمنه وبالتالى يشير الى قيمته . ويلاحظ أن السيدة الواحدة قد تمتلك أكثر من حزام ، ويمكن أن يتم تبادل الأحزمة بين أفراد الأسرة من النساء .

ويشترى البدو الأحزمة من الأسواق والمحلات التجارية فى القاهرة . ويقال أيضا أنها تستورد من ايطاليا التى تصدرها الى ليبيا . كما تقوم بعض البدويات بصنع أو نسج الحزام فى مناطق معينة فى الصحراء الغربية .

وتعلق البدوية فى الحزام بعض الأشياء لكى يبدو فى افضل صورة . وقديما كانت تعلق قطعا صغيرة من المرآة (يقولون عنها نضارات) لكى تعطى ومضات عندما ينعكس عليها ضوء الشمس ولكن بعد أن استغلت بعض النساء ذلك فى ارسال اشارات لجذب الشباب بهذه القطع الصغيرة فقد أبطل استخدامها . ولهذا تعلق فى الحزام الآن الأحجبة والسلاسل الخرز (ولكن البعض يتشاءمون منه) والخمسة وخميسة ، وأحيانا يعلقون به قطع من القماش يأتون بها من المساجد أو من اضرحة الأولياء .

وتتضح أهمية الحزام عندما نعرف أن الأهل يعلمون الفتاة فى سن مبكرة جدا كيف ترتديه ، ويصرون على ارتدائه متى وصلت الى سن البلوغ وتقوم الأم أو الأخت الكبيرة بتوصية الابنه بما يجب عليها أن تفعله من أجل الحفاظ على الحزام وعدم خلعه لأى سبب بالاضافة الى ذلك يقدم الحزام ضمن الجهاز فى كسوة العروس ، ويشترى حزام جديد اذا بلى الحزام القديم . أما اذا سرق حزام البدوية او فقدته لأى سبب فان عليها أرتداء قطعة من القماش الى أن تشترى حزاما آخر . (هذا نادرا ما يحدث بالطبع)

وللحزام عدة وظائف بعضها وظائف أساسية وبعضها وظائف جانبية تابعة . وأهم وظيفة للحزام الوظيفة المتعلقة بالجانب الأخلاقى فالبدو يرون أن هناك عيبا فى ألا ترتدى البدوية حزامها أمام الناس ، وأن خلعه يعنى نوعا من اظهار مفاتن المرأة البدوية واظهارا لأجزاء من جسمها لا يجب أن تظهر أمام الناس . ولهذا يصفون المرأة التى تخلع حزامها بأنها « خسرانة » بمعنى فاسدة الأخلاق ، أو « هبلة » أى حدث لها نوع من العتة أو الجنون . ويعد هذا الفعل جريمة . والواقع أن الحـزام يساعد على اخفاء منطقـة البطن بالذات . وهم يعتبرون أن ظهور هذه المنطقة أمرا معيبا . كذلك يساعـد الحزام على حبك الجلباب على وسط المرأة فيمنع تطاير الجلباب من الهواء . ويمكن أن يساعد الحزام ايضا — اذا أرادت المرأة ذلك واذا عالجت بـه جلبابها بطريقة معينة — على اخفاء معالم صدرها ، فهى يمكنها رفع الجزء الأعلى من الجلباب من ناحية الصدر بحيث يكون « عب » فلا يؤدى الى ظهور صدر المرأة . ذلك أن اظهار صدر المرأة أيضا يعتبر نوعا من العيب .

وللحزام أيضا وظيفة صحية ، فنظرا لأن كل البدو كانوا — ومعظمهم ما زالوا للآن يعيشون فى خيام — ولما كان مدخل الخيمة منخفضا فان ذلك يتطلب دائما انحناءه من الشخص الذى يدخل الخيمة أو يخرج منها . ولما كان عمل المرأة الكثير والمتنوع يستدعى دخولها وخروجها عدد كبير من المرات فان ذلك يؤثر على وسطها ، والحزام يساعد على صيانة منطقة الوسط . كذلك يستخدم الحزام فى عملية الولادة اذ يعلق فى سقف الخيمة وتمسك به المراة وهى تلد لكى يساعدها ذلك على القيام بعملية الدفع .

ويرى البدو أن للحزام وظيفة جمالية أيضا ، فهو يساعد على حفظ القوام واظهار الرشاقة . ويقولون أن البدوية التى تريد أو تبدو أكثر رشاقة هى التى ترتدى الحزام بطريقة خاصة ، وتهتم بتحديد مكانه بحيث يقع فى أعلى أو أسفل الوسط حسب ما يجعلها تبدو أكثر جاذبية . والبدوية التى تحرص على ذلك تحرص أيضا على اظهار « الدبوس » اللامع .

وهناك وظيفة جانبية أو تالية للحزام ، فالمراة البدوية تحتفظ فيه أو

تخبىء به النقود أو الأوراق أو أى شىء آخر . ويساعد على ذلك أن الحزام يتكون من عدة راقات تطوى على بعضها بحيث يكون ما يشبه الجيب أو الحافظة . ويمكن للبدوية أن تخبىء فيه بصفة خاصة ما تريد أن تخفيه على غيرها . فما دام الحزام يحمى المناطق التى تتسم بالعيب فان الاقتراب الى الحزام نفسه يعتبر شيئا محرما ، وبالتالى فان المرأة البدوية تخفى فيه ما تريد وهى مطمئنة نظرا لأن مبدأ التحاشى سوف لا يعرض أسرارها لأن تنكشف . وقد حدث استغلال لهذه الظاهرة عندما اشتغلت بعض بدويات الصحراء فى عمليات نقل البضائع الأجنبية من الأراضى الليبية الى منطقة الصحراء الغربية . فقد خبأن فى الحزام النقـود وبعض المهربات الصغيرة وساعد على ذلك أنه توجد أنواع سميكة جدا منه بالاضافة الى أنهن حاولن لفه أكثر من لفة على وسطهن بحيث يعطى فرصة أكبر لاتمام مثل هذه الأغراض (٢) .

واذا حاولنا أن ننظر نظرة متعمقة الى مختلف التفاصيل التى سبق ذكرها عن الحزام فاننا سوف نجد انه يعكس لنا جوانب متعددة من حياة البدو الاجتماعية والثقافية . بل ان التعرف على مزيد من التفاصيل يمكن أن يعكس لنا المزيد من هذه الجوانب . فلون الحزام ونوعية النسيج وعرضه يظهر لنا كيف يميز المجتمع البدوى بين فئات السن المختلفة كما تعكس لنا نوعية النسيج وعرض الحزام وامتلاك أكثر من حزام المستوى المادى للمرأة التى ترتديه . ولا شك أن التعرف على وظائف الحزام ــ كما تبدو للملاحظ وكما يقررها البحث ــ قد عكست لنا الدور الاجتماعى للمرأة البدوية فهى امرأة تقوم بجهد خارج المنزل وداخله وهى بهذا ليست امرأة تقليدية قابعة داخل منزلها ، فدخولها وخروجها من باب الخيمة متكرر ، والا لم تكن هناك ضرورة لارتداء الحزام طول اليوم . بل انها امرأة عاملة خارج المنزل لفترات طويلة فى رعى الاغنام وجلب المياه وغيرها ولهذا أصبح الحزام

---

(٢) تشبه هذه الظاهرة الى حد كبير تعود المرأة الريفية على الاحتفاظ بالنقود وبعض الأشياء الأخرى فى صدرها فى (الستيان) .

جزءا لا يتجزأ من معالم زيها . كذلك فان ما يحاول الحزام أن يخفيه يوضح لنا المسموح وغير المسموح فى المجتمع البدوى كما يوضح لنا الأخلاقى واللا أخلاقى وبالتالى يعرفنا بالمعايير السائدة فى المجتمع .

وبعد ، فان الحزام عنصرا ثقافيا يعكس بشدة جوانب اخرى فى الحياه الاجتماعية اذا نحن أمعنا النظر الى تفاصيله ، ولم نأخذه مأخذ السطحية أو نعتبره قطعة ملابس مضافة الى بقية الزى او مجملة له ، واذا لم نكتف بمجرد الفضول الذى يتوفر لدى معظم الناس للتعرف على أخص خصائص غيرهم . وسوف يوضح لنا مدى الالتحام والارتباط بين هذا العنصر الثقافى البسيط وبين بقية جوانب الحياة الاجتماعية مناقشة النقاط التى ذكرناها بصورة تفصيلية أكثر تحت العناوين الآتية :

الحزام ومفهوم « الحشوم » :

« الحشوم » عند البدو تعنى العيب . وما دمنا نذكر الحزام فاننا نتعرض لمفهوم الحشوم طالما أن خلع الحزام هو نوع من الحشوم (العيب) . ويرتبط مفهوم الحشوم بمفهوم التجنب أو التحاشى فأجزاء من جسم المرأة يجب أن تتجنب وتختفى ويتحاشاها الناس . وهذا يرتبط بما هو سائد فى ثقافات عديدة — ومنها الثقافة البدوية — من اعتبار الجسم العارى عريا كاملا أو عريا جزئيا نوعا من العيب . فالجسم أو أجزاء منه على الأقل « عورة » لا يجب ظهورها بأى شكل من الأشكال . وتخترع كل ثقافة من أساليب السلوك ، وأشكال الملابس ، وأنماط السلوك ما يضمن سترة هذه الأجزاء . ولهذا تحدد للحزام أن يخدم هذه الوظيفة فهو يجب أن يرتدى بطريقة تخفى تفاصيل الصدر والبطن كما ذكرنا . ونظرا لأن الأرداف (ويسمونها التوانى) تعامل على أنها حشوم يجب أن تختفى ، وطالما أن الحزام لا يمكن أن يخفيها فقديما كانت هناك قطعة من القماش الأبيض فى شبه منديل تربط فى الحزام من الخلف وتتدلى على المؤخرة من أسفل الظهر لكى تخفى « التوانى » ولكن اختفى هــذا التقليد الآن . كذلك فان الثقافة التقليدية للبدو كانت تفترض ألا يكون الحزام من الحرير لكى لا يساعد على ظهور الأجزاء التى

يجب أن يخفيها . وهذا يوضح كيف تتكاتف المحددات الثقافية لحماية القيم الأخلاقية ولتحقيق التجنب والتحاشى تجاه ما اصطلحت عليه أنــه « حشوم » وليس أدل على خدمة العنصر الثقافى لمبادىء أخلاقية من ظاهرة اهتمام البدو بتضمين التربية ما يتعلق بالحزام وارتدائه . فارتداء الحزام أمرا سهلا يتعلم فى لحظة ولكن التربية تخصص جزءا من مادتها لهـــذا العنصر الثقافى ليس بسبب العنصر المادى ذاته ولكن بســبب ارتباطه بما تهتم به الجماعة . وفى نقاش مع مجموعة من رجال البدو كبار السن اظهروا خجلهم الشديد ورفضوا تماما أن يخبروا بأية حكايات أو نكات أو أمثال تتعلق بالحزام (عندما طلب منهم الباحث ذلك) هذا على الرغم من أن تعبيراتهم كانت تظهر - وفى تقدير الباحث - أن لديهم ما يمكن أن يخبروا به (٣) . واذا كان ذلك يشير الى مدى حساسية هذا العنصر من الثقافة المادية ، فان ما يشير الى ارتباطه الوثيق بالجانب الأخلاقى والسلوك هو ان العروس التى يكتشف أنها ليست بكرا فى ليلة الزفاف تشنق بحزام وسطها .

الحزام ومفهوم التلوث والنقاء الأخلاقى :

يرتبط أيضا الحزام بمفهوم التلوث والنجاسة - وفق معايير المجتمع - والنقاء الاخلاقى . فما دام الحزام يلتف دائما حول وسط المرأة فهو يكتسب منها رائحتها وسمعتها وفضيلتها ورذيلتها ، وحتى مرضها ولهذا فالعلاقة مع المرأة وانماط الاقتراب أو التجنب للمرأة تنسحب أيضا على حزامها فاذا كان الحزام يمكن أن يورث من امراة الى اخرى ، الا أن حزام المراة الفاسدة والمريضة بمرض معد يدفن معها ، أو يحرق بعد موتها تماما كما يفعل « بالمشط » الذى تصفف به شعرها . أما المرأة الفاضلة يرث الناس حزامها بعد موتها ، ويمكن التصدق بحزامها على الفقراء ، بل يتبرك البدو بحزام المرأة الصالحة تماما مثلما يتبركون بأى قطعة من ملابس الصالحين .

---

(٣) هنــاك ملاحظة اشرنا اليها قبل ذلك وهى أن الرجال البدو عادة ما يخجلوا من ذكر ما يتعلق بالنساء ، وبعضهم يرفض نهائيا مناقشة أيــة أمور خاصة بالمرأة ويعتبرون ذلك عيبا أيضا .

الحزام يوضح التكامل وفى نفس الوقت يعكس التناقض فى الثقافة :

ويظهر الحزام التكامل بين هذا العنصر الثقافى المادى وبين بقية عناصر الثقافة ، وتظهرها أيضا تلك الأشياء المعلقة ، فكما ذكرنا أن البدو يعلقون قطع الأقمشة الآتية من المساجد والأحجبة وغيرها ، وهذا يكشف بلا شك عن طبيعة معتقداتهم ، كما أن عدم تفضيلهم لتعليق الخرز الأزرق بالذات يعضس تشاؤمهم من هذا الشيء المادى .

وتتضح التناقضات التى عادة ما توجد فى عناصر ثقافية معينة أيضا من النظر الى استخدام الحزام ووظائفه ومدلولاته . فالحزام يرتدى اساسا وفقا لوجهة النظر التقليدية كنوع من الحشوم ولاخفاء أجزاء من جسم المرأة ، ولهذا أصرت الثقافة التقليدية ـ كما ذكرنا ـ على الا يكون من الحرير . ولكن ذلك تم تجاوزه الآن بالنسبة لبعض الجماعات أو الحالات الفردية ، فقد تحول الحزام الى الحزام الحريرى الذى يساعد على اظهار هـذه الأجزاء بطريقة رشيقة ان لم تكن جذابة (٤) . كما أنه فى الفترة التقليدية استغلت القطع العاكسة التى تعلق فى الحزام استغلالا يخالف تماما الغرض من الحزام . ولهذا بطل استخدامها . وبصفة عامة فان التضاد فى وظيفة العنصر الثقافى تظهر فى السلوك الشخصى وفى طريقة ارتداء الحزام وفى المنطقة التى تضع عليها البدوية حزامها فهو يمكن أن يكون فى حالة معينة وسيلة لاخفاء الحشوم وفى حالة اخرى وسيلة لاظهارها . ولعل استخدام الحزام فى الرقص البدوى يعكس أيضا هذا التناقض . فالحجالة (الراقصة البدوية) ترقص بين الرجال فى الأفراح وهى ترتديه فوق الجرد وهو فى هذه

---

(٤) من الملاحظ بالنسبة لأجزاء الزى على وجه الخصوص ان الوظيفتين : وظيفة اخفاء أجزاء والوظيفة الجمالية ترتبطان ببعضهما ، على الرغم من أنهما يمكن أن يكونا فى بعض الأحيان متضادتان ، وذلك خاصة اذا تـم ارتداء الجزء من الزى بطريقة معينة ، فما يجب أن يخفى الحشوم يمكن أن يظهرها بطريقة أو أخـرى وربما يرجع ذلك الى تدخل كثـير من العوامل الشخصية والنفسية ، وما يتعلق بالعلاقات بين الذكر والأنثى .

الحالة يقوم بدور الحزام الذى ترتديه المراة الراقصة فى وادى النيل — فيمكنها من الرقص بطريقة جذابة . وفى نفس الوقت يستخدم الحزام لتغطية وجه الحجالة وهى ترقص ، فغالبا ما ترقص البدوية ووجهها مغطى بالحزام ، وفى هذه الحالة هى ترقص وهى خجولة محتشمة (٥) . وبين هذا الاستخدام وذاك تناقضا واضحا تتميز به بعض الممارسات الثقافية .

ويتضح أيضا من استخدام الحزام أن ثقافة البدو تتبع نفس ما اتبعته ثقافات تقليدية آخرى من وضع قيود مادية لضمان السلوك الاخلاقى فى المجتمع ومحاولة التأكد المادى من السلوك المعنوى والأخلاقى ، فغرض الحزام هو فرض العفة ، والتأكد من بقاء الحزام هو محاولة للتاكد من مطابقة السلوك للقاعدة الاخلاقية .

ويوضح أيضا أن هذا العنصر المادى قد استخدم كوسيلة للحكم الاخلاقى ما حدث من تغيير فى الحزام ، وما تبع ذلك من تضارب فى تفسير التغير . ففى بعض المناطق التى يعيش فيها البدوبالقرب منالمدن تغيرالحزامالىمجرد رباط للوسط « عادة منديل أو ايشارب » وحدث ذلك بالنسبة للفتيات . وقد فسر ذلك فى هذه المناطق على أنه نوع من التحضر ، وكان تغيرا مقبولا . ولكن فى منطقة معينة اشتهرت الفتيات فيها بسوء السلوك فسر البدو التقليديون تغير شكل الحزام على أنه فساد ، وأن الفتيات لم يعدن يحافظن على الأخلاق البدوية ولكنهن يحتفظن بمجرد الشكل ولهذا اختصر الحزام الى مجرد شريط يربط الوسط فيزيد الأمر سوءا . واذا كان الواقع يقرر أنه فى كلا المنطقتين أدت ظروف الحياة المتحضرة وسكنى المنازل بدلا من الخيام ذات المدخل المنخفض) الى عدم ضرورة التقيد بالحزام التقليدى ، فاستبدلته الفتاة بمجرد منديل لكى ترضى تقليدية البدو وفى نفس الوقت تتمكن من الحركة السهلة فى منطقة يغزوها التحضر فان الحكم الأخلاقى فى كلا الحالتين اختلف فاذا كان تفسير التغير فى الحالة الأولى قد استند الى فكرة التحضر فان تفسير التغير فى الحالة الثانية استند الى الفكرة السائدة عن المراة فى تلك المنطقة اذ حاول البدو استخدام التغيرات التى حدثت فى الحزام لكى يؤكدوا الوصمة الأخلاقية التى سبق أن ارتبطت بالمراة فى المنطقة وليست لها علاقة بقطعة من الملابس .

---

(٥) تغطية الوجه خجلا سمة وسلوك ثقافى لدى البدو ، ويمكن ملاحظته فى الكثير من المواقف وعلى سبيل المثال فان البدوية التى تتقدم للفحص الطبى أو اجراء الجراحات تطلب تغطية وجهها .

ثـالثـا

المدلول الاجتماعى للأغانى الشعبية

والأغنية الشعبية فى الصحراء يمكن أن تعكس أيضا متغيرات كثيرة فى حياة ساكن الصحراء ، ويمكن أن نتعرف منها على البيئة والمناخ والأوضاع الاجتماعية والسياسية . وهناك ملاحظة هامة هى أنه حتى وان كانت الأغانى فى معظمها أغانى عاطفية الا أنها تتضمن ما يشير الى هذه المتغيرات كما سيتضح من استعراضنا لبعض الأغانى وما تتضمنه من مدلولات .

الحب والزواج :

من الطبيعى أن الأغانى العاطفية توجد لدى أى شعب بكثرة ، وهى تعبر عن طابع العلاقات بين الجنسين ، وتعبر أيضا عن ظواهر مثل الحب والزواج والهجر وغيره . وسكان الصحراء مثلهم مثل سكان اية منطقة أخرى لديهم الكثير والمتنوع من الأغانى .

* فهناك الأغانى التى تحمل تمنيات الفرح للغير مثل الأغنية التى تقول كلماتها :

الفرح عندى يا جيرانى عقبال الجارة والجار .
الفرح عندى يا جيرانى اللى منكم فرحان يبان .

* وهناك أيضا أغانى الحب التى توضح اللوعة على الحبيب الحاضر أو الغائب مثل :

بكدادك دو شقية   اعزيز فى نارك وطـاه

وتعنى أنها جذبته الى أن صار كطفل صغير يسير وراءها متاثرا بنار الحب .

* أما جنون الحب فيظهر فى الاغنية التى يقول أحد أبياتها :

حبك خلانى يا ذوبة　　　كيف المجنون بها توبة

* كما تظهر الدموع التى تزرف على الحبيب المسافر فى قولهم :

قطارة دموعى قطارة　　　والغالى سافر يا خسارة

* ويعبرون عن غزارة هذه الدموع بقولهم :

ادموعى على لوليف (هى)　　　اسقطن بين دار النية

وتعنى أن دموعها تجرى كالترعـة . وهى تقال عندما يمنـع الناس استمرار علاقة بين شخصين تربط بينهما علاقة عاطفية .

* أما العلاقة العاطفية مع الجار فيظهرها البيت الذى يقول :

يا نيللى عينى منهبلة　　　عللى بابه تفتح قبلى

وتعنى أن هذا الشخص الذى يسكن المسكن ذو الباب القبلى جعلها تجن من حبه .

* وتظهر أيضا الأغنية الشعبية فى الصحراء الأوضاع الاجتماعية التى يتقدم فيها اكثر من شخص لخطبة فتاة فيجعلها هذا فى موقف محير . ولهذا تقول انها متحيرة بين أن تقبل « فضيل » المتقدم لها أم تقبل من تقدموا لها من عائلته :

يا نيللى عينى محتارة　　　بين فضيل وبين دياره

* أما سهر الليل من أجل الحبيب فيظهر فى البيت القائل :

تهيئو لها فى محالات نومها　　　تهيئوا لها واسمرت

وتعنى أن ظهور الحبيب فى حلم الليل لا يدع الفرصة للشخص أن يذوق النـوم .

* وتشـــير احدى الأغانى الى عملية التردد التى تحـدث عند بعض الأشـــخاص فى التعبير عن الحب ثم انكاره مرة أخـرى فيقول احد ابيات الأغنية :

سوايا عزيز كبـار   تنسوهن يجينا بغيرها .

فالفتى يقول لمحبوبته « فيه حاجة زعلان منها . مرة عايزاك ومرة مش عايزاك » .

* وتدل بعض الأغانى على وجود تدخلات تؤدى الى افساد العلاقات العاطفية فتدعى المغنية على من أفسدوا حبها بالموت بقولها :

اللى تسببوا غــلاى   اجعل دعى فى دولا جهم

البيئة الصحراوية :

تظهر البيئة الصحراوية التى يعيش فيها البدو بما يوجد بها من معالم طبيعية وظواهر مادية فى الأغنية الشعبية ايضا .

* فالاعتماد على مياه الآبار يظهر فى الأغنية التى تقول :

عندى وردة فوق البير   انهبت الأرياح تطير

وتعنى أن محبوبته مثل وردة على البير يخشى أن يأخذها منه أحـد (يرمز للشخص الذى يأخذها منه بالرياح) .

* ويظهر البيتين الآتيين طبيعة السفر والمناطق الصحراوية المختلفة التى يسافر بينها البدو ويقول البيت الأول :

يا طير ماشى جبلنا   قول لأهلنا رانا ماشى فى مطروح وصلنا

وتعنى انه يقول للطير أن يبلغ الأهل (المحبوبة) أنه وصـل من سفرة الى مرسى مطروح . أما البيت الثانى فيقول :

كلا من جيرانى كلا من جيرانى . . وين خطهم جالوا « بوانى » .

وهو يشير الى أن « سيدى براني » هى منطقة الاستقرار التى يهدف الحبيب الى السفر اليها .

المعتقدات :

وتوضح أبيات أخرى أن البدو يلجأون الى الأولياء لضمان استمرار العلاقات العاطفية فتغنى الفتيات لسيدى العوام (من أشهر أولياء مطروح) الأبيات الآتية :

يا سيدى العوام العالى　　ما تشمت فينا لاوالى
مكتوب فى نصاف العضم　　حى لاباد ولا محى

وتعنى الدعاء لسيدى العوام أن يساعدهن على استمرار علاقة الزواج واستمرار الحب الذى أصبح مكتوبا فى العظام ولا يمكن أن يمحى حتى بالموت .

الثقافة المادية :

وتشير أغانى أخرى الى الثقافة المادية السائدة فى البيئة الصحراوية . ونأخذ على سبيل المثال بعض الأبيات التى تشير الى ما يتعلق بالافراح .

* فما يشربه البدو وما يتزينون به فى الأفراح يظهر فى الكلمات التى تقول :

يا مبروك على حارتنا　　اللى دارت فرح ولمتنا
اليلة فى شارعنا ضى　　السكر والشربات على

واذا كانت هذه الأبيات تظهر أنواع المشروبات فى الأفراح ، فان البيت الذى يقول :

يا بوى سبايب دايا　　من بوعين تشيل وجية (أوقية)

فهو يشير الى استخدام البدو « للكحل » كمادة للتجميل ، وهى تعنى أن مرض الحب (سبايب دايا) قد أصابه من نظرة ذات العيون التى تحمل اوقية كحل .

الوعى السياسى :

ويظهر أيضا الوعى السياسى للبدو ، وارتباطهم بالوحدة السياسية الأكبر التى يعيشون فيها فى أغانى كثيرة نختار منها تلك الأغنية التى تعلقت بموت جمال عبد الناصر فهى تقول :

مرحب يابو توب خضر	أريـد المـل عليك خبـر
على ميته عبد الناصر	على ميته عبد الناصر
اللى فايت شـعبه زعلان	اللى حـرر كل الأوطان

وأغنية أخرى مشابهة تقول :

يا جمـال يا عبد النـاصر	ياللى فى العدوان تكاسر
اسـمعنى يا شـعبا حر	اليوم ناتيك خبر على ميته عبد الناصر

ومن الواضح أن كلمات الأغنية تتباكى على عبد الناصر وتشيد بما حققه لبلاده .

التغير الاجتماعى والثقافى :

وتوجد مجموعة كبيرة من الأغانى الشـعبية التى تتناول موضـوعات مختلفة هى تعكس لنا فى الواقع تغيرات حدثت فى حياة الناس الاجتماعية وفى ثقافتهم وفى التكنولوجيا التى تعرفوا عليها أو توصلوا اليها .

* فقرب البدو من المناطق العمرانية وتحول بعض مناطق الصحراء الى مدن (مثل مدينة مرسى مطروح) أدى الى تعرف البدويات على السينما وبالتالى وظهورها فى أغنياتهم . فهناك أغنية تقول :

حتى الشـايب داير حويمه	وهـذى ياخواتى جلة جيمة
نامبارح رايتـه فى السـينما	وشـايل فى ايده عصـية
ولابس تـوب وصـدرية	ومعاه حتـه ديـن بنتيـة

حتى الشايب داير غية

وفضلا عن أن هذه الأغنية تعكس لنا تعرف البدو على نماذج حضرية فهى تشير ايضا الى بعض محددات السلوك الاجتماعى وتحدد اللائق وغير اللائق . فالثقافة البدوية أصبحت تقبل الآن أن يصطحب الشاب « بنيتة فى السيما » لكن بالنسبة للعجوز يعتبر هذا السلوك « قلة قيمة » .

* وتوضح ايضا الفة بعض جماعات الصحراء — تلك التى تعيش على الساحل — بالموانى الأغنية التى تقول :

يا طيرن واجف على المينا | زر (ارسل) جواب لأهلينا

فالبيت يوضح أن البدو أصبحوا يستخدمون الخطابات التى يرسلونها مع طير الميناء لتعبر عن حبهم .

* أما التغيرات التى حدثت فى موضوع المهر وتحوله من شكل المهر البدوى التقليدى الى مستويات الدفع السائدة الآن والطرق التى يدفع بها المهر ، تلك التى تشير الى التطورات الحديثة وارتفاع مستوى معيشتهم فتعبر عنها الأغنية القائلة :

عطو هالى غويشة | عطوها لى بألفين جنيه
المهر ادفع | ونجول شوية فى الحلوة

* وقد عكست أغنيات الحب والغزل ايضا اثر البضائع التى كانت تستورد من الخارج وتدخل منطقة الصحراء عن طريق ليبيا . فعندما لبست البدويات الثوب الحريرى الرقيق المستورد غازلها البدوى قائلا :

يالباس رقيق الهفوة | خذنى فى ذبونك (حضنك) غفوة

ويقصد بهذا مفاجأة حبيبته ذات الثوب الرقيق ويطلب أن تأخذه فى حضنها لحظة نوم .

وفى احدى المناطق بالصحراء كانت الأغنية الشعبية معبرة عن أكثر من جانب من جوانب التغير التى حدثت فى حياة الناس فأبيات احدى الأغانى

كانت تشير الى النمط العمرانى الجديد ، والى تعرف البدو على أنواع روائح وعطور مستوردة ، وتشير أيضا الى تغير الاتجام نحو الزواج . فالأغنية تقول :

يا مســـــاكن يا شعبية	كلك زوق وانســـــانية
بين المــركز والشــعبية	ادانى ريحـــة ليبيـــة
العين تابت ما تريد عربى انفت	احشـــــيبى فى مكتب

فالأبيات تتغنى بالمساكن الشـــعبية (البلوكات) التى تم بناؤها فى احدى المدن الصحراوية . وتقول الفتاة أن حبيبها قد قدم لها هدية « ريحة » مستوردة من ليبيا ، وأعطاها لها فى مكان حضرى بين العمارة الشعبية وبين مبنى المركز (قسم البوليس) ، وهو مكان مختف فى هذه المنطقة بالذات . ثم تعبر الفتاة عن عدم رغبتها فى الزواج من بدوى وتقول أنها تابت عن أن تريد البدوى الذى انفت ، بمعنى البدوى العجوز . وربما يرجع ذلك الى كثرة الحالات التى تزوجت فيها فتيات صغيرات من رجال كبار سن خضوعا للتقاليد . وتقول أنها تريد من يعمل موظف بالمكتب وتشير ــ كما ذكرنا ــ الأغنية الى تغير فى الاتجاهات خاصة اذا عرفنا أن البدو لديهم أحساس بالاستعلاء ويصعب أن يقبلوا الزواج من غير البدو .

أما تصور البدو للأوضاع الجديدة ، ومدى تكيفهم للنظم الادارية التى أدخلت فى الصـــحراء ، ومدى قبولهم لتطبيق الضـــوابط الرســمية عليهم فتعكسها الأبيات التى تشتكى فيها فتاة وتقول :

خــدوا منى ريــدى يارب	حكومة والبيبان خشـــب
خدوا منى ريـــدى ياريد	حكومة والبيبان حـــديد
خــدوا منى ريدى ياناس	حكومة والبيبان نحـــاس

فالفتاة تبكى هنا على محبوبهـــا الذى ابتعد عنها بعد انخراطـــه فى أى قطاع رسمى سواء فى وظيفة حكومية أو فى التجنيـد أو فى قسم البوليس .

وهي ترى أن هــذه الجهات الحكومية لها طبيعــة مختلفة عن نمط الحياة البدوية . وتشكو من أنه لم يعد يمكنها الدخول الى هذه الأماكن ذات الأبواب الخشبية والنحاسية والحديدية لكى تلاقى حبيبها كما كانت تلاقيه بسهولة قبل أن تحل بالصحراء هذه النظم الجديدة . وهى يمكن ألا تقصد بالأبواب الحديدية أو الخشبية أو النحاسية الجانب المادى ، بل يمكن أن تقصد أن التعامل مع هذه الأنظمة والادارات أمرا صعبا ، وكأنها أغلقت أبوابها بمتاريس حديدية .

أما من جهة التكنولوجيا الحديثة فعلى الرغم من أن بدو الصــحراء الغربية قد تأثروا بالكثير منها ، الا أن السيارة التى تقطع مئات الكليو مترات فى الصحراء الغربية ذهابا وايابا فى ساعات محدودة على شريط أسفلت تمت تقويته لكى يسهل السفر عليه قد أثرت تأثيرا كبيرا جدا فى حياتهم . فرأى فيها البدوى السائق جهازا قويا يشعــره بقدرته عــلى « الطيران » مقارنة بوسائل النقل التقليدية فى الصحراء ، ووجدت فيهــا البدوية وسيلة للخروج مع زوجها والسفر فيها الى مدينة مرسى مطــروح والأسكندرية والقاهرة . بالاضافة الى ذلك أصبحت مصدرا للرزق بالنسبة لكثير من البدو لهذا ظهرت السيارات كثيرا فى أغنياتهم التى توضــح درايتهم بالأنواع المختلفة للسيارات . ففى احدى الأغنيات قالت البدوية ، وكان زوجها يعمل سائقا لسيارة تاونس :

يا سواق التاونس صبى (قفه)   أشكيلك والعالم ربى

ويتضح فى أغنية أخرى نوعية أخرى من السيارات كما يتضح فيهــا كيف يشعر البدوى بسرعتها الناتقة ، وهو كقائد لها يزيد مظهره رونقا عندما يضع السيجارة فى يده أثناء القيادة . وتقول أبيات الأغنية :

من يوم مســافروا عقلى رايح   عربية مرسيدس لما استعد لهــا
بقى زى الصاروخ وقف فى السلوم   ولــع بين ايديه ســيجارة

في مرســـــيدس راح اتـــوارا   في الشـــارع كيف اســتعد لها

صـــاروخ وعـــادل منظـــارا   في الشـــارع في الســلوم اهداها

ومن الواضح ان الأبيات السابقة تظهر المعانى التى ذكرناها وتظهر أيضا زهو البدوى بسيارته ، وافتخار زوجته أو محبوبته به وهى تراه يدور بالسيارة و « يستعد لها » ثم ينطلق بها كالصاروخ ويختفى عن الأنظار فيظهر بها بعد ذلك فى السلوم فى نهاية الأراضى المصرية عند حدود الدولة .

وهناك ملاحظة تتعلق بالأغانى البدوية :

فمعظم الأغانى تتضمن كلمات عربية وأخرى ترتبط باللهجة البدوية وهذا يشير الى مدى تأثر البدو بالثقافة السائدة فى وادى النيل خاصة اذا علمنا أن البدو بدأوا يغنون الأغانى المعروفة لدى أبناء الوادى بفعل استماعهم الى الاذاعة المصرية وبسبب توفر أجهزة الراديو لديهم .

الباب الخامس

التنظيم العسكرى والمشاركة السياسية

الفصل الخامس : التنظيم العسكرى فى الصحراء .

الفصل السادس : المشاركة السياسية .

الكرك مركز نفوذ القبائل صاحبة السيادة فى الاقليم

والمشاركة فى الحياة السياسية فى حكومة عمان .

الفصل الخامس

التنظيم العسكرى فى الصحراء

يعد حرص الجماعات الصحراوية على تكوين قوة عسكرية بأى شكل من الأشكال هو احد المعالم الرئيسية لحياتهم الاجتماعية بحيث يصعب ان نتناول الجماعات الصحراوية بالدراسة دون الاشارة الى هذا الجانب الهام . فهو فضلا عن أنه يوضح لنا قدرة هذه الجماعات على تنظيم نفسها فى شكل عسكرى بغرض الدفاع أو الهجوم فهو يوضح لنا ـ ولو بطريقة غير مباشرة ـ طابع العلاقة مع الجماعات الأخرى مثل الجماعات المستقرة ، كما توضح لنا طابع العلاقة مع الدولة ككل .

ويحكى لنا التاريخ والتراث المتوفر عن جماعات الصحراء قصص انخراط البدو فى العمليات العسكرية . فالتاريخ المدون عن عرب الجاهلية مثلا فى فترة ما قبل الاسلام يسجل لنا قصة الحروب والمعارك التى كانت سائدة بين القبائل . ويضم التراث المتوفر عن سكان الصحراء العديد من المراجع العامة التى تتضمن أشياءا خاصة بانخراط البدو فى العمليات الحربية ، كما يتضمن كتابات تخصصت فى عرض هذا الموضوع فقط (١) .

---

(١) طلال الأسد ، المرجع السابق ، ص ٦١ .

قدم طلال الأسد هذا المقال الممتاز حيث ناقش فيه الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى صاحبت ظهور البدو كقوة عسكرية بالنسبة للجماعات المستقرة فى البلاد العربية القائمة فى منطقة الشرق الأوسط . وقد اعتمد طلال فى مقاله على مادة تاريخية بصفة أساسية . فقد بدأ المقال بمقدمة ثم أورد الكثير من الأمثلة التاريخية .

وتتعدد كما تتنوع أسباب تكوين سكان الصحراء للقوة العسكرية أو انخراطهم فى العمليات الحربية . وعلى سبيل المثال فان طبيعة نظرة أبناء القبائل الى القبيلة على أنها وحدة سياسية قد تطلب منهم أن يكونوا قوة عسكرية لحماية هذا الكيان المستقل . والمثال الذى يحضرنا فى هـذا المقام هو نظرة بدو جنوب سيناء التقليدية الى القبيلة على أنها تنظيما سياسيا . فهم يرونها على أنها حلف يتكون من جماعات قرابية أبوية ، وغرضها هو حماية أعضاء القبيلة وحماية الاقليم وموارده ضـد أى مغيرين (٢) . وقد تكلم طلال الأسد عن الفقراء أو الأشخاص الذين ليس لديهم العدد الكافى من الحيوانات ولهذا يبحثون عن عمل آخر لكى يتمكنوا من الاستمرار فى الحياة ، وعن الأثريـاء الذين لديهم حيوانات كثيرة لدرجة أنهم لا يرون هناك داعيا لأن يعملوا بأنفسهم لكى يعيشوا . ويقول أن كلا هذين النوعين قد يلجأوا الى النشـاط العسكرى كمصدر للمعيشة من ناحية ، وكمصـدر لفرض السيطرة من ناحية أخرى (٣) . وقد أشار معظم الكتاب الى قـوة الحكومة المركزية ودرجة سيطرتها على الأمور وعلاقة ذلك بتكوين القـوة العسكرية للبدو ، فأكدوا على أن ضعف الدولة يعطى فرصة لظهور البدو كقوة عسكرية مسيطرة ، ففى بعض الأماكن التى لم يستطع فيها سلطان الحكومة السيطرة على زمام الأمور قام البدو بالسيطرة على القرى وحراستها ، وفرضوا الاتاوات على الفلاحين والتجار بل والمدن الصغيرة نظير حراستهم لها ضد عدوان قبائل بدوية أخرى (٤) .

ولكن لا يجب أن نظن أن جماعات الصحراء قد تميزت باستقلال عسكرى خلال الفترات التاريخية المختلفة . بل أن التراث يوضح لنا أن الكثير من هذه الجماعات قد خضع لسيطرة القوى العسكرية للمجتمع الأكبر سواء

---

(٢) عمانوئيل ماركس ، المرجع السابق ، ص ٨ .
(٣) طلال الأسد ، المرجع السابق ، ص ٦٥ .
(٤) د. محمد السيد غـلاب ، البيئة والمجتمع ، الأنجلـو المصرية ، القاهرة سنة ١٩٦٩ ، ص ١٣٩ .

كانت جماعات مستقرة أو بدوية متنقلة . وعلى سبيل المثال فقد خضعت الصحراء الغربية فى مصر لادارة سلاح الحدود منذ فترة طويلة من الزمان . وكانت ادارة سلاح الحدود ادارة عسكرية تضم فرق الهجانة ، وكانت مهمة الهجانة حراسة الشواطىء ومنع التهريب وحفظ النظام بين البدو والقضاء على حالات الشغب والفوضى . وقد خضعت سيوة أيضا كواحة مستقرة فى الصحراء الغربية لنفس النظام ؛ فقد كانت هناك ثلاثة فرق تتناوب الذهاب الى سيوة حيث تمكث كل فرقة عدد من الشهور ، هذا بالاضافة الى دوريات الجمال التى تنتقل بين سيوة والشاطىء مرة كل شهر ، وكانت تقوم هذه الفرق — بجانب آداء عملها الحراسى بمهمة نقل البريد من الواحة واليها (٥) . وخضعت سيوة للادارة الأجنبية أثناء فترة الاحتلال البريطانى ، فقد كان هناك دائما ضابطا بريطانيا فى الواحة ، وكانت مهمته المرور على المناطق المختلفة فى الواحة . كما كان يقضى وقتا بالمركز لفحص الطلبات المقدمة له وتتعلق بالسماح بعبور الحدود . وقد كان عليه أيضا مهمة الرد على استفسارات المشايخ عن الضرائب أو العمل أو المصارف أو مبانى الحكومة . وقد تولى هذا الضابط مهمة التحقيق مع التجار فى الشكاوى المقدمة ضدهم وتولى تحديد أسعار السكر واللحوم (٦) . وبصفة عامة كانت الواحة خاضعة تماما لسلطة خارجية .

واذا كانت الجماعات الصحراوية قد خضعت لسلطات الدولة عبر الفترات التاريخية المتتالية فان هذا الخضوع قد زاد مع تحضر الدول وزيادة بسط نفوذها على كل أرجائها . وهذا ما سنوضحه فى نهاية هذا الفصل . ولكن قبل ذلك ينبغى أن نتعرف على أنماط القوة العسكرية لسكان الصحراء — وهو هدف الفصل الأساسى — سواء كانت بدوية أو مستقرة وذلك من خلال التعرف على بعض النماذج التى كانت موجودة وتلك التى ما زالت قائمة . ويمكن أن نتعرف على هذه النماذج من خلال الموضوعات الآتية :

---

(٥) فالز ، المرجع السابق ، صص ١ ، ٢ ، ٦ ، ٧ .
(٦) فالز ، المرجع السابق ، ص ٣٦ .

أولا : التنظيم الصحراوي في خدمة الدولة

النمط الأول هو اعتماد الدولة على القبائل الصحراوية سياسيا واستخدامها كقوة عسكرية . ويعتبر النموذج الأردنى والنموذج السعودى من أوضح الأمثلة التى توضح كيفية اعتماد الدولة على القوى القبلية ، وكيفية اندماج الجماعات القبلية وتكاملها لتحقيق أغراض الحكومة المركزية .

فالحكومة الأردنية تعتمد اعتمادا أساسيا على القبائل البدوية فى الحصول على التأييد السياسى . ويخضع البدو فى هذا المجتمع لادارة مكتب شئون البدو الذى أنشأ سنة ١٩٦٩ ، وهو يعد همزة وصل بين الحكومة المركزية وبين القبائل ، ويمد القبائل بالأسلحة والمساعدات المادية .

ومن الناحية العسكرية كان الجيش معروفا باسم الفصائل العربية قبل يوليو سنة ١٩٥٦ . وعندما قام عدد من الضباط بقيادة على ابو نوار رئيس الأركان بالتعاون مع رئيس الوزراء سليمان نابلسى بمحاولة عسكرية تمكنت الوحدات الموالية للسلطة والتى تتكون أساسا من الضباط والرجال البدو من سحق هذه المحاولة . وقد ترتب على ذلك أن قامت الحكومة بتدعيم الوحدات البدوية وتعيينهم فى مراكز قيادية فى البلاط الملكى . وهكذا نجد أن الجيش الأردنى قد حوى فى فصائله مجندين من بدو الصحراء على مدى انصف قرن الماضى سواء كان ذلك فى الماضى تحت القيادة البريطانية أو بعد ذلك فى ظل وجود الجيش العربى الأردنى . وقد كانت الخدمة العسكرية سببا فى كثير من التغيرات الاجتماعية الهامة التى حدثت لأبناء القبائل البدوية ، ذلك أنها كانت تغذى فى الشباب الرغبة فى التعلم وفى تغيير نمط الحياة ، فقد كان التعلم يعنى هجرة الخيمة وما يرتبط بها من أنماط . ويلاحظ أنه بعد سنة ١٩٧٠ ، سنة ١٩٧١ على وجه الخصوص احتل المراكز القيادية الهامة فى الجيش الأردنى أشخاص لهم خلفية بدوية (٧) .

---

(٧) ريتشارد نيروبى ، المرجع السابق ، صص ١٤٧ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٢٢٧ .

والنموذج السعودى يوضح كيفية انخراط أبناء القبائل فى خدمة أقوى قوة مؤثرة فى الجيش السعودى وهو « الحرس الوطنى » ، كما يوضح مدى النفع المتبادل بين الدولة التى تحرص على الولاء القبلى وبين القبائل التى تنتفع من وجود أفراد لها فى الحرس الوطنى . والدراسة التى قدمها دونالد كول أوضحت أن أقوى مؤثرة فى الجيش السعودى هو الحرس الوطنى الذى يتكون معظمه من البدو . اذ يتم اختيار الأعضاء على أساس قبلى ، ويتمركزون فى معسكرات تقع عادة على أبواب مدن المملكة الرئيسية . وتقطن الجماعات الدائمة فى الحرس فى مناطق يدافعون عنها ويحمونها ويشترط الا تكون هى المناطق التى تقيم فيها القبائل التى ينتمون اليها . وعلى الرغم من أن أعضاء وحدة واحدة يمكن أن ينتموا الى قبيلة واحدة ، فان كل وحدة تحتوى على قليل من الأعضاء الذين ينتمون الى قبائل اخرى .

ويقدم لنا كول مثالا هو أبناء قبيلة « المرة » الذين يخدمون فى وحدات من الحرس ويقول أن الفرد لا يمكن أن يصبح أوتوماتيكيا عضوا فى الحرس الوطنى ، ولا يجب أن يكون لكل أسرة بالضرورة أفراد فى الحرس الوطنى . وعلى الرغم من أن كل بدنة ممثلة فى الحرس الا أن البدنة التى تعد أشد قربا لشيخ المرة هى التى يكون من أفرادها عددا أكبر فى الحرس . ويأكل أبناء البدنة وجباتهم معا بطريقة مشتركة كما أن لهم مواقد الشاى والقهوة الخاصة بهم . ولكل جماعة قائد عادة ما يكون من نفس البيئة . وعلى الرغم من أن نظام الحماية فى المعسكر يتأثر باعتبارات القرابة ، اذ يتجمع الأقارب معا ، فانه بعد آداء التمرينات يختلط الأفراد معا بصرف النظر عن الانتماء الى بدنة معينة ، بل أن أفراد البدنة الواحدة عادة ما يتوزعون فى اكثر من قطاع .

واذا كانت الخدمة فى الحرس تعتبر خدمة للوطن فان الفرد والقبيلة التى ينتمى اليها يحصلون ايضا على منافع من الوجود فى الخدمة ، فالفرد يمكنه أن يشترى احتياجاته من السوق ويقتطع جزء من مرتبه لتغطية بعض

النفقات الخاصة بالبدنة ككل . فاذا عمدت البدنة مثلا الى تحديث بئر من آبارها فتفرض ضريبة على كل اعضاء البدنة الذين يخدمون فى الحرس . وهناك مبالغ أخرى يمكن أن تقتطع من المرتب لخدمة اغراض البدنة ، ويكــون الدفع بناء على عدد ابناء البدنة الموجودين فى الحرس وليس بناء على وجــود أبناء لأسرة معينة فى الحرس .

والسؤال هو كيف يستغنى القبائل التى تمارس الرعى عن شبانها وترسلهم لخدمة الحرس بصفة شبه دائمة ؟ والواقع أنه عادة ما يكــون هناك عدد من الأفراد أكثر ممن تحتاج اليهم عملية الرعى ولهذا يمكن أن يتوفر على الأقل واحدا أو اثنين من أبناء القبيلة للقيام بالمهام العسكرية . ويبدو أن القبائل قد تعودت على ذلك منذ زمن بعيد اذ يؤكد كبار السن أن معظم شبان القبيلة كانوا دائما خارجها فى غزوات أو حروب .

وبالاضافة الى النفع المادى الذى يعود على القبيلة ، فان الوظيفة المركزية فى الحرس الوطنى تؤدى الى حفظ القبيلة متحدة على الرغم من أن كل قطاع منها يظل يتبع نمط هجرته الخاص . ولهذا فبدلا من أن تحطم الدولة الوحدة القبلية وفى نفس الوقت تضم الى الحرس عددا من الأفراد وفقا لقوة كل منها .

اكثر من ذلك فقد ساهم تيار التنمية فى السعودية فى أن يتعلم أبنــاء البدو الشبان مهارات جديدة وأن يساهموا فى المجتمع السعودى بطريقــة يقبونها . ولكن البعض منهم لم يكن ميالا ولهذا لم يستطيعوا أن يصــلوا الى مراكز ادارية . وقد ساعد الوجود فى الحرس الوطنى على زيادة القوة الشرائية للقبائل وعلى أن يشعروا أنهم جزء لا يتجزأ من عملية التنمية فى المملكة العربية السعودية . هذا بالاضافة الى احساسهم بأنهم عندما يخدمون فى الحرس الوطنى فانهم يسهمون فى حفظ النظام فى الدولة ككل (٨) .

---

(٨) كول ، المرجع السابق ، صرص ١٢٥ ــ ١٢٧ .

اسباب الاعتماد على قوة البدو :

من الطبيعى أن تكون هناك أسبابا دعت بعض الدول الى الاعتماد على التأييد السياسى والقوة العسكرية للقبائل ، أهمها :

١ ــ الأهمية العددية وقوة النفوذ :

للقبائل والجماعات البدوية فى بعض البلاد العربية اهمية عددية وهى تعتبر ذات نفوذ قوى . ولهذا تحرص الدولة دائما على ضمان تأييدهم وفى نفس الوقت الانتفاع بطاقاتهم البشرية لخدمة بناء الدولة العسكرى سواء تم ذلك بطريقة نظامية كأن يجند أبناء البدو ويعدون ضمن القوة العسكرية للدولة ، أو تم استخدامهم وقت الحاجة . واذا وضعنا فى اعتبارنا توزع القبائل فى مناطق متفرقة داخل حدود الدولة الواحدة فاننا يمكن أن ندرك الأهمية الكامنة وراء ضمان ولائها فيما يتعلق باستتباب الأمن داخل الدولة ، وفيما يتعلق بتأمين حدود الدولة أيضا .

٢ ــ فشل الدولة فى الحد من غزوات البدو :

وهناك سبب آخر كان دافعا وراء هذا الاعتماد عليهم عبر الفترات المختلفة وهو فشل السلطة المركزية فى الحد من غزوات البدو أنفسهم . وقد حدث هذا فى الأردن على سبيل المثال فى سنة ١٩٣٠ عندما شكل ما يعرف بـ « قوة البادية » ، ذلك أن قوة الحدود البريطانية التى كانت مهمتها الحفاظ على حدود شرق الأردن تبين ــ بعد عدة سنوات ـ فشلها فى الحد من الغزوات المتبادلة بين القبائل ، وعلى الأخص قبائل شرقى الأردن والقبائل النجدية . وقد تكونت قوة البادية من عدد من رجال البدو ، وكانوا يقيمون فى قلاع تعتبر مركزا لأولئك الجنود وسياراتهم ، كما كانوا يستخدمون اللاسلكى لتأمين سرعة الاتصال بينهم . وقد استطاع الجنود البدو السيطرة على المنطقة المتصلة بالحدود السعودية (خاصة بعض عشائر الحويطات الذين كانوا يرون أنه يصعب على قوة الحكومة ملاحقتهم فى الجبال الوعرة) .

وبعد ذلك تم اقناع القبائل بالكف عن الغزو وتطوع شبانهم فى خدمة « قوة البادية » ، وتعلموا القراءة والكتابة وأصبحوا هم طليعة الجيش العربى الأردنى (٩) .

ولكن لم يكن تجنيد الدولة للبدو فى كل الأحيان هادفا الى خدمتها ومرتبطا بطاعة وموافقة البدو . ففى بعض الأحيان كان التجنيد الاجبارى لأبناء القبائل عبارة عن محاولة لقمعهم . وعلى سبيل المثال فانه بعد قيام ثورة الكرك فى الأردن فى سنة ١٩١٠ احتجاجا على سوء ادارة الدولة العثمانية ، وبالذات بعد اشتداد الخلاف بين الدروز والحوارنة كانت هناك محاولة لتطبيق قانون التجنيد الاجبارى ، وتم ارسال الشبان البالغين سن الجندية الى بلاد البلقان لقضاء مدة خدمتهم فيها . وقد اجتهدت لجان الاحصاء عند تقدير سن الشخص أن تجعله ضمن نطاق الخدمة العسكرية أى بين ٢٠ ، ٤٥ سنة ، هذا بجانب ما كانوا يظهرونه من انواع الخشونة الأمر الذى أدخل الرعب فى قلوب الناس وجعلهم يتحسسون من النتائج ويتوقعون ان الحكومة عازمة على تجنيدهم وسوقهم الى الحروب للتخلص منهم . أما رجال القبائل ذات النفوذ فى اقليم الكرك فقد رأوا ما جعلهم يشعرون بأن الحكومة عازمة على الانتقاص من هيبتهم وسلبهم نفوذهم التقليدى . وكانت هذه من الأسباب التى أدت الى قيام ثورة الكرك (١٠) .

٣ ــ احتياج الدولة للبدو فى صد هجمات الأعداء :

فى بعض الظروف احتاجت الدولة للاستعانة بالعشائر فى صد هجمات الأعداء من دول أخرى . ففى ٣ حزيران حينما كان الصراع الحربى دائرا بين العرب واسرائيل شن الاسرائيليون هجوما واسعا على غور الصافية مستخدمين السيارات المصفحة ، وشدد الحصار على المخفر ، وكان هناك تهديدا باحتلال اقليم الكرك . فما حدث هو أن اتصل قائد منطقة الكرك

---

(٩) تاريخ الأردن ، المرجع السابق ، صص ٣٤٧ ، ٣٤٨ .
(١٠) المرجع السابق ، صص ١٨ ــ ٢١ .

ببعض العشائر لكى تكون على استعداد للذهاب لنجدة المخفر . فتجمع عدد من أبناء العشائر بأسلحتهم الخاصة ، وعدد آخر ممن لا سلاح لهم (حيث وزعت عليهم الأسلحة بعد ذلك) للقيام بالمهمة (١١) . والملاحظ فى مختلف الدول العربية أن البدو دائما يستجيبون لنداء الدولة ، كما حدث بالنسبة للأردن ، ويشتركون فى الدفاع عن الوطن ، فعند بدء الحملة الفرنسية على مصر ومحاولة دخول الاسكندرية ورشيد بعث السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية الشعبى الى بدو البحيرة يطلب نجدته للدفاع عن الوطن . فتجمع عدد كبير منهم والتقوا بالفرنسيين فى مواقع عديدة عند رشيد ودمنهور والرحمانية وقضوا على المئات من الجنود الغزاة ، واستشهد فى هذه المواقع المئات من البدو (١٢) . وحتى عندما كانت هناك عداءات بين القبائل فان هذه العداءات كانت تمحى عند مواجهة عدو الدولة . والمثال على ذلك هو قبائل الحرابى وأولاد على فى الصحراء الغربية . فعلى الرغم من أنه حدثت بعض الحروب بين قبائل الحرابى وأولاد على الا أنه عند مهاجمة ايطاليا لليبيا هربت بعض القبائل الى الأماكن التى يعيش فيها أولاد على فاستقبلوهم فى بيوتهم ومكنوهم من آبار المياه ومنحوهم الأراضى التى أقاموا فيها نجوعهم وزرعوها ، وساعدوهم فى فترة استضافتهم الى أن تحررت ليبيا وعادوا الى وطنهم (١٣) .

٤ ـ استعانة السلطات بخبرة البدو فى الصحراء :

للبدو خبرة كبيرة فى ارتياد الصحراء . ولهذا لجأت بعض الحكومات الى الاستعانة بهم فى فترات عديدة سواء لمساعدة قواتها على الانتقال من مكان الى آخر فى الصحراء أو الى التعرف على خبايا الصحراء التى يمكن استغلالها فى حالة الحروب والدفاع عن أراضى الدولة . وقد تمت الاستعانة بهم فى أوقات الحرب وفى أوقات السلم أيضا . كما استخدمتهم السلطات العسكرية

---

(١١) هزاع المجالى ، مذكراتى ، الطبعة الأولى ، آيار سنة ١٩٦٠ (بدون ناشر) ، صص ٧٠ ، ٧١ .

(١٢) خير الله فضل عطيوة ، المرجع السابق ، ص ٢٢٦ .

(١٣) المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

بطريقة غير رسمية بهدف ارشاد القوات لنظامية للدولة ، واستخدمتهم أيضا بطريقة رسمية عندما عينوا ضمن القوات العسكرية وخاصة قوات حراسة الحدود . فيذكر لنا التراث أن قوات الهجانة التى كانت تباشر حراسة الصحراء فى مصر عادة ما كانت تضم عددا من أبناء قبائل البشارية الذين ينتمون الى جنوب شرق السودان نظرا لمهارتهم وقدرتهم على اقتفاء أثر الأقدام حتى فوق الأرض الصلبة (١٤) .

٥ ـ تكامل سكان الصحراء مع المجتمع الأم :

أدت زيادة درجة تكامل واندماج المجتمعات الصحراوية مع المجتمع الأم ، واحساسهم بأنهم جزء لا يتجزأ من الوطن الأكبر ، كما أدى من ناحية أخرى اهتمام الدولة بتكامل هـذه القطاعات والعمل على توطينها الى أن يتقدم أبناء الصحراء الى الانخراط فى السلك العسكرى لصالح الدولة ، كما حاولت الدولة تطبيق قوانين التجنيد والخدمة العسكرية على أبناء الصحراء اسوة بغيرهم فأدى هذا الى أن يسهم أبناء الصحراء فى القوة العسكرية للدولة . ولعل ما كتبه خير الله عطيوة فى هذا الصدد يوضح لنا تلك الرغبة المتبادلة بين الدولـة والبدو ، ورغبة البدو فى خدمة الدولـــة والدفاع عنها . فقد كتب يقول : « .. وعلى الرغم من أن صدور فرمان اعفاء أولاد على من التجنيد كان ظاهرة عطف وتكريم للبدو ، فقد نظر اليه على أنه يحمل الحقد والعذاب والحسد ويتضمن نية ابعادهم عن الجيش هم وجميع أبناء القبائل العربية فى مصر ، وما يتضمنه ذلك من ابعادهم عن الخبرة والثقافة والمدنية . وقد أدى الغاء هذا القرار الى مزيد من احساسهم بوطنيتهم » (١٥) .

---

(١٤) فالز ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

(١٥) خيرالله فضل عطيوه ، المرجع السابق ، ص٢١٨ .

ثانيا

التنظيم العدائى ضد الدولة

ولكن العلاقات فى المجال السياسى والعسكرى بين الدولة والجماعات الصحراوية لم تكن دائما ايجابية بهذه الصورة ، فالتاريخ يسجل لنا صورا من العداء والتمرد والعصيان من جانب الجماعات البدوية ، كما يقدم لنا محاولات للقمع والسيطرة والاحتواء من جانب الدولة .. ففى بلاد كثيرة احتفظ البدو باستقلالهم العشائرى ، ولم يعترف بعضها – خاصة فى فترة الحكم التركى – بسلطة الحكومة . وفى تحدى بعض هذه العشائر للدولة ازدادوا جبروتا واعلنوا عداءهم فى صورة الهجوم على الجماعات الآمنة المستقرة ، وحاولت العشائر فرض سيطرتها على الفلاحين وقراهم ودخلوا فى قتال مع أهلها (١٦) . وبهذا لم تكن تسخر المقدرة العسكرية للبدو فى صالح الدولة ، بل ضدها وضد الجماعات التى تعيش فيها . بل أن هناك عوامل تتعلق بالدولة وبالقبائل والعشائر أدت ببعضها أن يفكر فى الثورة ويقوم بها . وقد كان ذلك سببا فى تفكير السلطة المركزية واتخاذها اجراءا لقمع التمرد . بينما اتجهت السلطة فى بعض البلاد الأخرى الى حل المشكلة حلا جذريا عن طريق تحقيق وحدة الوطن بمن يضمه من قبائل ووسيلتها فى ذلك تسهيل الاتصال بين قطاعات الدولة المختلفة بما فيها هذه القبائل . والمثال الجلى على هذا هو ما كان الملك عبد العزيز يريده بالنسبة للسعودية . فعندما قابله عدد من المسئولين فى احدى الشركات العالمية فى نهاية سنة ١٩٤٦ لمناقشة مشروع الخطوط الحديدية بين الدمام والرياض اكدوا الحاجة الى تحقيق أهداف جلالته بطريقة اقتصادية جدا . وقد كان رد الملك أن الاقتصاد ليس هو الهدف الأساسى . وكان يرى أن البلد يحتاج الى وسائل اتصال ونظام مواصلات فعال .. فلم يعد الجمل أو المدق ملائما . والحل الوحيد هو سكة حديد تربط بين الرياض وأجزاء أخرى . ولابد أن يتم ذلك بأقصى سرعة . فقد كان الملك يهدف الى الوحدة الحقيقية للسعودية .

---

(١٦) تاريخ الأردن ، المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

وكان يرى أنها تتطلب اتصالات يمكن الثقة فيها والارتكان عليها لتدعيم شعب نجد وتدعيم فعالية وكفاءة الحكومة المركزية الأمر الذى يمكن أن يمنع نظام النزاعات القديمة بين القبائل . لقد كان الملك يرى أن النزاعات يمكن أن تحطم هذه الوحدة ، وهذا يمكن أن يتم فى غياب السلطة المركزية . ولنفس الهدف أعاد الملك بناء السكة الحديد التى تربط بين العاصمة وبين حقول البترول ، فقد كانت هذه الخطوط آداة يتحقق عن طريقها الأمن (١٧).

ولعل ثورة قبائل الكرك فى سنة ١٩١٠ يمكن أن تكون مثالا لتخطيط القبائل لشن الهجوم العسكرى على قوات الدولة ثم قدرة قوات الدولـــة على الانتقام بعد ذلك . فقد كانت هناك أسبابا تتعلق بفرض الحكومة لنظم لا تتناسب مع أوضاع اقليم الكرك أدت الى تفكير أبناء القبائل فى القيام بثورة للفتك بجنود الدولة والتخلص من الاجراءات التى اعتقدوا أنها تهدف الى استبعادهم وتشتيتهم والقضاء على مقومات حياتهم الطبيعية . وعندما وجد أبناء القبائل أنهم لا يستطيعون شن الهجوم على قوة الدولة العسكرية وهى مجتمعة ، لجأوا الى حيلة فاقترحوا على المتصرف الأمر باخراج ثمانى فرق من الجند للطواف بين القبائل الضاربة حول الكرك بحجة أنها تفكر فى اعلان العصيان ، ثم كرروا نفس الطلب بعد بضعة أيام فتوزعت بـــذلك القوة العسكرية التابعة للدولة فى الاقليم وأصبح من السهل التغلب عليها . ثم قاموا بعد ذلك بمهاجمة دار الحكومة واحتلوها وقتلوا من فيها وأحرقوا الأوراق والسجلات الرسمية . وانتشرت الثورة فى المناطق المحيطة بالكرك فهاجم رجال العشائر موظفى الاحصاء والجنود الموجودين بينهم ، وأتلفوا خطوط السكك الحديدية واستولوا على بعض المحطات وأحرقوها ؛ وقطعوا الأسلاك ونسفوا الجسور .

ولكن الدولة بادرت بارسال حملة عسكرية الى الكرك فانسحب معظم سكان المدينة الى خارجها وتبادل من تبقى فيها اطلاق النار مع الجنود .

---

(١٧) Malone J. J., Involvement and change, The Comming of the Oil Age to Saudi Arabia, p. 38.

ودخلت الحملة المدينة وفتكت بالكثيرين . وخضع الأهالى لقائد الحملة عندما طلب منهم رد ما نهبوه من مكاتب الحكومة فى مقابل معاملتهم بالرحمة . وقاموا بمحاكمة الكثيرين وأعدموهم . وأرسلت قوات الى المناطق المحيطة بالكرك وأخضعتها . والف قائد الحملة مجلسا خاصا لاسترداد ما تم نهبه وتوزيعه وتقدير الخسائر وتغريم الثائرين بأثمانها . وجاءت من سوريا لجنة للتحقيق ووجهت التهم الى مئات الأشخاص المعتقلين والفارين ، وتم تنفيذ الأحكام فى بعضهم . ولم تتهاون الحكومة فى تنفيذ خطتها فى محاكمة الثائرين فى الكرك الا عندما أصدرت العفو العام سنة ١٩١٢ عن جميع المخالفات والجرائم التى حدثت قبل تاريخ الاعلان والغت قانون الاحصاء وتجنيد من هم فى سن التجنيد (١٨) .

ثـالثـا

التنظيم العسكرى للحماية والهجوم فى الصحراء

والنمط الذى تظهر فيه القوة العسكرية للجماعات الصحراوية هو الذى تستخدم فيه هذه القوة لا فى خدمة الدولة أو ضدها ، ولكن تستخدم للهجوم على جماعة أخرى سواء بدوية أو مستقرة ، أو تستخدم من أجل الدفاع عن النفس ضد هجمات جماعات أخرى . ولكن يجب أن نشير الى أن العلاقات بين القبائل البدوية أو المستقرة ، وبينها وبين غيرها من الجماعات لم تكن دائما عدائية تستلزم استخدام تنظيم عسكرى ، فتوجد أنماط عديدة من العلاقات الودية والتحالفات وعلاقات التبادل والتكامل والتداخل . ولكننا نهتم فى هذا الفصل بنوعية العلاقات التى تشكل وتظهر من أجلها أشكال التنظيم العسكرى سواء بالمفهوم التقليدى أو الحديث . ونود أن نشير أيضا الى أن مقدرة الجماعات البشرية على استخدام القوة العسكرية بطريقة فعالة ومباشرة لا ترتبط بكونها جماعات مستقرة أو جماعات متجولة . فالامتياز العسكرى لجماعة منها على اخرى فى موقف ما لا يتوقف على الحركة او

---

(١٨) تاريخ الأردن صص ٢٣ — ٢٦ .

الاستقرار فى حد ذاتها . وقد أثبتت الشواهد التاريخية أن بعض الجماعات البدوية التى كانت تمارس الرعى كانت أقوى من جماعات أخرى مستقرة . فقد تفوقت هـــذه الجماعات فى مجالات مثل اخفاء أو تهريب اشـخاص من الحكومة المركزية أو فى اعتراض طريق القوافل التجارية ، أو فى حـالة الحاجة الى هجمات مفاجئة ضد بعض الجماعات الزراعية المستقرة . فهم فى هذه الحالة يظهرون تفوقا فى مقاومة البناءات الكبرى المسيطرة ، ولكنهم فى نفس الوقت لا يمكن أن تكون لديهم القدرة على بناء قوة عسكرية تتفوق على القوة العسكرية للجماعات المستقرة . ويوم أن يحدث ذلك فان تطورا بنائيا هاما يكون قـــد حدث بحيث أدى الى تغير جذرى فى أوضاع البدو الرعاة والزراع المستقرين فيما يتعلق بمن هو الحاكم ومن هو المحكوم (١٩) . أضف الى ذلك أن الجماعات المستقرة استطاعت فى مواقف كثيرة أن تتفوق على الجماعات البدوية . واستطاع بعضها أن يجيد تكوين قوته الداخلية بحيث بقى حالة استقلال عن تحكم البدو ، بينما تحالف البعض الآخر عسكريا مع بعض القبائل ضد المدن أو القبائل الأخرى على الرغم من أن ذلك كـان يعرضها للخطر الدائم من اغارات هذه القبائل فيتعرض نخيلها للاتلاف وتتعرض آبارها للردم ومبانيها للهدم .

ونحن يمكننا التعرف على أنماط استخدام القوة العسكرية بين الجماعات الصحراوية من خلال رؤية ثلاثة نماذج . يتعلق النموذج الأول بالجماعات البدوية ، ويتعلق الثـانى باستخدام القوة العسكرية بين البدو والجماعات المستقرة . أما النموذج الثالث فهو لجماعة تشكل قوة عسكرية لحماية احدى الواحات ضد الهجمات الخارجية ، وفى نفس الوقت يقومون بدور القـوة العاملة .

النموذج الأول : سلوك الخلا وضرورات الموقف كعرف للقتال بين القبائل

أدت طبيعة الصحراء وظروف الحياة فيها الى ظهور الوان من العرف

---

(١٩) طلال الأسد ، المرجع السابق ، صص ٦١ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ٧١ .

القبلى بحيث اصطلحت القبائل على نظم للقتال أقرتها واعترفت بها .
وعلى سبيل المثال فهناك عرف سائد بين بعض القبائل العربية بحيث يقضى هذا العرف بأن تكون كل قبيلة (وفروعها) على استعداد للهجوم المباشر وقت الحاجة ، وهى اذا كان عليها أن تصد الهجوم فى بعض الأحيان ، لكنها دائما تشعر أنه لا يجب عليها أن تكتفى بموقف المدافع ، بل أن تنظم نفسها وتهاجم على أى نحو لمجرد اظهار قوتها . ويلاحظ أن هذه التنظيمات القتالية لا تعتبر تنظيمات عسكرية بالمعنى المعروف ، لكنها هى التنظيمات العسكرية بالنسبة لهذه الجماعات التقليدية . ورغم أن الأسلوب تقليدى ، لكن ضراوة القتال عادة ما تكون شديدة بجانب أن النتائج فى معظم الأحيان هى القتل . ويقال أن التسليح وصل الآن الى أن أصبح مدفعا رشاشا بدلا من البندقية يتم اخفاءه تماما ولا يظهر الا وقت استخدامه .

وقد اصطلحت هذه القبائل المتحاربة على عرف القتال بسبب حاجة القبيلة (وفروعها) أن تثبت للقبائل الأخرى أنها ما زالت قوية وقادرة على الحفاظ على مصادر الثروة (مناطق الرعى وغيرها) فى المناطق التى تقيم فيها . فما أن تشعر قبيلة أن قبيلة أخرى ضعفت حتى تسلبها كل ما تعيش عليه ويعنى هذا الفناء . وذلك بسبب أن الصراع على المراعى وسرقة الحيوان (وبالذات الجمل) تعد ظواهر تفرضها طبيعة المنطقة ، ولا توجد وسيلة تقنع بها قبيلة معينة القبيلة الأخرى بأنها مازالت قوية قادرة على تأمين نفسها الا المقاتلة . فالتفوق فى القتال ضرورة للبقاء ، وضمانا لاستمرار احترام القبائل الأخرى ، وتأكيدا على المقدرة على حماية الممتلكات لكى لا تعبث بها يد عابث .

فى ضوء ذلك تنشأ تنظيمات هجومية دفاعية تتفق والبناء الاجتماعى والتركيب السكانى لهذه الجماعات . فهناك مثلا جماعات من أبناء قبيلة معينة يخرجون لمسح منطقة القبيلة ، فاذا وجدوا انسانا يركب جملا فى منطقتهم نادوا عليه مستخدمين النداء المتفق عليه ، فاذا لم يجاوب دل ذلك على أنــه

غريب داخل المنطقة فتفتح عليه النيران . وهم لا يعتبرون ذلك قتلا انما يعتبرونه تطهيرا للمنطقة من الدخيل

أكثر من ذلك أن التنظيم القتالى يمكن أن يتم كضرورة أخلاقية ، فلدى هذه لقبائل ما يسمى « بالفزعة » . فاذا سرق جمل من أحد ابناء القبيلة فسوف يفزع ويهرع الشباب لانقاذه . فيخرج الشباب فى شبه جماعة لقتل السارق ومن معه واستعادة الجمل . والخروج فى الفزعة معناه اعادة المسروق أو الموت ، فهم لا يجب أن يعودوا خائبين . وقد ذكر البعض أنه توجد أسر كاملة لا تحوى الا نساءا وأطفال بسبب أن الرجال خرجوا فى الفزعة منذ شهر ولم يعودوا بعد .

وتمشيا مع ضرورة اظهار القوة فان عمليات الأخذ بالثأر نتيجة القتل لا يمكن ان تتضمن عدد ضحايا مساو للعدد الذى قتل ، بل أنه اذا قتل شخص فالعدد الذى يجب أن يموت مقابله يمكن أن يكون ١٢ شخص .

ولدى هذه القبائل تبرير لسلوكها القتالى لا يصنف هذه الأفعال على أنها جريمة على وجه الاطلاق . فهم يرون أن الخلا الذى يعيشون فيه ، مع عدم وجود ضوابط أمنية كافية يفرض سلوكا هو ما يفعلوه لكى تظل القبيلة على قيد الحياة . بل أنهم لديهم تبريرا للسرقة وما يعقبها من قتال على أنها ضرورة اجتماعية . فالى عهد قريب لم يكن ممكنا أن تقبل فتاة الزواج من شاب الا اذا استطاع أن يسرق جملا ، ذلك أن سرقة الجمل صعبة وتتطلب حيطة وتدبير وحيلة والا قتل الشخص ، ولهذا فهى دليل على رجولته وقدرته على حمايتها . وكثيرا ما سبب هذا الالتزام الاجتماعى مشكلات أدت الى القتال بين القبائل .

وبجانب الاتفاق على عرف خاص لنقتال بين القبائل تلجأ بعض القبائل الى اساليب وحيل متعددة للهجوم على بعضها أو للانتقام من بعضها . فحينما وصلت الخلافات بين قبيلتين الى درجة الصراع نشأت الفوضى والعنف بين أفراد القبيلتين ، وعندما زار حاكم الدولة الاقليم أرادت القبيلة

التى فى موقع السلطة فى مجلس القرية اعداد غذاء للضباط الذين يحرسون الحاكم ولكن القبيلة الأخرى حالت دون ذلك بالقوة (٢٠) وفى مصر يسجل أيضا لنا التاريخ طرقا للانتقام بين أبناء القبائل . فقد كانت قبائل الهنادى تسيطر على الجميعات وتعاملها معاملة سيئة وتأخذ منها جزية سنوية ، وتهزأ بعمدتها فى كل اجتماع يعقد بين القبائل بحيث تجعل منه أضحوكه . وعندما وصلت قبائل أولاد على الى البحيرة استقبلتهم الجميعات وساعدتهم على الاقامة والتكيف للحياة الجديدة على اعتبار الانتماء الى أصل واحد . ثم وجدت فى اقامتهم فى المنطقة فرصتها للانتقام من الهنادى . وعلى الرغم من حذر الهنادى وتوقعهم وتحديدهم لحدود معينة لقبائل أولاد على بحيث لا يتخطوها فقد هاجت قبائل أولاد على متكاتفة مع الجمعيات قبائل الهنادى وأجبرتها على عبور النيل شرق كفر الزيات واستولت قبائل أولاد على والجميعات على البحيرة (٢١) وتوضح الحادثة التى ذكرها فضل عطيوة أيضا استخدام الدهاء فى الحرب والانتقام بين القبائل . فقد كانت قبيلتا أولاد على والحرابى تعيشان بمنطقة الجبل الأخضر بليبيا فى مشاحنات دائمة الى أن تمكن الحرابى من طرد أولاد على الى البطنان بعد معركة كبرى راح ضحيتها الكثير من رجال الفريقين . واستولى الحرابى فى المعركة على ٤٠ طفلا من أبناء أولاد على كانوا يدرسون فى كتاب بمدينة درنة واحتجزوهم كرهائن عندهم ووزعوهم على مشايخ الحرابى . وظل أبناء على مطرودين من الجبل الأخضر الى أن عاد من كان يسمى عليوة (أحد أفراد أولاد على) وكان يدرس فى استنابول بتركيا وعين حاكما لمدينة درنة التى يتبعها الجبل الأخضر . فلم يظهر نفسه على أنه من أبناء أولاد على للحرابى بل كلمهم بلهجة تركية . وفى أحد الأيام عقد اجتماعا ودعي اليه جميع مشايخ الحرابى بما فيهم زعيمهم عبد المولى الأبح واحتجزهم فى ساحة ميناء المدينة الى حين احضار الأطفال المحتجزين . وكان يسأل كل طفل يتم احضاره على نوعية المعاملة التى

---

(٢٠) دراسة بيتر جسبر التى سترد الاشارة اليها تفصيلا فى الفصل القادم ، ص ١٦١ .

(٢١) خيرالله فضل عطيوة ، المرجع السابق ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

عومل بها فاتضح أن معظمهم عومل معاملة سيئة فيما عدا ستة منهم . فأمر عطيوة باعدام الشيخ عبد المولى وستة معه واستعادت قبائل أولاد على سلطانها مرة أخرى على منطقة الجبل الأخضر (٢٢) .

والنموذج الثانى يقدم لنا جماعات من البدو تشكل قوى حربية تشن هجمات على جماعات مستقرة أو جماعات مسافرة . فالجماعات البدوية كانت تهاجم قوافل التجار والمسافرين والحجاج ، الأمر الذى اضطر الدولة فى بعض الأحيان أن تعقد اتفاقيات مع شيوخ القبائل القوية التى تقيم بالقرى من طريق الحجاج ، فكانت تدفع لهم مبلغا من المال للحفاظ على الأمن وتأمين سلامة الحجاج . ومما يذكر أنه فى حالة عدم وفاء الدولة بوعدها لشيوخ القبائل فانهم كانوا يهاجمون الحجاج ويفتكون بالقوة العسكرية المرافقة ، ويسلبون الحجاج الى أن تتمكن الدولة من القيام بالتزاماتها نحوهم .

والشكل الآخر لهذا النوع من الاعتداءات هو الاعتداء على القرى الزراعية مما اضطر كثير من اهل القرى الى دفع ما يسمى « بالخاوة » ، وهى أتاوة أو ضريبة يحصلها البدو على شكل حبوب أو ماشية او نقود من أهالى القرى الذين يجاورونهم مقابل كف اعتداءاتهم عنهم والسماح لهم بممارسة الزراعة فى أراضيهم مما أدى الى تناقص عدد السكان بسبب الهجرة أو الحروب ، كما أدى الى اهمال الأرض وانتشار الفوضى . وقد زاد طغيان البدو الى الحد الذى منعت فيه بعض القبائل جماعات مستقرة من زفاف العروس الى خطيبها أو من دفن ميت الا اذا أخذوا مقابلا . وكان أحد أفراد هذه القبائل اذا مر بفلاح يزرع الأرض أو يحرثها فيقول له أنا شريكك فى هذه الأرض ، ثم يمضى ولا يعود الا وقت الحصاد ليأخذ حصته من الغلال .

ولكن لم تقف جميع الجماعات المستقرة مكتوفة الأيدى أو مستسلمة لطغيان القبائل ، فقد قام فى بعض الأحيان سكان القرى بتكوين وحدات

---

(٢٢) خيرالله فضل عطيوة ، المرجع السابق ، ص ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

مختلفة تتألف كل وحدة منها من قرية أو من عدة قرى للحفاظ على وجودها وممتلكاتها والوقوف صفا واحدا فى وجه الخطر الخارجى . وأحيانا كانت تنجح تحالفات القرى فى صد الهجمات وأحيانا كانت تفشل . وقد ساعدت الحكومات فى بعض الحالات هذه التحالفات لكى تحقق انتصارا على القبائل . فعندما شعرت الحكومة أن بعض سكان القرى يعتزمون هجرتها بسبب شدة بأس الجماعات البدوية تعاونت معهم على مهاجمة منطقة وادى العرب بالأردن التى كان البدو يتخذونها مركزا للانقضاض على القرى وارهابها ، وقد حالف التوفيق أهالى القرى وقوات الحكومة مما اضطر قبائل معينة أن تنزح الى اماكن أخرى فاستقرت أحوال القرى (٢٣) .

النموذج الثالث : الزجالة فى قرى العزاب : قوة الواحة العاملة وجيشها المحارب :

كلمة « الزجالة » (٢٤) تعنى المحاربون . وهم مجموعة من الرجال والصبيان كانوا يعيشون فى واحة سيوة . وكان عملهم مزدوجا ، فعليهم الدفاع عن الواحة وفى نفس الوقت انجاز الأعمال الزراعية . وبهذا فهم طبقة محاربة وطبقة عاملة فى نفس الوقت . وكانوا يقيمون خارج الواحة بجوار مدخلها الرئيسى من جهة الشمال . وقد وجد هذا النظام فى سيوة قبل وأثناء القرن التاسع عشرة عندما كانت سيوة تتعرض لهجمات البدو . وقد اختلف الكتاب فى تحديد أصل هذا النظام فقيل أنه يرجع الى قدماء المصريين (٢٥) . وقيل أيضا الى أنه يرجع الى عهد الفتح الاسلامى عندما احتلت الواحة مجموعة من الرعاة ، وقسموا الأرض والمياه بينهم بالتساوى ، ثم باع البعض أملاكهم لآخرين فنشأت بذلك طبقتان هما الملاك والشغالين .

---

(٢٣) تاريخ الأردن .

(٢٤) يطلق البعض على هذه الجماعة لفظ « الزقالة » . ولكن «الزجالة» هو اللفظ الشائع فى سيوة ، والزجالة جمع زجال أى محارب باللهجة السيوية .

(٢٥) اللواء رفعت الجوهرى ، المرجع السابق ، ص ٢٣٢ .

وقد اشترط على كل شغال (زجال) الا يتزوج قبل سن الأربعين . على أن يعوله سيده ويكسوه ويعطيه قدرا ضئيلا من المحصول . لهذا كانوا يعملون فى الحدائق نهارا وفى حراسة البلد ليلا ، وكانوا لا يقيمون فى نفس البلد أسفلها (٢٦) . ويحرم عليهم دخول المدينة كما كان عليهم أن يدافعوا عن الواحة ضد أى اعتداء . وقد استأثروا بالسلطة فى سيوة (كما استأثرت الانكشارية بها فى الدولة العثمانية) . فتحكموا فى نوع الزراعة واعترضوا على أى اتفاقات يبرمها السادة ولا توافقهم . وكان هؤلاء الزجالة يحتفلون بموسم الحصاد احتفالات صاخبة ، ويسكرون ويعربدون لمدة ثلاثة أيام . وكثيرا ما كانت تحدث مشاجرات وحوادث بسبب خروج الزجالة عن طورهم وهم سكارى ، الأمر الذى أدى بالحكومة الى استصدار قرار يحرم شرب اللبجى (٢٧) أو الكحول (٢٨) .

وهناك رواية أخرى تتعلق بتفسير نظام الزجالة فى سيوة . فيرى البعض أن مجتمع الزجالة قد وجد بسبب أن النظام الذى كان متبعا فى سيوة هو أن الشخص الذكر عندما يصل الى سن البلوغ كان عليه أن يغادر الجزء الرئيسى من الواحة الذى يعيش فيه بقية السكان . كذلك فبمجرد وفاة زوجة أى رجل يكون قد صدر ضده الحكم بالطرد من الواحة الى قرى العزاب ، ولا يمكن أن يعود الى الواحة الا اذا تزوج مثله مثل الأعزب تماما . وهناك عليه أن يبنى له مسكنا بجوار أمثاله . ولم يكن مسموحا لأى زجال أن يترك قرى العزاب ويعيش فى المدينة . وكل ما كان مسموحا به هو أن يقوم الزجال بزيارات قصيرة للأهل والأصدقاء على أن يغادر الزجال الواحة قبل غروب الشمس عائدا الى معسكر الزجالة .

---

(٢٦) عبد اللطيف واكد ، الوادى الجديد ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٤ .

(٢٧) اللبجى : شراب مسكر تشتهر به سيوة ويستخرج من بعض المواد الموجودة فى قلب النخلة .

(٢٨) رفعت الجوهرى ، شريعة الصحراء ، عادات وتقاليد ، مرجع سابق ، ص ٣٦ .

وأيا كانت التفسيرات التى قدمها الكتاب لنشأة هذا النظام والعوامل الفاعلة فى استمراره ، فان ما هو متفق عليه أن الزجالة يقومون بمهمتين ، المهمة الأولى هى العمل فى الحقول والمهمة الثانية هى حماية المكان . وقد كان الزجال يرتبط عادة برجل ثرى يعمل لديه . والثرى يكون فى هذه الحالة مسئولا عن غذائه وكسائه طول العام . وكان الكساء عبارة عن قميص قطن بأكمام قصيرة فى الصيف وطويلة فى الشتاء . وعباءة (جبة) من الصوف الذى تمت حياكته على اليد ، وشال وغطاء للرأس . ويعطى الثرى للزجال كل عام كمية محددة من التمر ومن الشعير . ومقابل هذا لا يتزوج الزجال ويهب كل وقته للخدمة والحراسة .

وعلى الرغم من أن تجمع الزجالة لم يكن قائما على أساس قبلى فانهم كانوا يعيشون مقسمين الى قسمين : الأول يضم الزجالة الشرقيين ، والثانى يضم الزجالة الغربيين . ويمكننا التعرف على طابع العلاقات التى تسود بين الجماعتين عندما نعرف أنه فى حالة حدوث وفاة لدى فريق من الاثنين وبناء عليه يسود الصمت والسكون وتنتهى جميع الأنشطة التى يقوم بها هذا الفريق ، فان الفريق الآخر يبدأ فى نفس اللحظة فى ممارسة الغناء والرقص واللهو .

ويبدو أن الحيـاة فى معسكرات الزجالة شجعت بعضهم على عـدم التفكير فى الزواج حتى انه اذا سئل واحد منهم « لماذا لا تتزوج » فان رده يكون ردا غير مقنع اذ عادة ما يقول « نحن نعمل فى البساتين والحدائق البعيدة ليلا ، فكيف يكون لنا زوجات ؟ » ومما يذكر عن الزجالة أنه انتشر بينهم اللـواط (مضاجعة الذكور) ، وقد احتوى تراثهم علـى أغان حب موجهة الى الصبيان ، بل أن البوليس قد اضطر أن يحرم دخول أى صبى نادى الزجالة أثناء الاحتفالات الصاخبة . وكان قائد الزجالة يحتفظ لنفسه بصبى مفضل يعتبره كعروس له أثناء فترات المزاح فى الحفلات .

ونظرا لأن مجتمع الزجالة كان معزولا عزلة نسبية عن الواحة ، فقد

كانت لهم حياتهم وأنشطتهم الخاصة . فقد كانت لهم على سبيل المثال مساكن صيفية فى البساتين البعيدة حيث يمرحون دون أن يعكر صفوهم أحدا . وكان الزجالة الغربيين لهم ناد فى احد المنازل التى تقع فى الشارع الرئيسى فى منطقتهم . وكان للشرقيين فى مقابل ذلك العديد من الأماكن التى يتقابلون فيها فى مناسبات متعددة . وعادة ما كانوا يتجمعون فى ضوء القمر مساءا حيث يمارسون السكر والغناء والرقص على أنغام الناى والطبل . ويحتفلون أثناء العام بثلاثة أعياد أحدها فى الأيام التى تلى حصاد الشعير حيث يضرب الزجالة عرض الحائط بطاعة أسيادهم ويضيعون الليل والنهار فى حفلات صاخبـــة (٢٩) .

ويعتبر أن نظام الزجالة قد تلاشى نهائيا من سيوة . وان كان بعض السيويين ما زالوا يعملون عند بعض الملاك ، الا أن هذا النظام لم يعد نظام سخرة كما كان فى الوضع السابق . كما لم يعد الاتجاه نحو هؤلاء من غير الملاك يماثل الاتجاه نحو الزجالة . كذلك تضاءلت حالات السكر

---

(٢٩) للحفلات التى يقيمها الزجالة طابعها الخاص ، كما أن أغانيهم وطرق الرقص لديهم مميزة أيضا ، فلديهم أغان خاصة تغنى اثناء الرقص . وتتكون الأغنية غالبا من جمل قصـــيرة باللغة العربيـــة ، وأحيانا تتضمن الأغنية كلمات عربية أخرى سيوية . وتدور الأغانى حول موضوعات الحب والخسائر والمكاسب التى تحدث فى الزراعة . وفى كل مجموعة يوجد مغن ملم بكل الأغانى يطلق عليه لقب « الريس » ، وهو نفس اللفظ الذى يطلق على من يجيد الرقص .

ويرتدى الراقصون غطاءا لونه أحمر بدون شرابة ، كما يرتدون جبة صوف مربعة تصل الى أسفل الساق ، أحيانا تؤدى الى تعثرهم . وبتمايل ويترنح الزجالة حول العازفين . ويتوقف الراقص من آن الى آخر ليرتشف من اناء نبيذ النخيل ، أو ليخرج من دائرة مجموعة الراقصين ليؤدى رقصة قصيرة منفردا . وأحيانا يتوقف الراقصون عن الترنح ويتوجهون بوجوههم الى أسفل على دقات منتظمة ، ويصفقون بأيديهم تصفيقا يصاحب دقات الطبل السريعة . ويرجع البعض هذه الرقصة الى الزنوج السودانيين المقيمين فى سيوة ، ويسمونها « دولوكا » . أنظر والتر ، صص ١٧ ـ ١٩ .

التى كانت منتشرة بين السيويين عموما (سواء الزجالة أو السادة) الى أقصى حد ممكن . وتلاشت أيضا كثير من العادات التى كانت مرتبطة بنظام الزجالة ، وذلك بفعل احتكاك سيوة بالمجتمع الأساسى ، وبفعل وجود كثير من أبناء الوادى فى المنطقة .

أوضحت لنا النماذج السابقة أن الجماعات الصحراوية والقبائلية سواء كانت بدوا أو جماعات مستقرة قد حاولت تنظيم نفسها وتكوين قوة عسكرية لأغراض دفاعية أو هجومية . وأن تنظيم القوة العسكرية يتدرج من التنظيمات البدائية الى مرحلة اشتراك القبائل فى التنظيمات العسكرية للجيوش الحديثة . ويمكننا أن نلمح أيضا فى النماذج السابقة ما يدلنا على أن تكوين واستخدام القوة العسكرية عند سكان الصحراء كانت فى بعض الأحيان دفاعا عن النفس أو عن المصالح الخاصة . وكانت فى أحيان أخرى تهدف الى الهجوم والجور على جماعات آمنة بهدف السلب والنهب . كما اتضح لنا أن هذه القوة استخدمت أحيانا لصالح اغراض الدولة او السلطة المركزية ، (سواء أخضعت الجماعات القبلية نفسها وأصبحت جزءا من التنظيم العسكرى فى الدولة ، أو ظلت قوة عسكرية منفصلة ومستقلة) ، كما استخدمت أيضا ضد الدولة .

وقد تباينت وتفاوتت قوة الجماعات الصحراوية فى مقابل القوة العسكرية للسلطة المركزية على مدى الفترات التاريخية المختلفة ، وباختلاف المجتمعات وباختلاف الظروف التى يمر بها كل مجتمع . وهناك رأى يرى أن أهم التغيرات التى حدثت فى الشرق الأوسط فى القرن الماضى كان هو اتجاه ميزان القوة للانحراف بعيدا عن المجتمعات القبلية فى صالح الدولة المركزية . فاصبحت وسائل القمع غير موزعة توزيعا متوازنا . وأصبح وجود القوة العسكرية المركزية بجانب نظم الادارة والمواصلات والاختراعات التكنولوجية الحديثة أشياء تعزز من قوة السلطة المركزية . ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك الى تعزيز وتقوية سلطات المسئولين . ومن أهم النتائج أيضا أن السلطات

والصلاحيات تمنح لهؤلاء الذين يملكون أو يعتقدون أنهم يملكون الأساليب التي يصلون بها وينفذوا الى السلطة المركزية (٣٠) .

واذا كنا قد قدمنا نماذج من جماعات مختلفة فى فترات تاريخية متفاوتة لكى نرسم صـــورة لأشكال القوة العسكرية الصـــحراوية واستخداماتها المختلفة ، فاننا نشعر أننا فى حاجة الى أن ندرس بعمق نموذجا واحدا يمكن أن يعمق من معرفتنا لديناميات هذا الجانب فى حياة أبناء القبائل . والنموذج الذى تم اختياره هو قبائل اقليم الكرك بالأردن وخاصة قبيلة المجالى . ويتميز هذا النموذج بانه يقدم لنا كلا البعدين العسكرى والسياسى معا . ويقدم لنا أبناء القبائل كقادة للاقليم ومحاربين ومدافعين عنه . وفى نفس الوقت يقدمهم كجماعات تدرك أنها تعيش حياتها كجزء من مجتمع اكبـر تسهم بأفرادها فى تكوينه سياسيا وعسكريا وتتعامل معه بأنواع من العلاقات وصلت الى حد تقديم أفراد من أبناء القبائل يصلون الى كرسى رئاسة الوزراء . وأهم ما يوضحه هذا النموذج أيضا التغيرات التى طرأت على سلطة القبائل فى ادارة الاقليم وتسيير أموره .

(٣٠) Ernest Gellner, Approaches to Nomadism., In The Desert and The Sown. op. cit., pp. 4, 5.

الفصل السادس

المشاركة السياسية

الكرك مركز نفوذ القبائل صاحبة السيادة فى الاقليم والمشاركة فى السياسة فى حكومة عمان (١)

يقع اقليم الكرك فى جنوب الأردن ، ويتكون الاقليم من مدينة الكرك التى تقع على قمة جبل صغير والمناطق الأخرى المحيطة بها . والاقليم والمدينة يعتبران وحدة واحدة من حيث الناحية الادارية والسكانية والتاريخية والاقتصادية . فمعظم سكان مدينة الكرك هم من قبائل الاقليم ، ويعتبر تاريخ المدينة والاقليم تاريخا واحدا ، كما أن اقتصاد المنطقة ككل يعتمد على الزراعة فى الاقليم . وفى الماضى كانت هناك اختلافات طفيفة بين الحياة فى المدينة والحياة فى بقية أجزاء الاقليم ، أما اليوم فقد اتسعت الهوة الاجتماعية والسياسية بينهما . وعلى الرغم من أن الطرق التقليدية مازالت موجودة ومنتشرة ومسيطرة فى كلا المدينة والاقليم ، فان تغيرات جذرية قد أخذت مكانها فى المدينة بينما لم تتغير القطاعات الأخرى الا تغيرات طفيفة . ونظرا لأن شعب المدينة ينتمى الى نفس قبائل الاقليم ، وينتمى الى نفس التنظيم السياسى والظروف الاقتصادية التى يعيشها الاقليم فان

---

(١) اود أن أشير الى أننى اعتمدت فى الحصول على المادة العلمية الواردة فى هذا الفصل على الدراسة الميدانية التى أجراها بيتر جسبر عن الكرك تلك التى نشرت فى كتاب بعنوان :

Politics and Change in Al Karak, Jordan. A study of a small Arab town and its district, Oxford University Press, 1973.

العناصر التى تغيرت وتحدثت فى المدينة تؤثر ببطء فى حياة الجماعات التى تعيش فى بقية أجزاء الاقليم فى نفس الاتجاه الذى سارت فيه المدينة .

وقد كان اقليم الكرك يمثل وحدة مستقلة قبل الغزو العثمانى للمنطقة فى سنة ١٨٩٢ فلم تمارس اية قوة خارجية أكبر نفوذا على الكرك . ولكن ابتداءا من سنة ١٨٩٣ ، أصبح اقليم الكرك جزءا من وحدة سياسية أكبر كانت فى البداية الامبراطورية العثمانية ، ثم بعد ذلك أصبح جزءا من المملكة العربية الأردنية الهاشمية . وفى الفترة الأولى التى كان فيها الاقليم مستقلا كان الاقليم يمارس السلطة والسيادة من الداخل على ذاته ، ولكن بعد ذلك أصبحت السلطة تمارس على الاقليم مشاركة بين أهل الاقليم وبين النسق السياسى الأكبر (٢) . ولكى نستطيع التعرف على النسق السياسى وانماط البناءات والأنشطة العسكرية فى الكرك لابد أن نتعرف على البناء الاجتماعى للاقليم .

ومجتمع الكرك هو بصفة أساسية مجتمع القبائل ، فالجماعة الأساسية الهامة فى الكرك هى القبيلة . وتختلف قبائل المنطقة عن بعضها من حيث الحجم والموقع الجغرافى ونمط المعيشة . وعلى الرغم من أن القبيلة ليست جماعة قرابية بل جماعة اقليمية ، فان الجماعات القرابية هى الأجزاء الرئيسية المكونة للقبيلة ، وهى تنتمى الى ابناء القبيلة لدرجة يصعب معها أن نقرر أين تنتهى الجماعة القرابية وأين يبدأ البناء القبلى . ومما يجعل عملية الفصل بين الاثنين اكثر صعوبة فان الكراكيين يعتقدون أن اعضاء كل قبيلة ـ أو على الأقل أعضاء كل قطاع من القبيلة ـ هم سلالة انحدرت من رجل واحد . والفرد يتوحد مع القبيلة أكثر مما يتوحد مع اى جماعة أخرى . ويعتبر سلوك الفرد امتدادا لسلوك أقاربه كما أن أفعال أقارب الشخص الدمويين تنعكس عليه بشدة . وتتدعم الوحدة القرابية بفضل نظام الزواج من أبناء العمومة . ويقضى القانون التقليدى بأن يتزوج الشخص أقرب

---

(٢) أنظر مقدمة الكتاب الذى سبق الاشارة اليه .

بنات أعمامه ، وهى لا يمكنها أن تتزوج من غيره ألا اذا اعطاها تصريحا بذلك (٣) واذا لم يتوفر أبناء أعمام للزواج فيتزوج الشخص من بنات العمة او بنات الخال . ويعتبر هذا النمط من الزواج نوعا من التشابك بين الروابط القرابية والزواجية داخل الوحدات الصغيرة نسبيا فهو يؤلف بين اعضائها . لهذا فكل الأبناء فى خط الذكورة لرجل عاش منذ أربعة أو خمسة اجيال مضت يمكن أن يعتبروا جماعة متحدة تربطهم هوية مشتركة ويقومون بوظيفة سياسية واحــدة (٤) .

ويضم البناء الهرمى للقبيلة فى قاعدته العريضة الأسر الممتدة العديدة التى تحتوى عليها القبيلة ، ثم فى المستوى الأعلى نجد الفرع البدنات (وهى تعتبر قطاع فرعى من القبيلة) ، ثم قطاعات القبيلة ، ثم القبيلة نفسها . وفائدة هذا النمط الهرمى هو أن تنظيم القبيلة ليس تنظيما راسيا فقط ، بل أن هناك تنظيما افقيا أيضا . فالقبيلة ليست مجــرد سلسلة من الوحدات الرأسية التى لها هوية واحدة ، ولكن قبيلة تجزيئية وراثيا ، وكل جزء فيها عند كل مستوى له هويته الخاصة وله قدر من السلطة والسيادة . واذا زاوجنا بين التصورين التصور الهرمى والتصور التجزيئى الأفقى ـ فانهما يدلان معا على أن القبيلة منظمة وفقا لسلسلة أنساب تقع فى أجزاء مختلفة ويعتبر كل منها فى وقت معين وفى بعض الأحداث جماعة سياسية . ولهذا فكل وحدة فى المستوى البنائى الأعلى تضم كل الجماعات التى تندرج تحتها .

وتنقسم القبيلة الى قطاعات يعيش كل منها فى منطقة معينة ويعتبر كل قطاع نفسه مجتمعا مستقلا . وخلال الأجيال المتعددة يمكن أن تنمو الأسر الممتدة إلى قطاعات فرعية وان يصبح القطاع الفرعى قطاعـــا رئيسيا فى القبيلة . ويحدث هذا التكوين للقطاع الرئيسى الجديد فى ظروف معينة كان يدرك أفراد القطاع الفرعى أن لهم هوية مستقلة . وربما يرجع ذلك

---

(٣) تتبع نفس هذا النظام قبائل أولاد على فى الصحراء الغربية بمصر .
(٤) المرجع السابق ، صص ٤١ ، ٤٢ .

الى طبيعة نشاط الجماعة او خلال عملية الاستقرار في منطقة مستقلة . وقد كانت الجماعة سابقاً تكون مخيماً جديدا أما الآن فتكون قرية جديدة .

وتتذكر قبائل الكرك الجيل الثالث أو للرابع الذى ينتسبون اليه أما الجيل الخامس والسادس فعادة لا يتفقون عليه . وعندما لا تستطيع الجماعة الاتفاق على الجد الأكبر الذى ينتسبون اليه تكون هناك فرصة للانفصال بحيث تنشأ كيانات اجتماعية مستقلة جديدة يرتبط بكل منها كل من يعتقد فى الانتماء الى جد واحد .

وأحيانا يطلب فرد من الخارج هو وأسرته الانتماء الى القبيلة ، وعادة ما يقبل فى القطاع الفرعى لأن طبيعة القرابة فى القطاع تسمح بذلك ، أما اذا أرادت جماعة أكبر الانضمام الى القبيلة فانها عادة ما تكون قطاعا جديـــدا .

وبغض النظر عن موضوع التفتت القبلى فان قطاعات من القبيلة يمكن أن تنفصل وتكون تنظيما منفصلا ذا هوية مستقلة . ويمكن أن يهجر أحـــد القطاعات الاقليم بعد حدوث خلافات أو صراعات ولا يعود اليه مرة أخرى أو يمكن أن يستقل قطاع ويقيم فى منطقة مستقلة فى نفس الاقليم ويعرف بعد ذلك على أنه قبيلة مستقلة .

وبالنسبة لنمط الاقامة ، فمع وجود بعض الاستثناءات البسيطة يميل القطاع الواحد من القبيلة أن يستقر معا فى قرية معينة ، وغالبا فى جزء من هذه القرية وعادة ما يكون للقبائل الأكبر قطاعات فى قريتين أو ثلاثة أو أربعة أو خمس قرى . أما القبائل صغيرة العدد فهى تقطن قرية أو اثنين فقط . والاقامة المشتركة عادة ما يكون لها نتائج سياسية فهى تسمح بالاتصال المستمر وتنمية المصالح المشتركة . ويجب أن نذكر أن القرية الواحدة يمكن أن تتضمن أكثر من قبيلة واحدة .

ويختلف توزيع البضائع المادية والثروة اختلافا شديدا داخل القبيلة .

فاذا كانت القبيلة صغيرة وفقيرة فان الفروق فى ممتلكات أصحابها سوف تكون قليلة . أما اذا كانت القبيلة كبيرة فاننا يمكن أن نجد تفاوتا شديدا بين أعضائها . وعلى الرغم من أنه لا توجد أنشطة إقتصادية تمارس بطريقة مشتركة فى المستوى الأعلى من مستوى الأسرة الممتدة فان أثرياء القبيلة كانــوا فى الماضى يقومون ببعض الأعمــال والخدمات الاجتماعية والمعيشة بالنسبة لأبناء قبيلتهم وما زالوا يفعلون ذلك الى حد ما .

وتطلق قبائل الكرك على القبيلة اسم « عشيرة » أما اذا كانت القبيلة صغيرة فهى تسمى « حمولة » أو « فرك » أو « فخذ » أو « فارا » . أما انقطاع الفرعى فى القبيلة فيطلق عليه « أولاد فلان » أو « عيال فلان » ؛ وأحيانا يطلق عليه « فخذ » أو « فارا » أيضا . وطالما أنهم يطلقون على الأفرع الأصغر من القطاع الفرعى « أولاد فلان » أو « عيال فلان » فانهم بهذا يعرفون باسم الجد . ويطلق على الأسرة الممتدة لقب « عيلة » . وليس بلازم أن يكونوا ساكنين فى بيت واحد . ويطلق لقب « أسرة » أو « أهل » أو « عيلة » أيضا على الأب والأم والأبناء (سواء كانوا متزوجين أو غير متزوجين) الذين يعيشون فى منزل واحد ويأكلون معا ويساهمــون معا فى استمرار الوحدة الأسرية . وعندما يقول الكراكيون كلمة « بيت » أو « دار » فانهم يعنون الرجل وكل أبنائه ، كما يعنون أيضا البيت المادى . ويتضح من ذلك أن المصطلح الواحد يستخدم لينطبق على أكثر من حالة أو أكثر من بناء ذى حجم مختلف ، وهذا ناتج عن الطبيعة الانقسامية للهرم القبلى ذلك أنه ينقسم الى عدة مستويات ، لأن كل قطاع فى مستوى معين ينجز مهام معينة ، ويمكن أن تغير أية جماعة علاقاتها مع الكل .

أولا
التركيب الاجتماعى والسكانى للكرك

١ ـ القبائل الأساسية الكبرى :

على الرغم من وجود بعض الاختلافات الطفيفة فان كل قبائل الكرك

لها نفس النمط السابق شرحه . واذا أردنا تصنيف قبائل الكرك بناء على نمط الحياة فاننا سوف نجد نوعين أساسيين . أما اذا صنفناهم بناء على الحجم فسوف نجد ثلاثة أو اربعة انماط ، واذا اعتمدنا على طابع العلاقات مع القبائل الأخرى فسوف نجد خمسة أو ستة انماط والتصنيف الذى سيقدم هنا يعتمد على وصف كل نمط بناءا على ما يجعله متميزا عن غيره . فى ضوء ذلك هناك أربعة أنواع من القبائل :

أ ـ قبائل الهضبة :

تعتبر القبائل التى تسكن وسط الهضبة هى أقوى القبائل ، وهى قبائل مسيطرة ، تمارس نفوذها على القبائل الأخرى . وقد كانت قبائل شبه مستقرة قبل بداية هذا القرن ولكن أصبح معظمها الآن مستقرا . ويتراوح عدد كل قبيلة من ٣٠٠ الى عدة مئات من الأفراد ، ولكن توجد بعض القبائل ، وهى قليلة العدد ، يقل عدد أفرادها عن ١٠٠ عضو ويشكل أعضاء هذه القبائل ٥٥٪ من مجموع السكان . أما تلك القبائل التى تصل اعداد أفرادها الى الألف فهى القبائل الأكثر قوة وبقاءا فى الاقليم . وعادة ما يكون لأفراد القبائل الصغرى علاقات مع أفراد من القبائل الكبرى ، هذا على الرغم من توفر التكامل الداخلى ووضـــــوح الهوية المستقلة لكل قبيلة صغيرة . وغالبا تتصف هذه العلاقات بالمساواة . وتتمتع قبائل الهضبة بامتياز عضويتها فى الحلفين الرئيسين فى الكرك .

ب ـ القبائل شبه المستقرة :

تعيش فى أقصى جنوب الاقليم خمس قبائل ، فقبيلة « بنى حميدة » وقبيلة « عمرو » تعيشـــان فى الشمال بينما تعيش قبائل « النويمات » و « الخراشا » و « الباتوش » فى الجنوب وهذه القبائل الآن شبه مستقرة . وعلى الرغم من أنهم يعتبرون أنفسهم كراكيين — وتعتبرهم قبائل الهضبة كذلك . فهم لا ينتمون الى الحلفين الرئيسيين ، وليســـت لهم أية سلطة سياسية ولم تكن لهم هذه السلطة فى الماضى القريب . هذا على الرغم من

أن متوسط عضوية القبيلة ١٠٠٠ شخص . وتشبه عاداتهم الاجتماعية عادات بدو الصحراء أكثر مما تشبه عادات قبائل الهضبة ، وهم يسمون القبيلة مثلما يسميها البدو « قبيلة » ، ويسمون القطاع القبلي « عشيرة » أو « حمولة » ويعتمد ذلك على عدد أفراد القطاع . ويقال أن قبيلة « بنى حميدة » وقبيلة « عمرو » قد لعبتا دورا هاما فى تاريخ الكرك ، ولكنهم طردوا الى مناطق بعيدة فى الشمال ونظرا لأن الأرض هناك — كما هو الحال بالنسبة للمناطق المتطرفة فى الجنوب — أدنى من منطقة الهضبة فان أساسهم الاقتصادى فقير الكفاءة . ولأنهم ليس لديهم الا القليل من المدارس ، لهذا فهم أقل تعلما من سكان الهضبة . ومن المهم ان نعرف أن كل قبيلة ليس لديها أكثر من أسرة واحدة تقيم فى مدينة الكرك (٥) .

جـ - قبائل قرية العراق والبرارشا (٦) :

تعيش قرية العراق والبرارشا جنوب وغرب مدينة الكرك على

---

(٥) المرجع السابق ص ص ٤٢ - ٥٢ .

(٦) فى الفترة الماضية وعبر التاريخ القديم كانت القرى هى مكان الجماعات التى كانت تعيش منفصلة اقليميا ولكن فى السنوات الأخيرة تكونت مجانس القرى التى أحدثت نوعا من الاتحاد بين هذه القبائل . وتضم معظم القرى قطاعات من قبيلتين أو ثلاثة ترتبط مع بعضها غالبا بشكل من أشكال التحالف . ولم تكن القرية قديما أكثر من مجرد مكان للاقامة المشتركة يقيم فيها من يزرعون الحقول المحيطة ، ولم تكن بها أية أنشطة . وعلى الرغم من أن نصف القرويين المسيحيين يعيشون فى قريتين مسيحيتين هما « السمكية » و « حامود » فان عددا كبيرا منهم يعيشون جنبا الى جنب مع المسلمين فى قرى « العرابة » و « ادر » .

وقد تكونت قرى أخرى كثيرة لأكثر من سبب . فبعضها تكون بسبب حاجة المزارعين ان يكونوا على مقربة من حقولهم ، بسبب انفصال قطاع من القبيلة عن بقية القبيلة بحيث كون له مكان اقامة جديدة . وتستغرق عملية تأسيس القرية بشكلها المعروف عدة سنوات وبصفة عامة يمكن القول أن القرية ليست لها من الناحية السياسية دور مباشر ، اذ هى مجرد مكان للاقامة ممتد ومتسع تقيم فيه جماعتين أو أكثر ، ويسمح بزواج مشترك ، اذ حدثت حالات تزاوج بين أبناء القبائل فى حالة الانتماء الى دين واحد .

حلقة الهضبة . وهم يكونون سلسلة من القبائل الصغيرة المرتبطة ببعضها في صورة تحالفات ثنائية منفصلة ، ولكنهم ليسوا أعضاء في الحلفين الرئيسيين في الاقليم . ويبلغ تعداد البرارشا حوالي ٣٤٠٠ شخص يكونون خمسة عشرة قبيلة . وتتكون قرية العراق من ٩٠٠ شخص يكونون أربعة قبائل . وقد كانوا شبه مستقرين ولكن أصبحوا الآن مستقرون مثلهم مثل قبائل الهضبة . ويعتقد أهل المنطقة ان هذه القبائل كانت تعيش قبل الحروب الصليبية في مدينة الكرك والمنطقة المحيطة بها وأنهم كانوا مسيحيون ولكن طردهم السلاطين الى المناطق التي يعيشون فيها الآن بسبب تعاونهم مع الصليبين ، ثم اعتنقوا الاسلام في وقت غير معروف . وتعتبر نسبة التعليم لدى هذه القبائل أدنى من مثيلتها لدى قبائل الهضبة . وقد عانت معاناه شديدة من عدم التكافؤ في المعاملة مع قبائل الهضبة ، وكانوا يدفعون « الخاوا » لقبيلة المجالي ولغيرها من القبائل الأخرى . ويقول المؤلف انهم تحولوا الى قطاع طرق ربما بسبب فقرهم النسبي ، خاصة خلال فترات الحروب . وقد خسر عدد كبير منهم أرضه حيث أخذتها قبائل الهضبة ، ولكن لم يكن ذلك بنفس الدرجة التي حدثت مع الغوارنة .

د ــ الغوارنة :

الغوارنة شعب داكن البشرة يسكن منطقة الغور . وعلى الرغم من أنهم عرب ويقطنون الاقليم ، الا أن علاقاتهم مع القبائل الأخرى في الاقليم تتميز بعدم المساواة .

٢ ــ الجماعات خارج الاقليم :

تشبه الجماعات التي تعيش خارج اقليم الكرك في المناطق الشمالية والجنوبية الكراكيين من حيث التاريخ والبناء . فهي تتكون من قبائل شبه مستقرة تنتظم في نمط هرمي انقسامي والجماعات الأساسية الأخرى هي القبائل البدوية التي تعيش في اقليم شرق الكرك جنوب وادي العرابة ، وهي قبائل ذات بناء اجتماعي يشبه بناء قبائل الكرك ولكنها في الغالب أكبر عددا .

بالاضافة الى أن القبيلة ليست وحدة متماسكة اذ تعتبر القطاعات القبلية (التى تنقسم اليها القبيلة الواحدة) وحدات ذات فاعلية مستقلة . وقد كانت هذه القبائل قبل الحرب العالمية الأولى أما بدوية أو شبه بدوية . أما الآن فان جزءا منهم بدوا والجزء الأخر شبه مستقرين ، أما الجزء الباقى فقد استقر تماما . ولكن الصفة الغالبة لهم هو أنهم اشباه بدو وأشباه مستقرين . وتعتبر الدورة الزراعية للكراكيين ودورة رعى الحيوان عند البدو دورتان متكاملتان لأنه فى نهاية الشتاء وأول الصيف بينما تنمو المحاصيل توفر الأمطار فى الصحراء حشائش لرعى حيوانات البدو وعندما يحل وقت جنى المحاصيل تكون الحشائش قد جفت ويكون البدو قد أتوا بحيواناتهم الى حقول الكراكيين لكى ترعى هذه الحيوانات وتأكل ما بقى فى الحقول بعد الحصاد . ويهتم المزارعون الكراكيون اهتماما شديدا بالمخصبات الطبيعية ، وعندما تبدأ الأمطار مرة أخرى فى فصل الخريف يعود البدو الى الصحراء للافادة من الحشائش التى نمت حديثا بينما يعد الكراكيون حقولهم لزراعة محاصيل جديدة ، وهكذا يتم العمل بين الكراكيين وبين قبائل البدو خارج الاقليم فى شبه دائرة (٧) .

٣ ــ الأقليات :

يقصد بالأقليات هنا مختلف الجماعات التى ـ بسبب سمات خاصة بها ـ لم يوحد أفرادها أنفسهم مع البناء الهرمى الانقسامى الرئيسى فى اقليم الكرك . وهم يعتبروا أنفسهم مختلفين عن الآخرين كذلك أيضا . وهم ينقسمون الى ستة فئات .

أ ـ الغوارنة :

الغوارنة جماعة سلالية تتميز باسوداد البشرة وتسكن فى الغور . وهم يزيدون عن ستة آلاف فرد قليلا . وقد عانوا معاناة شديدة طوال اقامتهم فى الاقليم اذ كانوا موضع سيطرة اقتصادية وسياسية . وعلى

---

(٧) المرجع السابق ، ص ٥٩ .

الرغم من أن أصول هذه القبائل غير معروفة ولكنهم معروفين بأنهم قبائل عربية تقيم فى الاقليم منذ مدة طويلة ، فانهم استغلوا استغلالا كبيرا . فقبل التنمية الشاملة للزراعة فى المنطقة كانت القبائل الرئيسية فى الاقليم وخاصة قبيلة المجالى تجمع منهم « الخاوا » بالتهديد والقوة . وبعد أن أصبحت أرضهم هامة بدأت القبائل الرئيسية وغيرها من الجماعات مثل الدمشقيين يأخذوا الأرض بالحيلة والتهديد ولم تستطع السلطة أن تحميهم فى ذلك الوقت .

وقد كان الاتجاه الاجتماعى للكراكى نحو الغوارنة يتسم بالتفرقة . فيقال ان الشريف لم يكن يتزوج منهم بسبب اسوداد بشرتهم . وهذا هو الواقع فعليا اذ لم يكن يوجد زواج بين أفراد الجماعتين . وهناك اعتقاد سائد فى أنهم يجب أن يعملوا فى الأعمال اليدوية الحقيرة ، ولا يجب أن يصلوا الى مراكز سلطة أعلى من الكراكيين بيض البشرة .. وقد انتقد بعض الكراكيين المتعلمين هذه الاتجاهات . وهناك قصص كثيرة توضح أن معاملة الكراكيين المتعلمين هذه الاتجاهات . وهناك قصصا كثيرة توضح أن معاملة كثيرة غير ذلك ، وفى الوقت الحاضر بدأت هذه المعاملة تتحسن وبنيت لديهم بعض المدارس الابتدائية .

وينقسم الغوارنة الى تحالفين رئيسين ، ويتمركز الحلف الشمالى فى قرى المازرا والحديثة ويتمركز الحلف الجنوبى فى سامنى والفيفا ، والقرية الأخيرة تقع جنوب الكرك فى اقليم تافيلا ، ولكنها تقع فى نطاق ومجال نفوذ الكراكيين . وينقسم كل تحالف رئيسى كبير الى تحالفين فرعيين يضم كل منهما جماعتين .

ب ـ العبيد : (من العهد الماضى)

قبل أن تحدث التغيرات الحالية فى الكرك كان لبعض أفراد أسرة المجالى عبيدا (٨) ركانوا يعاملون معاملة طيبة محترمة و وكانوا مزودين بحصا/

---

(٨) سوف نتكلم فيما بعد بالتفصيل عن قبيلة المجالى ومركزها بين القبائل ودورها فى الاقليم .

ومسدس وغيرها من مظاهر المكانة ، وبعد أن عتق العبيد منحوا الحرية ، وتزوج بعضهم من الغوارنة فتغيرت مكانتهم وهويتهم الأولى عندما كانوا عبيدا واصبحوا أعضاء فى احدى القبائل . ولكن بقى بعض هؤلاء على الهضبة مع قبيلة المجالى وأصبح لهم وضعا هامشيا متميز ، فمن جهة أصبح أعضاء هذه الجماعة موضع تفرقة وتمييز بسبب اسوداد بشرتهم وبسبب مكانتهم السابقة كعبيد ، وهم مثل الغوارنة لا يقبل أعضاء القبائل الأخرى الزواج منهم ، وفى نفس الوقت لا يمكنهم اعتلاء مراكز السلطة . ويلاحظ انهم من وجهة النظر الرسمية لهم اسم قبيلة المجالى ، ولكن يعرفهم أهالى الكرك بأنهم عبيد المجالى ، وبالتالى فهم أقل احتراما . ومع ذلك فقد عامل أهالى الكرك هؤلاء العبيد ، وخاصة الجيل الثانى منهم معاملة حسنة فى احيان كثيرة . ويذكر أن الشيخ محمد المجالى (١٨٨٦ — ١٩٤٢) كان يعامل عبدا عنده أفضل معاملة ، وعندما توفى أشرك أبناء العبد فى الميراث . وعندما صدم أحد أبناء العبيد (من الجيل الثانى) فردا من قبيلة المجالى بسيارة وقتله جمع لـه أفراد القبيلة الفدية . وهذا يعنى أنهم قد قبلوه عضوا فى القبيلة . وبصفة عامة فان هؤلاء العبيد السابقين يواجهون تفرقة بسبب لونهم ولكنهم يعاملون معاملة أفضل من تلك التى يعامل بها الغوارنة ، ربما بسبب المكانه التى كان يشغلها آبائهم .

جـ ــ الهيرونيين والدمشقيين :

الهيرونيين والدمشقيين جماعتين تتكون كل جماعة منهما من مجموعة الأسر الممتدة المستقلة ويربط بينها تنظيم يوحد بين أعضائها ويجعل منهم وحدة واحدة متماسكة . ويسود بين أعضاء كل جماعة اتصالات كثيرة تتعلق بالعمل والشئون الاجتماعية ، ولكل منها قائد غير رسمى وغالبا ما يوجد كرسى واحد فى المجلس المحلى ويخصص فى معظم الأحيان للهيرونيين حيث يمثل من يحتله الجماعتين ومصالحهما خاصة الجانب التجارى . وكقاعدة عامة يميل الهيرونيين الى الزواج من جماعاتهم المحلية أو أبناء عمولاتهم وينطبق نفس الشىء على الدمشقيين واحيانا يتزوج رجل منهم من قبائل الكرك ، وعندما يحدث ذلك يشعر الأبناء الآتين من هذا الـزواج بولاء يوحدهم مع قبيلة أمهم . والهيرونين والدمشقيين ليسوا أعضاء فى الأحلاف

الكبرى التى تكونها القبائل . فهم يفضلون أن يكونوا محايدين فى هذا المجال . وهم لايشاركون أيضا فى السياسة الخارجية للمنطقة مثل الحروب والهجمات والاحلاف المؤقتة . وعلى الرغم من أن بعض الاعضاء قد حققوا ثروة كبيرة بماقييس الكراكين ولكنهم لم يستطيعوا أن يحققوا كسبا سياسيا أبدا . وتعتبر هذه الجماعات كراكية ولكن مع بعض الاختلافات اذ أنهم لاينتمون الى القبائل كما أنهم يعملون فى التجارة أساسا . وهم ينظرون الى أنفسهم على أنهم كراكيين بواقع مكانتهم الاقتصادية والاجتماعية ، ويدركون أنهم لن يصبحوا ذات أهمية من الوجهه السياسية على الرغم من ثرائهم .

د ـ الأرمن :

مع نهاية العشرينات كان هناك من ٤٠ ـ ٥٠ أسرة ارمنية فى الاقليم ، ولكن لم يبق الا اربعة أو خمسة أسر . وقد دخلت الأسر الأرمنية الاقليم هربا من اضطهاد العثمانيين ، ولكى يستغلوا الفرص الاقتصادية المتاحة . وعلى الرغم من أنهم قبلوا فى الاقليم وحصلوا على الحماية الا أنهم لم يكونوا أبدا جزاء منه . وهم ذو عادات متميزة ويتكلمون لغتهم اذ لم يجيدوا العربية . ومازالوا يتزاوجون من الأرمن الآخرين المقيمين فى مدن أخرى . وغالبا ما تتركز أنشطتهم الاقتصادية فى التجارة والصناعة والبناء فقد بنوا معظم مطاحن الدقيق ومعاصر الزيوت ، وصنعوا معظم الأحذية ، واستاجر واشترى بعضهم قديما أراضى فى أقليم الغور ، وكانوا أول من زرعها بكثافة وكفاءة وحصلوا منها على نتائج جيدة . وقد كانوا موظفين فى المجالس البلدية وخاصة فى الأقسام المتعلقة بالخدمات والمصالح العامة بسبب خبرتهم الفنية ومهارتهم. وقد تركت معظم هذه الأسر الاقليم بسبب أنها وجدت فرصا للرواج الاقتصادى فى مناطق أخرى ، بسبب أن ما كانوا ينتجونه عن طريق الحرف التى تخصصوا فيها أصبحت تنتجها مصانع وتقدم نفس البضائع . والقلة الباقيـة منهم يعملون موظفين فى الجهات المحلية وبعضهم مـلاك أراضى وأصحاب صيدليات

هـ ــ الحدادين :

توجد قبيلة صغيرة تسمى « الخازاى » ويعمل أفرادها فى الحدادة ويشبهون بعض قبائل الصحراء التى تجول من معسكر الى آخــر ومن قرية الى أخرى . والكراكيين لايعتبرونهم مساوين لهم بسبب أن طابع معيشتهم مختلف ، ولكنهم يعاملون معاملة حسنة بسبب أن الناس يحتاجون الى الخدمة التى يقدمونها (الحدادة) . ونظرا لأنهم كانوا يتخذون موقفا محـــايدا أيام الهجمات بين القبائل فان هذه القبائل كانت تعوضهم مقابل ما يفقدونه من حيوانات وبضائع أثناء الهجمات . وتعتبر قبيلة الخازاى جماعة فنية وتكنولوجية يقدر الجميع فنها وتجارتها ويحمونها .

و ـ الغجر :

والغجر جماعة تشبه « الخازاى » فى آنهم ليسوا ذو مكانة سياسة فى الكرك ، ولكنهم جماعة محتقرة تعامل معاملة سيئة . وتوجد معسكراتهم على حافة المناطق المزروعة . وفى هذه الأماكن يمارسون تجارتهم ، والبعض يسرقون سرقات بسيطة ولكنهم يعملون فى الذهب كصياغ ، ولكن أهم أعمالهم هو فن التسلية ، ففى الأفراح وغيرها من المناسبات يعزف الرجال الموسيقى وتغنى النساء وترقص . ويزور بعض أهالى الكرك معسكراتهم للاستمتاع والرقص والغناء .

الأحلاف والاتفاقيات العسكرية

لكى نستطيع التعرف على شكل التنظيم السياسى والاتفاقيات العسكرية فى اقليم الكرك ينبغى أن تصنفها الى ثلاثة أنواع : اقليم الكرك كوحدة سياسية عسكرية والأحلاف شبه الدائمة بين القبائل ثم العلاقات السياسية والعسكرية بين القبائل وبين من هم خارج الاقليم .

١ — اقليم الكرك كوحدة سياسية عسكرية :

يعتبر الكراكيون أن اقليم الكرك بما يضمه من قبائل وجماعات يمثل وحدة سياسية ترتبط بها قوة عسكرية ، فكل القبائل هى قبائل كركية فى مقابل القبائل التى تعيش فى أقاليم أخرى ، وعندما كانت تستدعى الضرورة تتجمع كل قبائل الاقليم لتقف موقفا واحدا ضد اقليم آخر ، أو ضد أى قوى خارجية ، أو ضد أى خطر يهددهم .

٢ — التحالفات شبه الدائمة بين القبائل :

هناك ثلاثة أشكال رئيسية من التحالفات شبه الدائمة فى الكرك :

(أ) التحالفات القبلية الكبرى :

تنقسم قبائل الهضبة الى تحالفين رئيسيين هما التحالف الشرقى والتحالف الغربى ، وهما يعرفان فى الاقليم بالشراقا والغرابا ، وتتشبه العلاقات التى تربط بين أعضاء كل تحالف تلك العلاقات التى تربط بين أعضاء التحالفات الصغرى — كما سنوضح فيما بعد — ولكن على نطاق أوسع . ويعتقد أهالى الكرك أن مصدر الانقسام هى الحدود التى وضعها العثمانيون فى القرن السادس عشر لهدف جمع الضرائب الأمر الذى ادى الى تقسيم القبائل الى ثلاثة جماعات : غربية ومسيحية وشرقية . واذا كان يفترض أن كل جزء من الاقليم يضم من ينتمون الى الحلف الشرقى أو الغربى الا أنه كانت هناك مرونة بحيث انضمت بعض القبائل المقيمة فى الجزء الشرقى الى قبائل الجزء الغربى . وفى احدى المرات وخلال حرب كبرى قامت بين الحلف الشرقى والحلف الغربى قتلت رصاصة طائشة من الحلف الشرقى من أحد أعضاء الشمايلة رجلا من رجالهم فانضمت القبائل فى الحال وقاتلت فى صف الحلف الغربى وظلت أعضاء فيه منذ ذلك الوقت . وقد كانت بعض القبائل قادرة على التحول من التحالف الشرقى الى الغربى أو العكس بسبب موقعها الجغرافى . فقد كانت تتمركز على طرف التحالف الشرقى ولم يكن عليها الا أن تنتقل وتتمركز على طرف التحالف الغربى . وقد كان هذا التحول صعبا فى حالة القبائل التى تسكن مناطق داخلية فى

كلا الشرق أو الغرب . وقد تأثرت مدينة الكرك بهذا التقسيم . فمنذ أكثر من خمسين سنة كانت الصورة مختلفة تماما عما يحدث الآن ، فقد كانت هناك ثلاثة مناطق معيشية متميزة وكان المسيحيون يعيشون فى القطـــاع الشمالى . ولم يكن أحد يجرؤ فى بعض الأوقات وخاصة فى أوقات الأزمات أن يدخل منطقة الحلف الغربى أو العكس . ومع ذلك فنظرا لأن المسيحيين كانوا جزءا من الحلف الغربى فقد كانت هناك حرية فى الحركة بين المناطق التى يشغلونها وقد كان هناك سوقا يعد منطقة محايدة لا يجب أن يحدث فيها عنف . ولكن تغير الوضع بعد ذلك وأصبح المسيحيون يعيشون بين المسلمين ، كما أن أعضاء الحلف الشرقى أصبحوا يعيشون فى القطاع الغربى والعكس صحيح .

(ب) تحالف القبائل الصغرى مع القبائل الكبرى :

هناك قبائل عديدة ترتبط بقبائل اكبر منها ويتراوح عدد افراد القبيلة الصغيرة عادة بين ٥٠ – ٥٠٠ شخص . ويضمن هذا التحالف الحماية للقبيلة الصغيرة ، كما يضمن مساعدة القبيلة الصغيرة للقبيلة الكبيرة . فاذا دخلت القبيلة الصغرى فى حرب مع قبيلة أخرى فلابد أن تساعدها القبيلة الكبرى . ولكن ينتظر عادة أن تساعد القبيلة الصغرى القبيلة الكبرى التى تحالفت معها فى حالة خوضها أية حروب ، وان كان هذا عادة ما يحدث . وفى وقت مبكر عندما كانت الدولة غير قادرة على توفير الأمن فى هذه المناطق كانت القبائل الصغرى تقيم بجوار القبائل الكبرى الداخلية معها فى التحالف لكى تضمن الحماية . ومع استقرار الكراكيون فوق الهضبة كونت القبائل الصغرى المتحالفة قراها الخاصة ، وبعضها الآخر أقام فى القرى التى تقيم فيها الجماعات الأكبر وعلى الرغم من أنه من الصعب أن يصبح عضو من القبيلة شيخا فى القبيلة الكبرى لكن ذلك قد حدث وعندما يحدث ذلك تفقد القبيلة الصغرى هويتها المستقلة وتصبح جزءا من القبيلة الكبرى . ولكى يحدث نوع من التوازن فان القبيلة الصغرى يصبح لها الكثير من حقوق القبيلة الكبرى دون أن يكون عليها كل التزامات القبيلة ومع ذلك فهى تبقى أقل شأنا

بالنسبة للقبائل الرئيسية فيما يتعلق بالسلطة السياسية . والامتياز الذى تجنيه القبائل الكبرى من ذلك هو أنها تكتسب مكانة أعلى طالما أن القبائل الصغرى تطلب حمايتها ، وفى نفس الوقت فان عملية ضمها لقبائل أخرى تؤدى الى زيادة عددها الأمر الذى يؤدى الى زيادة قوتها نظرا لأن هذا العدد سوف يكون نافعا فى حالة وجود ضرورة لاستخدامه . وبصفة عامة يمكن النظر الى هذا النوع من التحالفات على أنه علاقة تتضمن الحماية فى مقابل التبعية بين جماعتين ، او على أن القبيلة المتحالفة تمثل قطاعا قبليا غير مندمج اندماجا تاما .

(جـ) التحالفات الصغرى بين القبائل المتساوية نسبيا :

تقوم هذه التحالفات التى تعقد بين القبائل المتساوية نسبيا على اتفاقيات سياسية طويلة الأجل ، وهى تدل على وجود علاقات بين هذه القبائل فى مقابل التعارض مع قبائل أخرى مناظرة . ولكن التحالف لا يعنى أنه عندما تدخل قبيلة فى قتال لابد أن تنضم اليها القبيلة الأخرى . فهذا يحدث فقط عندما يدرك الطـــرف الداخل فى صراع أنـــه لن يمكنه أن يواجه الموقف منفردا ، ففى هذه الحالة يطلب تدخل الطرف الآخر وأحيانا يتوقف الدعم على التأييد الأخلاقى . وتنشأ بين الجماعات الداخلة فى تحالف معين علاقات زواجية . فعقود الزواج التى تتم بين أفرادها أكثر من عقود الزواج التى تتم بين أفراد من قبائل غير متحالفة . ويلاحظ أنه ليس بلازم أن ترتبط القبيلة الداخلة فى تحالف مع قبيلة أخرى بنفس نوع العلاقات التى ترتبط بها القبيلة الثانية مع قبائل غير داخلة فى التحالف . وعلى سبيل المثال كانت لقبيلتى المجالى والمايانا علاقات قديمة قوية وطويلة المدى فى هذا الشكل من التحالف . ويعتقد الناس فى المنطقة أن القبيلتين قد انحدرتا من رجل واحد ولكن من أكثر من أم . ومع أن كلا القبيلتين تقفان جنبا الى جنب فى كل الأنشطة السياسية فلم يعن ذلك أن القبائل التى لها علاقات طيبة مع قبيلة المايانا كانت لها

نفس العلاقات مع قبيلة المجالى ، فقد كان بين هذه القبائل وبين المجالى علاقات عدائية طويلة الأمد (٩) :

٣ ـ العلاقات السياسـية والعسكرية بين اهالى الكرك ومن هم خـارج الاقليم :

تأخذ العلاقات بين الكركيين والجماعات الخارجية أربعة أشكال رئيسية مع بعض الاختلافات التى تطبعها أحيانا بطابع الغموض والمرونة معـا . وقد بـدأت العلاقات الرسـمية بين الكركيين والجماعات الخارجة تفقد اهميتها فى فترة ما بعد الحرب مع ازدياد درجة الأمن وقلة الغزوات وتناقص الحروب القبلية . وتتميز هذه العلاقات اليوم بأنها يمكن أن تزداد كثافة فى حالة وجود روابط قوية بينهم ، ويمكن أن تتسم بالتوتر فى حالة وجود حروب بين أهالى جماعة خارج الاقليم أما الأربعة الأشكال الرئيسية للعلاقات السياسية والعسكرية فهى :

(أ) الحـروب :

الحروب هى اعـلان عن العداء القائم بين قبيلتين أو بين حلفين . ويرسل الجانب الذى يود بدأ الحرب رسوله الى الجانب الأخر ويعلمه رسميا بذلك . وغالبا ما يسبق حالة الحرب فترة حرجة من العلاقات المتوترة التى لا تخلو من شن الهجمات . ويمكن أن تعلن قبيلة معينة الحرب خوفا عـلى وحدة حدودها أو تأمينا لمعيشتها وفى بعض الأحيان تعلن قبيلة ما الحـرب (أو تثير فكرة اعلان الحرب لدى قبيلة أخرى) لمجرد اظهار قوتها . وبعد نهاية الحروب التى قد تستمر عدة أسابيع وقد تصل الى عدة سنوات عادة ما تعقد القبائل المتحاربة اتفاقات سلام من خلال المفاوضات الرسمية .

(ب) الهجمات :

عادة ما كانت تشن الهجمات بين الكراكيين والجماعات الخارجية اذ

---

(٩) المرجع السابق ، صص ٥٢ ، ٥٩ .

ان ذلك لم يكن ممنوعا تماما وقد كانت الهجمات عملا على درجة عالية من التنظيم وكانت لها الصفة الرسمية . وكان غرض الهجمات الحصول على الحيوانات والمنقولات . ولكن كان يجب على القبيلة المحاربة الا تسبب جرح أو موت أحد الأشخاص . وما لم تكن هناك عداءات أساسية بين الجماعتين المتحاربتين فانه فى حالة جرح أو موت أحد الأشخاص كان الأمر يحال الى المحاكم القبلية .

(جـ) الصحبة :

والصحبة تعنى المناقشة والمفاوضات التى تحدث بين جماعتين صديقتين ، كأن تحدث مناقشة بين اقليم الكرك وأى جماعة خارجية أخرى ، أو بين جماعة بعينها من اقليم الكرك وبين جماعة أخرى خارجة . ويعنى حدوث هذا النوع من المفاوضات أن أى جانب من الجانبين ليست لديه النية فى اعلان الحرب على الجانب الآخر ، ويعنى أيضا أن كل جانب من الجانبين يتوقع أن تصبح العلاقات أفضل بعد أن تمر فترة ينسى فيها كل طرف ما حدث من الطرف الآخر . وهناك قبائل خارجية وداخلية قاتلت بعضها ثم عاشت بعد ذلك بجوار بعضها بمرور الوقت . ولا يتضمن اتفاق الصحبة هجمات متبادلة ولكنه يسمح بهجمات تتم بطريق الصداقة ، وفى هذه يتم رد البضائع والأشياء والحيوانات التى اغتنمها طرف من الطرف الأخر بسعر يقل كثيرا عن القيمة الأساسية للأشياء والحيوانات وحتى حينما يكون هناك قتال بين فريقين فلا يعد ذلك سببا للعداء العام ولكنه يبقى محدودا فى أطراف النزاع .

(د) « بن أما »

« بن أما » هو اتفاق تفاوضى يتم بين جماعتين تربط بينهما روابط قوية . ويقر فيه كل طرف بأنه لن تحدث هجمات منه ضد الطرف الآخر . واذا حدث فان كل البضائع والحيوانات يجب أن ترد مع تقديم الاعتذار . ولتأكيد هذا الاتفاق يعين كل طرف عالما يرعى مصالح الطرف الآخر فى اقليمه .

ولكن أحيانا يحدث اختلاف فى هذا النمط من العلاقات وعلى سبيل المثال فقد سمحت قبائل الكرك لبنى عطية برعى حيواناتهم فى اقليم الكرك ولم يدفعوا للكراكيين أى « خاوة » مقابل الحماية أو مقابل تقديم خدمات كما فعلوا مع بنى صخر فى وقت ما ، ولكن الكراكيين كانوا يريدون ان يأخذوا من بنى عطية اللبن وصوف الغنم وشعر الماعز . ولهذا فقد عقدوا صفقة أو وصلوا الى اتفاق هو أنه اذا استطاع رجل بمفرده (دون رفيق) أن يملأ معطفة أو عباءته بالأشياء التى يرغب فيها ويغادر المكان بنجاح دون ان يمسك به أحد . فانه يمكن أن يحتفظ بهذه الأشياء لنفسه ، أما اذا أمسك به أحد فانه سيفقد معطفه أو عباءته دون أن يوجه اليه أى اتهام مضاد . وتتضمن العلاقات أيضا اعتمادا على التفاوض المتبادل ترتيبات الدفاع عن القبائل أو الهجوم عليها وخاصة ما يتعلق بتلك القبائل التى يمكن أن تعقد اتفاقيات شاملة

ثالثا

السياسة والقيادة فى اقليم الكرك فى الفترة المعاصرة

اتضح لنا أن الشكل البنائى للمجتمع القبلى بالكرك هو شكل هرمى يبتدء بالجماعات القرابية ، ثم القطاعات القبلية التى ترتبط ببعضها لتكوين القبائل ، ثم القبائل ، ثم الأحلاف الرئيسية ثم الكرك ككل . وتعتبر الجماعات القرابية والقبائل والأحلاف هى أساس البناء السياسى التقليدى . واتضح لنا أيضا أن الاقليم يضم أقليات لكل منها مكانتها الخاصة وعلاقاتها المميزة بالقبائل صاحبة النفوذ فى الاقليم فالغوارنة مرتبطين مع القبائل المختلفة بعلاقات اقتصادية لا تتسم بالمساواة ، وبعلاقات الحماية والتبعية ، ونفس الأمر – ولكن ربما بشكل أضعف – بالنسبة للبرارشة والعراقيين . وقد تكامل العبيد مع قبيلة المجالى واشتركوا مع القبائل الأخرى فى مكان الاقامة وفى الدين . أما الأرمن فانهم توحدوا الى حد ما مع الكراكيين المسيحيين بسبب العقيدة الواحدة ، وتوحدوا أيضا مع بقية المجتمع بفعل عامل الاقامة المشتركة وبفعل دورهم الضرورى والنافع فى المجتمع .

ويرتبط الهيبروتيين والدمشقيين مع الكراكيين بروابط اقتصادية وتجارية بالاضافة الى الاشتراك فى محل الاقامة والتوحد فى الدين . ولا يرتبط الحدادين والغجر مع المجتمع الا فيما تعلق بالخدمات التى يقدمونها . وباختصار فان الكرك يتكون من سلسلة من الجماعات لكل منها هوية ولكل منها درجة من الولاء وترتبط كل جماعة مع الجماعات الأخرى بالعديد من الروابط الأمـر الذى يجعل كل سكان الكرك وحدة واحدة (١٠) .

وعلى الرغم من توفر نفوذ القبائل فى الاقليم الا أننا يمكن أن نقرر أن قيادة الكرك وادارة شئونه الداخلية والخارجية أصبحت مزيجا بين التسيير الذاتى وبين الاستجابة للقرارات الوافدة الى الاقليم من جهات مسئولة . وفى الفترة المعاصرة على وجه الخصوص زادت كثافة الاتصال والعلاقات بين اقليم الكرك ببنائه القبلى وبين حكومة عمان . فقد حاولت الحكومة ربط الكرك بالمجتمع السياسى الأكبر من خلال تنفيذ برامج مخططة ، وكان ذلك يهدف الى تحقيق الولاء للمجتمع السياسى الاكبر ، وفى نفس الوقت لرعاية شعب الكرك كجزء من الشعب الأردنى . وبالفعل أصبح أهالى الكـرك على دراية واتصال بالمجتمع السـياسى الأكبر ، وعلى اتصـال بمنظماته وهيئاته ، وعلى سبيل المثال يحترم الكراكيون أعضاء البرلمان ويدركون طبيعة وقوة مركزهم ، ويشـعر الأهالى أن الحكومة توفر لهم احتياجاتهم ومطالبهم وتعمل على تحقيق الرفاهية بالنسبة لهم .

وفى ضوء ذلك حدثت تغيرات عديدة فى الاقليم ، وما نهتم به من هذه التغيرات هو تغير الشكل السياسى والقيادى التقليدى فى مجتمع الكـرك القبائلى .. ويمكن أن نتعرف على جوانب التغير من مناقشة الثلاثة نقـاط الآتية :

١ — تغير المكانة والقيادة التقليدية :

ضمن ما اتجهت الدولة اليه فى اهتمامها بالكرك هو تكثيف الاتصـال

---

(١٠) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

بالسلطة التقليدية والعمل على تحويلها الى سلطة شرعية ، فتعاملت الدولة مع المشايخ وفوضت لهم بعض المسئوليات وساعدتهم على آداء مهامهم وفقا لسلطاتهم التقليدية وأيدتهم فى توليهم لمراكزهم القيادية ، وفى نفس الوقت طلبت منهم تأييد النظام .

ولكن خاق هذا الوضع صعوبات فيما يتعلق بالجمع بين النظامين التقليدى والحديث فى السلطة السياسية . فقد أدى الى الارتباك والخلط فى التعرف على الموقع الحقيقى للسلطة . فمعظم الكراكيين كانوا لا يعرفون ولاءا خارج الأسرة الممتدة ، والكركى يصعب عليه أن يدرك أين تنتهى سلطة المشايخ وأين تبدأ سلطة الدولة . كذلك فان من دخلوا المدارس وأصبحوا أكثر وعيا بالدولة بدأوا يشعرون أن سلطة المشايخ فى يد غير المشايخ .

ومن الناحية الواقعية ادت الفترة المعاصرة الى تغير بعض جوانب القيادة التقليدية بينما ظلت جوانبها الأخرى دون تغير . ويتضح ذلك من مناقشة ما يأتى :

(أ) المكانـــة :

لقد تغيرت معايير مكانة الشخص وأصبحت أكثر غموضا وأكثر قابلية للتغير أيضا فلم تعد المكانة مرتبطة ارتباطا شديدا بانتماء الشخص القرابى . وعلى الرغم من عدم حدوث تغيرات أساسية فى المكانة الموروثة ولكن قلت أهميتها مع ازدياد أهمية المكانة المكتسبة . وقد أدى ظهور أنماط جديدة من المعيشة بالاضافة الى الاتجاهات الشعبية الجديدة الى تغير فى تصنيف المهن . ويمكن ترتيب مكانة من يعملون فى المهن المختلفة ابتداء من أعلى مكانة الى اقل مكانة على النحو التالى : الطبقة المهنية ، وملاك الأراضى (الملكية المتوسطة) ، ضباط الجيش ، المدرسين ، موظفى الحكومة ، التجـار وصغار ملاك الأراضى (الحيازة الصغيرة) ، والتجار الحرفيون ، الجنود ، المزارعين الفقراء ، العمال بالأجر اليومى فى المناطق الحضرية .

وقد أصبح وصول الانسان الى مكانة معينة يتم فى ضوء علاقته مع الآخرين .. وهذا يعنى أنه يمكنه أن يكون أكثر تحكما فى مصيره اذا تحلل من المعايير التقليدية الخالصة اذ ستكون لديه فرصة التخلص من حدود مكانته التى ورثها واكتساب مكانة أعلى . ولكن يلاحظ أن المرونة الزائدة فى هذا الجانب قد أدت الى الغموض فيما يتعلق بادراك المكانة . وما حدث هو أنه أصبح من الصعب المقارنة بين اكتساب المكانة عن طريق الطرق التقليدية واكتسابها عن طريق الطرق الحديثة . وعلى سبيل المثال فان الطبقة المتوسطة المتعلمة لم تعد تعتبر المكانة الموروثة شيئا هاما مثلما تعتبرها الطبقات الأدنى . ومع حدوث التنمية أصبح هناك تأكيدا على معيار الانجاز وهذا أدى الى مزيد من مرونة المكانة ، كما أدت الى التفاوت بين النظرة التقليدية والنظرة الحديثة .

(ب) القيـــادة :

اما بالنسبة للقيادة ، فقد ظلت متطلبات الوصول الى مركز قيادى فى الحياة القبلية فى الفترة المعاصرة على ما كانت عليه قبل ذلك ولكن مع بعض التغيرات اذ أصبح للتعليم والقدرة على التعامل مع الحكومة المركزية وزنا فى الوصول الى هذه المراكز . وغدت عملية تقوية مركز الشخص تعتمد على قدرته على حل النزاعات وعلى أن يكون عنصرا فعالا له دوره فى عمليات الزواج التى تحدث وفى ترتيباتها . وفى ظل هذا المناخ لم يعد للجرأة والقوة الفيزيقية أية اهمية .

وعلى الرغم من أن الحكومة المركزية قد تدخلت فى النسق السياسى المحلى قبل الحرب العالمية الأولى ، فان التأثير كان ضئيلا ، ولكن بسبب امتداد نشاطها فى الثلاثين سنة الأخيرة فان كل القادة لابد أن يتعاونوا ويتصلوا بالحكومة دائما لكى يستطيعوا الحصول على منافع للاقليم . وبالتالى فان الموقف المعارض أو عدم الامتثال سيؤدى الى تقويض مركز الشخص القيادى طالما سينظر اليه على أنه متسبب فى انقطاع المنافع التى تقدمها الحكومة للاقليم . وفى ظل هذا المناخ ظهر نوعين من القادة التقليديين

فى المستوى الأدنى : النوع الأول له اتصالات بالمسئولين فى الحكومة المركزية ومن هؤلاء من أخذ مركز « المختار » ، ومن الطبيعى أن الناس عندما يحتاجون الى شىء من الحكومة عليهم أن يتصلوا بها عن طريقه . أما النوع الثانى فقد ظل محافظا على الطريقة التقليدية ولم تكن له هذه الاتصالات . وبصفة عامة استخدمت الجماعة هؤلاء القادة للحصول على مطالبهم من الحكومة .

وقد وجد فى الكرك أيضا البعض من ذوى الكفاءات ، وهم يلعبون أدوارا قيادية ، فكبار السن الذين بلغوا الستين من عمرهم وكانت لهم مكانتهم قبل حدوث التغيرات مازالوا يشغلوا هذه المكانة الآن . وقد اثبت معظمهم قدرته على التكيف للتغيرات التى حدثت فى الفترة الأخيرة ، وقدرته على التعامل مع الحكومة ، وفى نفس الوقت الحفاظ على العلاقة مع القادة التقليديين والطبقات الأدنى . وهناك قادة آخرون من فترة الأربعينات أو الخمسينات تلقوا تعليما ثانويا ، بالاضافة الى ملكية بعضهم للأراضى الزراعية أو وجود البعض الآخر فى مراكز حكومية متوسطة . هؤلاء كانت لهم فرصة أكبر فى المشاركة السياسية وكان لهم من النفوذ ما أتاح لهمفرصة التحكم فى القادة التقليديين من المستوى الأدنى وفى الطبقة الدنيا .

وهناك النوع الآخر من القادة غير الرسميين ويمثلة بعض هؤلاء الذين فى فئة سن بين الثلاثين والأربعين ونالوا حظا وافرا من التعليم . وتحاول هذه الفئة عن طريق التعاون مع الجماعة التى تستحوذ على السلطة ، وعن طريق تأييد السلطة التقليدية استغلال كفاءاتهم لاحداث تغيير تدريجى فى الكرك . ومعظم هؤلاء عادة ما يكونوا قد انحدروا من أسر هامة كأسر المشايخ الكبار ولكنهم يمثلون الجيل الثانى أو الثالث . أما بالنسبة لعلاقاتهم فهم ينظمون اتصالتهم بين الطبقة المتوسطة بين الطبقة المتوسطة المتعلمة وبين الطبقات الأخرى . ويشتركون فى حل النزاعات ويضيفون الناس ويتبعون نفس معايير القيادة التقليدية . ولهذا فان مركزهم معزز لدى

الحكومة ولدى الجماعات التقليدية . ويطلب الموظفين مساعدتهم فى حالات التعامل مع الشعب فى أمور تخص الحكومة . وهم يحاولون التغلب على الصراع الذى يحدث بين الولاء للاقليم المحلى والولاء للمجتمع السياسى الكبير ، ويعتمد نجاحهم على التوفيق بين كل الجماعات بالقدر الذى يرضى الجميع .

ويلاحظ أن الطبقة المتعلمة على الرغم من أنها تطمع فى تغيير الصورة التقليدية للقيادة الا أنها لم تستطع تكوين قيادة خاصة بها . وينقسم قادة هذه الفئة الى عدة فئات تضم المتعلمين الذين يعملون بصفة أساسية داخل اطار القيادة التقليدية ولا تربطهم بالطبقة المتوسطة المتعلمة سوى علاقات متقطعة مشتته ، ويحاولوا أن يسهموا بأدنى جهد فى الاصلاح والتقدم الاجتماعى . وهناك عدد قليل من الأشخاص الذين استطاعوا التعاون مع القوى الموجودة بالفعل لصالح كثير من الفئات مثل الطبقة المتوسطة المتعلمة ومعظم هؤلاء لهم مهن معينة وشغلوا مراكز فى المجالس واللجان الحكومية فى الكرك ويحاولون من خلالها العمل على تحسين الأحوال المادية وتغيير الاقليم . ويتميز قادة هذه الفئة بالاستقلال وعدم حصولهم على سلطة بالمقارنة بالقادة التقليديين (١١) .

٢ ـ الحكومة المحلية وعلاقتها بالحكومة المركزية :

للكرك حكومة محلية تتمركز فى مدينة الكرك ، فقد تكون أول مجلس محلى سنة ١٨٩٥ وكانت المهام الرسمية والقانونية للمجلس هى أن يوفر المنافع والخدمات الأساسية والطرق الجديدة ، وتخطيط المدن وغيرها . وكان المجلس يقوم بجمع الضرائب على المنازل والمحلات وجمع مقابل استهلاك المياه وكانت الحكومة المركزية تمد الاقليم بانتظام بمعونات مادية.

---

(١١) المرجع السابق ، ص ص ١٤٩ ــ ١٥٨ .

للمشروعات المحلية ، وكانت تسدد بعد ذلك كديون على اقســاط طويلة المدى . وقد كانت سلطة المجلس محدودة فهو يعمل فى حدود القــانون وفى حدود المشروعات الرئيسية ومعدلات الضرائب والقرارات والأعمال ، بخلاف ادارة الممتلكات وتأمين الأجهــزة والخدمات ، الأمــر الذى كان يجب أن يوافق عليه أولا من الحكومة المركزية .

وتعكس عملية اختيار أعضاء المجلس فى فترة الحكم العثمانى عاملين رئيسيين هما السكان الذين يكونون المدينة ، ثم مركز كل قبيلة فى الاقليم . ولهذا فعلى الرغم من أن قبيلة المجالى لم تكن تضم أبدا اكثر من ست أو سبع أسر ممتدة فان الاقامة المستمرة فى المدينة سمحت لها برئاسة المجلس ، ومن جهة اخرى فان الهباشنة وهى قبيلة ضعيفة نسبيا يمثلها عدد أكبر مما يمثل أى قبيلة أخرى فى مدينة الكرك ، ويمثلها عضو دائم فى المجلس . أما المسيحيين الذين يعتبرون أقوياء ويشكلون نسبة جديرة بالاعتبار من السكان فلهم مقعدين أو ثلاثة من تسعة مقاعد فى البرلمان . أما من جهة الأحلاف الرئيسية فان الحلف الغربى له من ٢ ــ ٣ مقاعد ، وقد يصل عدد مقاعده الى ست أو سبع مقاعد . أما الهيبرونيين والدمشقيين فعادة ما يكون لهم مقعد واحد وأحيانا اثنين الأمر الذى يعكس أعدادهم وأهميتهم الاقتصادية . أما القبائل شبه البدوية والتى لا يوجد الا عدد قليل منهــا فى المدينة ، وهى تعتبر قبائل قد فقدت قوتها فى الاقليم فهى لا تحصل على مقاعد فى المجلس (١٢) .

وفى الفترة الأخيرة أثرت التغيرات التى حدثت فى الكرك بصفة عامة فى مسالة عضوية وأنشطة مجلس المدينة . فقد عانى المجلس من عــدة مشكلات أهمها تزايد السكان من ثلاثة آلاف سنة ١٩٦٠ الى تسعة آلاف سـنة ١٩٦٨ ، والتفاوت أو التباين بين الكفاءات المطلوبة لكى يكــون

---

(١٢) المرجع السابق ، ص ٧١ .

الشخص عضوا فى المجلس وبين انجاز المهام المتغيرة فيه . وفى نفس الوقت أدت سيطرة الطرق التقليدية ومعايير اختيار الأفراد فى هذه الفترة الى وجود صعوبات فيما يتعلق بالوفاء بالمتطلبات المتغيرة للمدينة النامية سكانيا نموا سريعا وظهرت مشكلة أخرى ، فمن المعروف أن هناك فرقا بين الصفات التى يجب أن يتحلى بها العضو كى يتبؤ منصبا سياسيا وبين الكفاءات والمهارات التى يجب أن تتوفر فيه لكى يقوم بواجباته التى يتطلبها المنصب ، هذه المشكلة أصبحت مشكلة حادة فى مدينة الكرك اذ ظهر أن أعضاء المجلس الذين تم اختيارهم على أساس أنهم قادة قبليين يفكرون ويتصرفون ببطىء وفقا لطابع السياسة القبلية والمكانة التقليدية ، فقد كان هناك فرق واضح بين طبيعة العلاقات القبلية التقليدية وبين ما يتطلبه التعاون والبناء الحضرى والتنمية الحضرية الحديثة . وعلى سبيل المثال كانت هناك خلافات داخلية مستمرة عند بحث وتقرير ما يتعلق بالمتطلبات الحديثة لزيادة السكان وبالتالى فعلى الرغم من أن دورة المجلس القانونية تنتهى فى مدى أربعة سنوات فمدة المجلس لم تزد منذ سنة ١٩٥٠ عن سنتين فقط (١٣) .

٣ — التيار الصاعد من القبيلة الى أعلى مراكز السلطة فى حكومة عمان :

لم يتوقف نشاط قبائل الكرك فيما يتعلق بالجانب السياسى والعسكرى على قيادة الاقليم ، ولم يقتصر أيضا على الاشتراك فى الحكومة المحلية بشكلها الحديث المتمثل فى المجلس ، بل امتد الى أبعد من ذلك فتضمن الاسهام فى أعمال السياسة فى المجتمع الأكبر ، وقد اضطلعت بهذا الدور قبيلة المجالى على وجه الخصوص .

وقد كانت قبيلة المجالى منذ فترة طويلة أقوى قبائل الكرك ، وكانت أكثر القبائل حفاظا على التقاليد وترتبط بعلاقات اجتماعية قوية مع المسيحيين

---

(١٣) المرجع السابق ، صص ١٦٢ ، ١٦٣ .

والمايانا وتسيطر على الغور وقرية العراق وترأس حلف البرارشة (١٤) . نتيجة لهـذا تمتعت المجـالى بمركز خاص وتمركزت فيها قيادة الاقليم . كله . بالاضافة الى قيادة الحلف الغربى الذى ساعد على تأكيد سيادتها وتفوقها فى الكرك . وكانت كل شئون القبائل التى تعيش فوق الهضـبة هى مسئولية قبيلة المجالى ، وعندما كان يحدث تدخل من أية قوى خارجية فى الاقليم فان كل قبائل الكرك كانت تمتثل لقيادة المجالى (١٥) . وقد نال كثير من أبناء المجالى حظا وافرا من التعليم واستكمل البعض دراسـته الجامعية .

وقد حظى أبناء القبيلة بقبول فى الدوائر السياسية فى الحكومة المركزية واستطاع أكثر من فرد منهم أن يتبوأ مناصب سياسية سواء كممثلين للكرك وكأشخاص يسهمون فى النشاط السياسى للمجتمع الأردنى ككل . بل أن منهم من وصل الى منصب الوزير ومنهم من ارتفع أيضا الى منصب رئاسة الوزارة . وعلى سبيل المثال فعندما اتجهت النية بعد اعتراف بريطانيا باستقلال شرق الأردن الى استكمال العناصر الدستورية فى الجهاز الحكومى وتألفت لجنة أهلية سنة ١٩٢٣ لوضع قانون المجلس النيابى مثل اقليم الكرك فى هذه اللجنة زعل المجالى وعبد الله العكشة (١٦) . كما عين السيد صالح المجالى وزيرا للمواصلات فى وزارة السيد سعيد المفتى التى شكلت سنة ١٩٥٦ (١٧) . ومن أبرز الشخصيات التى ظهرت على المسرح السياسى فى الأردن السيد هزاع المجالى ، فقد عمل مع جلالة الملك حسـين وكان رئيسا للوزراء أكثر من مرة (١٨) وعلى سبيل المثال عهد اليه جلالة الملك

---

(١٤) المرجع السابق ، ص ١٥٦ .
(١٥) المرجع السابق ، ص ٥٧ .
(١٦) تاريخ الأردن ، ص ٢٠٩ .
(١٧) تاريخ الأردن ، ص ٦٣٤ .
(١٨) بيترجسبر ، المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

بتأليف وزارة جديدة صدرت مراسيم تشكيلها فى ١٥ كانون الأول سنة ١٩٥٥ ، وعين السيد هزاع المجالى — بالاضافة الى رئاسة الوزارة وزيرا للخارجية والاقتصاد . كما كلف أيضا بتأليف الوزارة مرة أخرى فى ٦ آيار سنة ١٩٥٩ (١٩) واستمر يعمل الى أن أغتيل سنة ١٩٦٠ . وقد كتب السيد هزاع المجالى ما يشير الى انتمائه الى القبائل وبما يؤكد الدور السياسى الذى قامت به القبيلة . فقد كتب يقول :

(... فأنا وكما يعلم الكثيرون انحدر من قبيلة اشتهرت فى الماضى والحاضر بشجاعتها وقدرتها على الدفاع عن قبائل الكرك والقبائل الأخرى المجاورة واعتمادها على الغزو أيضا سببا من أسباب معيشتها . وقد كانت الزعامة فيها تنتقل وحتى يومنا هذا بالبيعة حيث يشترك جميع مشايخ الكرك عند وفاة الزعيم الراحل بتقليد الزعيم الجديد هذه الزعامة ، وغالبا ما يكون هذا الأرشد من أبناء الزعيم السابق وأخوته .

وقد ظهر فى العائلة من الزعماء من قاموا بأعمال سياسية كان لها أثرها الذى لا ينكر فى السياسة المحلية والعربية ، منهم توفيق المجالى عضو مجلس «المبعوثان» العثمانى وأحد رواد الحركة العربية . والشيخ قدر المجالى الذى قاد ثورة مسلحة ضد الأتراك فى سنة ١٩١٠ معارضا اياهم فى تجنيد العرب بالقوة . ورفيفان المجالى ، وقد كان بحق أحدى الدعامات القوية التى استند اليها المغفور له الملك عبد الله فى تأسيس المملكة الأردنية الهاشمية وها هو أحد أنجاله الفريق حابس المجالى يقوم بتأدية دور خطير فى خدمة الأردن لا ينكر اثره الطيب) (٢٠) .

---

(١٩) تاريخ الأردن ، ص ص ٦١٧ ، ٦٩٨ .
(٢٠) هزاع المجالى ، المرجع السابق ، ص ٤١ .

وقد حافظ كل من تولوا مراكز فى حكومة عمان على علاقاتهم بقبائلهم فى الكرك ، بل عملوا على مساعدة أبناء القبيلة بطرق مختلفة سواء فى عمان أو فى الكرك ، فهم يساعدون الأفراد الذين يحتاجون الى مساعدتهم فى عمان ، ويحصلون على المساعدات المالية والمعونات لمن هم فى الكرك .

خاتمة وتعليقات :

اتضح لنا من دراسة مجتمع الكرك كيف أمكن للقبائل أن تكون صاحبة النفوذ فى الاقليم وكيف استطاعت أن تقوده سياسيا . كما اتضح لنا كيف بدأت الحكومة المركزية تمارس مسئولياتها فى الاقليم من خلال حرصها على رعاية وضمان تأييد كل قطاعات الدولة . وقد كان ذلك يتطلب تكيف أبناء القبائل لنظم الادارة المحلية الحديثة التى تختلف اختلافا كبيرا عن النظم التقليدية فى قيادة وادارة الاقليم . كذلك رأينا كيف استطاع أبناء القبائل أن يصلوا الى بعض المراكز فى الحكومة المركزية ، واثبتوا قدرتهم على التعامل معها بنجاح ، فقد حققوا قبولا كبيرا لدى المسئولين السياسيين .

ولكننا يجب أن نضع فى اعتبارنا أن كل ذلك لم يتم بطريقة سهلة مبسطة فعمليات التكيف لنظم جديدة وقبول نظم غير تقليدية فى الاقليم لم تتم بسهولة . فلقد كان وما زال لهذه العملية مشكلاتها الخاصة ، كما أن عملية التكيف والتحول من الشكل التقليدى الى الشكل الحديث قد تم فى وسط صعوبات وتذبذبات . ولكى نزيد من فهمنا لديناميات التغير الذى حدث فى الكرك ، ولكى نتعرف على طبيعة التحول والتكامل مع المجتمع السياسى الأكبر ينبغى أن نعود مرة أخرى الى مناقشة بعض النقاط المتعلقة بتعايش القيادة القبيلة مع قيادة الحكومة المركزية ، ثم التغيرات التى حدثت فى البناء والنفوذ القبلى ، وبالتالى ما ترتب على ذلك بالنسبة للجماعة التى عملت فى ادارات حكومة عمان .

فما زالت تتجلى فى هذا الاقليم ظاهرة تعايش القيادة التقليدية القبلية جنبا الى جنب مع النظم السياسية والادارية ، المركزى منها والمحلى . فعلى الرغم من أن تأسيس الدولة الحديثة قد خلق نوعا جديدا

من العلاقات بين الدولة والاقليم ، وعلى الرغم من أن عمان تمثل اليوم المصدر الرئيسى للسلطة والقوة — اذ لم يعد البت فى المسائل السياسية فى يد الكراكيين وحدهم كما كان فى الماضى فان الحكومة المركزية تعمل من خلال قادة القبيلة ، فهم يحلون الخلافات بين القبائل أو بين القطاعات القبلية المختلفة . وعلى الرغم من أن البناء القبلى قد فقدت بعض من قوته ووظائفه فهو مازال يقدم نظما قيمه للاتصال بين الطبقات . وما زال الرابط القبلى يعمل على حفظ العلاقات بين القادة التقليديين وبين أبناء الكرك فى عمان على الرغم من أنهم أصبحوا بعيدا عن الاقليم (٢١) .

ويحكى تاريخ النظام الرسمى (الحكومة المركزية) فى الدولة باقليم الكرك قصة المزاوجة التى امتدت فترات زمنية طويلة بين الادارة المركزية والادارة المحلية القبلية ، كما يحكى اعتماد النظام الرسمى على النظام التقليدى فى ادارة شئون الاقليم ، وفى تحقيق وضمان الاتصال بين الحكومة المركزية والقطاعات المحلية . فمنذ عهد العثمانيين والدولة تحاول تدريجيا تدعيم نظام الأمن وضمان فعالية جمع الضرائب والاسهام فى رفع مستوى اقتصاد الاقليم وقد بدأ ذلك واضحا وفعالا فى الفترة المعاصرة . ومنذ زمن بعيد كان يشرف على الاقليم حاكم ليس من أبناء الاقليم . وعلى الرغم من أن القرارات الادارية الخالصة مثل الحصول على أدوية للوحدة الصحية المحلية كانت تتخذها مباشرة الجهات المختصة فان أى قرار بسيط له المسحة السياسية مثل تعيين موظف جديد كان لابد أن يمر بمكتب الحاكم . وعلى الرغم من أن البوليس كان له رئيس خاص به الا أنه كان يعتبر للحكومة المركزية لتنفيذ سياسة الدولة ولارساء الأمن والنظام فى الاقليم . ولكن ذلك لم يغنى عن الاعتماد على القيادة القبلية . ففى الفترة المعاصرة وجد نظامين فى الكرك تسهم من خلالهما القيادة القبلية فى حكم الاقليم والتعامل مع الحكومة المركزية . هذين النظامين هما نظام المجلس المحلى الذى سبق

---

(٢١) بيتر جسبر ، المرجع السابق ، ص ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

الاشارة اليه ، ونظام مكتب المختار . والمختار هو الممثل المحلى للحكومة فى نفس الوقت هو ممثل القبيلة . وحتى فترة ما بعد الحرب العالميـــة الثانية كان المختار يمثل قبيلة كبيرة أو قبيلتين أو ثلاثة من القبائل الصغيرة ، وكان فى الماضى يتقاضى مرتب أما الآن فلا يتقاضى أى مرتب ويمثل عدد اصغر من الناس ، فكل قبيلة لها من ٦ — ٨ مختارين . وغالبا ما يختار كل مختار من قطاع قبلى . أما القبائل الصغيرة فيكون لكل قبيلة ممثل واحد ويقوم المختار بالمساعدة فى تسجيل الاحصاءات الحيوية وجمع الضرائب واحضار الأشخاص الذين تطلبهم الحكومة لأى سبب من الأسباب . ولهم أيضا فى حمايةحقوق الأفراد فى حالة تفتيش بيوتهم ، ويلعب دورا فى حل الخلافات البسيطة وتحديد الميراث . ولم يتوقف الأمر أيضا على نظــام المجلس المحلى ونظام المختار بل أن الحكومة المركزية تدفع مرتبات لرؤساء المشايخ اعترافا بأهمية عملهم وضمانا لتعاونهم معها الأمر الذى يختلف عن الوضع أيام كان العثمانيون هم المسيطرون اذ لم تعمل الحكومة فى ذلك الوقت من خلال المشايخ والقادة المحليين ولكنها أعطتهم الكثير من سلطتها .

وهناك تغيرات حدثت فى البناء القبلى فى الكرك ، وفى مراكز السلطة والنفوذ فى الاقليم ، وقد كان ذلك راجعا الى ادخال نظم جديدة الى الاقليم ، كما كان راجعا الى عوامل أخرى تتعلق بالقبيلة والعلاقات القبلية . فقد كتب بيتر جسبر يقول : ان السياسة فى مدينة واقليم الكرك لم يعد لها طابعها الوحدوى ، فعلى الرغم من أن النسق التقليدى ما زال مسيطرا عليها فان التغيرات التى حدثت فى الفتــرة المعاصرة فى التعليم والتـــدرج الاجتماعى والمفهوم السائد عن الحياة والعلاقات بين الحكام والمحكومين كلها اثرت على الأوضاع التقليدية فى الاقليم . فقد كان زيادة تباين الطبقات الاجتماعية والاقتصادية فى الكرك هو اهم حـــدث فى حياة اقليم الكرك خلال الفتـــرة المعاصرة . فالطبقة المتوسطة المتعلمة قد أصبحت متميزة عن بقية السكان فيما يتعلق بالتعليم والمهنة والنظرة الى الحياة . وقد ارتبطت الفروق بين المتعلمين وغير المتعلمين بفروق تتعلق بالفرص الاقتصادية . وأصبحت هناك تباينا حتى بين الذين وصـــلوا الى مســـتويات تعليمية مختلفة وهذا

أضعف من العلاقات القبلية (٢٢) . وقد تردد صدى هذا فى عمليـة التكيف للنظم الجديدة . وعلـى سبيل المثال نشأت صراعات سياسية فى القـرى الكبرى على رئاسة المجالس المحلية . وقد حاولت بعض القبائل التى كانت تخضع لقبائل أخرى أن تفوز برئاسة المجلس . ووصلت الصراعات فى بعض الأحيان الى حد العراك وتبادل القاء الحجارة بين الطرفين فى الشوارع الأمر الذى أدى الى تدخل حكومة الكرك .

بالاضافة الى ذلك أصاب الضعف القبائل ذاتها فيما يتعلق بتماسكها وقوتها وبدأت الأحلاف تنقسـم وبدأ اعضـاؤها يعودون مرة اخرى الـى فروعهم القبلية دون النظر الى الارتباط القوى فى حلف معين . ولعل السيد هزاع المجالى كان أكثر تعبيرا عن هذه التغيرات التى حدثت للقبائل واثرت على نفوذها وقوتها حينما كتب يقـول : « وقد اشتهرت العائلة (عائلـة المجالى) الى جانب ذلك بالكرم والنخـوة والتواضع ، واذا كانت هـذه الصفات فى الماضى وفى محيط بدائى هى كل مقومات الزعامة الحقيقية ، فقد اخذ شأنها يتضاءل بعد قيام الادارة الحكومية والقضاء على عادة الغزو ووضع حد لاحتراب القبائل . وساعد قيام الحكومات وانتشار التعليم واتساع التجارة على نشؤ زعامات جديدة فى الكرك ، نافست زعامة عائلتنا فى الزمن الأخير . يضاف الى ذلك اننا بوفاة المرحوم رفيفان المجالى فقدنا القيادة الحقيقية للعائلة فى الكرك نفسها . وقد ساعد تخلينا عن الكثير من الصفات والمعانى التى اشتهرنا بها فى الكرك على اثارة روح من النقمة علينا وعلى تكتل القبائل ضدنا ، ولا سيما فى الانتخابات . وقد كاد يتم لها الغلبة لولا ظهور شبان جدد منا استطاعوا الحفاظ على تقاليد العائلة والابقاء على مكانتها واحترامها حتى يومنا هذا (٢٣) .

---

(٢٢) المرجع السابق ، ص ١٧٤ ، ١٧٦ .
(٢٣) هزاع المجالى ، المرجع السابق ، ص ٤١ .

وأخيرا فان التيار الصـــاعد الى اعتلاء فى الادارات الحكومية فى عمان قد تميز بسمات خاصة فهناك من هو متأثر بالوضع التقليدى ، وهناك من يهدف الى التغيير . وطبيعى أن الفريق الثانى يريد تغييرا سريعا ولكنه لا يستطيع الوصول الى ما يريد بسبب قدرة التقليديين على الاتصال بالناس من خلال البناء القبلى . وعلى الرغم من أن الصفوة الجديدة أمامها الباب مفتوحا للاتصال بالناس مثلها مثل الجماعة التقليدية الا أن ما تقترحه وتقدمه أحيانا لا يلقى القبول ولا يرضى الناس بسبب الطابع التقليدى الموروث .

الباب الرابع

التغير الاجتماعى والثقافى

الفصل السابع : عوامل التغير .

الفصل الثامن : تغير البدو فى المدن الساحلية « مدينة مرسى مطروح » .
« دراسة ميدانية » .

الفصل التاسع : التغير فى الواحات « واحة سيوة » .
« دراسة ميدانية » .



الفصل السابع

عـــوامل التغير

التغيرات التى تحدث فى البيئة الطبيعية :

لا جدال فى أن البيئة بخصائصها المختلفة تؤثر على النشاط الانسانى . ولا يعنى ذلك النشاط الاقتصادى فقط بل تؤثر على مختلف جوانب الحياة الانسانية خاصة فى البيئات الصحراوية ويتبع ذلك أن تغير خصائص البيئة الطبيعية يمكن أن يؤدى الى تغير فى جوانب الحياة الاجتماعية ، فى نمط الأسرة ، ونمط التجوال أو الاستقرار ، وفى طبيعة الأدوار الاجتماعية وشكل العلاقات السائدة . ويلاحظ أن التغيرات التى تحدث فى البيئة بعضها يحدث بطريقة طبيعية دون تدخل للانسان ، وهذا عادة ما يتم خلال فترات زمنية طويلة ، أما التغيرات الأخرى فهى تلك التى تحدث بفعل البشر سواء بطريقة عمدية مثل تلك الجهود العديدة لحفر القنوات واقتلاع الغابات واستصلاح الأراضى .. أو ســـواء حدثت بطريقة غير مقصـــودة مثل تلـــك التغيرات التى يحدثها الانسان فى البيئة أثناء قيامه بأنشطته أو مشروعاته .

واذا كان المجال لا يتسع هنا لتقديم نماذج من هذه التغيرات العديدة التى تؤثر على حياة ونشاط الجماعة البشرية فاننا سنقتصر على اختيار أحد أنواع التغير فى البيئة الصحراوية وهو ظاهرة التصحر أو الـــزحف الصحراوى desertification لكى نوضح تأثيرها على ظواهر اجتماعية . والمادة المتوفرة لدينا عن هذا الموضوع تتعلق بعملية التصحر وآثارها فى الســـودان .

فلقد تأثرت منطقة متسعة فى السودان تصل الى خمسمائة كيلو متر مربع (وهى مساحة تبلغ ضعف مساحة انجلترا كدولة) بعملية التصحر . ويعيش أكثر من نصف سكان السودان فى هذه المنطقة التى كانت دائما أكثر المناطق نشاطا من الناحية الاقتصادية ، وهى تضم فى نفس الوقت أكبر مدن هذا البلد . وقد أدركت السودان أبعاد هذه المشكلة منذ أكثر من ثلاثين عاما ، واتخذت الكثير من الاجراءات لحلها .

والزحف الصحراوى أو التصحر يعنى زحف الصحراء وامتدادها على الغطاء الأخضر بحيث تتحول المناطق التى يمكن أن تتضمن موارد طبيعية الى أرض قاحلة . ويرتبط ذلك بالطبع بمشكلات تتعلق بتوفير المياه للانسان والحيوان على السواء .

ونود أن نشير الى أن مصطلح التصحر يتضمن معنى مغايرا الى حد ما لمصطلح الامتداد التدريجى للصحراء deser encroachment . وعلى الرغم من أن هذا المصطلح الأخير يستخدم باضطراد فان هناك اشارة الى أنه يجب أن يستبدل بمصطلح التصحر ، ذلك المصطلح الذى أصبح يستخدم عالميا على نطاق واسع الآن . فالمصطلح الأول غير واف بالغرض ، بل يمكن أن يكون مصطلحا مضللا اذا استخدمناه للتعبير عن الظاهرة ، لأنه يتضمن ما يشير الى أن الطبيعة (الصحراء) هى العامل المسبب لمشكلة التصحر . ونحن اذا نظرنا الى السودان مثلا فسوف نجد أن زحف واتساع رقعة المنطقة الصحراوية من خلال التصحر ليست عملية الامتداد التدريجى للصحراء ، ولكنها نتيجة امتداد أنشطة الانسان المتلفة فى اتجاه الجنوب الى حدود الصحراء .. فالتصحر هو عملية افقار الأرض لخصائصها الايكولوجية عن طريق الاستخدامات المتعددة والمتنوعة للأرض فى المناطق الصحراوية الهامشية التى تقود حتما الى امتداد الصحراء بفعل الانسان نفسه (١)

(١) Dr. Fouad N. Ibrahim., The Problem of Desertification in the Republic of the Sudan, With Special Reference to Northern Darfur Province. Development studies and Research Centre, Monograph Series No. 8. 1978. pp. 1, 3, 5, 6.

وقد أشار الدكتور عبد الباقى بابكر مثلا الى تاثير التحضر على حدوث التصحر فذكر أن المناطق الحضرية قد لعبت دورا هاما فى عملية التصحر ، كما أنها تأثرت بحدوث التصحر أيضا ، وذلك أن زيادة الكثافة فى المناطق الحضرية قد خلقت ضغطا كبيرا على الأخشاب وغيرها من الموارد الموجودة فى المناطق المحيطة . فنتيجة لقطع وجمع الأخشاب لاستخدامها فى البناء بالاضافة الى استخدامها كمصدر للطاقة زادت نسبة الأراضى الجرداء حول المناطق الحضرية (٢) .

وترتبط مشكلة التصحر فى السودان عادة بظواهر مصاحبة اخرى مثل الجفاف وتراكم الرمال . وتعد نتائج مشكلة التصحر اعقد من مجرد العطش وتراكم الرمال فى المناطق الآهلة بالسكان . فالتصحر هو عملية تعرية التربة من الغطاء الأخضر وخلو المنطقة من السهول الخضراء والسافانا وتحويلها الى أرض قاحلة فى مدى قصير يبلغ عدد قليل من الحقبات . ويؤدى التصحر الى التاثير الهدام على النظام الايكولوجى ولظواهره الطبيعية القابلة للتاثر بالتصحر ، ذلك النظام الذى يعتبر أساسا ضروريا للحياة بالنسبة للجماعات التى تعيش فى المناطق شبه المجدبة وهذا يحدث بصفة أساسية بسبب ازدياد السكان (٣) .

وتوضح لنا ظاهرة التصحر أو الزحف الصحراوى بجلاء تبادل التأثير بين الحياة الاجتماعية والأنشطة الاقتصادية للانسان وبين البيئة الايكولوجية التى يعيش فيها . فالنشاط الانسانى يمكن أن يؤدى الى تغيرات فى البيئة ، وتؤدى تغيرات البيئة بدورها الى تغيرات عديدة فى نمط حيـــاة الجماعات البشرية التى تسكن هذه المناطق . ولعل الدراسة التى قام بها الدكتور فؤاد ابراهيم للتعرف على التغيرات التى حدثت فى دور المرأة فى السودان

---

(٢) Babiker, Abdelbagi, Urbanization and Desertification in the Sudan with Special Reference to Khartoum. Geojournal., 6.1, 69-76, 1982., pp. 71-72.

(٣) Dr. Fouad N. Ibrahim., Op. Cit., p. 6.

نتيجة عملية التصحر تؤكد هذا التأثير المتبادل . فقد أكدت نتائج هذه الدراسة أن المرأة الفلاحة فى السودان تعانى أكثر مما يعانى الرجل من تناقص انتاجية الأرض . والعجيب فى ذلك أن المـــرأة كان لها دورها فى حدوث التصحر من خلال محاولتها اليائسة لتوفير القوت للأسرة لكى تبقى على وجـــه الحياة .

وقد أجريت الدراسة فى غرب السودان فى المناطق التى هى على وشك التصحر أو تلك التى أصبحت صحراء جرداء بالفعل . وكان سبب التركيز على دور المرأة بالذات هو أن المرأة فى هذه المناطق تقوم بدور فعال فى دعم الأسرة اقتصاديا خاصة فى المراحل التى تعقب الكوارث مثل المجاعات وفقدان القطيع . ففى هذه الأحيان تقع مسئولية تزويد الأسرة بالأطعمة والمؤن اللازمة للحياة على عاتق المرأة .

ويمكننا التعرف على دور المرأة فى هذه المناطق ، وتغير هذا الدور أثناء عملية التصحر من خلال الموضوعات الآتية :

(أ) انتاج الذرة العويجة كعمل رئيسى للمرأة .

(ب) تفاوت كمية الأمطار وتأثيرها على المرأة العاملة فى الزراعة .

(جـ) استقرار البدو وأشباه البدو وأثره على اضافة مزيد من الأعباء على دور المرأة .

فتعتبر زراعة الذرة العويجة هى عمل خاص بالنساء فى غرب السودان (كردفان ودارفور) ، فالمرأة تحمل طفلها على ظهرها وتفلح الأرض ، ذلك أن نسبة ٩٠٪ ممن يعملون فى الزراعة من النساء ويرجع ذلك الى أن الرجال ينظرون نظرة دنيا الى هذا العمل ويشعرون أنه من اختصاص النساء . وقد حدث تغير بسيط فى الأيام الأخيرة اذ عمل بعض الرجال الفقراء فى زراعته . ولكن اقتصر عملهم على القيام بعملية التذرية والتنقية دون عملية الدرس التى تعتبر عملا أصعب . كذلك شارك الرجال فى العملية الزراعية بحفر الحفر . فقد بدأ الرجال يحفرون الحفر لتضع فيها النساء الحبوب . ويلاحظ أن هذه الحفر سطحية لهذا فان عملية الحفر ليست مجهدة . ونظرا

لانهم يستخدمون فى الحفر أداة ذات يد طويلة فان العملية لا تتطلب منهم أى انحناءة الأمر الذى لابد أن تفعله المرأة وهى تضع البذور فى الأرض ثم تقوم بالردم عليها . وعادة ما يختار الرجال العمل الذى يرغبون فى آدائه فى العملية الزراعية ويتركوا للنساء ما لا يرغبون فيه . ويحدث نفس الشىء فى الزراعة فى مناطق أخرى حيث يختار الرجال عملية العناية بالمحصول وجمعه الأمر الذى لا يتطلب عملا شاقا مثل بقية مراحل الزراعة التى تترك المرأة . فالمرأة هناك تقوم بالأعمال الشاقة مثل حمل الحجارة والرمال والمياه .

● تعتبر عملية جلب المياه من الآبار كل يوم أشق الأعمال التى ينبغى على الفلاحين أن يقوموا بها . وهو عمل تقليدى يعد من اختصاص الفتيات والنساء . وقد أدت عملية الزحف الصحراوى الى أن يصبح هذا العمل أصعب وأشق نظرا لانخفاض مستوى سطح التربة ذات الغطاء الخضرى فى المناطق العليا التى توجد فيها مجارى المياه فقد غيرت هذه المسالك المائية الجوفية مساراتها ونظامها . وبصفة عامة فان اختفاء الكساء الخضرى قد ادى الى قلة التشبع بالمياه والى زيادة التبخر وزيادة تآكل وتفتت التربة وزيادة الترسيب . وأدت هذه العملية الأخيرة الى القضاء على المسالك المائية الدنيا أو تغيير مجراها . وقد كان لهذه التغيرات الهيدومورفولوجية أثرا كبيرا على المياه السطحية والجوفيه فى الأراضى الداخلة فى البحر فقلت كمية المياه الى تصل الى بعض الخزانات عما قبل ولهذا جفت بسرعة خلال فصل الجفاف مما أجبر النساء على أن تقطع رحلة اطول للحصول على المياه من آبار أبعد . وفى الأحوال التى كانت تعتمد فيها النساء على الآبار فى الأودية وعلى قمم الجبال انخفض مستوى المياه الجوفية وجفت الآبار ولم يتضمن ذلك فقط أن كمية المياه المتوفرة للأسرة قد أصبحت اقل من ذى قبل ، ولكن وضع ذلك ايضا المزيد من الأعباء على المرأة . وعلى سبيل المثال فان جلب دلو ملىء بالمياه من على عمق يصل الى خمسين مترا يعد عملا شاقا ويتضمن ايضا خطورة لأن الكثير من هذه الآبار يتميز بالحواف الضيقة حيث تقف المراة منحنية لجذب الدلو . وهذا يعرضها دائما للسقوط

فى البئر أثناء جذب الدلو بسبب الدوار والاغماء الذى أحيانا تشعر به وتسببه صعوبة آداء هذا العمل وارتفاع درجة الحرارة .

وقد أدت عملية التصحر أيضا فى الأودية التى نتجمع فيها الميـــاه وتستخدم كمصدر لميـــاه الشرب فى الفصول المطيرة الى زيادة أعباء المراة . فقد اعتادت النساء خلال فصل المطر أن تحفر حفرا سطحية لا يزيد عمقها عن ٥٠ سم باستخدام أدوات بدائية أو باستخدام الايدى اذا كانت التربة ليست صلبة تماما . ولكن الآن وبعد التغير الذى حدث فى النظام الهيدرولوجى (نظام ومسارات المياه الجوفية) فى الأودية فقد اصبح على المرأة أن تحفر الحفرة بعمق يصل الى ثلاثة أمتار لكى تجد المياه لان هذه الحفرة امتلأت بالرواسب . ومع كل فيضان لابد من حفر حفر جديدة . وبالمثل فان كثير من الآبار يجب تنظيفها من الرواسب وفروع الأشجار بعد موسم الفيضان . وما يجب أن نلاحظه هنا هو أن الرجل بدأ يعاون المرأة ويقوم بدور فعال فى هذا العمل ، وربما يرجع ذلك الى حاجـــة القطعان التى يرعونها الى الميـــاه .

ويؤدى تفاوت هطول الأمطار وكثافتها من مكان الى آخر الى التأثير على حياة المرأة وعلى دورها . ذلك أن تفاوت هطول الأمطار السنوية من مكان الى آخر خلال العام يؤدى الى صعوبة التنبؤ بموقف المحصول . ولهذا فهم يقومون بمسح منطقة كبيرة وحراستها وبذر البذور فيها ثم بعد عدة اسابيع يقررون اى اجزاء فى المنطقة الواسعة قد غمرتها مياه الأمطار بحيث تعطيهم محصولا . وفى هذه الحالة يبدأون بالاعتناء بهذه الاجـــزاء وتنقيتها من الحشائش حتى وقت المحصول .

وقد أدى أيضا التفاوت فى توزيع الأمطار على من يعملون بالزراعة الى الهجرة الاجبارية بالنسبة للجماعة التى تعانى من فترات جفاف . ويحدث ذلك بالذات بالنسبة لنســاء الزغاوى فى شمال غرب دارفور . فمنذ سنة ١٩٦٨٠ وخلال فترة الجفاف التى تتناقص فيها الأمطار بنسبة ٥٠٪ بالمقارنة

بالفترات التى كانت تتميز بمياه وفيرة (١٩٥٠ - ١٩٦٧) فانه أصبح على النساء المزارعات أن يتركن المكان الذى تعيش فيه قبائلهن ويهاجرن فى اتجاه الجنوب خلال فترة سقوط الأمطار لكى يعملن فى زراعة الذرة العويجة فى اقليم أكثر غنى بالمياه على بعد يتراوح بين ٢٠٠ - ٤٠٠ كم جنوب المكان الذى يعيشون فيه . وعادة ما تأخذ المرأة أطفالها معها فى هذه الرحلة ، وتكون النساء مع الأطفال جماعات تنتمى كل جماعة منها الى اقليم أو منطقة معينة . وهم يقومون بالزراعة بعد الاتفاق مع المالك الذى يمكن أن يمدهم بالبذور . وفى بعض الأحيان تعمل النساء فقط فى التذرية ، وفى أحيان أخرى يعملن فى التذرية وجمع المحصول ، بالاضافة الى قيامهن بأعمال أخرى مثل حماية المحصول وحراسته من حيوانات المراعى وطرد « تطفيش » الطيور والجراد عن طريق الطبل على آنية أو علب فارغة وذلك بعد قيامهن بجنى ودرس الحبوب .

وتحصل المرأة على نصيبها من المحصول الذى يتفاوت وفقا لظروف معينة . فيتروا ح نصيب المرأة بين ثلث وسدس المحصول ويسمى « العشور »، وهذا يعنى أنه فى الماضى كان نصيب المرأة هو ١/١٠ من المحصول فقط . وبصفة عامة فان ملاك الأرض ما زالوا يدفعون أجرا رخيصا للنساء مقابل عملهن وذلك على الرغم من أن الأرض مملوكة للدولة وأصحابها يستغلونها لصالحهم فقط . وعلى الرغم ايضا من أن هذه الأرض لن تتم زراعتها الا اذا توفرت العمالة الرخيصة .

وتحمل كل امرأة بعد نهاية موسم المطر نصيبها من الذرة العويجة وتعود الى قريتها لتتغذى أسرتها على ناتج عملها فى فصل الجفاف الذى قد يصل الى ثمانية شهور . أما الرجال فهم يعتنون ببعض الحيوانات أو يعملون فى مشروعات الرى فى منطقة النيل .

● وقد أدى التصحر أيضا الى نتائج أخرى مثل استقرار الجماعات البدوية وشبه البدوية . فقد ألقى الاستقرار على عاتق المرأة أعمالا

ومسئوليات أكثر . فالاستقرار يعنى مزيد من الاعتماد على الزراعة التى تعتبر عملا خاصا بالمرأة بصفة أساسية بينما كان عمل المـــرأة قبل ذلك واسهامها فى اقتصاد الاسرة يتمثل فى عملية حلب الماشية وعمل الزبد وطبخها لتحويلها الى سمن ، وبيع الألبان ومنتجاتها فى السوق ، ويتمثل أيضا فى زراعة الذرة العويجة والسرغوم (٤) فى مساحات محدودة .

وقد ارتبط أيضا استقرار البدو بتصدع اقتصادى واجتماعى فى معظم الحالات ، وذلك نتيجة لفقدان الماشية والثروة . وأدى هذا الى أن يصبح الرجال بدون عمل الأمر الذى زاد من أعباء المرأة اذ أصبح عليها أن تزود الأسرة بكل ما تحتاجه من طعام (٥) .

استقرار الجماعات المتنقلة :

أدى استقرار بعض الجماعات التى تمارس التجوال الى تغيرات فى نمط حياتها . وارتبط التغير بصفة أساسية بالمهن التى يشتغلون بها . فقد استقرت قبائل كثيرة فى الأردن بدافع من نفسها نتيجة لتغير الأوضاع فى المجتمع الأمر الذى أدى الى الابتعاد عن الأنشطة التقليدية مثل الرعـــى والهجوم على القوافل وحمايتها . وتدل التقارير الحكومية على أن ما يقرب من ٥٠ ٪ من البدو قد استقروا خلال العشرين سنة التى سبقت أوائل الستينات . ففى الخمسينات كانت أعداد البدو تتـراوح بين ۱٥٠ر٠٠٠ بدوى و ۲۲٠ر٠٠٠ بدوى . بعضهم كانوا بدوا والبعض الآخر أشباه بدو . وذكرت احصاءات الحكومة سنة ۱۹۷۱ أن أعداد البدو تبلغ ٥۳ر٠٠٠ بدوى ،

---

(٤) السرغوم نبات كالذرة العويجة يستخرج من بعض أنواعه (الذرة السكرية) عصير سكرى ، وتتخذ من بعضها الآخر (ذرة المكانس) مكانس وفراش .

(٥) Fouad N. Ibrahim, The Role of Women Peasants in the process of desertification in the Western Sudan. Unpublished article. Bayreuth, 1981., pp. 1-7.

وأن هناك ٤٢٫٥٠٠ شخص يعيشون حياة شبه بدوية (٦) . وكانت احصاءات الحكومة سنة ١٩٦٦ قد أوضحت أن نسبة تبلغ ٦٪ فقط من سكان الدولة يعيشون حياة بدوية أو شبه مستقرة ويسكنون الخيام . وقد نشأت قرى عديدة تكونت أساسا من قبائل بدوية بجانب بعض القرويين النازحين من مناطق زراعية أخرى (٧) .

وقد أشار فريدريك بارث الى أن التغيرات المتعلقة بالانتقال من الرعوية الى الزراعة يمكن فهمها فى ضوء متغيرات معينة منها .

— الظروف والامكانيات المحلية التى تسهل تحويل الفائدة الى استثمار ، ونمو القطاع الزراعى فى الاقتصاد ، وخلق صفوة محلية مستقرة لها قدرات واهتمامات خادمة . فان ذلك يؤثر على طبيعة وحجم المميزات الخاصة بمن يمارسون الرعى .

— الضغوط البيئية ، مثل فقدان الماشية والكوارث الأخرى التى لا يمكن التحكم فيها بجانب نمو السكان الذى يمكن أن يؤدى الى زيادة الفقر .

— العمليات والظروف التى تؤدى الى تبديد الثروة فى القطاع الرعوى من خلال الاعياد والحروب وغيرها من الجوانب التى تؤدى الى الاسراف أو زيادة الانفاق .

— العمليات التى تنتقل عن طريقها الثروة — وغالبا ما يتم ذلك بمساعدة أشخاص من الصفوة — من القطاع الرعوى الى مراكز الاستقرار .

— العمل على احتواء الصفوة المحلية الرعوية واستغلالها . ويتم ذلك

---

(٦) ريتشارد نيروب ، المرجع السابق ، ص ٧٨ .
(٧) المرجع السابق صص ٥٤ ، ٥٥ .

بطرق متعددة ، أو عمليات استبعاد الصفوة حينما يكون ثمن التحكم فيها باهظـــا (٨) .

وإم يقتصر الدور الذى أداه الاستقرار على تحويل البدو من النشاط الرعوى الى النشاط الزراعى ، فان هناك أنشطة أخرى كثيرة مارسها البدو عندما استقروا وأبرز هذه الأنشطة هو الاشتراك فى الأنشطة السياحية فى المناطق المتاخمة للشواطىء . سواء كان ذلك متعلقا بخدمات السياحة بصفة مباشرة أو متعلقا بالاشتراك فى عمليات الانشاء والتعمير فى هذه المناطق . والمثال الواضح على ذلك هو ارتباط البدو بمثل هذه الخدمات على طول الشريط الساحلى للصحراء الغربية . فمن الأسكندرية وحتى السلوم توجد عدة شواطىء مثل سيدى كرير والعلمين وسيدى عبد الرحمن ورأس الحكمة وباجوس ومرسى مطـروح والأبيض وعجيبة والسلـــوم . ويبلغ اتساع الساحل فى المناطق الصالحة للاستخدام كمصيف من امتداد ٣ كم الى ١٢ كم . وتوجد ببعض هذه المناطق أماكن أثرية . وقد اهتمت المحافظه بتشجيع السياحة بطرق متعددة ، ونظرا لأن البدو يقطنون على أبعاد مختلفة من هذه الشواطىء فقد عمل الكثير منهم فى خدمة السياحة . خاصة بعد أن غزا المد العمرانى الاماكن التى تقيم فيها جماعات بدوية . فعلى طول الطريق غرب الاسكندرية يمكن مشاهدة الامتداد العمرانى والمناطق السياحية والشواطىء الجديدة ويمكن مشاهدة أيضا كيفية تداخل المنشآت الحديثة مع مخيمات البدو . فالانشاءات الخاصة بالشواطىء والطرق المؤدية اليها تخترق شجيرات التين والزيتون الخاصة بالبدو والتى يهتمون بها بجانب قيامهم بعملية الرعى . كذلك فان كثير من الصناعات والمنشآت المتعلقة بالبناء والطرق قد زحفت على بعض بساتين البدو وجاورت الخيمة أو السكن البدوى بشكل لم يكن مألوفا من قبل . وما حدث هو أن ارتبط بعض البدو

---

(٨) Fredrick Barth, A general perspective on Nomad-Sedentary Relations in the Middle East., In The desert and the Sown, Op. Cit., p. 19.

بهذه الأعمال ، أما بعضهم الآخر فقد باع الأرض التى يقيم عليها وانتقل الى مكان آخر أكثر عزلة يمارس فيه مهنته التقليدية ويحافظ على هويته وبدويته . ويجب أن نذكر أن بعض البدو ـ سواء الذين عملوا فى الأنشطة الجديدة أو من ظلوا على ما هم عليه ـ قد استغلوا فرصة العمران وتاجروا فى الأراضى التى كانوا يمتلكونها أصلا : أو تلك التى أدعو ملكيتها بوضع اليد .

الاختراعات التكنولوجية ووسائل الاتصال :

أدت الاختراعات التكنولوجية الحديثة الى تغير كثير من جوانب الثقافة المادية لحياة البدو . ففى الكثير من البلاد العربية يمكن أن نلحظ وجود جماعات بدوية اعتادت على استخدام الأساليب التكنولوجية الحديثة فى مجالات مختلفة من حياتها . ولعل أوضح مستحدثات التكنولوجيا كانت السيارة تلك التى استخدمتها جماعات صحراوية عديدة عندما استطاعت شراءها وعندما أصبحت أيضا هناك حاجة لاستخدامها . ومن الطبيعى أن يرتبط ذلك بفكرة الرواج الاقتصادى للبدو ، وبارتباط البدو بأعمال غير الأعمال التقليدية (كالزراعة الموسمية أو الرعى) سواء تخلت تماما عن الأعمال التقليدية أو ظلت تمارسها بجانب الأنشطة الجديدة . ويرتبط ذلك أيضا بعملية رصف الطرق التى تكون قريبـــة من أماكن التجمعات . وقـد أدى استخدام البدو للسيارة الى تغيير فى خبرات البدوى فيما يتعلق باستخدام المخترعات المادية وكيفية صيانتها واصلاحها . كما أحدثت تغييرا أيضا فى ادراك البدوى وتقديره للوقت .

ولم يقتصر الأمر على ادخال السيارة والجرار وما الى ذلك من الاختراعات المساعدة على العمل الى المجتمع الصحراوى ، بل أن اختراعات تكنولوجية أخرى عملت على احداث تغيرات فى الأسرة فى الصحراء ، فانتشار أجهزة الراديو والتلفزيـــون على سبيل المثـــال كان لها اثـــرا بالغا على كثير من الجماعات الصحراوية (أنظر التغير فى سيوة والجارة ودرسى مطروح فى الفصول القادمة) . كما أن وصول ماكينات الحياكة الى الصحراء قد ساعد على تعلم البدويات طرق جديدة للحياكة ، وساعدت بعضهن على العمل

بمقابل مادى واستحدثت علاقات جديدة بين البدوية وزبائنها . كما أن وصول الملابس الواردة من المناطق الحضرية الى الصحراء ـ سواء كانت هذه الملابس مصنعة داخل المجتمع أو مستوردة من دول أجنبية ـ قد أدى الى تغيرات عديدة فى مظهر البدو وفى تمسكهم بالأزياء التقليدية . واذا كان الرجال أسرع قبولا للتغيرات فى هذا الجانب فان زى النساء ، وخاصة ما يرتدينه داخل المنزل قد لحقه أيضا قدر من التغير . ويختلف حظ الجماعات الصحراوية من التغير فى هذا الجانب باختلاف الظروف التى قد تتغير من منطقة الى أخرى ومن فترة زمنية الى أخرى وهى التى تساعد على جلب هذه المخترعات الحديثة الى المنطقة . فى ضوء ذلك فقد لوحظت تغيرات عديدة لدى الجماعات البدوية فقد تغير زى الجلباب وارتدى البدوى البنطلون والقميص أو ظل يرتدى الزى التقليدى والحديث بالتبادل . واذا ظل البدوى متمسكا بالزى التقليدى فهو يستخدم الأحذية الحديثة الواردة من المدينة حتى ولو ارتداها بطريقة خاصة . كذلك لوحظ فى بعض المناطق استخدام البدويات للماكياج وأدواته التى يتم شرائها من مجتمع المدينة . ويلاحظ أن قرب بعض المدن من التجمعات الصحراوية أدى الى حدوث تغيرات فى الزى فى فترة زيارة المدينة . فبعض أبناء البدو يرتدون الملابس المدنية الحديثة عندما يذهبون الى المدينة ويرتدون زى الصحراء عند عودتهم الى أماكن اقامتهم الأساسية .

ولا تتوقف التغيرات التى حدثت نتيجة استخدام المخترعات الحديثة على هذه الجوانب فقط بل يمتد الأمر الى حدوث تغيرات جذرية فى حياة الجماعة الصحراوية وذلك فى حالة اقامة مشروعات تكنولوجية حديثه مثل اقامة صناعة معينة فى منطقة صحراوية وما يرتبط بها من جلب للاختراعات الحديثة . فاقامة مفاعل نووى فى منطقة صحراوية أو أى مشروع مشابه يؤدى حتما الى تغيرات أساسية فى حياة الجماعات التى تنتشر فى المنطقة وقد انخرط البدو فى مشروعات أخرى مثل اقامة وادارة مزارع الدواجن . ففى منطقة الصحراء الغربية بمصر تميزت « الضبعة » باقبال شديد للبدو على مشروعات تربية الدواجن فوصل عدد مزارع الدواجن فيها الى ٢٢

مزرعة يملكها ويديرها البدو . وقد ساعد على ذلك وجود طريق مرصوف يمكنهم عن طريقه تسويق انتاجهم الى المدن الأخرى . ومن الطبيعى أن يرتبط انخراط البدو فى مثل هـذه المشروعات بزيادة فى وعيهم وطموحهم ودرجة ارتباطهم بالمجتمع الأكبر .

وسوف نركز هنا على أحد النماذج التى توضح لنا كيفية تأثير الاختراعات والمشروعات المرتبطة بالتكنولوجيا الحديثة على الجماعات القبلية ، وكيف يمكن لهذه الجماعات أن تتحضر وتتقدم وتصبح قوى منتجة اذا أعطيت الفرصة والامكانيات ، واذا استطاعت السلطات المسئولة نقل بعض امكانيات المجتمع الحديث اليها . فقد كان غزو الحجاز وافتراضات الملك عبد العزيز عن واجبات حراس الأماكن المقدسة بمثابة الدافع وراء احـداث تغييرات تكنولوجية حديثة فى شبه الجزيرة العربية . فقد ظهرت السيارات والأتوبيسات فى الأماكن التى لم تكن قـد ظهرت فيهـا . واذا كانت هذه التسهيلات فى المواصلات قد ارتبطت ببعض المشكلات فهى قد أدت الى تسهيلات عديدة مثل تسهيل مهمة نقل الحجاج ، وبالتالى أصبح واضحا امام العالم الاسلامى مدى تفوق الملك عبد العزيز فى هذا الجانب . فانه فى بداية سنة ١٩٢٧ كان قد بدأ العمل فى تشييد الطريق بين جدة ومكة . وقد وصف ميناء جدة بعد ذلك على انه أكثر موانى البحر الأحمر كفاءة . ومع قدوم سنة ١٩٢٨ كان طريق القوافل القديم الذى يصل بين ينبع ومكة قد تم استصلاحه وأعد لكى تسير فيه السيارات ووسائل المواصلات الحديثة . وقد أدى هذا النوع من التنمية بالاضافة الى توفير الخدمات الصحية والتجهيزات الطبية وتوفير الأمن الى زيادة عدد الحجاج خاصة وأن العلماء قد انتشروا فى بلاد العالم الاسلامى لتأكيد تطور وتنمية هذه الجوانب ، وبالتالى التشجيع على الحج فى ظروف جديدة ميسرة وآمنة .

وكان الملك عبد العزيـز على وعى بأن اصلاح الطـرق وجلب وسائل المواصلات الحديثة يمكن ان يؤدى الى زيادة درجة الأمن ، كما يمكن أن يؤدى الى فقدان الأمن ، فالأمر يتوقف على من يستخدمها ويتحكم فيها . ولهـذا

شجع عملية استيراد الأتوبيسات وقام أيضا بتركيب مولدين كهربائيين فى مكة لانارة الكعبة والقصر وتليفون يصل جدة بالكعبة . ولقد كان هناك اهتماما أيضا باقامة محطة اذاعة فى مكة والرياض . ولقد حاول الملك الاتصال بالشركات الأمريكية أيضا لتحقيق هذا الغرض . وتعتبر البداية الحقيقية لبناء الاتصالات الموسعة هى ما تم فى نهاية ١٩٢٩ حيث أنشئت مجموعة محطات للاسلكى فأقيمت المحطة المركزية فى الرياض وتبعها أربعة عشرة محطة فرعية . وقد وصف ذلك بأنه خروج بالسعودية من مراحل تقليدية الى مرحلة الاتصال السريع بين أرجاء الأمة . ومن الطبيعى أن يؤدى نمط الاتصال السريع بهذه الطرق المتعددة الى التأثير على العلاقات القائمة ، والتأثير أيضا على العمليات الاقتصادية والنشاط الاقتصادى فى المجتمع . وقد ذكر تقرير القنصل الأمريكى سنة ١٩٢٨ أن الملك عبد العزيز لديه أفكارا متقدمة مدهشة ، ولديه رغبة فى أن تصل الحجاز الى مستوى المدنية الغربية . ونحن لدينا متوفر الأسباب التى تجعلنا نعتقد أن هذه هى بداية الصحوة الاقتصادية ... » (٩)

وقد استطاع الملك عبد لعزيز بهذا أن يفرض الأمن العام وأن يتعقب المخالفين ويعاقبهم بحزم وسرعة . وقد قبل المنح التى قدمت للسعودية للدراسة فى الغرب وأرسل الطلبة ودفع لهم من ماله الخاص . وكان الملك عبد العزيز يتميز بتقديم الحلول العملية للأمور والمشكلات ، كما كان يتميز بالانضباط والدقة .

تأثر المجتمعات الصحراوية بأحداث المجتمع :

تؤدى التغيرات السياسية داخل المجتمع ، وعلاقة الدولة التى يوجد بها البدو بالدول الأخرى الى التأثير على الجماعات البدوية بحيث يمكن أن تحولهم من نشاط اقتصادى الى نشاط آخر مما يؤثر على بقية جوانب حياتهم الاجتماعية . فالحروب بين الدول فى منطقة الشرق الأوسط قد شهدت حشد

(٩) مالون ، المرجع السابق ، صص ٢٥ — ٢٨ .

قوات عسكرية فى المناطق الصحراوية الواقعة على حدود كل دولة . وعادة ما تتحرك هذه القوات الى أماكن استيطان البدو . ففى مدى زمنى قصير يمكن أن ينتقل عشرات الآلاف من الجنود ويتمركزوا فى مناطق متفرقة ويقيدوا الحركة فيها تماما مما يؤثر على الأنشطة الاقتصادية التى كان يمارسها البدو فى المنطقة . وفى كثير من الحالات غير البدو من أنشطتهم التى كانوا يمارسونها وبدأوا يستغلون فرصة وجود هذا العدد الهائل من الجنود فى المنطقة للاتجار فى بعض السلع التى يمكن أن يفيد منها الجيش . وذلك مع الاحتفاظ بنشاط الرعى فى الأماكن التى يمكنهم رعى الحيوان فيها من أجل تصديره للدول الصديقة أيضا .

وقد اتضح أن التغيرات التى تحدث فى الصحراء نتيجة القرارات السياسية بما يؤثرعلى حياة البدو سوف يستجيبون لها استجابات مختلفة تحقق أمنهم وتؤمن بقاء واستمرار الجماعة وتوفر لهم مصادر الرزق . واذا كانت مؤسسات الدولة أو هيئاتها يمكن أن تفتح المجال للبدو للتعامل معها فان البدو سيستجيبون لهذا استجابات متعددة . أما اذا كان النسق مغلقا بحيث لا تتيح المؤسسات والهيئات الفرصة للبدو لكى يتعاملوا معها فان ذلك يضع قيودا على تغير هذه الجماعات وسوف لا تملك سوى الاستكانة والتسليم بالواقع خاصة فى الآونة الحديثة التى ازداد فيها نفوذ الدولة وقدرتها على التحكم والسيطرة على كل قطاعات الدولة . ولكن فى معظم الحالات نجد أن الجيش نظام مغلق يرتبط بقوانين متشددة وعقوبات صارمة . لهذا لم يؤد وجود الجيش فى أى منطقة الى تغيير يذكر حدث للجماعات التى تقطن المناطق التى عسكرت فيها القوات . ولم تملك الجماعات البدوية الا الانسحاب بعيدا عن الأماكن التى اختارتها القوات كمناطق للتمركز فى صحراء شاسعة . ونظرا لأن للجيش أيضا نظام مغلق يحاول من خلاله أن يحقق أكبر قدر من الاكتفاء الذاتى فقد حدت هذه الخاصية من قدرة الجماعات البدوية على التعامل مع آلاف ؛ بل عشرات الآلاف من الجنود الذين يفدون الى المناطق الصحراوية وقت الحروب . فالجيش يحوى النجار والمهندس

والفنى والطباخ وغيرهم . والمنفذ الوحيد الذى استطاع البدو من خلاله أن يتعاملوا مع هذا النسق المغلق هو بيع المأكولات المطهية مثل الفول والطعمية والحلوى والمشروبات وبيع الخضروات واللحوم . وفى بعض المناطق افتتح البدو محلات ومقاهى وكافيتريات بجوار التجمعات العسكرية . ومن الطبيعى الا يمتد نشاط البدو التجارى الى أبعد من مجرد بيع السلع الاستهلاكية لمعسكرات الجيش . فالجندى الذى يمر بأكثر من مدينة كبرى أثناء رحلته الى المنطقة الصحراوية التى تعسكر فيها وحدته لا يمكن أن يفكر فى شراء اية بضائع أو سلع معمرة من الصحراء . اذ يمكنه بسهولة شراءها من المدن التى يمر بها . ولهذا لم يجد البدو أية فرصة لاستغلال وجود القوات كبيرة العدد الا فى بيع نوعيات محددة من المواد الغذائية . وقد أدى وجود القوانين الصارمة التى يخضع لها الجيش والتى تطبق على المناطق التى تقيم فيها قواته المسلحة الى تجنب البدو مجرد الاقتراب من هذه المناطق . ومع ذلك فقد حاول البدو استغلال الفرصة المتاحة فى هذا النطاق الضيق من التعامل التجارى الى أقصى الحدود ، فقد اهتموا بمزروعات جديدة كانت تشتريها وحدات الجيش من المدن البعيدة ، واهتموا أيضا بالخرفان والماعز لكى تباع للمعسكرات وخاصة فى مناسبات الأعياد . وعندما أدرك بعضهم أن بعض وحدات الجيش كانت تقيم فوق أراضى مراع خضراء فقد تركوا قطعانهم تدخل الى معسكرات الجيش لتأكل ما هو أخضر من بين خيام الجنود . ونظرا لأنهم يدركون بأنه غير مصرح لأى شخص بأن يتواجد داخل معسكرات الجيش أو حتى يقترب منها فقد تركوا أبقارهم وأغنامهم تدخل وحدها الى المعسكر لتأكل من الحشائش ومن بقايا المأكولات التى خلفها الجنود ثم ترجع سالمة . وهم لا يخشون فقدان أى منها لأنهم يدركون أن محاكمة عسكرية تنتظر أى جندى يسرق أى حيوان ويذبحه . فقد ضمن لهم النظام العسكرى سلامة ممتلكاتهم . أكثر من ذلك فان بعض البدو عندما وجدوا معسكرات الجيش تبيع بعض وسائل النقل المستهلكة (كالسيارات واطاراتها) بالمزاد أقدموا على شرائها والاتجار فيها . فقد لوحظ على سبيل المثال اقبال البدو على شراء نوعية معينة من

اطارات السيارات بأى ثمن تعرض به . وتبين أنهم يستخدمونها كاطارات مطاطة لتشغيل الطواحين . واتضح أنهم يبيعونها بسعر مرتفع جدا عن سعر الشراء .

ومع كل هذا فيمكن أن نقول أن انغلاق النسق العسكرى قد أضاع فرصة تأثير عشرات الآلاف الذين وجدوا فى المناطق الصحراوية على جماعات البدو . ويمكن أن نتصور أنه اذا انتقل مثل هذا العدد الكبير وكان يتمثل فى مؤسسات اقتصادية وليست عسكرية فان التأثير فى مجتمع الصحراء كان سيختلف تماما عنه فى حالة انتقال عشرات الآلاف من أفراد قوة عسكرية .

جهود المجتمع لتحقيق تكامل القطاعات الصحراوية :

لا شك أن المجتمعات الصحراوية تعتبر مناطق هامشية ولو بالمعنى الجغرافى داخل المجتمعات الأكبر التى توجد بها وتعيش داخل حدودها السياسية . وعلى الرغم من عزلة كثير من هذه الجماعات الا أن كل مجتمع يعتبر أن البناءات الصحراوية الصغيرة هى جزء لا يتجزأ من البناء الاجتماعى الأكبر . ولابد أن يكون هناك تفاعلا بين البناء الكبير والبناءات الأصغر . ولابد أن ننظر الى هذه الظاهرة فى ضوء اعتبارات كثيرة منها امتلاك المجتمع الأكبر للسلطة والقوة والامكانيات التى تتفوق كثيرا على ما لدى هذه البناءات الصغيرة . وعندما يحاول المجتمع دمج والعمل على تكامل الجماعات الأصغر وصهرها فى جسم المجتمع الكبير فهو يعمل على تغييرها بصورة أو بأخرى . وتأخذ محاولات الادماج والحث على التكامل شكلا من الأشكال الثلاثة الآتية :

فى بعض الأحيان لا يكون للدولة سوى علاقات بسيطة جدا مع هذه الجماعات ، وهى تعتبرها جزءا من البناء الأكبر بسبب أنها تقع فى نطاق حدودها السياسية من الناحية الجغرافية . وفى هذه الحالة يكتفى بالتعبير

الرسمى عن الولاء والانتماء الى وحدة قومية أكبر . وعادة ما يحدث ذلك عندما يكون قادة المجتمع غير راغبين أو غير قادرين على التدخل فى واقع تلك البناءات الصغيرة ومحاولة تغييرها . ويحدث ذلك فى حالات عديدة ، مثلما يحدث عندما تكون القوة العسكرية للدولة أضعف من أن تسيطر على الجماعات الصحراوية ، أو عندما تملك الدولة الوسائل التى يمكن أن نجتذب بها هذه الجماعات وتخضعها لعملية تكامل مخطط ، أو عندما تجد أن تكلفة ضم هذه الجماعات لجسم المجتمع الأكبر تعتبر أعلى تكلفة عما يمكن أن تغله أو تخرج به من عائد حينما يحدث التكامل والاندماج . ومن الواضح أن التغير الذى يمكن أن يحدث فى المجتمع الصحراوى فى هذه الحالة يكون ضعيفـــا للغـــاية .

والشكل الثانى يحدث عنـــدما يكتفى القادة وتكتفى البناءات الكبـــيرة (الدولة) التى تضم البناءات الصغيرة بما تقدمه الجماعات الصحراوية من التزامات تجاه الدخل الحكومى من ضرائبوغيرها ، ولا تفكر فى محاولة ادماج هذه الجماعات فى كيان المجتمع الأكبر . وفى هـــذه الحالة يتـــرك المجتمع الصحراوى وشأنه دون احداث تغييرات مخططة . فاذا توفرت عوامل التغير التلقائية نتيجة ظروف الجماعة الصحراوية أو تغير الأوضـــاع فى المجتمع الأكبر أو نتيجة الاتصال بجماعات ريفية أو حضرية أو حتى بمجتمعات خارجية ففى هذه الحالة فقط يمكن أن تحدث التغيرات فى حياة سكان الصحراء .

أما الشكل الثالث ــ وهو الشكل الأكثر شيوعا الآن ــ فهـــو الشكل الذى تتخذ فيه السلطة الحاكمة قرارها بأن تعمل على ادماج وتكامل هذه البناءات الصغيرة فى جسم المجتمع الأكبر . وهذا يعنى تغييرا جذريا ان لم يكن ادماج الجماعة ادماجا كاملا . وهذا هو الوضع السائد فى كثير من البلاد النامية ، فالدولة تعمل على تكامل الجماعات القبلية والاقليمية فى وحدة المجتمع الواحدة . وتختلف درجة تكامل الجماعات البدوية فى جسم المجتمع الكبير كاستجابة لظروف متعددة يمكن تحديدها فى ثلاثة متغيرات :

(ا) الظروف الايكولوجية التى تربط بين الجماعات البدوية والجماعات المستقرة .

(ب) درجة التكامل مع اقتصاد السوق الوطنى. (سوق الدولة التى توجد بها الجماعة) .

(ج) درجة التوافق السياسى بين بناءات الدولة والجماعات القبلية التى تشغل أقاليم ومناطق معينة بها (١٠) .

واذا كان التمييز بين المتغيرات الثلاثة يساعد على سهولة التحليل الا أنه لا يجب أن ينظر اليها على أنها مجالات منفصلة عن بعضها . فالعلاقات الأيكولوجية بين البدو والجماعات المستقرة تتضمن بعض الأنشطة التى تعتبر ذات طبيعة اقتصادية خالصة ، بما فى ذلك تبادل السلع والخدمات . كذلك هناك علاقة بين الظروف الايكولوجية والتنظيم السياسى اتضحت على وجه الخصوص فى دراسة بارث Barth لبدو جنوب ايران (٢) . وقد حاول رضا فاضل فى دراسته للبدو فى ايران أن يدرس ما أطلق عليه عمليات الدمهر والاحتواء مركزا على الثلاثة متغيرات التى سبق وافترضها . ثم حاول بعد ذلك أن يقارن بين عدة جماعات متقاربة فى جنوب وجنوب شرق ايران مع الاهتمام بالقوى التى عملت على احتواء هذه الجماعات والجماعات التى تمت فيها هذه العمليات وانتهى الى ما يأتى :

(ا) لا يتبع تغير بناءات الجماعات البدوية التى تمارس الرعى فى ايران بسبب عوامل خارجية نمطا موحدا .

(ب) لا يمكن افتراض أو التنبؤ بهذه التغيرات فى حد ذاتها لأن البدو

---

(١٠) Reza Fazel, The Encapsulation of Nomadic Societies in Iran., In The Desert and the Sown., Op. Cit., pp. 129-130.

لم يعودوا منعزلين أو يمثلوا كيانا مستقلا تماما ، بل قد أصبحوا الآن جزء لا يتجزأ من وحدة سياسية أكبر .

(جـ) تختلف درجة الاحتواء من جماعة الى أخرى وفقـــا لحجم وكثافة التعامل بين الجماعات البدوية وبين البناء القومى . وقد توصل رضا أيضا الى أن الأنساق القبلية يمكن تصورها على أنها تقع على متصل يتدرج من أدنى درجة من الاحتواء لجماعات معينة الى الاحتواء والانصهار شبه الكامل الذى تمثله جماعات أخرى (١١) .

جهود الدولة لتنمية الصحراء :

أثت بعض التغيرات التى حدثت فى المجتمعات الصحراوية كنتيجـــة لمشروعات التنمية التى تقوم بها الـــدول المختلفة بهدف تنميـــة المجتمعات الصحراوية . واذا كان المخططون لهذه المشروعات قد واجهوا صعوبات عديدة بسبب تناثر وتشتت سكان الصحراء مما يؤدى الى صعوبة حصرهم وتحديد أماكنهم مما يؤدى الى صعوبة عملية التخطيط للتنمية (١٢) ، فـــان معظم هذه المشروعات قد نجحت ولو بدرجات متفاوتة وأحدثت تغييرا فى جانب أو فى آخر من حياة الجماعة التى طبق المشروع عليها . ويضم هذا الكتاب فى معظم فصوله نماذج من تلك المشروعات التى تقوم بها المجتمعات لتنمية الصحراء ، كما يوضح آثار هذه المشروعات على سكانها . وسوف نتناول هنا نموذجان فقط لتلك الجهود من بلدين عربيين مختلفين . فالنموذج الأول من السعودية أما النموذج الثانى فهو من مصر .

ونموذج السعودية هو واحد من تلك المشروعات الزراعية التى قامت

---

(١١) المرجع السابق ، صص ١٤٠ ، ١٤١ .

(١٢) صلاح عبد المتعال ، أسس فى تخطيط برامج التنمية الاجتماعية للمجتمعات الصحراوية ، مؤتمر التنمية الاجتماعية للبيئات الصحراوية ، وزارة الشئون الاجتماعية ، اكتوبر سنة ١٩٦٦ ، ص ٢٤٧ .

بها الحكومات فى كثير من البلاد العربية التى تضم نسبة كبيرة من البدو . ففى شرق السعودية وفى معسكر الملك فيصل تم تحويل ٨٠٠٠ فدان من الصحراء الجرداء الى أراضى خضراء مزودة بآبار حديثة مع توفير الامكانيات والتسهيلات الفنية . وقد أثيرت مشكلة تتعلق بجدوى تسليم هذه الأراضى للبدو الذين لا يجيدون الزراعة المستمرة ، والمفاضلة بين تسليمها لهم وتسليمها الى شركات زراعية يمكن أن تستخرج من الأرض انتاجا يفيد منه المجتمع كله . فقد كان رأى بعض المسئولين أن البدو لن يستطيعوا الافادة من هذه الأرض افادة كاملة قبل مضى جيل على الأقل . ويزيد من هذا الاحتمال تأصل عادة الترحال لدى البدو الحاليين . وقد زاد المسألة صعوبة وجود أعداد من الفلاحين المهرة يعيشون فى واحات أخرى فى حاجة شديدة الى مثل هذه الأراضى نظرا لندرة وجود مشروعات مماثلة بسبب ندرة المياه . هؤلاء يمكنهم أيضا استغلال الأرض بطريقة أفضل . وربما هذا ما دعى الى ظهور فكرة جديدة هى أهمية تشجيع تحديث اقتصاديات البدو . فالصحراء ملا زالت هى أهم مصدر طبيعى فى هذه البلاد ، ويمكن أن يؤدى الاهتمام بأعشابها الى امكانية الحفاظ على الثروة الحيوانية اذ سيتمكن البدو من رعاية قطعانهم . ولنعلم أن البدو أشد ارتباطا بحيواناتهم وبحياتهم فى الصحراء . ويشعر الكثيرين منهم أن استمرارهم يتوقف على ارتباطهم بالصحراء وبالقطعان (١٢) .

والنموذج الثانى المتميز الذى يوضح تأثير مشروعات الحكومة التى تهدف منها الى تنمية القطاع الصحراوى على سكان الصحراء هو دراسة النتائج التى ترتبت على الحركة التعاونية ونتائج ادخال هذا النظام فى المجتمعات الصحراوية . فقد أوضحت الدراسة القيمة التى أجراها عبد الله سيد أبعادا عديدة لاستجابة البدو لمثل هذه المشروعات . فقد أدخلت الحكومة المصرية فى سنة ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ نظام الجمعيات التعاونية بالنسبة للبدو فى الصحراء الغربية كجزء من الخطة التى كانت تهدف عن طريقها الى تحقيق

الاستقرار بالنسبة للبدو (١٤) .

وقد أقبل البدو اقبالا كبيرا على عضوية الجمعيات التعاونيـة . فمع قدوم سنة ١٩٦٥ كان ما يقرب من ١٤ ألف بدوى قد انضموا الى عضوية ٣٩ جمعية وقد أنفقت هيئة تعمير الصحارى ما يقرب من ١٢ مليون جنيه فى الصحراء حتى أصبحت الحركة التعاونية تلعب دورا هاما فى الاقتصاد البدوى .

ويجب أن نشير الى أن ادخال نظام الجمعيات التعاونية فى الصحراء الغربية قد ارتبط بادخال نظام الادارة المحلية بدلا من الحكم العسكرى فى المنطقة الأمر الذى أدى الى أن تصبح الصحراء الغربية مثل أى قطاع آخر من المجتمع المصرى تخضع لاشراف نظام بيروقراطى يرتبط بالحكم المحلى .

وكما ذكرنا فان الهـدف من الجمعيات التعاونيـة التى أدخلت الى الصحراء الغربية سنة ١٩٥٩ زيادة الأراضى المزروعة فى المنطقة عن طريق تقديم خدمات زراعية ، وتحقيق التعاون الاقتصادى وتحقيق وتحسين مصادر المياه . وقد عرضت الحكومة المصرية تقديم العلف لكل من سينضم الى الحـركة التعاونية ، علما بأن عضوية هذه الجمعيات قـد اقتصرت على هؤلاء الذين يقومون بالزراعة والذين خطو خطوات سريعة فيمـا يتعلق بزراعة الأشجار فى أراضيهم . وكان الهدف من ذلك هو تحقيق استقرارهم ، فان تزويدهم بالمواد الغذائية والعلف خلال ثلاثة شهور الشتاء الصعبـة سيؤدى الى استقرارهم فى المنطقة ومحاولتهم زراعة الأرض . ويلاحظ أن اقبال البدو على الجمعيات كان اقبالا شديدا جدا وعلى سبيل المثال فقد بدأت احدى الجمعيات بثلاثين عضوا سنة ١٩٦٢ وقفز هذا العدد الى خمسمائة ستة وستون عضوا فى سنة ١٩٦٥ .

---

(١٤) اعتمدنا فى هذا الجزء على المقال الذى نشره عبد الله سيد عن دخول الحركة التعاونية فى الصحراء الغربية وأثر ذلك على البدو . أنظر :
The Social implications of Developmental politics : A case Study from Egypt. In The Desert and the Sown. Op. Cit., pp. 143, 145, 148, 149, 150, 152, 154 155.

ويمكن تلخيص آثار الحركة التعاونية فيما يأتي :

١ ـ أثرت الحركة التعاونية فى الاقتصاد البدوى ، ذلك أن تقديم العلف خلال فترة الشتاء عفا البدو من الدخول بحيواناتهم الى داخل الصحراء للرعى فوفرت بذلك الأيدى العاملة الزراعية اللازمة للزراعة على الساحل فى ذلك الوقت ، بجانب أن العلف يعتبر غذاءا أغنى من اعشاب الصحراء . وقد ساعد هذا بجانب الرعاية البيطرية للحيوانات على زيادة عددها . ونظرا لأن الحيوانات تعتبر هى المصدر الرئيسى للدخل فقد أدى كل ذلك الى زيادة دخل البدو وتردد صدى ذلك فى الاقتصاد ككل .

٢ ـ ارتبط بالحركة التعاونية أيضا استخدام البدو للجرارات الأمر الذى مكنهم من زراعة مساحات أوسع دون استخدام كل الأيدى العاملة التى كانت تستخدم قبل ذلك فى الزراعة ، فاتجه بذلك جزء كبير من البدو الى ممارسة أنشطة اقتصادية غير الزراعة والرعى . وقد استخدم البدو الدخل الذى حصلوا عليه من العمل فى الأنشطة الخارجية فى تشغيل أيدى عاملة تأتى الى المنطقة فى مواسم الحصاد فى عملية الحصاد نفسها وهذا مكنهم من الاستمرار فى ممارسة أنشطتهم الداخلية ، كما استخدم الدخل أيضا فى تجارة الحيوانات لزيادة رصيد الأسرة من الحيوانات . وهنـــاك ملاحظة هامة هى أن ارتفاع أعداد المعروض فى السوق من الحيوانات لم يؤد الى انخفاض سعرها بسبب أن جزءا كبيرا من هذه الحيوانات كانت تباع فى ليبيا حيث كانت أسعارها مرتفعة . وكانت أسعار البيع ترتفع كلما اقتربت السوق من الأراضى الليبيـــة . وقد أدى كل هـذا الى زيادة دخلهم ، وادى الى ظاهرة أخرى هى انتشار الأسواق والقرى على طول الطريق الموصل الى ليبيا وانتشرت الدكاكين والمقاهى على طول الطريق . وأصبحت مرسى مطروح مركزا هاما بعد ان ضمت ما يقرب من سبعة آلاف بدوى يمارسون مختلف أنواع الأنشطة الاقتصادية .

٣ ـ ارتبط البدو فى هذه الفترة بنشاط تجارى آخر هو تجارة البضائع

الواردة من ليبيا الى وادى النيل . وقد تمت هذه التجارة على نطاق واسع نظرا لأن ليبيا تستورد عددا كبيرا من السلع الكمالية من مختلف بلاد العالم فتستورد الراديو والترانزستور وآلات التسجيل وآلات التصوير من اليابان . كما تستورد الملابس والسجائر والأحذية وغيرها من السلع الصغيرة سهلة الحمل من أوروبا ، ونظرا لأن أسعار السلع رخيصة الثمن فى ليبيا وغالية الثمن فى منطقة الدلتا ، فقد شجع هذا على قيام تجارة كبرى . وترجع أهمية هذه الحركة التجارية الى اشتراك عدد كبير من البدو فيها يصل الى ٦٠٪ من بدو المنطقة ، والى كثافة وكم النشاط التجارى نفسه . ونتيجة لهذا تحولت مدينة مرسى مطروح الى مركز تجارى ضخم تباع فيه البضائع ، فقد اعتاد المصطافون شراء احتياجاتهم وملابسهم وأدواتهم من المدينة نظرا لان الأسعار بها كانت أقل بكثير من نفس أسعار البضائع فى منطقة وادى النيل . بل أن بعض التجار كانوا يفدون الى مدينة مرسى مطروح لهدف الحصول على هذه البضائع من البدو واعادة بيعها فى منطقة الدلتا .

٣ — أدت الحركة التعاونية الى زيادة الهوة فيما يتعلق بالثروة بين القبائل التى تعيش على الساحل وبين القبائل الداخلية التى تعيش فى عمق الصحراء . فنظرا لأن أحد أهداف الجمعيات التعاونية هو توطين البدو فقد كان من شروط العضوية فى الجمعية أن يكون العضو مالكا لقطعة أرض زراعية وقد أتاح هذا الفرصة للقبائل التى تقوم بالزراعة على الساحل أكثر من قبائل الداخل ، هذا على الرغم من أن حاجة القبائل الداخلية للطعام والعلف أشد . على أن هذه القبائل الداخلية لم تحرم تماما فرصة الاشتراك فى الأنشطة الجديدة فقد شاركت فى تجارة الأغنام عندما زاد الطلب عليها ، كما اشتركت فى تجارة البضائع وساعدها على ذلك وجودها داخل الصحراء اذ أصبح اتصالها بليبيا أكثر سهولة .

وعلى الرغم من أن الحركة التعاونية — بالاضافة الى بعض الظروف والعوامل الأخرى — قد حققت قدرا من التغيير فى الاقتصاد البدوى فقد أدت عوامل أخرى ترتبط بسكان الصحراء الى تعويق الوضع المثالى الذى

تم تخطيطه عند استحداث الحركة التعاونية فى منطقة الصحراء الغربية . ويمكن أن نوجز هذه العوامل فى ثلاثة هى الظروف الايكولوجية والتحيز القبلى والعامل القرابى . فقد كان مفترضا أن تغطى كل جمعية تعاونية منطقة خاصة ببدنة معينة وذلك لمنع التنافس بين القبائل داخل الجمعيات . ولكن حالت أنماط الاستقرار داخل الصحراء دون تحقيق هذه الصورة المثالية . فقد كانت القبيلة الواحدة تعيش فى جماعات قرابية مبعثر فى مناطق واسعة . وقد تنتشر القبيلة الواحدة فى كل الشريط الساحلى . ولهذا فبمجرد أن بدأت الجمعيات التعاونية عملها ، بدأت المنافسة بين القبائل على رئاسة وادارة الجمعيات تأخذ فى الظهور . والسبب فى ذلك أن رئيس الجمعية يتمتع بسلطات وصلاحيات هامة ، فرئيس الجمعية هو الذى يحكم على صدق أو كذب العضو فيما يتعلق بالبيانات التى يقدمها عن أسرته وعدد رؤوس الأغنام الخاصة به وهى التى يتوقف عليها كم الأعلاف والغذاء الذى يمكن أن يصرفه من الجمعية . ويتوقع — بسبب عامل الانتماء القبلى — أن يتمكن أفراد القبيلة التى ينتمى اليها رئيس الجمعية من الحصول على كميات أكثر . بالاضافة الى ذلك فان اختيار رئيس وأعضاء الجمعية يتم بالانتخاب مما يجعل الرئيس المنتخب حريصا على ارضاء من انتخبوه فيتغاضى بهذا عن الكثير من التجاوزات والمبالغات فى البيانات الخاصة بأفراد الأسرة وفى عدد رؤوس الحيوانات التى يقدمها للجمعية .

ولهذا فقد وجد أنه من الأفضل أن ينشىء كل قطاع قبلى الجمعية التعاونية الخاصة بها . وبالفعل أنشئت الكثير من الجمعيات بالجهود الذاتية . وقد أنشأها رؤساء القبائل وانتخبهم أعضاء القبائل كرؤساء للجمعيات . وعندما ضمت الجمعيات التى قامت بالجهود الخاصة الى الجمعيات الرسمية ظهرت منافسات عنيفة وحادة بين البدنات على الرئاسة والوظائف الادارية وتحقيق مصالح معينة داخل الجمعية . وتكرر انسحاب جماعة قرابية أو قطاع قبلى من جمعية تعاونية قريبة من مكان استقرارهم لتنضم الى جمعية تعاونية بعيدة بسبب أنها تضم أقارب لهم .

وقد أدى الانتماء القبلى أيضا أن يصبح القادة القبليين التقليديين هم رؤساء الجمعيات . فهم الذين يشرعون فى تكوينها ويبيعون الأسهم لأكبر عدد من الأقارب لهذا ينتخبونهم لرئاستها . وبهذا أصبح قادة الحركة التعاونية هم القادة التقليديين . ومن الطبيعى أن يؤدى نمو الحركة التعاونية الى ازدياد نفوذهم .

ومن الطبيعى هنا أن نلحظ أن شدة الانتماء القبلى وتماسك الجماعات القرابية قد أدى الى أن يخضع النظام المستحدث لنوعيات من القيود قد أثرت بلا شك على امكانياته فى احداث تغييرات جذرية فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية لبدو المنطقة . وقد اتضح ذلك مما ذكره كاتب المقال من أن غالبية البدو لا يخالفون مصالح الجماعة القرابية حتى اذا ترتب على ذلك الحصول على مكاسب شخصية .

توفير الدولة للخدمات فى المناطق الصحراوية :

أدى حرص الدولة على أن تغطى خدماتها المناطق الصحراوية الى تغييرات فى حياه الجماعات ساكنة الصحراء . فقد اتضح أن الكثير من الجماعات الصحراوية سواء كانت مستقرة أو حتى متنقلة تحاول دائما الافادة من الخدمات المتاحة فى المنطقة التى تعيش فيها أو القريبة من النطاق الذى تمارس فيه التجوال . ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك الى ظهور أنماط سلوكية وأنشطة جديدة تتعلق بالنواحى الاجتماعية والثقافية والصحية .

وسوف ندرس هنا على سبيل المثال التغيرات التى حدثت فى منطقة الصحراء الغربية فى مصر كنتيجة لاهتمام الدولة بتوصيل الخدمات الى هذه المنطقة. والنوعية الأولى من الخدمات التى اهتمت بها الدولة واستجابت لها الجماعات الصحراوية هى خدمات الشئون الاجتماعية . فقد انتشرت فى كل مناطق الصحراء الغربية وحدات الشئون الاجتماعية التى تقدم ـ بالاضافة الى المساعدات والمعونات ـ مجموعة من الأنشطة التى استجابت لها الأسرة البدوية . ومن أهم هذه المشروعات مشروع الأسر المنتجة الذى حول نشاط

المرأة من مجرد الرعى والعمل فى البيت الى الانتاج . كذلك فان مشروع الحضانات له تأثيره الواضح على التغير بالنسبة للنشىء . فالطفل فى الحضانة يتعلم ويعد بطريقة تؤهله الي المدرسة . وقد حرصت مديرية الشئون الاجتماعية فى مطروح بمصر على نشر الحضانات فأنشأت ما يقرب من ستة عشرة حضانة ابتداءا من منطقة بهيج غرب الاسكندرية وحتى السلوم . أما قسم مطروح عاصمة الصحراء فنصيبها وحدها كان تسع حضانات ، هذا بالاضافة الى أربعة حضانات كانت تحت الانشاء حتى يونيو سنة ١٩٨٣ . ويلاحظ أن معظم الأطفال فى هذه الحضانات هم من أبناء البدو باستثناء منطقة مطروح نظرا لوجود عدد كبير من أبناء وادى النيل يعملون بها . فتبلغ نسبة أبناء البدو فى حضانات مطروح حوالى ٣٥٪ من مجموع الأطفال ، أما باقى حضانات المنطقة الغربية فتبلغ نسبة أطفال البدو فيها ما يقرب من ٨٥٪ من مجموع الأطفال . ويؤدى البرنامج اليومى للحضانة الى تغيرات فى ثقافة الطفل . ففى الحضانة يتعلم اللهجة العربية المتداولة فى وادى النيل تمهيدا لنتظامه فى التعليم ، وهم يهتمون فى الحضانة بتعليمه مبادىء اللغة العربية . وهناك القصة والنشيد ، والفحص الطبى الدقيق عند دخول الحضانة ثم الفحص الدورى بعد ذلك مع صرف الأدوية من الوحدات المدرسية . ومن الطبيعى أن يؤدي ذلك الى أن يدرك الطفل فى وقت مبكر جوانب من ثقافة المجتمع الأكبر ويعطى فرصة للأسرة أيضا أن ترى أنماطا جديدة من التعليم والرعاية الصحية بالنسبة للأطفال .

أما بالنسبة لخدمات التعليم فقد عملت الحكومة على نشرها ، فانتشرت المدارس فى القرى الصحراوية والنجوع والواحات داخل الصحراء . وانتظم أبناء البدو على المدارس فى كل مكان أنشئت فيه المدرسة . وادى حرص الدولة على توفير مختلف أنواع التعليم فى المحافظة الى احداث تنوع كبير فى أعداد المتعلمين التى بدأت تتزايد بشكل ملحوظ فقد توفر فى الصحراء الغربية التعليم الابتدائى والاعدادى والثانوى العلم والثانوى التجارى والزراعى . وقد ضمت هذه المدارس اعدادا كبيرة من الطلاب . وعلى سبيل

المثال نجد أن مرحلة التعليم الثانوى قد ضمت ما يقرب من ألفى طالب فى العام الدراسى ١٩٨٢/١٩٨٣ . موزعة على التعليم الثانوى العام والتجارى والصناعى . ومما يشير الى اقبال البدو على التعليم ان التعليم الثانوى العام قد ضم عددا كبيرا بلغ ١٢٨٨ طالبا من مجموع المقيدين فى التعليم الثانوى مما يؤكد نمو الوعى باهمية التعليم الجامعى لدى سكان الصحراء الغربية . كذلك فهناك خطة خمسية بدأت منذ عام ١٩٨١ لتعليم الكبار بلغ عدد فصولها فى العام الدراسى ١٩٨٢/٨١ ثمانون فصلا ، وقفز العدد فى العام الذى يليه مباشرة الى مائة وستون فصلا . وقد أدت حركة التعليم فى الصحراء الغربية الى تغير الاتجاه نحو تعليم الفتاة . وأدت الجهود التى بذلها رجال التعليم ورجال الادارة المحلية بالتعاون مع مشايخ القبائل الى قبول الآبـــاء لتعليم فتياتهم . فبلغ عدد التلاميذ الذين انتظمـــوا فى المدارس الابتدائية فى العام الدرسى ١٩٨٣/٨٢ حولى ١٢٣٠٧ تلميذا وبلغ عدد التلميذات فى هذا العام ٥٥٠٩ تلميذة وهو ما يقرب من نصف العدد . أما التعليم الثانوى العام فقد وصل فيه عدد البنون ٩٣٧ بينما بلغ عدد والبنات ٣٥١ فى نفس العـــام . وزاد عدد البنـــات المنتظمات على التعليم الثانوى التجارى فى نفس العام على البنين ، فقد ضمت المدرسة التجارية ٦٨ تلميذا و٨٢ تلميذة . ويلاحظ أن اهتمام الدولة بتوفير خدمات التعليم فى مناطق الصحراء قد أدى الى توفير الجهد والمال الذى كانت تنفقه الأسر التى تولد لديها الوعى التعليمى مبكرا على ابنائها لتعليمهم فى المدن المصرية خارج المحافظة مثل مدينة الاسكندرية (١٥) .

ولا يخف علينا بالطبع أثر وجود المدارس الفنية بالمنطقة على تغير الفن المهنى سواء الصناعى أو الزراعى او التجارى فى المنطقة . فان ازدياد أعداد المتخرجين بين هذه المدارس سوف يؤدى ـ لا شك ـ الى تغيرات فى طرق ممارسة الأعمال المختلفة ، والى استحداث أساليب جديدة فى الانتاج الصناعى والزراعـــى وفى التعامل التجارى أيضا . اما من جهـــة التعليم

(١٥) تقرير غير منشور بمديرية التربية والتعليم بمطروح .

الجلمعى فنتائجه يمكن مشاهدتها بسهولة بوضوح فى منطقة الصحراء الغربية. فلقد أدى قرار قبول نسبة من أبناء الصحراء فى الجامعات المصرية دون التقيد بشرط المجموع فى الثانوية العامة الى زيادة نسبة المتعلمين تعليما جامعيا من الجنسين فى مطروح (١٦) . وأدى ذلك بالتالى الى أن يتزايد أعداد الأطباء والمحامين والصيادلة والمهندسين والمدرسين من الجنسين فى المحافظة الأمر الذى ابتعد بمعظم هؤلاء وبالأسر المرتبطة بهم عن نمط الحياة البدوية . ولا يمكن أن نتجاهل أثر صرف المحافظة الاعانات لأبنائها لكى تمكنهم من مواصلة تعليمهم .

أما بالنسبة للخدمات الصحية فقد تم انشاء الوحدات الصحية الصحراوية فى مناطق العمران الصحراوية ، كذلك افتتحت مكاتب الصحة وأنشىء المستشفى العام والمستشفيات المركزية والمراكز الطبية . وحتى منتصف سنة ١٩٨٣ كانت هناك ادارات صحية فى مطروح والحمام والضبعة وسيدى برانى وسيوة . وكلها تتبع مديرية الشئون الصحية بمطروح . وتتبع كل ادارة مستشفى عدد من المراكز الطبية والوحدات الصحية أو العيادات . ومن الطبيعى أن تتركز فى مدينة مطروح خدمات صحية أكثر ففى مرسى مطروح هناك المستشفى العام ، ومستشفى الصدر ، ومستشفى الحميات والمركز الصحى . وهناك أيضا ثلاثة عيادات هى السادات والأفراد واللوكس . وهناك عدد من الوحدات الصحية فى القرى المتناثرة حول مدينة مرسى مطروح مثل الوحدة الصحية بالقصر ، والوحدة الصحية بأم الرخم ، والوحدة الصحية بالمتانى ، والوحدة الصحية بالنجيلة ، والوحدة الصحية بسيدى حبيش ، والوحدة الصحيه برأس الحكمة . كما أن هناك عيادة فرعية فى الشولى .

أما المناطق البعيدة عن مدينة مرسى مطروح وتبدأ من الحمام غرب

---

(١٦) أنظر الفصول التالية المتعلقة بمناطق صحراوية فى الصحراء الغربية .

الاسكندرية فهى تتبع الادارات الأخرى ، وأولها من بداية حدود المحافظة شرقا الادارة الصحية بالحمام وتتبعها مستشفى الحمام المركزى وخمس وحدات صحية فى الحمام والعلمين وبرج العرب وبهيج وأبو صير ، وعيادة فرعية فى الغربينيات . ثم تليها بعد ذلك الادارة الصحية فى الضبعة وتتبعها مستشفى الضبعة القروى ، ثم وحدتين هما وحدة جلال الصحية ووحدة سيدى عبد الرحمن ثم عيادة زاوية العوام التى لم يكن قد بدأ العمل فيها حتى مايو سنة ١٩٨٣ . أما الادارة الصحية فى سيدى برانى فتتبعها مستشفى سيدى برانى المركزى ومستشفى السلوم المركزى . وعلى بعد ما يقرب من ٣٠٠ كيلو متر من الساحل توجد الادارة الصحية بسيوة وتتبعها مستشفى سيوة المركزى .

كذلك تهتم المديرية الصحية بالتطعيم ضد شلل الأطفال . وقد بلغ جملة المتطعمين فى الجرعة الأولى فى مارس سنة ١٩٨٣ ٢١٩٤٤ طفلا ، وجملة المتطعمين فى الجرعة الثانية فى أبريل من نفس العام ٢٢٢٧٥ طفلا . وقد كان العدد المستهدف تطعيمه من واقع دفاتر المواليد فى كل جرعة ١٩٣١٩ طفلا ، وقد حدثت الزيادة نتيجة تطعيم أعداد من ابناء المحافظة لم يكونوا مستهدفين . كذلك تم تطعيم عدد آخر من غير أبناء المحافظة (من خارج المحافظة) فى الجرعتين أيضا. وقد بلغت نسبة تغطية من كانوا مستهدفين فى الجرعة الأولى ٩٣٪ بينما بلغت نسبتهم فى الجرعة الثانية ٨٩ر٥٪ . كذلك فان المديرية الصحية قد قامت بتطعيمات وتحصينات أخرى ضد الأمراض المعدية مثل الجدرى والحصبة . وتدل احصائيات المديرية على أن هناك تزايدا فى هذا النشاط الوقائى .

وتوضح احصاءات المديرية أيضا وجود اهتمام خاص بصحة تلاميذ المدارس . وتعكس أيضا اقدام تلاميذ المدارس على العلاج فى الوحدات الصحية ففى عام ١٩٨٢ تردد على الوحدات ٩٧١٧ تلميذا وتلميذة ، وحتى ابريل سنة ١٩٨٣ وصل عدد المترددين منهم على الوحدات الصحية ٤٤١٧ تلميذا وتلميذة . وبلغ عدد التلاميذ الذين تم فحصهم فحصا شاملا

٦٧٣٥ فى عام ١٩٨٢ ، وزاد الاقبال فى عام ١٩٨٣ اذ بلغ عدد من تردد منهم على الوحدات الصحية قبل منتصف العام ٦٩٨٠ تلميذا . كذلك اهتمت المديرية بتطعيم التلاميذ ، وعلاج الحالات التى ثبت اصابتها بأى مرض . بالاضافة الى ذلك اهتمت بالأجهزة التعويضية مثل أجهزة شلل الأطفال كما اهتمت بعمل نظارات طبية لمن يحتاج اليها من التلاميذ .

كذلك كان هناك اهتمام بأعمال المسح الصحى فأجرى فحص لعينات (مسحات) تتعلق بفئات ومجالات بيئية معينة مثل متداولى الأغذية والقادمين من الخارج والحجاج . ولم يقتصر الاهتمام الصحى على ذلك بل امتد الى فحص شبكات المياه ومياه الآبار والترع والمجارى واهتم كل مسئول صحى أيضا بالاسهال البسيط وبمسحة بعد الوفاة ..

وفى دائرة المحافظة أيضا اهتمت مديرية الصحة بمراقبة الأغذية ففحصت عينات الألبان ومنتجات الالبان وغيرها من الاغذية . واعدمت الاغذية الفاسدة . فقد أعدمت مثلا سنة ١٩٨٢ ما يقرب من ٣٦٥٨ كيلو من الأغذية الفاسدة ، وأعدمت حتى نهاية مارس ٥٩٦ كيلو . وتشمل الخضروات والفواكه والأغذية المحفوظة والأغذية المحضرة والحلويات الجافة والأسماك واللحوم . كذلك قامت بصرف الشهادات الصحية التى بلغت عام ١٩٨٢ ٥٦٤١ شهادة وبلغت حتى نهاية مارس ١٩٨٢ ، ٧٧٨ شهادة .

ويوضح لنا الجدول التالى تزايد أعداد من يتقدمون على العـــلاج فى المستشفيات التى انشئت فى مناطق الصحراء الغربية ويتضح فيها تزايدا فى أعداد المقبلين على العيادة الخارجية والاستقبال ودخول المستشفى بشكل ملحوظ من عام ١٩٨١ الى عام ١٩٨٢ (١٧) .

ويعكس تزايد أعداد العمليات الجراحية فى نفس الفترة اقدام البدو على الطب الحديث . ففى مستشفى مطروح العام بلغ عدد العمليات التى

---

(١٧) أنظر التقرير السابق الاشارة اليه .

الوحدات	١٩٨١ عيادة خارجية		١٩٨١ قسم داخلي			١٩٨٢ عيادة خارجية		١٩٨٢ قسم داخلي		
	عيادة خارجية	استقبال	دخول	خروج احياء	خروج وفيات	عيادة خارجية	استقبال	دخول	خروج احياء	خروج وفيات
مستشفى مطروح العام	٣٤٣٠٦	١٢٩٢٣	٧١٤٠	٧١١٣	٢٣	٦٠٤٤٦	٢٣٤٩٨	٣٨٧٥	١٥٧٨	١٧
مستشفى السلوم المركزى	١١٤٤١	٣٢٥٤	٢٦٢	٢٤٨		١٢١٣٨	٢٣٨٠	٢٨٥	٢٧٩	٢
مستشفى سيدى برانى	٢٠٩٣٤	٣٨١٤	٢٣٩	٢٢٦	١	٢٠٥٦٥	١٢١٥	٣٧٧	٣٦٨	٧
مستشفى سيوة المركزى	٩٥٦٢	٣٨٣	١٨٩	١٨٢	١	١٣٣١٤	٢٩٦	٢٢٧	٢٢٢	٣
مستشفى الصدر	٨٠٥٨		٨١	٨٥		٨٦١٧		٧١	٦٢	
مستشفى الحميات	٣٨٥٤		٤٠٥	٣١٦	٢٩	٣٩٣٢		٢٥٥	٢٤٢	
المجموع	٨٨١٣٥	٢٠٣٧٤	٨٣١٦	٨١٧٠	٥٤	١١٩٠١٢	٢٧٣٨٩	٥٠٩٠	٥٠٢٥	٢٩

أجريت فى سنة ١٩٨١ ، ٥٨٥ عملية ، بينما ارتفع العدد فى سنة ١٩٨٢ الى ٦٢٣ عملية ، وكذلك الأمر فى بقية مستشفيات المنطقة . وفى سيوة قفز العدد من ٧٩ عملية فى سنة ١٩٨١ الى ١٢٥ عملية فى سنة ١٩٨٢ .

ويمكن التعرف ايضا على الاقبال على خدمات رعاية الأمومة والطفولة فى مطروح من خلال التعرف على احصاء نشاط رعاية الأمـومة والطفولة بالحضر . وعلى سبيل المثـال كانت جملة زيارات الحـوامل للمراكز أو المستشفيات فى سنة ١٩٨١ حوالى ٢١٣٢ حالة (٧٨٧ حالة جديدة) . أما فى سنة ١٩٨٢ فقد بلغت ٣١٨٧ حالة (١٣٧٩ حالة جديدة) . واذا كانت هذه الأرقام تعكس تزايدا فى أعداد من يلجأون لهذه الخدمات من عام الى عام فان الأرقام أيضا توضح نفس هذا التزايد بالنسبة لحالات الولادة التى تمت تحت اشراف صحى بلغت ١٢٠٠ حالة فى سنة ١٩٨١ وزادت الى ١٢٥٥ فى سنة ١٩٨٢ (وهى زيادة بسيطة) الا أن التفاصيل الواردة فى الاحصاءات تشير الى أن البدو ما زالوا يفضلون الولادة فى المنزل ولو تحت اشراف طبى فمن جملة الحالات التى سبق ذكرها فى سنة ١٩٨١ تمت ١١٥٢ حالة ولادة فى المنزل ، و٤٨ حالة فقط فى المستشفى ، بينما لم تتم حالة ولادة واحدة فى المركز .. ونفس الشىء بالنسبة لحالات سنة ١٩٨٢ ، فقد تمت الولادة بالنسبة لـ ١١٢٨ حالة فى المنزل و١٢٧ حالة فقط فى المستشفى ولم تتم ولادة واحدة فى المركز . وربما تكون معظم (أو بعض) حالات الولادة فى المستشفى قد تمت تحت ظروف اضطرارية ولو كان الاختيار للبدو لما ذهبوا الى المستشفى .

أما من جهة الافادة من خدمات الطفولة بالذات فتعكسها الأرقام التى تدل على أن زيارات الأطفال لم تتعدى ٦٦٠٩ زيارة فى سنة ١٩٨١ ، ولم تتجاوز ٨٣٥٣ زيارة فى سنة ١٩٨٢ .

ويجب ان نلتفت الى أن هذه الاحصـاءات توضح الاقبال على الخدمة فى المناطق الحضرية التى يفترض منها أن تأثير التحضر والاتجاه نحو تنظيم الأسرة

بفعل وسائل الاعلام وغيرها من أساليب الدعايـــة كان يمكن أن تغير من الاتجاهات .

ويهدف التخطيط الصحى فى منطقة الصحراء الغربية فى السنـــوات القادمة الى التوسع فى المنشآت الصحية التى تقدم هذا النوع من الخدمات . وهناك خطة خمسية مقترحة لذلك تبدأ من سنة ١٩٨٢ وحتى سنة ١٩٨٧ . وتهدف هذه الخطة الى استكمال مستشفى قروى فى الحمام وانشاء وحدتين صحيتين ريفيتين فى نوكة ورأس أبو لهو وانشاء نقط اسعاف طريق فى سيدى عبد الرحمن وبرج العرب . وتطوير الوحدة الصحية برأس الحكمة ثم تدعيم الحملة الميكانيكية بسيارات وذلك فى عام ٨٣/٨٢ . أما فى عام ٨٤/٨٣ فتهدف الخطة الى انشاء نقطة اسعاف طريق فى العلمين ومركز تدريب للفنيين فى مطروح ثم تعزيز الحملة وانشـــاء سكن للطبيب الثانـــى . والمخطط لعام ٨٥/٨٤ أن يتم خلاله تطوير الوحدة الصحية ببرج العرب وانشاء نقطة اسعاف طريق النجيلة ، وطريق برانى السلوم ، وتدعيم الحملة واستكمال خطة احلال وتجديد السيارات بالحملة والاسعاف . كذلك تهدف الخطة الى انشاء وحدة صحية ريفية بالغربانيات ، وتدعيم وتجديد الحملة ، واستكمال خطة سكن الطبيب الثانى ثم انشاء مجموعة صحية مدرسية بمطروح ، وذلك فى العام ٨٦/٨٥ . وفى نهاية العام ٨٧/٨٦ تتوقع الخطة تحقيق أهداف أخرى مثل تعزيز المديرية بسيارة فحص جموعى ، واستكمال سكن طبيب ثانى وانشاء عيادتين حى . ومن الطبيعى أن يؤدى زيادة الخدمات الصحية الى مزيد من الرعاية الصحية للبدو ومزيـــد من احداث التغـــير فى عاداتهم الصحيـــة ..

البتـرول :

لقد أفاد الكثير من سكان الصحراء من عمليات التنقيب عن البترول فى المناطق المجاورة لهم . فقد تأثرت البادية العراقية على سبيل المثال خلال النصف قرن الماضى بمظاهر الحياة الحضرية الحديثة وبدأت معالم التغير تأخذ طريقها الى عادات البدو وتقاليدهم ونظم حياتهم وذلك نتيجة انتشار

المواصلات الحديثة ، وتعبيد الطرق الجديدة ، واتصال البدو بالقرية والمدينة لبيع منتجاتهم من الألبان والصوف واللحم . كما لعبت شركات البترول دورا هاما فى هذا التغير نتيجة احتكاك البدو بعمال الشركات القائمة بالبحث عنه أو عن طريق عملهم هم أنفسهم فى هذه الشركات . فقد أدى ذلك الى تعرف البدوى على مختلف الوسائل الحضرية وعلى عادات وتقاليد تختلف تماما عن عادات وتقاليد البدو . بجانب هذا أدى وجود شركات البترول فى الصحراء العراقية الى انشاء ما يشبه المدن الصغيرة مما حدا بالكثير من القبائل العراقية الى ضرب خيامها حول هذه المنشآت والاستفادة من الوسائل الحديثة مثل الاذاعة والتلفزيون وغيرها من الوسائل الاعلامية كالصحف والمجلات . وقد قرب هذا التطور المسافة بين البدو ، ونشر بينهم كثيرا من ألوان الثقافة وأظهر لهم الفارق الكبير بين نمط حياتهم وبين نمط حياة سكان الريف والمدن(١٨)

النظام القبلى ونمط انتاج مرحلة ما قبل البترول فى الخليج :

واذا كان بدو المنطقة العربية بصفة عامة قد تأثروا فى مناطق متعددة بعمليات الحفر والبحث عن البترول فان منطقة الخليج هى المنطقة التى يمكن أن تؤخذ كمثال يوضح أثر البترول على حياة القبائل التى تعيش فى هذه المناطق . وتدل جغرافية منطقة الخليج على أن شعوب المنطقة قد صارعت طويلا ضد الطبيعة ، فقد كان من الصعب عليها أن تحصل على قوتها ومعيشتها من منطقة جرداء عقيمة . ولهذا فقد كان المصدر الأساسى لاقتصاد هذه المنطقة هو البحر الذى شجع على قيام مهنة الغطس بحثا عن اللؤلؤ والصيد والأنشطة التجارية . وقد كانت هناك زراعة محدودة النطاق فى الواحات مع انتاج بدوى سائد فى المناطق الداخلية من البلاد . وقد لعبت التجارة دورا هاما فى الاقتصاد سواء كان هذا فى الداخل حيث كانت هناك أعمالا تجارية بين القرى والمراكز . أو على المستوى الخارجى كتلك الأعمال التى تمت بين منطقة الخليج وبين الهند وايران وافريقيا والعراق .

---

(١٨) صلاح مصطفى الفوال ، البداوة العربية والتنمية ، مكتبة القاهرة الحديثة ، سنة ١٩٦٧ ، ص ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

وعلى ذلك فان الاقتصاد الذى كان سائدا فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هو اقتصاد صناعة اللؤلؤ . ويتضح مدى أهمية هذه الصناعة من المثل الذى ينتشر فيها ويقول « الغوص عادة والصلاة عبادة» . وتضمن كتابات المؤرخين العرب الأول ما يشير الى أن منطقة الخليج هى المنطقة التى يمكن جلب اللؤلؤ منها . وقد توارثت الأجيال مهنة الغطس واستخراج اللؤلـــؤ .

وقد اختلفت كثافة هذه الصناعة من دولة الى أخرى فى المنطقة . فقد كانت الكويت والبحرين هما أكبر دولتين تمارس فيهما هذه المهنة . ونذكر أن الكويت على سبيل المثال كان لديها ٨٠٠ سفينة تحمل فوقها عشرين الف رجل يعملون فى استخراج اللؤلؤ . على أن هذا العدد لم يكن كله من الكويتيين وفى سنة ١٩٢٠ كان أسطول البحرين يضم حوالى خمسمائة سفينة . وقد بدأت الأعداد الكبيرة من العاملين فى هذه المهنة يهجرونها فى الثلاثينات مع الأزمة العالمية للنقد حتى أن احصاءات سنة ١٩٥٠ فى البحرين لم تظهـــر وجود شخص واحد يعمل فى هذه المهنة .

أما بالنسبة للزراعة فقد كانت ممارستها تتم فى مناطق محدودة فى دول الخليج . ولم يكن من يعملون فى الزراعة يعرفون الملكية بمعناها السائد اليوم ، بمعنى أنها حق دائم أو ثابت بمقتضاه يمكن للشخص التحكم فى الشىء ويكون له حق البيع أو الشراء . فقد كان المزارع له حق استخدام الأرض فقط ، أما ملكيتها فكانت للشيوخ أو التجار الذين يأخذونها من الشيوخ . والشيخ أو التاجر هو الذى يحدد شروط استخدام المزارع للأرض ، ويحدد النسبة التى يأخذها من ناتج الأرض . وتضمن ذلك مخاطرة كبيرة بالنسبة للفلاح ، فاذا فشل أن يعتنى بما وعد به صاحب الأرض فان الأرض سوف تصـــــادر .

وكان يتم تنظيم العمل فى التجارة بنفس الطريقة . فالشيخ أو التاجر يقتطع لنفسه جزءا كبيرا من الفائض الاقتصادى . والشيخ عادة ما يحدد

التاجر الذى سيصبح وكيله فى جمع الضرائب من السفن التى تدخل الميناء ، وبعدها يقوم التاجر بجباية الضرائب بالقدر الذى يفى بحاجة الشيخ التى لا تتوقف كما يعنى بحاجاته المادية هو أيضا .

وفى ظل هذا الموقف الذى تعد فيه أساليب الانتاج محدودة بطريقة غير عادية فقد كانت ملكية وسائل الانتاج ترتبط بأصحاب السلطة داخل الأسرة الممتدة ، فكبير الأسرة يمارس سلطة على الأعضاء الآخرين ، وهم نظرا لموقفهم الأدنى فانهم عندما يعملون فى الأعمال التى توجد فى هذا المجال كانوا يتقاضون حقوقا أقل . بالاضافة الى ذلك كان لرئيس الأسرة سلطة التحكم فى زواج أعضائها بما يحقق زيادة ثروة الأسرة ، لهذا كان الزواج يتم فى دوائر محدودة جدا ، وقد أدت الاعتبارات الاقتصادية واعتبارات المقدرة المادية الى تعويق حدوث تزاوج بين الأسر الأكثر ملائمة لبعضها ، وقد فرض ذلك قيودا على نجاح الزواج . كذلك لم يكن مألوفا أن يتزوج شخص من أسرة تعتقد فى أصالتهــا وعــراقتها من أسرة غريبة فى المنطقة . ومن الطبيعى فى ظل هذا النظام الذى تستخدم فيه المراة لتعزيز وزيادة ثــروة الأسرة دون ان تلعب اى دور فى عملية الانتاج الا تتمتع المراة الا بقدر ضئيل من الحرية سواء فى اختيار زوجها أو فى التعبير عن رأيها .

ولم يكن هناك تشريعا دستوريا قبل بداية هذا القرن ، وكانت سلطة الحكم فى أيدى المشايخ رؤساء القبائل ، وكانت السلطة فى البحر فى يد قادة السفن . وعندما بدأوا فى سن القوانين تعلقت أساسا بعمليات استخراج اللؤلؤ من البحر . وعلى سبيل المثال فان التشريعات التى سنت فى البحرين وشاطىء عمان فى العشرينات والثلاثينات تهدف الى تقوية مركز التجار وقادة السفن . وقد ارتكزت فى الواقع على الاتفاقيات التقليدية . وكان القضاة فى المحاكم التى تتولى تطبيق القوانين واصدار الأحكام الخاصة بالغطس بحثا عن اللؤلؤ من قادة سفن صيد اللؤلؤ . وكانت قدرتهم على اصدار أحكام عادلة فى حالة حدوث نزاعات بين ارباب الأعمال وبين الغطاسين محدودة .

أما من جهة النظام السياسى فى دول الخليج فى مرحلة ما قبل البترول فقد كان يتميز بوجود حاكم يحكم من خلال وجود بناءات قبلية . فالبناءات القبلية التى وجدت فى مرحلة مبكرة بعد توطن واستقرار القبائل فى الكويت (فى القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر) كانت فى حالة اتصال وتشاور دائم مع الحاكم . وقد تطلب الاقتصاد الذى ظل رعويا الى ذلك الوقت استشارات واسعة النطاق لأن المصدر الأساسى للاقتصاد — القطعان — لم يكن ممكنا أن يكون تحت تصرف وتحت يد الحاكم بطريقة مباشرة . ويقول الرميحى : أن الحاكم الذى كان يحكم قبل الصباح الثانى كان ديمقراطيا فقد كان يشرك رؤساء القبائل جميعا فى كل أمر ، ولم يكن ينفذ أى خطة أو مشروع الا بعد استشارتهم ، وقد كان رؤساء القبائل يستشيرون بدورهم الحكماء من أعضاء قبائلهم . ولكن ضعف هذا التشاور بعد حكم الصباح الى أن انتهى تماما بعد ذلك . والسبب هو أن صناعة اللؤلؤ تضمنت تركيز سلطة أكبر فى يد الحاكم . فلم تكن قدرة الحاكم على أن يأتى بدخل اللؤلؤ ويوزعه بالعدل على كل من يعمل فى المهنة تتطلب مشورة بالضرورة . لهذا كان الحاكم يعمل من خلال تغيير الحلفاء من التجار العديدين كما ساندت القوى الخارجية الحامية (انجلترا) سلطة الحاكم .

ولم تكن السلطات الحاكمة مهتمة بتشجيع التعليم لأن التعليم الحديث يمكن أن يؤثر على البناء الاجتماعى الكلى الذى تعتمد عليه سلطتهم . والتعليم الوحيد الذى كان مقبولا هو قراءة القرآن وتسميعه مع تعلم بعض العمليات الحسابية البسيطة . وعندما غزا التعليم الحديث مناطق الخليج وأنشأت المدارس فى الخليج ودبى والبحرين فى العشرينات والثلاثينات فقد بدأها التجار وربابنة السفن الذين شعروا أن الشخص المتعلم سوف يمكنهم من تنظيم أعمالهم بطريقة أفضل ، ويمكنهم من توسيع دائرة اتصالاتهم . وقد واجهت محاولات انشاء هذه المدارس معارضات كبيرة من هؤلاء الذين كانوا يخشون تأثير التعليم على البناء الاجتماعى . ولهذا كان الاتجاه نحو التعليم

احد عوامل القلق الشديد ، وارتبط ذلك بالتأكيد على أهمية التدريب الذى يمكن أن يحقق فائدة مباشرة (١٩) .

البترول والبناء الاجتماعى فى الخليج :

أما الآن وبعد ظهور البترول فى هذه المنطقة فقد حدثت تغيرات عديدة ولكن ظلت هذه التغيرات متأثرة بعامل أساسى هو استمرار البناء القبلى وبعض العوامل الأخرى مثل زيادة رأس المال الكبير فى وقت قصير نسبيا . ذلك أن رأس المال الكبير اللازم للتنمية قد جاء الى هذه البلاد فجأة . وهذا يصدق بصفة أساسية على البلاد التى بدأت تنتج البترول حديثا مثل دولة الامارات العربية (فقد بدأ انتاج البترول فى ابو ظبى سنة ١٩٦٢ ، وفى دبى سنة ١٩٦٩ ، وفى الشارقة سنة ١٩٧٣ ، وفى عمان سنة ١٩٦٧) . ومع نهاية الستينات وبداية السبعينات زاد دخل حكومات هذه الدول من البترول زيادة رهيبة . ففى سنة ١٩٧٩ وصل انتاج دولة الامارات العربية على سبيل المثال الى ١½ مليون برميل يوميا . ونظرا لصغر حجم السكان فى هذه الدول (بلغ عدد سكان دولة الامارات سنة ١٩٧٥ ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة) فقد كان تأثير هذا التغير على مستوى المعيشة فى هذه البلاد تأثيرا هائلا . وسوف نحاول هنا دراسة ملامح التغير الذى نتج عن اكتشاف البترول .

كان من الطبيعى أن يرتبط اكتشاف البترول فى المنطقة بتغيرات عديدة فى الاقتصاد ذلك أن هذه الدول حاولت أن تتخطى المرحلة التى كانت تعيش فيها لكى تقفز الى مرتبة الدول التى تنفذ برامج تنموية ، وساعدها على ذلك توفر المال . غير أن نمو القطاعات المختلفة فى هذه الدول يعتبر نموا ضئيلا بطيئا على الرغم من زيادة الدخول . فجوانب التنمية الشاملة التى من شأنها ادماج القطاعات السكانية فى أنشطة مختلفة لم تتم بالشكل المتكامل . ويرجع ذلك بصفة أساسية الى أنه على الرغم من أن البيئة الطبيعية لدول الخليج غنية بالمخزون من الهيدروكربون فانها فقيرة بالنسبة للموارد الطبيعية

---

(١٩) محمد الرميحى ، ص ص ٥٠ ، ٥٧ — ٥٩ .

الأخرى . وقد أدى ذلك بجانب الاهتمام المتزايد بالبترول واقتصادياته عن المجالات الأخرى الى حدوث تخلف فى الجوانب الأخرى . فقد أدى على سبيل المثال عدم الاهتمام بالزراعة الى أن تصبح غير قادرة على الوفاء باحتياجات السكان أنفسهم . وأدى الاقتصاد المزدهر المرتبط بالبترول فى عمان الى جذب العمالة بعيدا عن الزراعة ، ونتج عن ذلك أهمال نظام الرى فى المناطق الزراعية التى كانت تشكل العمود الفقرى بالنسبة للاقتصاد الزراعى القومى . وعلى الرغم من أن الحكومة قد حاولت تنمية القطاع الزراعى بعمل مراكز تجريبية ومزارع ولكن معظمها تولى شئونها الأثرياء . واذ لم تتوفر لديهم القدرة على ادارتها بالمفهوم الاقتصادى فقد كان هذا ضياعا للمال واستجلابا لعمالة زراعية من مناطق تشكو أساسا من قلة العمالة الزراعية فيهـــا .

أما من جهة الصناعة فان هذا القطاع قطاع ناشىء وجديد ويتم تحويله من دخل البترول . ويخشى بسبب عوامل متعددة أن تلجأ هذه الدول الى الصناعات التى ليس لها مستقبل طويل . ولهذا يجب أن تتوجه هذه الدول الى الصناعات التى تتوفر لها موارد داخل الدولة نفسها وأن تتبنى صناعات مختلفة بحيث لا تنافس بعضها فى السوق العالمى .

لقد احتاجت هذه الدول الى أيدى عاملة من خارج نطاق الوطن العربى . وهذا ينطبق على كل الدول العربية البترولية خارج نطاق منطقة الخليج مثل ليبيا . وتم جلب أيدى عاملة غير عربية من دول مثل الهند وباكستان . واذا كان ذلك يمكن أن يؤثر على دول مثل العراق وليبيا فهو اقوى تأثيرا على دول الخليج العربى الصغيرة . ويعتبر جلب مهاجرين للعمل فى المنطقـــة ذا آثار اجتماعية وسياسية بعيدة المدى .

وقد ارتبطت التغيرات فى الاقتصاد فى دول الخليج كنتيجة لزيادة رأس المال بتغيرات سياسية . ومع ذلك فان استمرار البناءات التقليدية ربمـــا يعتبر – كما أشرنا قبل ذلك – هو المظهر الأساسى فى هذه الدول . فحتى

سنة ١٩٧٠ كانت البحرين وقطر والدول السبع التي تكون معا دولة الامارات العربية تحت الحماية الانجليزية . ولكن على الرغم من ان انجلترا انسحبت من المنطقة الا ان ذلك لم يتضمن تغييرات فى التنظيم السياسى ، ذلك لأن أسر المشايخ التى كانت تتركز فى يدها السلطة والتى كانت تتحالف مع قادة القطاعات القبلية ومع التجار استمرت فى نفس مركز السلطة . ومع ذلك فان التغير قد أدى الى اتصال مباشر بالعالم الخارجى ، وادى هذا بدوره الى ظهور آفاق جديدة كما أنه أتاح الفرصة لوجود مشكلات جديدة . وكانت أهم المشكلات هى طابع العلاقات التى تربط بين دول الخليج . وعلى الرغم من ان البحرين وقطر قد طالبتا باستقلال كل منهما عن الأخرى فقد نما بينها اتجاها نحو التعاون والتنسيق فى مجالات متعــددة بحيث حل محل عمليات المنافسة التى ظهرت بين هذه الدول فى الماضى (٢٠) .

تأثير البترول على البـدو :

اذا كان تأثير اكتشاف البترول قد بـدا واضحا على كـل مجتمع من المجتمعات التى ظهر فيها البترول ، فان تأثيرا واضحا قد حدث بالنسبة للجماعات البدوية فى الصحراء العربية بسبب اكتشاف البترول وبسبب وجود شركات البترول فى المنطقة . وسوف نأخذ بدو السعودية كمثال يوضح لنا ما حدث لهذه الجماعات . فقد أدى اكتشاف البترول الى مزيد من استقرار البدو فى السعودية ، كما أدى الى المنافسة المتزايدة فيما يتعلق بالأجور وضمان العمل المستقر الذى توفره وتضمنه شركات البترول والحكومة . وقد ارتبط ذلك بهجرة أعداد كبيرة الى المدن (٢١) .

وتطلعنا دراسة دونالدكول على مدى انخراط بدو السعودية فى أعمال البترول والآثار التى ترتبت على ذلك فى جوانب أخرى من النشاط الاقتصادى

---

(٢٠) نيلوك ص ص ١١ — ١٩ .

(٢١) Galal A. Amin, The modernization of poverty., A study in political economy of Growith in Nine Arab Countires (1945-1970). Leiden E.J. Brill., 1974, p. 87.

والحياة الاجتماعية . فقد بدأ البدو يعملون كمرشدين لشركات البتـــرول الأمريكية فى شرق السعودية عند بداية اكتشاف البترول فى أواخر سنة ١٩٣٠ ثم عملوا كعمال غير مهرة . وقد دفع النقص فى العمالة الماهرة الشركة العربية الأمريكية للبترول (أرامكو) الى افتتاح مدارس خاصة لعمالها ، وكـــان معظمهم من البدو صغـــار السن ، ودربتهم على قيادة السيارات واللوارى . ونتج عن هذا أن اشترى الكثير من البدو من شركة أرامكو لوريات مستخدمة واستخدموها فى رعاية قطعانهم فى الصحراء . وفى وقت لاحق وزعت الحكومة عددا كبيرا من اللوريات على البـــدو فى وسط وجنـــوب السعودية . وبمضى الوقت باع كثير من البدو بعض ممتلكاتهم وجمالهم واشتروا لوريات . وقد كان لهذه اللوريات أثرا كبيرا فى حياة البدو . فقد ارتبط الاستخدام المتزايد للوريات فى الصحراء بتغيرات هامة أخرى تتعلق باستغلال الصحراء .

وقد طورت صناعة البترول مصادر المياه وذلك بحفر آبار أكثر عمقا وعملت الحكومة على استمرار حفرها بعد ذلك وبالتالى تغير نمط المعسكرات الصيفية لدى البدو . وعلى الرغم من أن البدو كانوا يحفرون آبارا عميقة الا أنهم كانوا أكثر اعتمادا على الآبار البدائية السطحية .

وهناك تطورات أخرى نتجت عن استخدام البدو للوريات وتطور الخدمات فى هذه المناطق ثم استحداث مصادر للمياه . وقد تعلقت التطورات بالنشاط الرعوى على وجه الخصوص ، فقد كان النشاط الرعوى السائد فى السعودية حتى الحرب العالمية الثانية هو رعى الجمال ، وكانت تربية الخراف والماعز هى وظيفة القبائل الخادمة وكانت علامة على الفقر وترتبط بمكانة دنيا . وقد تغير كل ذلك وأصبح الأثرياء يعملون فى تربية الخراف والماعز . وتعتبر قبيلة المرة هى أحد هذه القبائل التى تعيش فى بيئة ملائمة تماما لتربية الجمال ، وبالفعل قد استمرت القبيلة فترة طويلة تعمل فى رعى الجمال لكن تحولت مجموعتين كبيرتين من القبيلة الى رعى الخراف . وكانت المجموعة الأولى تضم أسر ثرية ذات نفوذ سياسى فى فترة ما قبل اكتشاف البترول ، أمـــا

المجموعة الثانية فتتكون من بدو فقراء كانوا يمتلكون قطعانا فقيرة من الجمال . ويلاحظ أن تربية الخراف تدر مالا أكثر بسبب حاجة المدن اليها وتسمح لمن يرعونهـــا بالاقامة بالقرب من المراكز الحضريـــة بالمقارنة بمن يهتمون بتربية الجمال وهذا يتيح لهم فرصة الاشتراك فى الأنشطة السياسية والعسكرية التى يقوم بها قادة قبيلتهم ، ولا يخفى علينا مقدار تأثر البدو بما هو حديث فى المدن نتيجة قربهم منها . بالاضافة الى ذلك فقد عمل معظم الرجال من متوسطى العمر فى شركات البترول أو فى وظائف دائمة فى المراكز الحضرية ، وجمع الكثير منهم بين تربية الخراف وبين الارشاد فى الصحراء فى مقابل أجر .

وقد نتج عن هذا تغير فى نمط التجمع وعلاقته بالنسق القرابى . فلم تعد المعسكرات الصيفية التى يقيم فيها البدو ترتبط بفكرة الانتساب الى عشيرة واحدة كما كان الأمر فى النظام التقليدى . فأصبح أفراد أكثر من قبيلة يشاركون فى مصدر واحد من المصادر الجديدة للمياه . ولم يتضمن ذلك خلافات كما كان يحدث بالنسبة للآبار القديمة . ويساعد على ذلك أن البدو يرون أن الآبار يجب أن تكون متاحـة للجميع طالما أن الغـــرباء هم الذين شيدوها . وقد تطورت هذه المعسكرات حول الآبار فظهرت مساحات مزروعة فى بعضها . وضم المعسكر الجامع والمدرسة والمحال التجارية بما فى ذلك محال بيع قطع غيار السيارات ومحال بيع الأطعمة والملابس . وقد شيدت مساكن كثيرة فى هذه المعسكرات من الطوب بحيث يقيم فيها البدو صيفا ويستخدمونها كمخازن عندما يذهبون الـــى الأماكن المجاورة مع قطعانهم شتـــاءا .

وقد صحب التحول الى تربية الخراف تغيرات فى البناء الاجتماعى ، وخاصة فيما يتعلق بالترابط والانقسام القرابى . فنظرا لأنه نادرا ما تربى الجمال والخراف معا فالشخص الذى يتحول من العمل فى تربية الجمال الى العمل فى تربية الخراف عادة ما يكف عن التنقل مع أفراد عشيرته الذين يربون الجمال ، ونادرا ما يتقابل معهم الا فى أسواق الحضر ونظرا لأنه

عادة ما يقيم بأغنامه بجوار احدى الآبار الحديثة . ويبدأ ينظر الى إفراد عشيرته على أنهم جماعة تقليدية منفصلة عنه على الرغم من أن مسئوليات تتعلق بالقرابة ورابطة الدم لا تتأثر بذلك ، بل يبقى ملتزما بها على الرغم من تكوينه لعلاقات جديدة مع أفراد من قبائل أخرى لها خط انتساب مخالف .

وما يجب أن نلتفت اليه هنا هو أن هناك ولا شك تغيرات نتجت عن مشروعات البحث عن البترول وما ارتبط بها من مشروعات واستحداثات في البيئة الصحراوية مثل جلب اللوريات الى الصحراء واستخدام البدو لها ومثل حفر الآبار الحديثة . ولكن على الرغم من أن هذه التغيرات قد جذبت البدو الى أنواع من الأعمال غير مرتبطة بعملية رعى الحيوان الا أنهم لم يتركوا تماما رعى الحيوان ، بل ظلوا يمارسونه كعمل أساسى بجانب أى عمل آخر سواء تخصص فيه بعض أفراد الأسرة دون غيرهم ، أو مارسوه في مواسم معينة . وكل ما حدث هو الانتقال من رعى حيوان الى رعى حيوان آخر . ويرجع السبب في ذلك الى وجود البدو في بيئة صحراويـــة . فهم حريصون باستمرار — حتى لو مارسوا أعمالا أخرى — أن يحسنون استغلالها ، وربما أدى التمسك بالرعى الى أن يظل البناء الاجتماعى والثقافة بمنأى عن أى تغيرات جذرية . فعلى الرغم من ارتفاع مستوى المعيشة وتوفر درجة أكبر من الأمن الا أن الفجوة بين نمط الحياة البدوية ونمط حياة الجماعات الأخرى ما زالت كبيرة (٢٢) .

وقبل أن ننهى هذه الفكرة المبسطة عن البترول العربى واثره على حياة سكان الصحراء نود أن نبدى بعض الملاحظات :

أولا : ان ما قدمناه هنا هو مجرد اشارة الى تأثير البحث عن البترول أو اكتشافة على هذه الجماعات . وهو تأثير هائل لابد من دراسته للتعرف على كم وكثافة التغيرات التى حدثت بفضل هذا العامل . ولكن للآن لم

---

(٢٢) كول ، البدو حول حقول البترول ، ص ٦٣٥ — الخ .
مقال ورد في كتاب :
Saad Eddin Ibrahim and Nicholass Hopkins. Arab Society in Transition., The American University inCairo., Cairo., 1977.

تجر دراسات جادة تتعلق بهذا الجانب . وقد أشير من قبل الى أن الأهمية المتزايدة لمنطقة الخليج العربى التى تعرف على أنها تضم المملكة العربية السعودية والعراق والكويت وعمان والبحرين وقطر ودولة الامارات العربية ، مع ايـــران لم تحظ الا باهتمـــام ضئيـــل من جهـــة الأكاديميين ،ولم توجد الا دراسات قليلة جـدا هى التى حاولت أنتمـلأ الفـــراغ فيما يتعلق بفهم هــذه البــلاد بصفة عامـــة . ويركز الكثير ممـــا كتب عـــن الخليج على الاهتمامات الخارجية وليس على ما يهم المنطقة ذاتها . وحتى بالنسبة للبترول فان اتجاه الاهتمام كان ينصب دائما على فكرة الأمن . وقد فسرت هذه الفكرة على أنها قدرة القوى الغربية على الاحتفاظ بحرية الوصول الى بترول الخليج والافادة من الكسب والدخول التى تتحقق منه . واذا كان النمو السريع قد أدى الى زيادة الرغبة فى دراسة هذه الدول فان هذا النمو السريع هو أيضا السبب فى تلك الصعوبات التى تواجه من يحاول دراسة أنماط التنمية والتغير فى الخليج العربى (٢٣) . واذا كانت الدراسات الخاصة بتأثير البترول على هذه الدول بصفة عامة ما زالت ناقصة ، فان الدراسات الخاصة بالجماعات البدوية والصحراوية وعلاقتها بالبترول ما زالت أيضا فى حاجة الى دراسة . وسوف تتناول الفصول القادمة بعض الدراسات التى تشير الى تأثر سكان الصحراء بشكل مباشر أو غير مباشر بالبحث عن البترول فى المناطق المجاورة لهم .

ثانيا : أننا لا يجب أن ننظر الى التغيرات التى حدثت بعد عصر اكتشاف البترول فى اى بلد عربى نظرة مستقلة تعزل الأحداث والعوامل التى ارتبطت بهذه الفترة عن الأحداث والعوامل التى كانت سائدة قبل هذه الفترة أو بعدها . وعلى سبيل المثال فان جوانب التنمية التى حدثت فى السعودية فيما بعد فترة اكتشاف البترول قد تأسست على ظروف وأسس كانت موجودة قبل ذلك ، كما أن بعض العوامل الفاعلة فى التنمية فى فترة ما قبل اكتشاف البترول كانت أساسية وحاسمة بالنسبة لتنمية ما بعد اكتشاف البترول .

---

(٢٣) نيلوك ، المرجع السابق ، ص ص ١١ – ١٢ .

بل أن اكتشاف البترول كعامل من عوامل التغيير والتنمية كان يتضافر مع عوامل أخرى فاعلة فى تغير وتنمية المجتمع (٢٤) .

ثالثا : والملاحظة الأخيرة هى تلك الاشارة الهامة التى ذكرها الرميحى والتى يجب أن يضعها كل دارس فى اعتباره عند دراسة هذه المجتمعات وهى « أن اكتشاف البترول فى دول الخليج قد غير أسلوب الانتاج بينما ظلت البناءات الاجتماعية والسياسية مرتبطة بأسلوب انتاج قديم .. ويعد مصدر كثير من مشكلات مجتمع الخليج فى أنها تحولت الى نمط انتاج جديد تطلب علاقات جديدة » (٢٥) .

---

(٢٤) مالون ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٢٥) محمد الرميحى ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

الفصل الثامن

تغير البــدو فى المدن الســاحلية
« مدينة مرسى مطــروح »
« دراســة ميدانية »

مرسى مطروح مدينة ساحلية على شاطىء البحر المتوسط ، على بعد حوالى ٢٠٠ ميل غرب الاسكندرية . وقد كانت مطروح ميناء سيوة حينما كانت سيوة تسمى باسم واحة آمون ، لذلك كانت تسمى مطروح باسم أمونيا Ammonia . وفى عهد البطالسة والرومان كانت تسمى بارانيونيوم . ويرجح أن يكون الاسكندر قد توقف بهذه المنطقة فى رحلته التاريخية الى معبد آمون .

وكانت مطروح من أجمل المصايف لأغنياء اليونان والرومان . وقد لعبت دورا كبيرا فى حماية مصر من الغزو من الناحية الغربية ، ففى عهد الامبراطور جستنيان تم تحصين مرسى مطــروح ، وأقيم بها حصن فوق رابية مرتفعــة شرق الميناء ، اندثرت معالمه الآن (١) . وقد كانت تعتبر أيضا مركزا تجاريا للصحراء ، ومركزا لحرفة صيد الاسفنج ، والتى كان يحتكرها الايطاليون . أما اليونانيون فكانوا يحتكرون التجارة فى المدينة ، ويبيعون بضائعهم بأسعار باهظة جدا .

التغيرات منذ عهد الثورة وحتى سنة ١٩٧٣ :

وتعتبر مدينة مرسى مطروح عاصمة محافظة مطروح . وقد شهدت مرسى مطروح فى السنوات الأخيرة تغييرات كثيرة . فأصبحت مدينة على درجة من التحضر لا تقل كثيرا عن المدن الكبرى فى جمهورية مصر العربية .

---

(١) بلجراف ، المرجع السابق ، صص ٧ — ١٢ .

غير أنها تتميز بعدة خصائص ، فهى عاصمة صحراوية تعيش فيها قبائل ترجع الى أصول سلالية متميزة . ويمكن التعرف على التغيرات التى حدثت منذ قيام الثورة وحتى سنة ١٩٧٣ فى مطروح والعوامل المؤدية اليها من خلال النقاط الآتية :

(ا) تزايد أعداد البدو في مدينة مرسى مطروح :

تزايدت أعداد البدو فى المدينة الصحراوية والمناطق المحيطة بها عما قبل فقد بدأت الأنشطة التجارية والسياحية التى سنتكلم عنها فيما بعد تجذب اعدادا أكبر من البدو .

ونود أن نوضح أن بدو مرسى مطروح موزعون توزيعا خاصا بالنسبة لمدينة مطروح . فتعداد مدينة مطروح « قسم مطروح » ١٥٧٩٨ نسمة(٢) ، يقطنون فى مناطق مختلفة من مدينة مطروح ، فهناك بعض البدو الذين يقيمون داخل المدينة ، وهم أكثر احتكاكا وتأثرا ، ويبلغون حوالى ١١٠٣٩ نسمة . كما أن هناك ١٥٤٦ نسمة يقيمون فى حدود متاخمة للمدينة يمكن ان نطلق عليها ضواحى مطروح . كما أن هناك بقية جماعات بدو مطروح التى تقطن مناطق أكثر بعدا عن المدينة . ويلاحظ أن أهالى معظم هذه المناطق يمكنهم دائما الاتصال بالمدينة فى فترات شبه منتظمة لقضاء مصالحهم فى المدينة . ويمكن أن يتناسب تأثرهم بالمدينة تناسبا عكسيا مع درجة بعدهم عنهـــا .

(ب) عمل البـــدو فى المصالح الحكومية واحتكاكهم بالوافدين من المـــدن غير الصحراوية :

نظرا لأن مدينة مرسى مطروح تعتبر عاصمة المحافظة فانها تميزت بوجود الادارات ومرافق الخدمات التى تخدم بدو الصحراء جميعا ، وقد

---

(٢) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء ، نتائج التعداد بالعينة لسنة ١٩٦٧ مرجع رقم ١ ــ ٧١١ .

أدت هذه الخاصية إلى امكان احتكاك البدو بأبناء الوادى احتكاكا أكثر كثافة ، واحتكاكا دائما ومستمرا ، سواء فى أوقـات العمل الرسمية أو أوقـات الفراغ . كما أن البدو هم أصحاب جميع محلات التجارة والخضروات ، والبقالة ، والجزارة ، ومختلف المتطلبات التى تحتاجها عائلات الموظفين فى مطروح ، وهذا قد أنشأ نوعا من العلاقات بين البدو والموظفين ، نتجت عن العلاقات التجارية . ويلاحظ أن طول فترة اقامة الموظفين بمطروح ، والتى قد تصل الى عدد من السنوات ـــ تؤدى الى تدعيم هذه العلاقات . ويلاحظ أن وجود هؤلاء الموظفين الحاملين لثقافة وادى النيل فى مطروح قد أتاح الفرصة لاختلاطهم مع البدو من الرجال والنساء . وثمة ظاهرة اخرى تميزت بها مرسى مطروح عن مختلف مناطق الصحراء ، وهى حالات المصاهرة التى تمت بين بعض البدو ، وعائلات من وادى النيل ، ولا يخفى ما يمكن أن يحدث نتيجة لهذه المصاهرة من امتزاج سلالى وثقافى معا .

(جـ) اشتغال البدو بسياحة الاصطياف وانخراطهم فى التجارة :

اشتغل البدو أيضا بسياحة الاصطياف بأنشطتها المعروفة والمتعددة . واذا كان عدد من يصلون الى مدينة مرسى مطروح من أبناء المدن المصرية بغرض الاصطياف قد وصل الى مائة ألف مصطاف سنويا فيمكننا أن نتصور كم الخدمات والأنشطة التى يمارسها البدو خاصة فى فترة الصيف .

بالاضافة الى ذلك فقد نشطت حركة تجارة البضائع المستوردة فى المدينة وعمل البدو بصفة أساسية فى هذه التجارة . وقد كانت هذه التجارة هى العمل الأساسى الذى عمل به كثير من البدو على مدى سنوات طويلة .

(د) افادة البدو من الخدمات التى يقدمها المجتمع :

وقد نتج عن ذلك تغيرات عديدة فى حياة بدو مرسى مطروح ، فقد حرصت الدولة منذ قيام الثورة على الاهتمام بالمناطق الصحراوية ، وقامت بتقديم خـدمات عديدة لسكان هـذه المناطق للعمل على تنميـة مناطقهم وتحقيق استقرارهم . ومن الطبيعى أن تكون مدينة مرسى مطروح هى المركز الذى

تنبع منه كل الخدمات التى تقدمها الدولة للبدو المنتشرين فى أرجاء متباعدة فى الصحراء . ولهذا كان بدو مرسى مطروح هم أول من أفاد من هذه الخدمات التى قدمتها الدولة للمجتمع الصحراوى ، فقد أفادوا من الخدمات التعليمية والصحية وخدمات الشئون الاجتماعية وغيرها .

(هـ) استجابة البدو للانماط الثقافية الوافدة الى الصحراء :

اذا كانت مختلف الظروف والعوامل السابقة قد أدت الى تغيرات عديدة فى حياة البدو (٣) . فاننا سوف نشير باختصار الى التغيرات التى حدثت فى بعض جوانب الثقافة البدوية .

لا شك أن الثقافة البدوية ــ وخاصة ذلك الجانب المادى الظاهر ــ قد تأثرت فى مدينة مرسى مطروح بالتغيرات المشـــار اليها . وعلى سبيل المثال فاننا يمكن أن نلمح تغيرات فى الزى البدوى . فقد أدى عمل البدو فى الشركات والمصالح الحكومية الى تغيير زيهم ولو جزئيا ، فأصبح البدوى لا يرتدى الحرام بل اكتفى بالجلباب والسروال ، وأصبح غطاء الرأس مجرد طاقية . أما بالنسبة لزى النساء فقد كانت المراة البدوية ترتدى ثوبا اسودا طويل الأكمام ، وفى مناسبات خاصة يكون من الحرير المخطط ، ويلف حول الوسط حزام من الصوف الأحمر . أما غطاء الرأس فهو عبارة عن منديل من الحرير الملون يربط على الرأس باحكام بحيث يسمح لضفيرتين بالتدلى على جانبى الوجه ، ثم توضع فـوق الرأس طرحة طويلـــة ذات حواشى مزركشة ، ويكمل الزى حذاء خفيف من الجلد القرمزى . كما تتزين النساء برسم ذقونهن وجباههن باللون الأزرق ، وتصبغ العجائز شعورهن باللون البرتقالى اللامع .

---

(٣) يلاحظ أن ما نعتبره عاملا من عوامل التغير يمكن أن يكون هو نفسه مظهرا من مظاهر التغير فى الحياة الاجتماعية . وعلى سبيل المثال فان تعليم أبناء البدو يمكن أن يكون أحد التغيرات التى حدثت فى الصحراء ، وفى نفس الوقت يمكن أن يكون عاملا مؤديا لحدوث تغيرات اخرى .

وخلال الفترة المشار اليها وضح تأثر فتيات مطروح بالتيار الوافد الى مدينة مطروح بفعل عوامل كثيرة . وقد أمكن رؤية بعض البدويات اللواتى يعشن داخل مدينة مطروح يرتدين بنطلونات . وقد بدأت معظم الفتيات يستغنين عن الطرحة كما استبدلن الدملج بالمساغ الذهب .

وبدأت النساء كذلك تلبس الأحذية الحديثة بدلا من الأحذية البدوية المزركشة ذات العنق الطويل ، كما يلبسن الشباشب الواردة عن طريق ليبيا . وابتدأ الوشم يختفى من على الوجه ليحل محله مختلف أنواع الزينة التى ترد من مصر والاسكندرية وليبيا .

وبالنسبة لطلبة وطالبات المدارس فلقد حدث تغيير كبير بالنسبة لهم من حيث المظهر والملابس وأنماط السلوك ، وخصوصا طلبة الثانوى والفئة القليلة التى على أبواب الجامعة . فهم يعتبرون أنفسهم الفئة المتطورة ، ويساعدهم هذا الشعور على الاسراع فى تغيير مظهرهم البدوى لكى يماثلوا طلبة وطالبات القاهرة والاسكدرية ، كما ظهر ذلك جليا فى العلاقات بين الجنسين ، اذ أصبح سلوكهم يغاير تقاليد البدو ، وان كان هذا لا يعنى تنكرهم للجماعة البدوية . وترجع أسباب التغيرات التى طرأت على هذه الفئة الى عدة عوامل من بينها وجود طلبة من أبناء الموظفين العاملين فى مطروح واختلاطهم بالبدو ، بالاضافة الى أن المدرسة الثانوية كانت مشتركة حتى وقت قريب . هذا مع العلم بأن دور المعلمين والمعلمات ما زالت مشتركة . ومن بين هذه العوامل أيضا نزول بعض الطلبة كثيرا الى القاهرة أو الى الاسكندرية ، وتطلعهم للالتحاق بالجامعة .

وقد حدث تغير أيضا فى عاداتهم الغذائية . فبعد أن كان الأرز الذى يطهى بالكركم والطماطم ويقدم كغذاء رئيسى فى الوجبة ، وبعد أن كان السمن الشيحى « شحم الأغنام » يقدم للضيف مع الخبز الذى يصنع من الشعير أو الذرة ، أصبحت هناك وجبات جديدة من اللحم والخضروات التى تباع فى سوق المدينة . وتعلمت البدوية طهى كثير من الوجبات التى لم تكن مألوفة

لها . . وأصبح الطعام أيضا يقــدم فى آنية حديثة وليس فى الآنيــة البدوية التقليدية .

تغير الاتجاه نحو الطب التقليدى والممارسات الصحية :

تعتبر الممارسات الصحية من أهم الجوانب التى يجب التعرف عليها نظرا لأهميتها بالنسبة للفرد والمجتمع على السواء . وتعكس التغيرات فى الممارسات الصحية من التقليدى الى الحديث تغيرا ليس فقط فى السلوك انما فى الاتجاهات أيضا . ونظرا لأن مرسى مطروح قد تميزت عن بقية مناطق المحافظة بوجود مستشفى عام يضم مختلف التخصصات والخدمات الصحية التى تفوق ما يقدم للبدو فى اى منطقة صحراوية أخرى بجانب مختلف الخدمات والامكانيات والتسهيلات الصحية الأخرى التى وجدت فى المدينة مثل الصيدليات والعيادات الخاصة ، فانه بدا من المهم أن نتعرف على التغيرات التى حدثت فى مجال السلوك الصحى للبدو . ولكى نفعل ذلك علينا أولا أن نتعرف على طابع وخصائص الطب البدوى التقليدى .

اشتهر البدو بالبراعة فى علاج كثير من الأمراض التى قد تصادفهم فى الصحراء . ويتميز الطب الشعبى بأنه محدود سواء من حيث المادة الطبية ، أو من حيث طرق العلاج فى ضوء امكانيات البيئة الصــحراوية . لذلك يستعملون مختلف الأعشاب الموجودة بالصحراء لعلاج كثير من الأمراض .

ويهتم البدو بالصحة اهتماما كبيرا . ومن علامات الصحة الجيدة عندهم أن يكون الشخص ممتلىء الجسم ، ولا يعرف الكحة ، وليس مصابا بأى هبوط . بجانب أن يكون شعره جميلا قويا . ويحب المشى ولا يحب الكسل . ومن مستلزمات الصحة الجيدة الغذاء أولا وأخيرا ، ولا يعتقد البدو أن للوراثة أى أثر على الصحة الجيدة . ولهذا فمن يريد تحسين صحته عليه أن يأكل ويتغذى (٤) .

---

(٤) اللواء رفعت الجوهرى ، شريعة الصحراء . عادات وتقاليد . ، مرجع سابق ، ص‌ص ٥٤ ، ٥٥ .

وللطبيب الشعبي في الصحراء الغربية عموما مكانة مرموقة ، فالناس يحترمونه ويخافونه . ويلقب هذا الطبيب بلقب « ظريف » كما تلقب الطبيبة بلقب « ظريفة » . ويمتلك كل طبيب حقيبته الطبية : وهى عبارة عن حقيبة أو « كيس قماش » يضع فيه أدواته المكونة من « موسى » و « مشفاة » وهى الأبرة ، وبعض قطع القماش أو الأربطة ، وبعض الأخشاب لتجبير الكسور .

ويمارس مهنة الطب عند البدو أشخاص مخصوصين ، فتوجد بعض العائلات التى تشتهر بالطب ، كما أن هناك أشخاصا متخصصين فى علاج أمراض معينة . وتتخصص النساء فى علاج معظم أمراض النساء ، وفى الولادة بالاضافة الى علاج أمراض أخرى .

ولا يعتقد البدو أن أطباءهم يكتسبون قدرتهم الطبية من الأرواح أو الجن أو أى قوى أخرى . ويلاحظ أن البدو لا يستخدمون مخطوطات طبية لكي يتعلموا منها فهم يتعلموا بالخبرة . ولهذا تعزى المقدرة الطبية الى القدرة الفردية على التعليم أكثر مما تعزى الى عامل الوراثة ، فهم يعتقدون ان طبيبا ماهرا يمكن الا يكون ابنه طبيبا نهائيا .

ويتم فحص المريض عن طريق تحسس الجسم باليد أو بالنظر ، فهو يضع يده على الجزء المصاب بالألم ، فيقرر المرض ثم يقوم بالعلاج . وهم لا يعرفون قياس النبض . وعادة لا يفحص الطبيب المريض فى حالة الأمراض السرية فحصا مباشرا ، بل يكتفى بأن يشرح له الحالة فيشخص المرض ويصف العلاج . ويعتبر الخرط أو الخزم (٥) من أهم أساليب العلاج البدوى .

---

(٥) الخرط أو الخزم هو أحد أنواع العلاج البدوى ، ويتم عن طريقه ثقب جلد المريض بابرة بها خيط وسحبها من جهة أخرى ، ثم تخليص الابرة من الخيط ، وعقد الخيط الذى يكون جزء منه تحت الجلد وجزء خارجه . ويعتقد البدو أن الصديد الذى ينتج عن دخول الابرة فى الجلد هو مصدر الشفاء . لهذا يتفاءلون كلما تورم مكان الخزم واستمر فى افراز الصديد . ويرى الطب أن الشفاء الذى قد يحدث نتيجة الخزم قد يرجع الى أن دخول الابرة فى الجلد (وهى غير نظيفة) ، بجانب وجود الخيط فى الجسم مدة طويلة يعتبر مصدرا لوجود البكتريا فى الجسم ، وهذا ما يحفز الجسم الى تكوين المضادات الحيوية لمواجهة هذه البكتريا ، وزيادة مناعة الجسم ضدها . ويلاحظ أن هذه المضادات تنتشر فى جميع أجزاء الجسم فتزيد مقاومته لأى ميكروب موجود سواء الذى سببته الابره أو الميكروب الأصلى .

راجع : Anwar M. Elwi, Text book of pathology, Fifth Edition ; El-Nasr Modern Book Shop, Cairo, 1970. p. 73, 74.

هذا بالاضافة الى الكى (٦) والعلاج عن طريق الأعشاب (٧) .

ويعتنى البدو بالمريض عناية كبيرة . وعندما يكون المرض معديا لا يعزلون المريض بعيدا عنهم بل يضعونه فى ركن خاص ويحوطون عليه فى الخيمة بملاءة ، ويعترض البعض على أن الحكومة تطلب بعزل المصابين بالأوبئة والأمراض المعدية . وهم يرون أن الأمراض المعدية هى الحصبة ، والجدرى ، والحمى ، « والشحارة » (الكحة) ولهذا يمكن أن يعفى البعض من زيارة المريض .

ويقوم بخدمة المريض كل افراد الأسرة ، وبالذات الأم والأخت اذ أنهن دائمات الوجود بالمنزل . ويعتبر البدو التأخر فى مساعدة وعلاج المريض من الأشياء الذميمة غير المرغوب فيها . ويصل الاهتمام بالمريض الى حد أنه فى امكانهم ارسال مرضاهم للعلاج فى أماكن بعيدة ، كما يحدث فى حالة المرض بالروماتيزم ، اذ يرسلون المريض الى عين التكرور بسيوة للاستشفاء وفى فترة النقاهة على المريض أن يلزم الراحة .

ويرتبط الطب الشعبى البدوى بالمعتقدات الدينية ، وعلى سبيل المثال يعتقد البدو فى القدرة الشفائية للأضرحة . ومن أشهر الأضرحة التى يلجأ

---

(٦) تكوى الأجزاء التى يعتقـد انها مصابة ، اما عن طـريق تسخين مسمار حديد ، أو عن طريق قطعة من الغاب . وترتكز فكرة العلاج هذه على احداث ألم أشد من الألم الأصلى فيبطل الاحساس به . ويرتكز ذلك أيضا على نظرية فسيولوجية وهى أن مراكز الاحساس فى المخ تتأثر بأنواع الألم الشديـدة of higher Threshoald وتهمـل أنـواع الألم الأقل شـدة of lower Threshoald . ويؤكد ذلك عودة المريض بعد شفاء ألم الكى .

(٧) اشتهر العرب عموما بكثير من أساليب العلاج ، وعلى وجه الخصوص تلك الأساليب التى يستعملها البدو الآن مثل الحجامة والخرط والكى .

أنظر د. أحمد عيسى ، آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب ، مطبعة مصر ، سنة ١٩٣٠ ص ٤ .

اليها البدو فى مطروح ضريح سيدى العوام (٨) . ومع أنهم يعتقدون أن الله هو الشافى لكنهم يعتقدون أيضا أن لكل شىء سبب . لهذا يزورون الأضرحة ويقدمون هناك التقدمات والذبائح .

ويعتقد البدو فى وجود الجن . وأن هناك أنواع صالحة من الجن واخرى مؤذية . ويرون « أنه عندما يلبس أى روح من الأرضيين انسانا يتغير وجهه ويصبح مختلف عن الوجه العادى . ويسير دائما منفردا ويحب الانطواء والابتعاد عن الناس » . كما يعتقد البدو أن هناك أمراضا تأتى من الخضة (٩) مثل السل . وأن البعض يصابون بالمرض اذا زاروا القبور ليلا . ويمكن أن يأتى المرض كعقوبة على الأفعال الشريرة . وللشفاء منه يجب أن يعمل الشخص أعمالا صالحة . فمثلا يذهب لسيدى العوام « ويطلب خاطره » ويأتى له بنذور كل عام . ويستخدم البدو الأحجبة التى يكتبها المشايخ لعلاج مختلف الأمراض ، ولطلب الحب بين رجل وامراة أو بين فتى وفتاة .

كما ينصح الطبيب الشعبى الأفراد بتناول ما يسمى بأدوية الحب وهى الزبيب والتمر هندى والقرفة والشند والشيح (١٠) . ويستعمل البدو بعض الأعشاب كنوع من البخور لشفاء الأمراض ومن هذه الاعشاب الجاوى « عبارة عن بخور » ، وكناسة العطار ، ولبان الدكر ، والمستكة والعنبرة « عين الجمل » .

---

(٨) سيدى العوام من أشهر أولياء الصحراء الغربية ، ويعتقد فيه بدو مرسى مطروح اعتقادا شديدا ، وله مسجد بمدينة مطروح أطلق عليه مسجد سيدى العوام .

(٩) هناك بعض الأمراض تنتج عن تعرض الانسان لبعض الصدمات العصبية والنفسية ، ولكن تعتبر مثل هذه الأمراض أمراضا نفسية تسبب اختلالا فى وظائف بعض أجزاء الجهاز العصبى ، أما من جهة مرض السل فلا يمكن أن ينسب علميا الى هذا السبب لأن السل مرض تسببه ميكروبات .

(١٠) يلاحظ أن الشيح من الأعشاب التى تستعمل لعلاج كثير من الأمراض عند البدو ، كما أنها تنتشر فى الريف المصرى ، وفى المدن أيضا . وأشهرها « حقنة الشيح » .

ويعتقد البدو فى القدرة الشفائية لبعض الآبار الموجودة فى الصحراء الغربية ومنها آبار المياه الرومانية . حيث يعتقدون أن قدرتها ترجع لأنها ماء من الله ويقولون برغم انها مياه غير مكررة ، أو « محطوطة تحت وابور » لكنها تعتبر نازلة من السماء من عند الله ، ويعتقدون أن ماء النيل يجلب المرض لأن به دواء (١١) .

أما عن التغيرات التى حدثت فى هذا الجانب فيشير اقبال البـدو على المستشفى الحكومى والعيادات الخاصة بلا شك الى تغيرات حدثت فى سلوك البدو فى مدينة مطروح انحيازا نحو الطب الحديث وسوف نختار هنا بعض المجالات الصحية لكى نوضح مدى وطبيعة التغير الذى حدث فيها .

ففى مجال تنظيم الأسرة من المعروف أن أحد الوسائل التقليدية لتحديد النسل عند المرأة البدوية اطالة فترة الرضاعة (١٢) التى قد تصل الى سنة أو سنتين . وقد اقبلت كثير من نساء مطروح البدويات على مركز تنظيم الأسرة . وشجع على ذلك أن جميع الذين يعملون فى دار رعاية الأمومة والطفولة من النساء . فهناك الطبيبة ، والحكيمة ، والممرضة ، وقد كان بعض الرجال يأتون مع زوجاتهم ولكنهم ينتظروهن خارج المركز .

ومع ذلك بقى بعض البدو لا يوافقون على تحديد النسل ، ولا يحاولون ارسال زوجاتهم الى المركز ، فالاولاد يقومون برعى الغنم وبذلك فهم يمثلون

---

(١١) يعتقد هذا الاخبارى ان تطهير الماء فى المدن يتم عن طريق تسخينه الى درجة الغليان .

(١٢) تعتمد عملية تحديد النسل عن طريق اطالة فترة الرضاعة على طبيعة المرأة . فبالنسبة لبعض النساء يمكن منع حدوث (الحيض) باطالة فترة الرضاعة وهو ما يعرف طبيا بـ

Phisiological aminorphoea Dr. Mohamed El-Sadek, Manual Gynaecology, El Nassr Modern Book Shop, Fifth Edition, 1972, pp. 250-251.

قوة عاملة . ويعلل البدوى هذا الاتجاه لديه بأن الأولاد تأتى من الله ولا يجب مقاومة أمر الله .

ومع ذلك فقد لعبت عوامل أخرى دورا هاما فى انتشار استخدام وسائل تنظيم الأسرة – خاصة الحبوب – بين البدويات . ففى الحالات التى تزوج فيها بدوى من زوجة من بنات وادى النيل ووفدت هذه الزوجة لتعيش فى وسط غيرها من الزوجات البدويات شجعت الزوجة غير البدوية غيرها من البدويات على استخدام الحبوب ولو دون علم الزوج . وقد قامت احداهن بدور الوسيط بين طبيبة المركز وبين البدويات اللواتى كن يرغبن فى تنظيم النسل فبينما الزوج لا يرغب فى ذلك . ويؤكد هذا الحدث عدة حقائق هامة .

الحقيقة الأولى : ان تأثير من ينتمون الى ثقافات مختلفة يمكن أن يشجع على التغير ؛ فقد كانت المرأة الوافدة من مدينة غير صحراوية وتمارس تنظيم الأسرة بأساليب طبية حديثة سببا فى اقناع البدويات وتسهيل الحصول على الحبوب . وهنا يتضح أهمية العنصر الانسانى فى احداث التغير . كذلك فان التغير يمكن أن يحدث رغم المعارضة اذا توفر العنصر البشرى القادر على الاقنـــاع .

والحقيقة الثانية : ان الاحساس بالحاجة يعتبر اساسا للتغيرات التى تحدث فى المجال الصحى فان شعور البدويات بالحاجة لتنظيم الأسرة هو الذى أوجد مناخا مناسبا لتقبل هذه الأساليب . ويوضح التعارض بين رغبة الرجال فى استمرار الانجاب ورغبة النساء فى التنظيم اختلاف الحاجات بالنسبة لأعضاء الاسرة الواحدة ؛ فمعارضة تنظيم النسل يوفر للرجال الأبناء الذين يساعدونهم فى العمل ، وتحديد النسل يحقق للنساء اعفاءا من الاجهـــاد البدنى نتيجة كثرة الانجاب .

والحقيقة الثالثة : ان الاشكال المتعددة التى يتشكل فيها الاختراع الطبى تتيح فرصة أكبر لتقبله . فتعدد أنواع ووسائل تنظيم الأسرة ، ووجود نوع يمكن استخدامه دون الذهاب الى مركز رعاية الأمومة والطفولة يعتبر

عامل تسهيل لحدوث التغير اذ ان الزوجة البدوية كان يصعب عليها التردد على مركز تنظيم الأسرة فى حالة عدم موافقة الزوج (١٣) .

أما فى مجال العقم فقد بدأ بعض البدو يتجهون الى المستشفى والأطباء بعد أن كانوا يذهبون للشيوخ لعمل الأحجبة . ويلاحظ ان الاقبال على هذا النوع من العلاج يبدو واضحا عند البدو وخاصة النساء ، وذلك لتأمين انفسهم ضد الطلاق (١٤) .

فى هذه الحالة نجد أن التغير قد دفعت اليه حاجة أساسية هى رغبة المرأة فى تأمين مستقبلها فى الأسرة ، ولم تدفع اليه عوامل المرض أو الألم . لهذا يتوقع أن يرتبط انخفاض نسبة الطلاق بارتفاع نسبة النجاح فى علاج حالات العقم لدى السيدات . وهذا يعكس الحقيقة التى مؤداها أن حدوث التغير فى جانب من الثقافة يؤدى الى احداث تغيرات فى جوانب أخرى .

ويوضح مجال علاج الاسنان وجود تغيرات حدثت فى السلوك الصحى البدو . فمن المعروف أن الوعى بأهمية وطـرق العناية الصحية بالاسنان تعتبر متخلفة عند معظم الجماعات التقليدية . ويقول بعض أطباء الأسنان فى مطروح أن هناك ارتفاعا فى نسبة تسوس الأسنان وأمراض اللثة ، ولا يلجأ البدوى عادة الى طبيب الأسنان الا فى حالة عجزه عن احتمال الألم . وهو بمجرد ان يشعر بأقل تحسن فلا يستكمل العلاج . وأسنان الرجل أكثر سوءا من اسنان النساء نظرا لتناول المكيفات . ولكن لوحظ فى الفترة الأخيرة اقدام البدو على علاج أسنانهم ، كما أن بعضهم أقدم على تركيب

---

(١٣) من الطبيعى ان تناول حبوب منع الحمل دون فحص طبى يمكن أن يؤدى الى أضرار عديدة ولهذا ينصح دائما بعدم استخدام اية وسيلة دون فحص طبى .

(١٤) عند البدو اذا لم يتم الحمل بعد سنة من الزواج فهو اما أن يطلقها أو يتزوج بغيرها . أما الرجل فلا ينفصل عن زوجتة اذا كان عقيما .

الأسنان الصناعية ، وهم يفضلون الأسنان الذهبية أو الفضية عن تلك المصنوعة من العظام وربما يرجع ذلك الى أن الأسنان الذهبية والفضية تشير الى الثراء .

وقد تزايد اقبال البدو على الصيدليات ، وأصبح البدوى يسأل بنفسه عن أنواع معينة من الأدوية ، وأصبح يدرك أيضا معنى الدواء البديل ويقبله أو يرفضه . ويتحكم فى هذا القبول أو الرفض مدى الثقة بين الطبيب أو الصيدلى وبين البدوى . وقــد استبدل كثير من البدو لبن الماعــز بالألبان الصناعية المتوفرة فى الصيدلية كغذاء للأطفال ، وهو يسأل عن نوع اللبن ، والسن المناسب ، والكمية المناسبة .

السؤال الآن ما هى نوعية التغير فى هــذا المجال ؟ وبمعنى آخــر هل شمل التغير جميع الجوانب الفكرية والعملية المتعلقة بالشئون الطبية فى حياة البدوى ؟

ان الاجابة على هذا السؤال تتطلب تحليلا لبعض التغيرات التى لحقت هذا الجانب من حياة بدو مطروح . ويمكن أن نقدم الاجابة فى النقاط الآتية :

● يمكننا أن نؤكد أن ملامح الطب الشعبى لم تنته تماما من هذا المجتمع ، فما زال البدوى يذهب الى المشايخ لعمل الأحجبة ضد الأمراض . وما زالت آثار الخزم والكى واضحة على جسم البدوى الذى يذهب الى المستشفى بعد أن تفشل محاولات الطبيب الشعبى . وهناك ظاهرة جديرة بالاعتبار وهى وجود شخص فى مطروح اشتهر بقدرته على تجبير الكسور والجروح . وغطت شهرته مطروح كلها حتى أنه بدا وكأنه منافس لأساليب الطب الحديث فى مجال الكسور الجزع والاعوجاج .

● هناك جوانب كثيرة لم تتطور فى حياة البدوى . فما زالت ثقافتــه الصحية متخلفة ، فالمريض لا يعـرف أحيانا كيف يساعــد الطبيب فى خلع ملابسه أو فى اعطائه تفصيلات واضحة لمرضه حتى يتم التشخيص السليم ،

أو فى اتباعه تعليماته بدقة . ويتضح أيضا عدم وجود وعى فى أن بعض من البدو — وخصوصا النساء — لا يسألن عن نوع المرض بعد توقيع الكشف الطبى عليهن .

ويعتقد معظم البدو فى فاعلية « الحقن » . وأنها تفوق أنواع العلاج الأخرى ، ويعتقدون أن الحبوب وأدوية الشرب كلها ليس لها مفعول فى الشفاء (١٥) .

وتشير هذه الظاهرة الى نقص مستوى المعرفة الطبية ، فلا يدرك بعض البدو قيمة وسائل العلاج الأخرى ، ولم يصل الى حد معرفة أن العلاج يقدم فى صورة وأشكال مختلفة ، تبعا لاعتبارات طبية ونفسية (١٦) ، وأن فائدة العلاج لا تكمن فى شكله ، كما لا يستطع أن يدرك أن المواد الكيميائية التى توضع فى حقنة يمكن أو توضع فى أقراص . وفى هذه الحالة يمكن أن تكون هنك ثغرة ثقافية ، لأن العنصر الثقافى قد وجد فى حين تخلفت المعرفة العلمية التى تحقق الانتفاع به .

ومن مظاهر عدم وجود وعى صحى كبير بين البدو عدم تقبلهم للنظام المتبع فى الكشف فى عيادات الأطباء ، وعدم معرفتهم للتخصصات الطبية المختلفة ، وفهم كيفية ممارسة العلاج واتباع ارشادات الطبيب .

● ما زالت التقاليد تحكم المرأة البدوية ، فبرغم قبولها لتوقيع الكشف الطبى عليها ، الا أنها لابد أن تغطى وجهها أثناء الكشف حتى ولو كان الذى يقوم بالكشف طبيبة . كما يؤثر نوع الطبيب فى اقبال النساء على الكشف . وذكرت احدى المرضات أن سيدة من البدو أوصتها بضرورة تغطية وجهها وهى خارجة من حجرة العمليات أمام والدها الذى كان ينتظرها خارجا

---

(١٥) يلاحظ أن هذه الظاهرة موجودة عند الريفيين من أبناء وادى النيل ولكنها ليست بنفس درجة وجودها عند البدو .

(١٦) تعد أدوية الأطفال بحيث تكون حلوة المذاق .

وقد رفضت هذه السيدة أن يقوم الطبيب بفحصها بعد اجراء الجراحة الا مرة واحدة قبل خروجها من المستشفى .

ويؤكد ذلك أن هناك جوانبا من السلوك الانسانى تظل غير قابلة للتغير بالرغم من تغير جوانب مرتبطة بها ارتباطا شديدا ، وأن قبول التغير الثقافى فى ناحية من النواحى الحياة الاجتماعية لا يعنى تغير جميع معالم هذه الناحية ، وغالبا ما يصعب تغيير الجوانب الأساسية من حياة الانسان . ويلاحظ أن عدم تغير جوانب معينة فى بعض الأحيان لا يؤدى الى مشكلة تتطلب حلا سريعا طالما كان ذلك لا يثير مشكلة حيوية ، كأن تمتنع بدوية عن الكشف الطبى .

● وقد كانت بعض التغيرات فى هذا المجال مشروطة بتوفر ظروف معينة ، فيقوم مركز رعاية الأمومة والطفولة بمرسى مطروح برعاية الحوامل والأطفال ، كما يقوم بمختلف مهام تنظيم الأسرة ، بما فيها عملية الولادة ، كذلك يوجد بالمركز طبيب أسنان وصيدلية .

وتتردد السيدات الحوامل على المركز أثناء فترة الحمل عموما وبالذات عندما تصاب الحامل بأى من الأمراض المصاحبة للحمل ، مثل ارتفاع ضغط الدم أو السكر أو الزلال أو الحمل التسممى .. الخ . وابتدأ الأزواج يسمحون لنسائهم بارتياد المركز وخاصة لعلمهم بأن هذا المركز ليس فيه رجال يقومون بأداء أية خدمة ، فليس به سوى طبيبة ، وممرضة ، وتمرجية . ونادرا جدا ما يقوم أحد الأطباء بممارسة العلاج وهذا مما ساعد كثيرا من البدو على علاج زوجاتهم فى هذا المركز دون تحرج . واذا كان هذا يعكس نمو الوعى الصحى لدى البدو ، الا أنه يدل أيضا على :

(أ) أن التقاليد ما زالت تحكم هذا النمط من السلوك ، وأن التغير فى هذا الجانب ما زال مشروطا بالحفاظ على التقاليد التى تتمثل فى عدم السماح للرجل بأن يقوم بفحص المرأة .

(ب) اثر العائد الـذى تشعر به المرأة من هذا النـوع من الخدمات الصحية مثل الاطمئنان على صحة الحامل ، وعلى الوضع ، ورعاية الأم بعد الوضع ورعاية المولود ... الخ .

● وقد حاول الطب التقليدى الافادة من اساليب الطب الطب الحديثلتطوير طرقه لكى يستمر ويكون اكثر قبولا . فقد كانت المرأة البدوية تلد وهى واقفة لخوفها من تتعرض للموت اذا رقدت (١٧) . أو لخوفها من موت الجنين فى بطنها . كما كانت أحيانا تلد وهى جالسة بين أربعة نساء . الا أنه بعد أن تكررت عمليات الولادة على أيدى الأطباء أو المولدات التابعات للمركز ، سواء كان ذلك فى المستشفى أو فى دار رعاية الأمومة والطفولة أو فى المنازل ، فقد بدأت الدايات البدويات يولدن النساء وهن راقدات وتلاشى الخوف من هذا الوضع ، ويجب أن نلاحظ ما يأتى :

(أ) أن هذا يؤكد لنا امكانية استخدام الأطباء الشعبيين وتدريبهم على تطوير أساليبهم والانتفاع بهم فى بعض المجالات .

(ب) أن القابلات الشعبيات كانت لديهن رغبة فى تطوير أساليبهن لكى تتلاءم مع الأوضاع القديمة . وهذا يمثل فى حد ذاته تغيرا يمكن استغلاله .

تغيرات العشر سنوات الأخيرة :

فى فترة العشرة سنوات الأخيرة حدثت تغيرات فى المدينة تفوق فى مدها التغيرات التى حدثت فى عشرات السنوات السابقة على هذه الفترة . وعلى الرغم من أن هذه الفترة قد ارتبطت بعدم امكانية اتجار البدو فى البضائع المستوردة ، الأمر الذى تصوروه أولا على أنه مؤد الى حالة من الفقر ، الا أن الأنشطة التى انخرط فيها البدو بعد ذلك قد عملت على تحضرهم بدرجة إكبر مما أدت اليه فترة التجارة فى البضائع المستوردة .

---

(١٧) فالز ، المرجع السابق ، ص ٣١٩ .

وهناك عدة عوامل ساعدت على احداث تغيرات العشر سنوات الأخيرة هى :

١ — اتساع نطاق الخدمات التى تقدمها الدولة للجماعات الصحراوية ، وخاصة ما تعلق بخدمات الصحة والتعليم .

٢ — قيام بعض شركات المقاولات بالعمل فى مرسى مطـروح فى الاسكان والمشروعات الأخرى .

٣ — اتساع نطاق سياحة التصييف وتزايد أعداد المصيفين خلال شهور الصيف .

٤ — اغلاق خط تجارة البضائع المستوردة ومحاولة البدو استثمار الأموال التى كونوها من هذه التجارة فى مشروعات أخرى .

٥ — زيادة كثافة الاحتكاك بالمدن المصرية غير الصحراوية بفضل الامكانيات المتاحة لدى البدو .

٦ — انشاء محطة ارسال مطروح .

ويمكن أن نلمس التغيـرات التى حـدثت فى مدينة مرسى مطـروح فى الجوانب الآتية :

استمرار اتساع المدينة وزيادة درجة تحضرها :

لقد حدثتتطورات كثيرة فى مدينة مرسى مطروح فى فترة العشرة سنوات الأخيرة أى حتى منتصف عام ١٩٨٣ . فبقدوم صيف ١٩٨٣ كانت مدينة مطروح قد وصلت الى شكل ودرجة من التحضر اختلفت اختلافا أساسيا عن شكل ودرجة التحضر التى كانت عليها فى بداية سنة ١٩٧٣ . فقد اختلف شكل المدينة وكثرت بها المبانى والانشاءات الحديثة . وتحولت مناطق الصحراء الى عمران . مثل تحول الأرض الفضاء الذى كان يوجد بها ما اطلق عليه

« سوق التهريب » الى منطقة عمارات سكنية شعبيـــة . ورصفت معظم الشوارع المتصلة بقلب المدينة . واذا اعتبرنا أن شارع « اسكندرية » هو الشارع المحدد لوسط المدينة فان المنطقة المحيطة بهذا الشارع يمينا ويسارا تعتبر منطقة قلب المدينة وهى تمثل قمة التحضر . وكلما بعدنا عن منطقة الوسط كلما قلت درجة التحضر الى أن نصل الى المناطق المتطرفة التى ما زالت تحتفظ بالطابع البدوى التقليدى .

وأول ما يمكن أن نلحظه فى المدينة هو امتلائها بالمرافق الحكومية وفروع الشركات الكبرى التى توجد أساسا فى القاهرة والاسكندرية مثل شركات المقاولات وشركات القطاع العام والخاص . وهناك شركات أخرى مثل شركات المرطبات قد افتتحت مركزا للتوزيع لها فى مرسى مطروح .

وقد امتلات المدينة بمحلات البيع وورش اصلاح المعدات بشكل يصعب حصره فقد انتشرت فى المدينة توكيلات وفروع لبيع أنواع السيارات المختلفة كما انتشرت فيها محلات بيع قطع غيار السيارات وورش صيانتها واصلاح وهندسة الفرامل ومحلات لحام الكاوتشوك التى تستخدم أجهزة حديثة .

وهناك محلات بيع الأدوات والأجهزة المختلفة مثل الاجهزة المنزلية الكهربائية ومحلات بيع منتجات البلاستيك ولوازم المطابخ وأدوات تنظيف المنازل . هذا بجانب المحــلات التى تخصصت فى بيع الملابس الجاهــزة للجنسين .. هذا بالاضافة الى محلات الترزية . وقد امتلأت شوارع المدينة الرئيسية بالبوتيكات التى تحوى اصنافا متعددة من المبيعات المستوردة والمحلية ، كما امتلات ايضا بالمعارض مثل معارض الأقمشة وغيرها . وتوجد أيضا محلات لبيع الأحذية وأكثر من محل صائغ فى وسط المدينة . وضمت المدينة أيضا محلا لبيع الذخائر ودار للنشر ومطبعة ومحلات لتصفيف شعر النساء « كوافير » .

أما من حيث محلات المأكولات فان المطاعم من ناحية تنتشر فى المدينة انتشارا كبيرا وتقدم أنواعا من الأطعمة تناسب البدو وغير البدو ، وهناك

من ناحية أخرى محلات عديدة لبيع المواد الغذائية . فهناك محلات البقالة الكبيرة والصغيرة ومحـــلات بيع الفاكهة وأسواق الخضر ، ومحـــلات بيع الحلوى الافرنجية والأفران والمخابز ، ومحلات بيع الزيتون والبلح وتجارة منتجات سيوة . ويوجد بالمدينة أيضا المحمصة ومحلات العطارة . كمـــا انتشرت أيضا محلات « السوبر ماركت » وان لم تكن قد اتخذت لنفسها نفس هذا العنوان فان ما تحويه يجعل من كل منها « سوبر ماركت » بالمعنى الحقيقى . وهنـــاك أيضا محـــلات بيع المأكولات المجهـــزة والسندوتشات وغيرها . وتنتشر فى المدينة أيضـا المقاهى والبورصات والبوفيهات . ويضم كل شارع من شوارع المدينة عدد كبير من الفنادق ذات المستويات المختلفة .

وقد أضيئت معظم أجـــزاء المدينة بالكهرباء . ووصلت الاضاءة الـــى القرى المجاورة . وأدى هذا الى أن يتأخر سكان هذه القرى فى العودة ليلا الى منازلهم فيقضون وقتا أطول فى المدينة . وبهذا زاد عدد ساعات النشاط الاجتماعى والاقتصادى والترويحى بالنسبة لهم .

ونود أن نشير الى ما يأتى :

* أدى نمو الحركـــة العمرانية وخاصة تشييد العديـــد من المساكن والعمارات الى أن بدأ البدو يقطنونها بعد أن كانوا يعيشون فى الخيمة أو فى البيت الـــبدوى التقليدى . وشـــجعهم على ذلك التســـهيلات التى تمنح البدو للحصول على مسكن خاصة فى الاسكان الشعبى . ويلاحظ أن بعض من البدو قد ظلوا يحتفظوا بالبيت البدوى التقليدى رغم امتلاكهم أو استئجارهم لمساكن الاسكان الشعبى .

* بدأت بعض المحلات فى المدينة الصحراوية تحمل أسماء أجنبية ، ويعتبر هذا نوعا من التأثر بما ساد فى مدن المجتمع المصرى غير الصحراوية . بجانب هذا فان مستوى اعداد المحلات والديكورات التى جهزت بها تشير الى ثراء أصحابها .

* بدا يظهر فى المدينة شكل من اشكال تجمع المحال التى تتاجر فى نوعية

واحدة من البضائع . فهناك على سبيل المثال عدد من محلات بيع الأحذية تصطف بجوار بعضها فى منطقة واحدة فى شارع الاسكندرية .

* بدأ زى من يعملون فى البيع فى هذه المجال من البدو فى التغير فاصبحوا برتدون البنطلون والقميص .

انخراط البدو في انشطة تجارية جديدة :

لعل الوصف الذى قدمناه وكان هدفنا منه توضيح مدى تحضر واتساع مدينة مطروح يكون قد أظهر لنا أنواع الأنشطة التجارية التى بدأ البدو يعملون فيها . وعلى الرغم من أن بعض الشركات التجارية يعمل بها من لا ينتمون الى أصول بدوية ، لكن البدو يشاركون فى كثير من أعمال هذه الشركات . ويدير البدو أنفسهم فروعا ويمتلكون توكيلات لهذه الشركات فى مدينة مرسى مطروح . فبعد انتهاء نشاط التجارة فى البضائع المستوردة استثمر البدو ما حققوه من هذه التجارة من مال فى أنواع عديدة من الأنشطة كان ابرزها بناء الفنادق واللوكاندات ، والاستثمار فى مجال الأمن الغذائى ، ثم الاستثمار فى المشروعات الحرفية والمبانى . بالاضافة الى ذلك اتجه بعض البدو الى تجارة السيارات والاتجار فى قطع الغيار . وقد شجع البدو على العمل فى تجارة السيارات وافتتاح معارض للسيارات ومحال لبيع قطع الغيار وورش لصيانة السيارات ان المصالح الحكومية التى اتسعت أنشطتها فى المدينة فضلت أن تشترى من داخل مرسى مطروح ما تحتاج اليه من سيارات وتجرى عمليات الصيانة داخل المدينة بعد ان كانت الاسكندرية هى مكان الشراء ومركز الصيانة .

وقد لوحظ أثناء ذلك التطور ميل البدو للعمل فى بعض الأنشطة مع احجامهم عن العمل فى أنشطة اخرى . وعلى سبيل المثال فهم لا يعملون فى مسح الأحذية كما رفض كبار السن منهم العمل فى شركات المقاولات كعمال ولكنهم قبلوا العمل كحفز وهؤلاء استطاعوا أن يأتوا بالشباب لكى يعملوا كعمال فى هذه الشركات . ونظرا لانه قد أصبحت لهم خبرة فى أعمال

التجارة فعندما أغلق خط التجارة بين مصر وليبيا مال الكثير منهم الى افتتاح محال تجارية وبوتيكات فى المدينة . وهناك قلة منهم نظرا لتوفر المال لديهم فقد عملوا كمقاولين واستخدموا مهندسين من أبناء الوادى بمقابل . وقد ظهر ميل البدو للعمل على سيارات الأجرة والنقل . فقد اشتروا هذه السيارات ونقلوا عليها النـاس والبضائع ابتداءا من السلـوم وحتى الاسكندرية والقاهرة . وربما شجعهم على ذلك حبهم لحياة الانطلاق والتجوال وعدم رغبتهم فى التقيد بمكان واحد . وقد ظهرت نوعية أخرى من النشاط التجارى هى بيع الأراضى للمغتربين (من غير أبناء البدو) ، فالبعض عندما أتيحت لهم فرصة تملك الأراضى (بالقانون) قاموا ببيعها لغير البدو عندما وجدوا أن ذلك يدر عائدا كبيرا .

ارتفاع نسبة المتعلمين من ابناء بدو المدينة :

يعتبر ارتفاع نسبة التعليم بين أبناء البدو فى مدينة مطروح من اهم الظواهر التى يمكن ملاحظتها . فقد زادت نسبة المتعلمين بين أبناء البدو فى الصحراء الغربية بصفة عامة وبين أبناء مدينة مطروح بصفة خاصة . ولم يقتصر التعليم على البنين فقط بل امتد الى تعليم البنات أيضا . ولم يتوقف ابناء البدو عن التعليم المتوسط بل وصل الكثير منهم الى التعليم الجامعى بتخصصاتـه المختلفة . وتخرج الكثير من هـؤلاء الذين طرقوا أبـواب الجامعات . ونتيجة لذلك فاننا نجد اليوم فى مدينة مرسى مطروح أبناء البدو يعملون كأطباء وصيادلة ومحامين ومهندسين وضباط .. الخ .

فعدد من صيدليات المدينة يملكها ويديرها صيادلة من أبناء وبنات البدو ، ويعمل فى الادارة الصحية بمطروح ايضا بعض منهم كأطباء ، ويعمل فى الاسكان عدد أيضا من ابناء البدو كمهندسين . كذلك يوجد بمديرية الشئون الاجتماعية أخصائيين اجتماعيين . هذا بالاضافة الى العديد ممن تعلموا تعليما عاليا ومتوسطا فى تخصصات أخرى ويعملون فى مختلف المصالح الحكومية وشركات القطاع العام والخاص . وقد شجع على هذا اتباع هذه

الجهات لتعليمات تقضى بتعيين أبناء الصحراء أولا ثم بعد ذلك تعيين غيرهم من خارج المحافظة فى حالة الحاجة الى مزيد من العمالة .

وقد اثر تأثيرا شديدا فى زيادة نسبة التعليم فى مرسى مطروح ذلك القرار الذى أتخذتة الحكومة المصرية وهو تخصيص عدد من الأماكن فى كل جامعة لأبناء الصحراء دون التقيد بالمجموع . فقد كان هذا القرار بمثابة طفرة أدت الى زيادة نسبة المتعلمين تعليما عاليا بدرجة ملحوظة فى المحافظة وفى المدينة . ونظرا لأن فكرة « بدون مجموع » قد أغرت بعض ممن نجحوا نجاحا متوسطا فى الثانوية العامة فطلبوا ادراج أسمائهم فى كليات لا تقبل طلبة الا بمجموع عال . ولكن لم يستطع بعض هؤلاء الطلبة استكمال دراساتهم فى الكليات التى تقبل طلبة بمجموع مرتفع وطلبوا تحويلهم مرة أخرى الى كليات نظرية تقبل بمجموع أدنى .

محطة الارسال :

اذا كان الارسال الاذاعى قد أثر فى البدو على مدى سنوات طويلة . فان وصول ارسال التلفزيون بعد انشاء المحطة فى المدينة قد أثر تأثيرا كبيرا عليهم . وكان لانتظامهم على برامجه أثرا كبيرا فى ربط البدو بالمجتمع الأكبر .

وقد بدأ الارسال التلفزيونى يصل الى مدينة مرسى مطروح لأول مرة فى أبريل سنة ١٩٨٢ . ويصل اليهم الارسال على قناة واحدة من القاهرة ويتوقع أن تتمكن الدولة من توصيل برامجها التى تذاع على القناة الثانية الى مدينة مرسى مطروح فى سنة ١٩٨٤ . ولم يقتصر استخدام التلفزيون على المنازل بل امتد الى المحال التجارية . فيمكننا أن نشاهد بسهولة وجود جهاز التلفزيون بحيث يشاهده صاحب المحل فى الوقت الذى يمكنه فيه تتبع البرامج . ولا يخفى على الجميع تأثير انتشار جهاز التلفزيون فى تغيير الكثير من معالم الثقافة البدوية .

تغيرات اخرى :

وهناك تغيرات أخرى حدثت فى حياة البدو ادى اليها الرواج التجارى وزيادة نسبة التعليم ثم اتصال بالمدن المتحضرة مثل الاسكندرية . وعلى سبيل المثال فقد ارتفع الانفاق فى الأفراح والمناسبات الاخرى مثل الوفاة الى درجة كبيرة . وارتفع المبلغ المدفوع كمهر خاصة بالنسبة للمتعلمات كذلك فانه بسبب عدم التعام معظم من تعلموا بارتداء الزى البدوى فقد أدى هذا الى زيادة الاقبال على محلات بيع الملابس الافرنجية . وظهرت هناك تجاوزات فى موضوع زواج ابنة العم ، تلك القاعدة الصارمة التى كان يصعب تجاوزها ، وكان هذا بالنسبة للمتعلمات على وجه الخصوص فقد بداوا يشعرون أنه من الصعب اجبار فتاة متعلمة على الزواج من ابن عمها . أما التغير الآخر الذى حدث فهو اقبال أبناء البدو على التجنيد ، وقد ارتبط هذا بزيادة الوعى والاحساس بالتكامل مع المجتمع الأم كما ارتبط أيضا بانخراطهم فى العمل مع الشركات والجهات الرسمية تلك التى تطلب ضمن مستندات التعيين الموقف من التجنيد .

النمو الحضرى والبناء القبلى :

يصعب أن نناقش التغير فى المجتمعات التى يعتمد البناء الاجتماعى فيها على القبيلة دون أن نشير الى تأثير التحضر على البناء القبلى الذى يتصف دائما بالصلابة ، وان كانت عوامل التحضر قد أثرت على تماسكه فى مناطق معينة . ولكى نتعرف على هذا الجانب نحتاج أن نضع فى اعتبارنا توزيع جماعات البدو فى المناطق المختلفة فى مدينة مرسى مطروح ودرجة تحضر هذه المناطق . ويمثل قلب مدينة مطروح — كما أوضحنا — قمة التحضر . وكلما ابتعدنا عن قلب المدينة فنجد أننا أمام جماعات بدوية حتى وان كانت مستقرة تماما لكنها تختلف فى درجة تحضرها فتتناسب درجة تحضرها تناسبا عكسيا مع درجة بعدها عن المركز . وعلى الرغم من ان أبناء هذه المناطق يمكن أن يعملوا فى مختلف الأعمال التجارية داخل المدينة ، وعلى الرغم من أنهم يمكن ان يحرصوا على تعليم أبناءهم الا أن نمط الحياة وشكل المساكن وطبيعة المنطقة تشير الى مستوى اقل تحضرا وأكثر تقليدية عن منطقة وسط المدينة .

غير أن قلب المدينة لا يخلو تماما من جماعات قبلية تقليدية فان مجرد عبور احدى الشوارع الرئيسية التقليدية فى الوسط يمكن أن يقود الى تجمع قبلى يعيش ملاصقا تماما للمدينة يفيد من أساليب التحضر السائدة فيها ولكنه يحتفظ بقدر من تقليديته . والمثال الجلى على ذلك هو التجمع السكنى الذى يطلق عليه اسم « عزبة الأفراد » فى المدينة . فلا يفصل هذا التجمع السكنى عن الشوارع الرئيسية بقلب المدينة سوى عدة أمتار ، أى أن العزبة تقبع فى قلب المدينة .

وهناك ظواهر عديـــدة تشير الى أن العزبة تعكس تأثرها بالتطـــور وتمسكها بتقليديتها فى نفس الوقت . فيعيش فى هذه العزبة عدة مئات من الاسر ينتمون جميعا الى قبيلة الافراد ، احدى قبائل الصحراء الغربية (١٨) ويشعر أبناء قبيلة الافراد بانتماء شديد اليها ، ويعتزون بأنهم يكونون أفرع تلك الشجرة التى يذكرون تسلسلها حتى الجد العاشر . وهم يمارسون الممارسات القبلية التقليدية من حيث الامتثال للعرف البدوى فى مختلف شئون حياتهم ، والحفاظ على العادات والتقاليد البدوية فى احتفالاتهم وجنازاتهم وملبسهم وغذائهم . وعلى الرغم من قربهم الشديد من المدينة فان لديهم الاحساس القوى بهوية قبلية متميزة ترتبط بالقبيلة التى انحدروا منها والمكان الذى يعيشون فيه . وقد بلغت درجة حرصهم على تماسك البناء القبلى الى درجة أن أى شخص يسكن هذه العزبة ولا ينتمى الى قبيلة الأفراد يظل غريبا بينهم الى أن تنقضى فترة خمس سنوات بعدهـــا يمكن أن يتم ضمه الى القبيلة ويعترفون بانتسابه الى قبيلة الأفراد شكلا وموضوعا ، وفى نفس الوقت يطالبونه بالمشاركة فى أعرافها وتقاليدها .

ومع استمرار حفاظ القبيلة على تقاليدها نجدها قـــد أفادت بأقصى قدر ممكن من موجة التحضر التى سادت المدينة . فالمساكن التى يعيشون

---

(١٨) ما زالت بعض الأسر التى تنتمى الى قبيلة الافراد تمارس التجوال فى الصحراء الغربية ، خاصة وأنها ما زالت تمارس حرفة الرعى وترتبط بآبار ومراع وبيوت فى مناطق أخرى فى الصحراء .

فيها وان كانت قد احتفظت ببعض معالم البيت البـدوى الا أنها تطورت كثيرا وظهر ذلك فى المواد المستخدمة فى البناء ، وفى شكل المسكن ونوعية الطلاء والأثاث الموجود بداخله . فالمساكن تبنى بالطوب الاحمر أو الحجر ، ويستخدم فى البناء الحديد المسلح ، وتطلى بالزيت ، وتحوى أثاثا فاخرا بجانب الاجهزة الكهربائية المنزلية الحديثة . كل ذلك مع الاحتفاظ بالأبراش التقليدية والمساند فى حجرات الجلوس ، والاحتفاظ أيضا ببعض المفروشات البدوية . وقد أفاد أبناء قبيلة الأفراد من التعليم — كما ذكرنا — ويكفى أن نقول أن المدرسة الصناعية وحدها كانت تضم فى وقت معين خمسة عشرة مدرسا من أبناء هذه العـزبة . كما أفادوا أيضا من المجالات والأنشطـة الأخرى ، فمن ابناء قبيلة الأفراد من يعملون كموظفين وحرفيين ومهندسين فى مطروح المدينة وفى مناطق صحراوية أخرى .

ويعتبر هذا النموذج هو أحد النماذج العديدة التى توضح أن البـدو يحاولون التوفيق بين القديم والحديث ، أو هم فى مرحلة انتقالية بين النمط التقليدى والحديث . ويعتبر الانتماء الى القبيلة من أقوى الجوانب التى تظل تربط البدوى الذى يعيش فى المناطق الحضرية بالبناء والثقافة القبليـة . والأمثلة على ذلك ـ بالاضافة الى مثال قبيلة الأفراد ـ عديدة ا فقد رفض بعض الأشخاص الذين عملوا فى وظائف حكومية ونالوا حظا وافرا من التعليم حتى أن يتعاملوا مع ابناء قبيلة معادية للقبيلة التى ينتمون اليها . ويأتى بعد الارتباط بالانتماء القبلى صعوبة التخلى عن الثقافة البدوية التقليدية وتبنى الأنماط الحضرية الحديثة كلية . ويوضح ذلك أن بعض من سكنوا العمارات الشعبية فى مدينة مطروح ظلوا يملأونها بالأثاث البدوى الذى اعتادوا عليه . والبعض الآخر لم يستطع هجرة المسكن البدوى تماما فأجر الشقة التى حصل عليها من الباطن وظل يعيش فى المسكن البدوى التقليدى .

الفصل التاسع

التغير في الواحات

((واحة سيوة))

((دراسة ميدانية))

تقع واحة سيوة في صحراء مصر الغربية على بعد حوالى ١٧٠ ميلا من الشاطىء الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط . وتقع على مسافة ٣٥٠ ميلا غرب وادى النيل . وهى تكون منخفضا فى الصحراء ينخفض قليلا عن مستوى سطح البحر . ويبلغ طول المنخفض ٣٥ ميلا من الشرق الى الغرب ، ويبلغ عرضه فى بعض المناطق سبعة أميال . ويروى الواحة العديد من البحيرات المالحة والعديد من البرك الصالحة للشرب . وتشتهر الواحة بوجود العديد من أشجار الزيتون والنخيل .

وقد كانت الواحة تعرف فى أيام الرومان باسم «أمونيوم» **Ammonium** وعرفها القدماء باسم « واحة السعادة » ، كما أطلق عليها الجغرافيون العرب الاسم سنتارية **Santariah** . وعلى الرغم من أن المقريزى قد ذكر الواحة فى منتصف القرن الخامس عشر بهذا الاسم الأخير ، فقد ذكر أيضا الاسم سيوة ، وسمى لغتهم اللغة « السيوى » . ويطلق سكان الواحة عليها الاسم « ايسيوان » وعلى أنفسهم الاسم « ايتاديمن ايسوان » ومعناها شعب سيوة . وهم يميزون أنفسهم بذلك عن الجماعات البدوية التى تعيش فى نفس الصحراء الغربية ويتعاملون معها فى بعض الأعمال التجارية ويطلقون عليها « ايسارخينين » . ومما يذكر أنها سميت فى بعض الأحيان الواحة القصوى نسبة الى بعدها فى عمق الصحراء .

وإذا كانت واحة سيوة تقع فى قلب الصحراء الغربية فان هناك بعض المدن والواحات تقع فى نفس النطاق الصحراوى وتتفاوت فى بعدها وقربها من واحة سيوة . فهناك مدينة مرسى مطروح عاصمة محافظة الصحراء . وتبعد مدينة مرسى مطروح عن سيوة حوالى ٣٠٠ كيلو متر . كذلك هناك واحتين قريبتين لسيوة هما واحة « جغبوب » وتبعد مسافة ٨٥ كيلو مترا شمال غرب سيوة وواحة الجارة التى تبعد ٨٠ ميلا تجاه الشمال الشرقى (١) .

وتوضح الملامح الفيزيقية لأهالى سيوة كما توضح ثقافتهم أنهم خليط سلالى ينتمى الى جماعات بشرية عديدة . فقد سجل بعض الكتاب ما يشير الى أن اغرابا كانوا يفدون الى الواحة ويتزوجون من نساء سيوة ويحاولون فى خلال سنوات قليلة أن يتمثلوا العادات والتقاليد والثقافة السيوية بصفة عامة . فقد سجل أحد الكتاب فى سنة ١٨٢٠ أن عدة مئات من المغاربة العرب الذين هاجروا من طرابلس الى الواحة هربا من الضرائب واستقروا فيها ، وكانوا يعيشون فى مقابر نحتت فى الصخر . وربما كان هؤلاء هم صانعو الحبال الذين وجدهم سان جون سنة ١٨٤٠ يسكنون مقابر جبل الموتى التى تبعد ميلا واحدا نحو الشمال من التل الرئيسى . وقد ذكر أنهم كانوا قبيلة متجولة تمارس التجارة . وقد كتب رولف سنة ١٨٨٥ عن مائة شخص كانــوا يعيشون فى « خميسـة » بالقرب من الحــدود الغربيــة للواحة . وذكروا له أنه لا يربطهم بأهالى سيوة الا اللغة والأصول . وقد ذكر والتر أن هذه القرية الصغــيرة ظلت موجودة حتى سنــة ١٩٢٧ . كذلك ذكر أن المنطقة قد شاهدت وفود عناصر سودانية اليها . فقد ذكر فالز Falls أنه قابل سيدة سودانية عجوز كانت تعمل فى بيت شيخ «اغورمى» وذكرت له أنها كانت فى طفولتها تلعب خارج قريتها فاختطفتها جماعة من البدو تجار الرقيق وأخذوها معهم الى طرابلس ، ثم باعوها الى رجل عربى قادم الى سيوة ، وعندما مرضت باعها هذا الرجل الى شيخ منطقة

(١) انظر دراسة تفصيلية عن واحة الجارة فى الباب قبل الاخير من الكتاب .

اغورمى بسيوة (٢) . ويقول البعض أن بعض القبائل كانت تسرق الفتيان من على الحدود بين ليبيا والجزائر وتبيعهم فى سيوة أثناء مرورها على الواحـــة .

وقد شهدت سيوة تقلبات جعلت عدد سكانها يتفاوت من وقت لآخر . فقد ذكر الادريسى فى منتصف القرن الثانى عشر أن سانتريه « سيوة » كانت بلدة صغيرة . وقد أخبر شيخ سيوة أحد الكتاب الأجانب فى سنة ١٨٢١ أن عدد السكان قد تناقص بعد فترة الفتح العربى الى ٦٠٠ شخص ويعتبر كل سكان سيوة الذين يعيشون فيها اليوم منحدرين من هذا العدد القليل . وقد ذكر أحد الكتاب أن أعدادهم قد وصلت فى القرن الثامن عشر الى ٢٥٠٠ شخص بينما ذكر آخر أنهم كانوا فى سنة ١٨٩٨ ٧١٤٠ شخص . وتوضح احصاءات سنة ١٨٩٧ أن أعدادهم قد تراجعت الى ٥٢٠٠ نسمة ، كما سجل تعداد سنة ١٩٢٧ تناقصا آخر اذ هبط العدد الى ٣٧٩٦ نسمة . اما احصاء ١٩٦٨ قد سجل ارتفاعا فى العدد اذ سجلهم على أنهم ٥١٦٨ سيوى . وتدل هذه الاحصاءات على أن نسبة الذكور تزيد عن نسبة الاناث فى الواحة . فقد دل تعداد سنة ١٨٩٧ الذى اتضح منه أن سكان الواحة ٥٢٠٠ شخص أن عدد الذكور فى الواحة بلغوا ٣٠٠٠ شخص والباقى اناث . وفى احصاء سنة ١٩٢٧ بلغ عدد الذكور ٢٠٦٩ ذكر ، بينما كان عدد الاناث ١٧٢٧ أنثى . وقد لوحظ أن نسبة المواليد من الذكور أعلى من نسبة المواليد من الاناث (اظهر تعداد سنة ١٩٢٩ أنها ١١٨/١٠٠) وفى نفس الوقت كانت نسبة وفيات الاناث أعلى من الذكور (١٠٠/٩٤) . وربما يفسر ذلك زيادة عدد الذكور عن عدد الاناث فى الواحة فى بعض الفترات .

ويتكلم أهالى واحة سيوة فيما بينهم لهجة خاصـــة تسمى « اللهجـــة السيوية » . وكان يظن أنها هى لغة الطوارق الذين قد يكونوا قد سكنوا هذه المنطقة . ولكن هذا الافتراض لم يكن له أساس من الصحة . ويرى البعض أن اللهجة السيوية هى لهجة جماعات تعيش فى شمال طرابلس . وفى الماضى

---

(٢) فالز ، المرجع السابق ، صص ٤٢ ، ٤٣ .

لم يكن السيويون يتكلمون العربية . فقد ذكر بلجراف Belgrave أن النساء السيويات اللواتي أحضروهن كشاهدات أثناء فترة ادارته لسيوة بعد الحرب العالمية لم يكن يتكلمن أو يفهمن اللغة العربية أو الأجنبية على الاطلاق . ولكن ذكر والتر الذى زار الواحة فى أواخر سنة ١٩٢٦ وأوائل سنة ١٩٢٧ أن كل السويين تقريبا كانوا يتكلمون اللغة العربية بطلاقة . فهم يغنون كل أغانيهم بالعربية . وكانت الأعداد التى يستخدمونها أيضا عربية ، الا العددان « واحد » و « اثنين » فقد كانوا يستخدمون للدلالة عليهما كلمات سيوية . والغـــريب أن أكثر من كاتب مر بالواحـــة بعد ذلك وذكـــروا أن اهالى سيوة يتكلمون اللهجة السيوية ولا يعرفون الا القليل من العربية وربمـــا يرجع ذلك الى عدم قدرة الكتاب على اجراء دراسات متعمقة خاصة بهذه النقطة . وكل ما حدث أن البعض منهم قابل سيويين يتكلمون العربية فقرر أن أهالى الواحة يجيدون العربية ، بينما غيرهم من الكتاب قابلوا من لا يجيد العربية فقرروا أو اهالى الواحة لا يجيدون العربية . وربما الرأى الذى كتبه والتر كلين يمكن قبوله فهو يقول أن هناك ما يدل على أن سكان سيوة قد تعلموا اللغة العربية خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة ، فهناك فترة طويلة تم فيها ادخال كلمات عربية للهجة السيوية وذلك قبل أن يبدأ السيويين فى تكلم اللغة العربية كلغة مستقلة (٣) . ويتكلم أهالى سيوة الآن اللغة العربية واللهجة السيوية على السواء . وقد حدث ذلك بفعل عوامل التغير التى سنتكلم عنها فيما بعد .

وقد كانت سيوة عبارة عن عدد من المساكن القائمة فوق ربوة ، لكن بدأ السيويين يبنون مساكنهم فى أماكن متفرقة لسفل سيوة القديمة التى تسمى « شالى غادى » بمعنى « البلد اللى فوق » . وتنقسم سيوة الى خمس مناطق رئيسية ، وتنقسم كل منطقة الى عدد من الحارات (٤) ويسكنها عدد من القبائل . وهذه المناطق هى :

---

(٣) والتر كلين ، المرجع السابق ، ص ص ٧ — ١٠ .

(٤) لا تستخدم كلمة حارة فى سيوة لتعنى شارع ضيق ، لكنها تعنى منطقة سكنية أو حى صغير .

(ا) الشرقيين : وتضم حارات تابا ، والحوش ، والدرة (وهي ميدان السوق) ، والهبيرات ، والتيضار ، ومقبل ، وطوزار ، والسبوخة ، والمنشية ، والأسمر ، والظافرية . وتسكنها قبائل الظنايين والحمودات ، والشراطة ، والجواسيس ، والحدادين . ويخضع الشرقيون لخمسة مشايخ .

(ب) الغربيين : وتضم حارات المراغي ، وادرار ، والمسامير ، وندي ، والحارة الجديدة بأبو الليف . وتسكنها قبائل السراخنة ، والشحايم، والحوانطة ، وأولاد موسى .

(جـ) المراقي : وتضم حارات مشندت الكبرى والصغرى ، والجارى ودهيبة ، وبعيدين وتسكنها قبائل بعيدين ، وعربان الشهيبات . وقد كان السكان قديما يعيشون فى مقابر منحوتة فى الصخر .

(د) أغورمي : وتضم حارات الشخشوخة ، والجرن ، وتسكنها قبائل أغورمي (٥) .

(هـ) القارة (الجارة) : قارة أم الصغير . وهى حارة واحدة .

---

(٥) وتقع أغورمى على بعد ميل ونصف شرق سيوة ، وهى تشبه سيوة القديمة من حيث البناء اذ تتألف من طبقات متتالية مكونة على شكل قلعة فوق صخرة ، وبأسفل الصخرة عدد كبير من العيون . وللبلدة مدخل له بوابة حسينة وبعدها توجد سراديب ضيقة ثم بئر ، ومعصرة للزيت ثم جامع عتيق . كما يوجد بها معبدان أثريان تهدم أكثرهما ولم تبق الا آثار الغرفة التى كان يجلس فيها الاسكندر المقدونى . ويعتقد أهالى أغورمى أن هناك ممرات سرية فى أسفل غرفة الاجتماع توصل بينها وبين جبل الموتى الموجود أسفل البلدة ، ويصل أيضا الي مكان اثري على جبل الدكرور يسمى بيت السلطان . ولم يكتشف هذه الآثار الا عام ١٩١٩ على أثر أمطار شديدة . ويرجع سبب بناء البلدة القديمة على صخرة الى الخوف من غزوات البدو . ويلاحظ أن للبلد سراديب وممرات لا يمكن للغريب أن يمر منها بسهولة . أنظر : رفعت الجوهري ، جنة الصحراء ، سيوة واحة جوبتر آمون ، الدار القومية للطباعة والنشر ، صص ٢٧ — ٢٩ .

وهناك بعض التجمعات التى توجد فى أماكن متفرقة مثل الزيتونة وتوريشت وخمينسة أو بلد الرومى .

ونتيجة للوضع الجغرافى لسيوة ، ونتيجة لأن سكان الواحة يعتبرون مزيجا من أصول مختلفة فقد تميزت الواحة عن بقية مناطق الصحراء الغربية وتميزت على الأخص بثقافة تعتبر نموذجا من الثقافات الفرعية التقليدية . وقد أدت بعض الظروف التى مرت بها سيوة الى مزيد من تقوقع الواحة على نفسها ، فقد مرت بها سنوات طويلة لم تتعرض لتيارات ثقافية او حضارية وافدة من وادى النيل ، وفى نفس الوقت كانت الواحة ــ بحكم القرب المكانى أقوى اتصالا بالجماعات البدوية التى تعيش على الحدود بين ليبيا ومصر والتى تنتمى الى كلا المجتمعين ، وهذا أثر أيضا على ثقافة المنطقة . ولكن نظرا لأن الجماعات البدوية هى أيضا جماعات ذات ثقافة تقليدية خاصة فانها لم تسهم فى نقل تيار الحضارة الى الواحة . وظلت سيوة واحة بعيدة ومعزولة ثقافيا وجغرافيا . ولعل تقاليد السفر التى كانت سائدة فى الواقع هى أقوى معبر عن العزلة التى يعيشها سكان الواحة . فقد كان أقارب المسافر يجتمعون فى منزله ، وتنثر أمه على وجهه لبنا ، وتدير حوله رغيف خبز سبع مرات ، وتضع له كل سيدة بيضة فى يده . ثم يخرج معه الرجال الى خارج البلد، ويدعون له، ثم يؤذنون له الآذان الشرعى وبعدها ينصرف . وفى العودة ينتظرونه خارج البلد لمقابلته والرجوع به فى شكل احتفال . وهم يعطون للشخص الذى يبلغهم خبر عودة المسافرين قطعة نقود من فئة عشرين قرشا . وأحيانا قبل السفر يذهب الأولاد والبنات ويغنون له قائلين « دجبل . دجبل دجبولاه انشاء الله جوسيد بتشوراه» ومعناها «انشاء الله تيجى مليان» (٦) ومن الطبيعى أن هذه الممارسات تتبع فى مجتمع معزول يعتبر السفر فيه عملية رحيل تستغرق وقتا طويلا . ولا يعنى ذلك أن المسافات التى يقطعها

(٦) اللواء رفعت الجوهرى ، شريعة الصحراء ، مرجع سابق ، ص ٣٦ .

المسافر تكون طويلة ، بل أن العزلة الجغرافية بجانب وعورة الطرق تجعل من المسافات القصيرة سفر طويل ، وربما مغامرة خطرة .

التغيرات حتى سنة ١٩٧٠ :

وقد ظلت سيوة هكذا واحة معزولة الى ان طرأت بعض التغيرات نتيجة عوامل ارتبطت بالتغيرات التى حدثت فى المجتمع المصرى بعد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ . ويمكن أن نتناول أولا العوامل التى أدت الى التغير بالشرح ثم نتحدث عن مظاهر التغير وطبيعته .

عوامل التغير :

ا ـ نظام الادارة المحلية :

بعد ثورة ٢٣ يوليو بدأت الحكومة تهتم بالمناطق النائية ، وبفضل التخطيط الجديد لهذه المناطق أصبح هناك اتصال بين المجتمع الأساسى وبين هذه لمناطق المتميزة . وكان ادخال نظام الادارة المحلية من أهم عوامل التغير فى سيوة ، فقدا بدأ السيويون يشاركون فى ظله فى ادارة الواحة . وبدأ أهالى الواحة يشعرون أن هناك رابطة بينهم وبين المجتمع الاكبر الذى يعيشون فيه فلم يعودوا يشعروا أن الدولة تفرض الضرائب التى يضجر منها الاهالى كما حدث فى عهود سابقة مثل عهد محمد علي . وقد ظهر اهتمام الدولة بالواحة فى صور متعددة كان احداها زيارة الدكتور محمود فوزى نائب رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت وكان لها أثر فى نفوس السيويين . كما ان زيارات المحافظ للواحة بدأت تشعرهم أيضا باهتمام المجتمع الكبير بهم .

وقد ادى تطبيق نظام الادارة المحلية فى سيوة الى اشتراك السيويين فى اتخاذ القرارات الخاصة بالواحة عن طريق عضويتهم فى « مجلس مدينة سيوة » الذى يشترك فيه مشايخ سيوة ، اذ يدلون فيه بآرائهم فى مختلف الموضوعات التى تخص البلد . فهم يبتون فى التقسيمات الادارية الجديدة فى الواحة ، وفى المشكلات التى تنشأ ، وحتى فى الضرائب التى تجمع منهم . وهناك أيضا الجمعية الزراعية التى يديرها مجلس ادارة من السيويين تحت

اشراف مهندس زراعي وهم يقومون عن طريق الجمعية بكل ما يتصل بتسويق حاصلات سيوة ، كما يقومون باقراض المزارعين وغير ذلك من العمليات التى تؤدى الى تنشط اقتصاد المنطقة . ومما لاشك فيه أن تطبيق هذا النظـــام قد خطا بالسيويين خطوة أبعد نحو التكيف للانظمة الحديثة ونحو التعود على ممارسة الديمقراطية فى بحث المشكلات واتخاذ القرار فيها ، وقد أثـــر ذلك كله على الطرق التقليدية فى تنظيم شئون الواحة وادارتهـــــا والبت فى مشكلاتها .

ب ـ الطريق البرى بين سيوة ومرسى مطروح :

يعتبر الطريق البرى الذى يربط سيوة بمرسى مطروح طريقا ليس ممهدا تمهيدا كاملا ، وهناك شيئا من الصعوبة والمعاناة يشعر بها كل من يسلك هذا الطريق . وتكمن صعوبة الطريق الذى يبلغ طوله ٣٠٢ كيلو متر فى أنه طريقا وعرا ولا يمر بمناطق عمرانية يمكن للمسافر أن يستريح فيها من مشقة السفر . ومع ذلك فقد كان لهذا الطريق أثرا لا يمكن انكاره فى التغيرات التى حدثت فى الواحة . وقد بدأت السيارات الاجرة تعمل على الطريق بين سيوة ومطروح لنقل الأشخاص والبضائع . وكانت سيارات الأجرة هى الوسيلة الوحيدة للانتقال . وقد ظلت الامور هكذا حتى عام ١٩٦٣ عندما ظهرت فكرة تسيير خط أوتوبيس بين مطروح وسيوة . وقد عارض بعض التقليديين فى الواحة الفكرة بدعوى التخوف من تلف الاتوبيس نتيجة وعورة الطريق . ولم يكن السبب الحقيقى هو هذا ، فقد كان السبب الحقيقى هو أن وجود وسيلة جديدة للمواصلات سيؤدى الى افلات الزمام من أيدى المسيطرين على مقاولات النقل بمختلف أنواعها . ولكن الحاجة كانت ملحة لمثل هذا النـــــوع من المواصلات لهذا لم يستطع الرأى المعارض أن يتخذ القرار لصالحه ، وتقرر تسيير الخط . واتفق أن يسير الخط مرة كل أسبوع بين مطروح وسيوة ، بحيث يقوم الاتوبيس من مطروح الخميس صباحا ويصل الى سيوة فى المساء، ثم يغادر سيوة السبت صباحا ليصل مطروح فى المساء .

وقد كان لتسيير مواصلات على الطريق البرى أثرها على تغير الواحة

فقد اختفت تدريجيا تقاليد وداع واستقبال المسافر التي كانت تتبع عندما كان السفر يستغرق ثلاثين يوما او اكثر ، اذ أصبح السفر ظاهرة متكـــررة ، ولم يعد السفر خطرا ، وقد اقتصر اتباع التقليد على وداع واســــــتقبال انحجاج . وقد أمكن للكثيرين من أهالي سيوة الوصـــــول الى مطروح عن طريق هذا الخط سواء لتسويق منتجاتهم ومحاصيلهم أو لزيارة الأهل او للاتصال بالجهات الرسمية هناك . كذلك أمكن لاهالي سيوة الافــــادة من مستشفى مطروح العام وخاصة في الحالات التي لا تستطيع مستشفى سيوة المركزى بامكانياتها المحدودة أن تقوم بعلاجها . ويقال أن المرأة عندما ابتدأت تسافر الى مطروح للعلاج أو لاي سبب آخر كانت تعود وتقص ما رأته في مطروح على جيرانها ، ويقال أيضا أن بعض النساء ادعين الحاجة الى العلاج في مطروح لمشاهدة ما سمعنه عن تلك المدينة ولشراء الذهب منها .

البحث عن البترول

تعرضت واحة سيوة لمدة عدة سنوات ابتداء من السبعينات لزحف بشرى وثقافى وتكنولوجى من منطقة وادي النيل اذ بعد أن اتخذت الشركة العامة للبترول قرارها بالبحث عن البترول في منطقة الصحراء الغربية بدأت أعدادا كبيرا من عمال وموظفى واداري ومهندسى واطباء الشركة يفدون الى الواحة برا (عن طريق استخدام الطريق البرى بين سيوة ومطروح) وجوا (من ميناء القاهرة الى مطار سيوة) .

وكان يستقر بعض هؤلاء العمال في الواحة نظرا لان الشركة اتخذت مقرها الأساسى سيوة ، وبعضهم الآخر كان يستقر في سيوة يوم أو أكثر ثم يغادرها الى مناطق الحفر . وقد ملأت سيارات الشركة ومعداتها الواحـــــة وجلس العمال على المقاهى واتصلوا بالأهالى — ولو من خلال قنوات ضيقة — وقـــد أدى هذا الى نقل الكثير من ثقافة وادي النيل الى سيوة .. وقدمت الشركة خدمات عديدة للسيويين أهمها تسهيل انتقالهم الى مرسى مطروح حتى ان الأهالى أصبحوا يفضلون ركوب سيارات البترول عن الأتوبيس وذلك نظرا

لان هذه السيارات تقطع المسافة بين مطروح وسيوة فى عدد ساعات أقل، فضلا عن أن اكثر من سيارة تقطع هذه الرحلة ذهابا وايابا يوميا . وبذلك امكن للسيوى أن يسافر الى مطروح ويعود فى اليوم التالى الى سيوة . كما ابتدأ السيويون يذهبون الى الاسكندرية وأحيانا الى القاهرة عن طريق سيارات الشركة . كذلك عمل كثير من السيويين كعمال مؤقتين فى الشركة (طوال فترة عمل الشركة فى المنطقة) وساعد هذا على اختلاطهم لبعمال وموظفى الشركة ، ومكنهم من اكتساب خبرات فنية جديدة .

مظاهر التغير :

قدمنا ضمن مناقشتنا لعوامل التغير فى الواحة لمحة عن بعض مظاهر التغير ، ولكننا نحتاج الى أن نقدم شرحا تفصيليا لبعض الجوانب الاجتماعية والثقافية فى سيوة تلك الى تغيرت أو التى غزاها تيار وافد عمل على تغييرها لكى نستطيع الوقوف على نوعية وكثافة التغيرات التى تحدث فى المناطق المعزولة . وقد اخترنا ثلاثة جوانب هى تغير الاتجاه نحو التعليم ، والتغير فى الزى وفى المعتقدات السائدة فى الواحة :

أ ــ الاتجاه نحو التعليم : تطور الاتجاه نحو التعليم فى سيوة بشكل ملحوظ . فمنذ اكثر من خمسة عشرة عاما عندما طلب المحافظ من الأهالى ارسال البنات الى المدرسة عارضه السيويون بشدة . أما الآن فمعظم الأهالى قد اقتنعوا بارسال فتياتهم الى المدارس ويظهر تطور ونمو الاتجاه الايجابى نحــو التعليم فى زيادة نسبة الاعــداد الموجودة فى المدارس الآن عن نسبتهم قبل ذلك . فالاقبال على التعليم الابتدائى يتزايد كما بلغ عدد التلاميذ فى المدرسة الاعدادية المشتركة فى سنة ١٩٧٢/٧١ ٤٥ تلميذا . وقد قام كثير من الأهالى بجهود ذاتية لتوفير فصول تحفيظ القرآن ، وتضافرت الجهود فى بعض المناطق مثل المراقى فساهم الأهالى واستطاعوا توفير مكان مناسب لانشاء فصل ابتدائى (٧) .

---

(٧) دعى المؤلف الى افتتاح هذا الفصل مع السيد رئيس مجلس المدينة . وقد وضح اهتمام الأهالى وفرحتهم بافتتاح هذا الفصل خاصة وأن أبناءهم لا يستطيعون الذهاب الى مدارس سيوة نظرا لأن المسافة بين سيوة والمراقى حوالى ٣٠ كيلو مترا . ويعكس اهتمام الأهالى باقامة هذا الفصل نمو الوعى التعليمى لديهم .

ب — **الزى** : كان الزى المغربى هو زى الرجال السائد فى سيوة ، وهو يتكون من جلباب أبيض ، وسروال ، وجرد ، وصديرى ، وشنة (طاقية حمراء) ، وصندل . وقد اختفى الجرد تماما فلم يعد يستعمل الا فى المناسبات الرسمية ، وعند استقبال كبار الزوار . ويبدو وضوح هذه الظاهرة فى أن المشايخ لا يرتدونه حتى فى اجتماعات مجلس المدينة . ويرجح أن ذلك يرجع الى انشغال السيويين فى أعمال كثيرة ، فى حين يعوق الجرد حركة الشخص الى حد ما . كما اختفت كذلك الشنة ، فهى لا تستعمل الا فى المناسبات الرسمية أيضا ، وحلت محلها طاقية بيضاء . وأصبح الجلباب هو الزى اليومى . وقد كان الرجال يتزينون بخواتم من الفضة محلاة بفصوص من الفيروز أو العقيق الأحمر الذى يفضلونه لاعتقادهم بأنه مانع للرعاف . كذلك اختفت عادة تكحيل أعين الفتيان الى أن يبلغوا سن الرشد ، وكانت هذه العادة منتشــرة من قبل .

أما المرأة فكانت تلبس ثوبا يسمى « أبو ردان » لونه أزرق يصبغونه بصبغة من جذور النبات ، وتضع حزاما من الشعر الأسود أو الأبيض يلف حول الخصر ثلاث مرات ، وقد تلبس فوقه حزاما أحمر يسمى (السغفه) تتدلى منه شراريب من الجنب الأيمن حتى الركبة . كما تلبس فى أرجلها الأحذية الحمراء أو الصفراء . وقد كانت المرأة السيويه تضع على وجهها برقعا كثيفا يغطى الوجه كله فلا تظهر منه سوى العينان . ويتكون من (الوقاه) وهو نسيج أسود يغطى الرأس والاذنين ، و (البرقع) وهو قطعة مربعة أو مستطيلة من قماش كريشة حمراء ، أو خضراء ، أو بيضاء مطرزة بخيوط حريرية ومزينة بقطع صغيرة من النحاس أو الذهب أو الفضة ولها حلقتان على الجنبين ، تدلي منهما على الصدغين سلاسل من قطع من النقود القديمة أو الودع ، وتدعى الواحدة منها (شكة) . وتضع النساء فوق البرقع وشاحا أسود يدعى (القنة) يغطى الرأس والظهر .

ويلاحظ أن زى المرأة السيوية لم يتغير كثيرا الا من حيث الاتجاه الى بساطة اكثر . وقد أصبحت الملاءة الرمادية المائلة الى الزرقة هى الزى الموحد

الذى تخرج به اية سيدة فى الطريق . فالمرأة السيوية تضع ملاة تغطى جميع أجزاء جسمها فيما عدا فتحة صغيرة ترى منها الطريق . وهى ترتدى الفستان أسفل الملاءة . اما بالنسبة للفتيات فمسموح لهن بالخروج بفساتين مختلفة الألوان ، مع ارتداء شال او طرحة على الرأس .

ويلاحظ أن تأنق المرأة السيوية ، واهتمامها بزينتها يكون فى داخل المنزل اكثر من خارجه . وذلك لان الملاءة — وهى زى موحد وليس بها اى نوع من الزينة ، ولا تظهر ما تحتها . أما الفساتين فهى مرتفعة الثمن ، فقد يصل ثمن الواحد منها الى ٢٥ أو ٣٠ جنيها ، وهى تصنع من أفخر الأقمشة الواردة من مصر أو ليبيا .

اما زى العروس فلم يتغير كثيرا . فهناك أنواع عديدة من الفساتين تلبسها العروس ، ولكل منها اسم خاص . ففى صباح يوم الزفاف ترتدى العروس ثوبا لونه أسود أو أزرق وليس به اى نوع من النقوش ، ويسمى « أحمر وأسود » . أما بعد الظهر فترتدى ثوبا آخر يسمى « اكبر لحرير » واذا كان والدها ثريا فهى ترتدى اثنين احدهما قصير والآخر طويل ،بحيث ترتدى القصير فوق الطويل حتى تظهر أنها ثرية وفى اليوم الثانى أو الثالث للزفاف ترتدى ثوبا يسمى (آشراح دى حواق) ، وهو غالى الثمن . وتبالغ فتيات سيوة فى عدد الفساتين التى تطالب بها قبل الزواج ، لان ذلك مدعاه الفخر أمام الأخريات ، فأحيانا يصل عدد الفساتين الى ٧٥ فستانا .

وقد اتجهت زينة المرأة السيوية نحو البساطة أيضا ، فقد كانت قطع الزينة تتكون من طوق من الفضة (غرو) ، وحلق مخرطة تتدلى منه سلاسل ويسمى « تمجابت وطيطلغه » ، وأساور « سوار » من الفضة ، وشخاشيخ على الآذان وضفائر تسمى « تيمزنقت » ، ثم طوق يصل الى البطن على شكل هلال ويسمى (ادرم) ، وخاتم سمكة يلبس فى الاصبع الصغير ويسمى « تى سمكت » ، وخواتم من الفضة ، عبارة عن دائرة مسطحة من الفضة أو المعدن قطرها حوالى ١٠ سم بحيث تغطى جزءا كبيرا من اليد ، كما تلبس

المراة عقوداً من الخرز ، ويلاحظ أن المراة لا تثقب اذنيها بل أنفها من جهة واحدة ، حيث تعلق فيها « الاشناف » من الذهب أو الفضة . ويلاحظ أنه لم يبق فى الاستعمال اليومى من مختلفقطع الزينة الا البسيط الذى لايعوق الحركة فلا ترتدى النساء والفتيات كل هذه القطع من الزينة ، والتى تصل الى عدة كيلوات من الفضة والمعادن الأخرى الا فى حفلات الافراح .

وكانت النساء قديما يغسلن شعورهن بنوع من الطفلة يسمى « اتلخت لت شاو » ، وقد اختفى هذا النوع واستبدال بالصابون المستعمل فى وادى النيل . وما زال الشعر يضفر بزيت الزيتون ، غير أن عدد الضفائر الكثيرة التى كانت مقياس جمال المراة السيوية بدأت تقل حتى أن بعضهن لا يضفرن شعورهن على الاطــلاق .

ويمكننا أن نعتبر ان زى المرأة السيوية بهذا الوضع لم يتغير كثيرا ، فما زالت التقاليد تحكمه . ويرجع ذلك الى أن المراة السيوية لم تتح لها فرصة الخروج من سيوة الا نادرا ، وفى ظروف خاصة ، وبالنسبة للعائلات ذات المستوى المادى المرتفع . كذلك لم يتح لها فرصة العمل خارج المنزل حتى تشعر أن « الملاءة » لم تعد ملائمة لحاجة العمل .

هـ ــ المعتقــــدات :

توضح الكتابات المختلفة عن سيوة اعتقاد أهلها فى الكثير من المعتقدات وفى التنجيم والحسد . فمنذ القديم كانوا يعلقون التمائم والتعاويذ من العظام ، وقرون الغزلان ، وعظام الموتى لمنع الحسد . كما يعلقون هذه الاشياء على أبواب منازلهم ، وفى أعناق الحيوانات ، وعلى جذوع النخيل ، وبالقرب من ينابيع الميــــاه .

ويعتقد أهل سيوة فى الأرواح الشريرة مثل الجن ، والعفاريت ، كما يعتقدون فى أرواح صالحة مؤمنة مثل أرواح الملائكة .

واذا كان قد طرأ تغيير على تقاليد ومعتقدا السيويين الا أن الكثير منها

مازال باقيا كما هو ، وان كانوا يتعمدون انكاره أمام الغرباء . ومن هذه المعتقدات معتقد الغولة . فعندما يموت زوج احدى السيدات ، وبعد أن تسير زوجته فى الجنازة الى القبر ، وبعد دفن الجثة ، تختفى عن عيون الناس حيث أنهم يعتقدون أن من يقع بصره عليها يلحقه ضرر . ويطلقون على هذه السيدة لفظ « الغولة » . وهى ترتدى ملابس بيضاء ، ولا تظهر فى الشوارع أو يراها أحد سوى أهل منزلها قبل مضى ٤٠ يوما . وبعد انتهاء الاربعين يقوم « البواب (٨) باعلام أهالى المنطقة بأن الغولة سوف تخرج فجر ذلك اليوم لتستحم فى العين فيختبؤن فى بيوتهم لئلا يرونها وهى خارجة فيصابون بالأذى . وبعد أن تخرج وتستحم فى العين منفردة يرفع عنها لفظ الغولة ، وتصبح امرأة عادية ولها الحق فى الزواج أيضا .(٩)

ويفسر أهالى سيوة الضرر الذى يلحق بالآخرين بأنه نتيجة حسدها ، فهم يعتقدون أنها هى التى تسببت فى موت زوجها ، فلهذا يمكن أن تتسبب فى موت الآخرين .

ويلاحظ أن هذا المعتقد ما زال موجودا حتى الآن ، فلم يتغير منه سوى محاولة اخفائه أمام الغرباء . ويؤكد رسوخ هذا الاعتقاد أنهم يرفضون أن تخرج هذه المرأة من البيت لاتمام اجراءات معاش زوجها ، أو اجراءات الضمان الاجتماعى الا بعد مرور الأربعين يوما . واذا كان هذا المعتقد لم يتغير على مدى السنين الطويلة ، الا أنه من المنتظر أن يتغير تحت ضغط الغرباء فى المنطقة وانتقادهم لهذا الوضع . فقد أدت انتقادات الغرباء الى أن يحاول بعض من أهالى سيوة انكار اعتقادهم فى تأثير « الغولة » .

---

(٨) البواب شخص مسئول عن توصيل الأخبار والمعلومات فى منطقة معينة أو « حاره » ، وذلك نظير قدر معين من المحصول سنويا .

(٩) ذكر أحد وعاظ الواحة أنه كان ينصح الأهالى بالاقلاع عن هذه العادات،وأراد أن يثبت أنه لا يهتم بهذه السفسفات . فتعمد أن يقابل (الغوله) عمدا ، ولكن فى اليوم التالى وصله تلغراف يخبره بموت أحد أقاربه ، وبرغم أنه حاول أن يثبت للأهالى أن ذلك لم يكن الا مجرد صدفة فقد أدت هذه الحادثة الى ترسيخ المعتقد لدى الأهالى .

لاحظنا من مظاهر التغير التى عرضناها هنا أن التغيرات بطيئة وأن هناك عوامل معوقة للتغير . وبخلاف التغيرات البسيطة التى قدمنا نماذج منها لم تحدث تغيرات تذكر فى الواحة . وحتى هذه الجوانب التى تغيرت فان التغير يتسم بأنه تغير معوق . وعلى سبيل المثال فان الروح القبلية قد عوقت تكيف السيويين ونجاحهم فى تمثل نظام الادارة المحلية الجديد . ففى كثير من الأحيان عندما يناقشون أمرا من الأمور كانوا ينحازون لرأى معين ويتخذون فيه موقفا موحدا . وأحيانا لا يرجع ذلك الى اقتناعهم بالفكرة بقدر ما يرجع الى رغبتهم فى توحيـد كلمتهم وخاصة اذا كـان ذلك يحقق المصالح التقليدية . وغنى عن البيان أن ذلك يمكن أن يؤثر على قبول كثير من الآراء والأفكار والاقتراحات التى تعرض عليهم . وفى البداية لوحظ أنهم أحيانا كانوا يلجأون الى اللهجة السيوية للانفراد بأحاديث خاصة فى جلسات المجلس فى حالة وجود غير السويين بهدف الاتفاق على رأى . ويعللون استخدامهم للهجة السيوية — أثناء وجود من لا يعرفونها — بأن ذلك أكثر سهولة بالنسبة لهم .

بالاضافة الى ذلك فانه بجانب المعارضة التى تحدثنا عنها فيما يتعلق بتسيير خط أتوبيس بين سيوة ومطروح ظهرت مشكلات عوقت الدور الذى يمكن أن يؤديه الخط فى ربط سيوة بمطروح ، وبالتالى تسهيل الارتباط بمجتمع الوادى . بعض هذه المشكلات كانت تنظيمية وتتعلق بتسيير الخط وبعضها كان متصلا بتقليدية المجتمع . فقد بدت هناك صعوبات تتعلق بالأمن اذ انحرف بعض السائقين عن الطريق الرئيسى ، وتكرر عطل السيارة ، بجانب أن الأتوبيس نفسه كان يمكن أن يتأخر عن القيام من مرسى مطروح اسبوعا كاملا . وبهذا تظل سيوة دون اتصال بمرسى مطروح فترة طويلة . وقد أدى ذلك الى تأخر الكثير من المصالح ، وتأخر البريد وتأخـــر مرتبات الموظفين وما الى ذلك . أما من حيث المعوقات التى تسببت عن تقليدية المجتمع فقد عارض بعض مشايخ سيوة اختلاط الرجال بالنساء فى الأتوبيس وطالب بعضهم بوضع ستر أو حاجز بين السيدات والرجال .. لكنه سريعا

ما ازيل ... ويتوقع فى ضوء ذلك أن تكون هناك أسر قد عزفت تماما عن السفر بسبب عملية اختلاط الجنسين فى الأتوبيس والتى كانت حدثا جديدا بالنسبة للواحة .

نتيجة لذلك بقيت سيوة واحة تقليدية ، وخاصة عندما انهت شركة البترول اعمالها فى الواحة والمناطق المحيطة بها . ويمكن اجمال العوامل التى أدت الى ذلك فيما يأتى :

● **العزلة الجغرافية** : وهذا هو العامل الرئيسى والعامل الذى تولدت عنه العوامل الأخرى التى سنتكلم عنها فهى التى عوقت وصول وانتشار ثقافة وحضارة المجتمع فى المنطقة . فالعزلة الجغرافية هى التى ابقت اللهجة السيوية لهجة أساسية للحديث الأمر الذى يختلف فيه سكان سيوة عن بقية قطاعات المجتمع المصرى . وهى التى عوقت وصول الأنماط الثقافية من مجتمع الوادى الى سيوة ، وهى التى لم تسمح للسيويين بالانتقال الى مناطق التحضر فى مصر ، لهذا بقيت الأنماط التقليدية السيوية هى الأنماط المثالية .

● **طبيعة النشاط الاقتصادى فى سيوة** : فسيوة مجتمع زراعى يحتل مكان الصدارة فى انتاجه محصولى البلح والزيتون . وبالتالى فان العمل الرئيسى هو زراعة وشتل النخيل ثم جمع محصولى النخيل والزيتون . وأدى هذا الى أن تنحصر فترة العمل والنشاط فى جزء فقط من العام وهى الفترة التى يجمع فيها المحصول ويسوق ، كما أدى هذا الى أن يقتصر نشاط الواحة على بعض الصناعات البسيطة التى ترتبط بهذين المحصولين ، والا تكون هناك فرصة لظهور أعمال متجددة ، أو فرصة لرواج اقتصادى فى الواحة ، كما اختفت تماما فرص الحراك المهنى .

● **سيوة ليست منطقة جذب** : أدت العوامل السابقة الى أن اصبحت سيوة منطقة معزولة لا تجتذب أشخاصا أو رؤوس أموال أو مشروعات استثمارية اليها . وغدت هذه الحالة عاملا آخر يساهم مع العوامل التى أوجدته فى تأكيد عزلة المنطقة عن مجتمع الوادى . فلم يحاول احدا من أبناء

وادى النيل الاستيطان فى المنطقة ، ولم نجد أسرا هاجرت للاقامة فى سيوة ، معظم من يقيمون فى سيوة من غير السيويين هم موظفون مكلفون بتأدية خدمات للاهالى . وحتى اذا قبل المقاولون مشروعا فى سيوة فانهم وعمالهم قليلا ما يخالطون السيويين . بجانب هذا لم تجذب سيوة المغامرين الذين يسعون الى اختيارها كسوق للتجارة . فاذا كانت مطروح قد اغرت بعض أبناء الاسكندرية فأقاموا بها وافتتحوا مشروعات تجارية (كالصيدلية مثلا) فان ذلك لم يحدث فى سيوة (ولهذا بقى طبيب سيوة يأتى بالعلاج بنفسه من رسى مطروح ، ويصرف العلاج مع الفحص) . فحتى السبعينيات لم يحاول أن يقيم فى سيوة اقامة دائمة الا شخصان ، الأول افتتح حانوتا للتصوير وقد كانت له ظروف خاصة وهى أن والده كان يعمل بالوحدة البيطرية شجعه على القدوم الى سيوة ، وكان يفكر فى العودة الى موطنه الأصلى ، الثانى افتتح صالونا للحلاقة .

تغيرات العشرة سنوات الأخيرة :

فى بداية الربع الأخير من عام ١٩٧٣ كانت الشركة العامة للبترول قد أنهت اعمالها فى الواحة .ومع رحيل الشركة من المنطقة بدأت الواحة تفقد بعض المميزات التى حصلت عليها بسبب وجود مقر الشركة فى الواحة وبسبب انتشار عمال ومواقع الشركة فى مناطق متفرقة من الصحراء . فقد وفرت الشركة لأهالى الواحة على مدى عدة سنوات وسائل مواصلات للانتقال بين مطروح والاسكندرية والقاهرة يوميا . كذلك فان اعمال الانارة التى ارتبطت بالشركة كانت قد ساعدت على وجود حياة فى الواحة فى فترة المساء. هذا بالاضافة الى تسهيل وصول المواد التموينية والغذائية (كالأسماك) الى الواحة يوميا بسيارات الشركة اذ استخدمها الأهالى فى جلب احتياجاتهم من خارج الواحة . وقد فقدت الواحة معظم هذه الامتيازات وشعر الاهالى بذلك ، الى حد أن ذكر بعض الاخباريين أن الصمت كان يسود الواحة فى أوقات المساء ، وبصفة عامة فان حالة من السكون قد خيمت على الواحة حتى أن بعض الموظفين من أبناء الوادى لم يستطيعوا البقاء فيها وطلبوا نقلهم منها .

غير أن فترة وجود الشركة قد أفادت الأهالى حيث أن اتصالهم بالعالم الخارجى فى تلك الفترة أدى الى وجود وعى بمعالم التحضر فى المدن الأخرى مثل مطروح والاسكندرية والقاهرة ، وادى الى تعرفهم على الامكانيات المتاحة فى هذه المدن ، وعلى خلق علاقات بينهم وبين كثير من التجار وأصحاب الأعمال خارج الواحة . وقد ساعدهم هذا على الدمكن من ترويج تجارتهم ومزروعاتهم فى هذه المدن فى فترة ما بعد رحيل الشركة . كذلك فان عمليات الحفر التى قامت بها الشركة بحثا عن البترول قد أنتجت ماءا بدلا من البترول واصبحت هذه الآبار بمثابة مصدر هام للمياه اللازمة للرواج الزراعى الذى سنتحدث عنه الآن .

غير أن رحيل الشركة لم يؤد الى رجوع الواحة الى حالة الاظلام التام ، فان هناك عوامل أخرى أدت الى نوع من الرواج تشهده سيوة الآن أثر على مصالحها وأدى الى حدوث بعض التغيرات فيها . فبعد أن أغلق خط التجارة على الساحل الشمالى وبعد أن أصبحت هناك صعوبات فى العمل فى تجارة البضائع اتجه السيويين الى الاهتمام بالزراعة . واذا كانت الزراعة تعد مصدرا هاما للدخل والحياة فى الواحة قبل ذلك الا أن الاهتمام بها فى السنوات الأخيرة أصبح واضحا وضوحا شديدا . فقد زاد كم الأراضى المزروعة زيادة كبيرة ، وأصبحت الجناين تغطى مساحات شاسعة من أراضى الواحة . واستأجر السيويين الجرارات من شركات المقاولات للاسراع فى استصلاح الأراضى فحول السيويين بذلك أراض صحراوية كثيرة الى أراض خضراء . وساعدهم على ذلك توفر المياه من الآبار التى قامت الشركة بحفرها ، بجانب محاولة الأهالى حفر آبار أخرى . ويقرر بعض السيويين أن خروج الماء يتم بسهولة حتى أصبح هناك قولا شائعا بينهم وهو « طلعت لنا أرض » بمعنى أنهم لم تكن لديهم فرصة توسيع الرقعة الزراعية ، ولكن أمكنهم ذلك فجأة .

ونتيجة لذلك ارتفعت أثمان الأراضى الزراعية . وبعد أن كانت الجنينة تباع بمائتى جنيه أصبحت تباع بعشرين الف جنيه . ونتيجة لرغبة السيويين الملحة فى استصلاح الاراضى ارتفع أجر العامل الزراعى فوصل الى خمسة

جنيهات يوميا فى فترة عمل تبدأ من التاسعة صباحا وحتى الثالثة بعد الظهر . وادى ارتفاع اجور عمال الزراعة الى محاولتهم تملك الأراضى فبدأ العامل الزراعى يعمل فى قطعة ارض خاصة به ابتداءا من الساعة الثالثة وحتى الثامنة مساءا . بحيث يستطيع استثمار ما حصل عليه من أجر فى زراعة الأرض التى يملكها . وقد فعل نفس الشىء أبناء سيوة الذين عملوا فى ليبيا فبعد عودتهم من ليبيا اشتروا أراضى وجناين لممارسة نفس النشاط . ويميل الجميع الى زراعة شجر الزيتون اذ أن الحصول على محصول من الشجرة التى تم زراعتها لا يستغرق وقتا طويلا .

ويرجع السبب فى الاهتمام بالزراعة الى ارتفاع اثمان المحاصيل التى يزرعها السيويين ، فهى تباع خارج سيوة بأسعار مرتفعة ، وقد أدى هذا الى ان يفضل السيويين شراء الأراضى الزراعية وزراعتها عن الذهاب الى ليبيا والعمل بها .

وقد ارتبط بزيادة النشاط الزراعى رواج تجارى فى اتجاهين : الاتجاه الأول : تمثل فى عملية تجارة المحاصيل التى تزرع فى سيوة ، وعملية تسويقها فى المدن الكبرى . وهذا النوع من التجارة عزز الاتصال بين سيوة وغيرها من المدن ، وادى الى وجود علاقات بين السويين وبين التجار الذين يتعاملون معهم ، كما أدى أيضا الى أن يألف السيويين التواجد فى المدن الكبرى .

الاتجاه الثانى : تمثل فى الرواج التجارى للسلع الاستهلاكية — خاصة السلع الغذائية — داخل سيوة نفسها . فقد أدت زيادة الدخل الى اقدام السيويين على سلع غذائية وافدة من خارج سيوة . لهذا انتشرت فى الواحة تجارة الدواجن والبيض والأعلاف وبعض المحصولات الزراعية كالخضر التى لا تزرع فى سيوة أو تلك التى لا يكفى انتاجها الاستهلاك السيوى .

ونتيجة لهذا الرواج حدثت تغيرات فى الواحة فزادت فى الواحة المبانى ، وبدأت تظهر العمارات السكنية بعد أن كانت العمارة الشعبية التى يسكنها الموظفون هى العمارة الوحيدة فى الواحة . وبسبب زيادة دخل السيويين

فقد تغيرت عاداتهم الاستهلاكية والغذائية كذلك فان زيادة دخل التجار وملاك الأراضي أدى الى تمكنهم من شراء السيارات لنقل محصولهم الى المدن الأخرى (خاصة السيارات النصف نقل) وهذا أدى الى زيادة درجة الحراك بين سيوة والمدن الأخرى ، وهناك مظهر آخر للتغير هو ما يتعلق بالايجارات فقد ارتفعت أسعار الايجارات بالنسبة للبيوت والشقق والمحلات . فالمحل الذى كان يؤجر فى سنة ١٩٧٠ بجنيهان أصبح يؤجر فى سنة ١٩٨٣ بخمسون جنيها . وانتشرت أيضا ظاهرة الخلوات التى وصلت الى آلاف الجنيهات للمحل أو الوحدة السكنية الواحدة .

وقد كان للتغيرات التى حدثت فى سيوة وجه ايجابى ، هو زيادة اهتمامهم بالتعليم . وقد ساعدهم على ذلك أيضا ذلك القرار الذى خص أبناء الصحراء باستثناءات فيما يتعلق بدخول الجامعات . فقد وصل بعض أبناء السيويين الى التعليم الجامعى . ولهذا ضمت مدارس سيوة مدرسين من أبناء سيوة . وحتى هؤلاء الذين لم تكن لديهم القدرة المادية على تعليم أبناءهم فى الجامعة بما يتضمنه هذا من نفقات اقامة فى مدينة أخرى فقد تصرف الأهل وبذلوا الجهد واقتصدوا فى المعيشة لكى يتمكنوا من تعليم أبنائهم . وقد حدثت فى بعض الحالات حينما كان الأهل فقراء تعاون من أهالى سيوة المقتدرين بحيث ساهم كل مقتدر بنصيب فى النفقات حتى أكمل الابن تعليمه .

وقد ارتبطت التغيرات فى سيوة أيضا بتغيرات فى اتجاهات السيويين نحو عاداتهم وتقاليدهم . فقد أقبل السيويين على تعليم البنت ، وان كان هذا الاتجاه ما زال مكبلا الا أن هناك من الفتيات السيويات من تعلمن ، وبعضهن يعملن فى سيوة وبعضهن يعيش خارج سيوة . كما حدثت حالات زواج سيويين من بنات من خارج سيوة ، لكن ما زالت السيوية تتزوج سيوى فقط .

توقعـــات المستقبل :

لقد عاشت الواحة فترة عزلة طويلة . عزلة جغرافية وثقافية . وحتى

عندما تغلبت جماعات معينة على مدى تاريخ الواحة الطويل على عزلتها الجغرافية وقطعت مئات الكيلومترات ودخلت الى سكان الواحة كانت العزلة الثقافية الحادة عاملا من عوامل بناء الواحة على ما هى عليه .

والآن وبعد حدوث بعض التغيرات فى مجتمع الواحة . وبعد ان تخطت الواحة مرحلة العزلة نحو أكثر اتصالا بالمجتمع الأم ، ونحو أكثر رواجا فى الزراعة والتجارة ماذا سيكون شكل الواحة فى المستقبل ؟ ان عوامل التغير الفاعلة الآن فى الواحة لم تأخذ مكانها الا منذ وقت قصير ، وكل عامل منها لم يؤثر فى الواحة الا عدة سنوات ، ولهذا فان ما ستصل اليه الواحة من تغيرات لا يمكن رؤيته الآن . يحتاج الى سنوات تستمر فيه هذه العوامل فاعلة بجانب عوامل أخرى يمكن أن تستجد . بعدها نستطيع أن نرصد تغيرات أكيدة فى حياة السيويين . وكل ما نستطيعه الآن هو تقديم رؤية تطلعية استفسارية لواقع سيوة بعد عدة سنوات . فسوف تظهر لنا الدراسة فى المستقبل الآثار المترتبة على عامل هام من عوامل التغير وهو رصف الطريق الموصل بين سيوة ومرسى مطروح . فعندما تمت آخر زيارة للصحراء كان الطريق الذى يبلغ طوله ٣٠٢ كيلو متر قد تم رصفه فيما عدا ٦٠ كيلو متر . وعندما يصل هذا الكتاب الى يد القارىء سيكون الطريق قد رصف تماما واستخدم للانتقال بين سيوة ومرسى مطروح ومنها الى المدن الأخرى . وسوف يزيد هذا من حركة أهالى سيوة على الطريق الى مناطق أخرى . ونحن نتساءل :

- لقد اشيع أن بعض السيويين ينظرون بحذر الى رصف الطريق ويخشون دخول الغرباء الى الواحة . واشيع أيضا أن التغير الذى يقبله أهالى سيوة مشروطا بألا تمتلىء الواحة بالأغراب . فهل سيستمر هذا الاتجاه ويتدعم بعد زيادة الحركة على الطريق ؟

- وهل ستظل الواحة تحافظ على تجانسها أم أنها سوف تفتح أبوابها بارادتها أو بغير ارادتها للتجار والعاملين وأصحاب المشروعات لكى يستوطنوا فى الواحة ؟ .

- هل سيحاول ابناء سيوة تحقيق اقصى استثمار لامكانياتهم ومواردهم أم أن غيرهم من خارج الواحة سوف يشاركهم هذا الاستثمار ؟ وعلى سبيل المثال هل سيستطيع المهندسين الزراعيين من أبناء الواحة أن ينجحوا فى تنمية الاقتصاد الزراعى فى الواحة أم سيحتاجوا الى غيرهم من خارج سيوة ؟

- لقد أصبح السيوى يفضل البقاء فى سيوة والعمل بها عن العمل فى مطروح او ليبيا . فهل سيظل هذا الاتجاه قائما أم سيترك البعض سيوة خاصة بعد أن ترتفع بينهم نسبة التعليم ؟ بمعنى آخر هل ستضيق الواحة بأبنائها ؟

- لقد اختبرت الواحة وجود عمال من غير السيويين بها لفترات طويله . فهل سترحب فى المستقبل بغيرهم أم سترى أن ذلك تهديدا لأمنهم ؟ وما هى طبيعة الامتزاج بين هؤلاء العاملين — اذا قدر لهم الاقامه فى الواحة — وبين أبناء سيوة ؟ .

- ما هو الشكل الطبقى المترتب على التغيرات الاقتصادية التى حدثت فى سيوة ؟

هذه الأسئلة، وغيرها الكثير، ستجيب عليها احوال الواحة فى المستقبل، تلك التى سنهتم بتتبعها باستمرار بإذن الله .

الباب الخامس

العـــزلة والاتصـــال
جارة أم الصغير
((دراسة ميدانية))

الفصل العاشر : جارة ام الصغير : العزلة الجغرافية وتقليدية نمط الحياة .

الفصل الحادى عشر : جارة ام الصغير : الاتصال والتغير .

الفصل العاشر

جارة ام الصغير

العزلة الجغرافية وتقليدية نمط الحياة

يطلق البعض على واحة أم الصغير لفظ « قارة » (١) لأنها تشبه قارة مستقلة من حيث وقوعها وسط الصحراء الواسعة . ويطلق عليها البعض الآخر لفظ « جارة » (٢) ، وهو الاسم الشائع عنها لدى أهالى سيوة، لأنها تقع على مكان مرتفع . ومما يذكر أن القاموس الجغرافى المصرى الذى صدر عام ١٨٩٩ اكتفى بتسميتها « أم الصغير » (٣) ، ولم يذكر الاسم « جارة » أو « قارة » ، وذكر أنها ملتقى الطريق بين الاسكندرية وواحات سيوة (٤) . ومع ذلك فان هذه التسمية الأخيرة ترتبط بشكل المنطقة السكنية المرتفعة التى يعيشون فيها . واذا كان الأصمعى قد ذكر أن القارة هى مرتفع ولكنه

---

(١) تطلق كلمة قارة على أكثر من اقليم فى القطر المصرى وخاصة على النجوع . ومن أمثلة ذلك أن لفظ قارة تطلق على تجمع تابع لناحية الرقبة مركز اسوان ، وتطلق على نجع آخر ناحية الكاح شرق مركز ادفو ، كما أن هناك « القارة والكرنك » التابعة لمركز قنا .

(٢) يلاحظ فى المصطلحات العسكرية أن كلمة جارة تعنى رابية أو مكان مرتفع .

(٣) القاموس الجغرافى للقطر المصرى ، ادارة التعداد . نظارة المالية المطبعة الأميرية سنة ١٨٩٩ ، ص ٩٥ .

(٤) من الغريب ان هذا القاموس ، وهو الصادر فى عام ١٨٩٩ ، قد ذكر أن « أم الصغير » خالية من السكان ، مع أن كثيرا من المعمرين الذين تبلغ أعمارهم أكثر من ٧٠ عاما ولدوا فى الجارة. ويذكرون أن أجدادهم كانوا فى الجارة .

اصغر من الجبل (٥) ، فان هذا يفسر لنا تسمية أم الصغير « بالقارة » خاصة حينما نتعرف على شكل المنطقة السكنية التى يعيشون فيها .

ويقع اقليم الجارة فى نطاق الصحراء الغربية التى تمتد من وادى النيل شرقا حتى الحدود المصرية الليبية غربا ، ومن البحر المتوسط شمالا حتى الحدود المصرية السودانية جنوبا (٦) ، وهى تقع على وجه التحديد عند النهاية الغربية لمنخفض القطارة (٧) . وتبعد عن واحة سيوة ـ وهى اقرب مركز عمرانى للجارة فى الشمال ـ حوالى ١٣٠ كيلو مترا ، وتبعد عن مدينة مرسى مطروح الموجودة شرق الجارة بحوالى ٢٤٠ كيلو مترا .

وقد كانت الـــواحة فى الماضى محطة رئيسيـــة فى الطريق بين سيـــوه

---

(٥) الامام شهاب الدين أبى عبد الله البغدادى ، معجم البلدان ، المجلد السابع الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٠٦ ، ص ١١ .

(٦) تبلغ جملة مساحة الصحراء الغربية حوالى ٦٨١٫٠٠٠ كيلو مترا مربعا ، أى أكثر من ثلثى مساحة جمهورية مصر العربية . وتعتبر الصحراء الغربية جزءا من ذلك النطاق الصحراوى الكبير الذى يمتد من ساحل افريقيا الغربى الذى يطل على المحيط الأطلسى حتى أواسط آسيا تقريبا . وتعتبر من أكثر المناطق المصرية قحولة ، فهناك مساحات شـــاسعة تفصل بين مصادر المياه المتناثرة .

أنظر : د. صفى الدين أبو العز وآخرون ـ دراسات فى جغرافية مصر ـ سلسلة الألف كتاب (١٣٩) ، القاهرة سنة ١٩٥٧ ، ص ٨٤ .

(٧) منخفض القطارة من أعظم المنخفضات فى العالم . تحده من الشمال والغرب حافات مرتفعة ، ولكنه مفتوح من الشرق والجنوب حيث يرتفع منسوب أرضه ارتفاعا تدريجيا بصوره غير ملحوظة حتى يتمشى فى النهاية مع مستوى الصحراء الغربية . ويبلغ طول هذا المنخفض من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ٢٩٨ كيلو مترا ، ويصل أقصى اتساع له الى حوالى ١٣٤ مترا تحت مستوى سطح البحر فى النهاية الغربية للمنخفض فى المنطقة الواقعة جنوب شرق واحة أم الصغير بحوالى ٣٠ كيلو مترا . واذ تؤكد الآراء المختلفة أن البحر المتوسط لم يتصل اطلاقا بمنخفض القطارة ، فان مصدر مياه الواحات فى هذا المنخفض يرجع الى تسرب المياه الجوفية الى المنخفض بكميات كبيرة وبصورة مستديمة . المرجع السابق ، ص ١٢١ ـ ١٢٤ .

ومطروح (٨) . كما كانت تعتبر أيضا محطة هامة على الطريق الموصل الى مصر . وكانت رحلة القوافل من سيوة الى الجارة تستغرق يومين أو ثلاثة ، وبعدها تستكمل القوافل الرحلة الى المدن التى تقع على الشاطىء وكانت تستغرق الرحلة الى المدن الساحلية سبعة أيام ، أما الرحلة من الجارة الى القاهرة فقد كانت تستغرق عشرة أيام (٩) . وعادة ما كانت القوافل تسلك الطريق الأثرى المسمى « درب المحصحص » والذى كان يصل الى القاهرة من ناحية كرداسة وذلك لوجود عيون ماء فى هذه المنطقة مما يمكن المسافرين الارتواء بمائها . وربما كان ذلك سببا من أسباب الاستيطان بالجارة . أما الطريق الحالى الذى يبدأ من مرسى مطروح ويصل الى سيوة دون المرور بالجارة ويبلغ طوله حوالى ٣٠٠ كيلو مترا فليست به عيون مياه ، ولذلك لم يطرقه المسافرون الا عندما بدأت الشركات فى عملية تعبيده .

الاقليم والمنطقة السكنية :

ويتكون اقليم الجارة (١٠) ، من منطقة سهلية متسعــة تبلغ مساحتها حوالى ٢٠ كيلو مترا مربعا ، وتحيط بها بعض المرتفعات ، وتتوسطها المنطقة السكنية ، ومساحات مليئة بالأعشاب . وعلى بعد كيلو مترين توجد أشجار النخيل والزيتون والأراضى المزروعة ببعض الخضر والفاكهة كما سيأتى شرحه فيما بعد .

وتقع كل المساكن القديمة للجارة فوق صخرة يبلغ ارتفاعها عن الأرض ما يقرب من ٣٠ مترا ويختلف هذا الارتفاع من مكان الى آخر . وتتوسط هذه الصخرة صخرة أخرى مستديرة الشكل ذات قاعدة ضيقة تبدأ فى الاتساع كلما ارتفعت الى أعلى حتى يصل اتساعها الى ما يقرب من عشرة أمتار . ويظن أن الشكل الذى اتخذته الصخرة لم يكن من فعل عوامل التعرية ،

---

(٨) كان المسافر يمر بالزيتونة ـــ قميرة ـــ الجارة ـــ عبد النبى ـــ القطارة ـــ الحد يثانى ـــ بئر خلدة ـــ الجراولة ، ثم مطروح .

(٩) والتر كلين ، المرجع السابق ، ص ٧ .

(١٠) نقصد هنا باقليم الجارة المنطقة التى تضم السكـــان ومناطق الزراعة وهى المنطقة الجغرافية التى يعيش ويعمل فيها سكان الجارة .

بل كان هذا من عمل الانسان بهدف أن تتخذ شكلا يصعب معه على الغزاة — من البدو أو الأجانب — الاغارة عليهم . والمنازل جميعها محاطة بسورين حجريين ما زالت بقاياهما موجودتين حتى الآن ليؤديا دور الحماية أو الدفاع . ويفصل بين السورين مسافة تصل الى ما يقرب من خمسة أمتار يحيطان بالجارة كلها .

وبيوت الجارة بشكلها العام تكون حائطا هائلا يرتفع كثيرا عن الصخرة، وتتخلله فتحات كثيرة هى النوافذ أو الفتحات التى يلقون منها مهملاتهم على الربوة . ويحيط بالبيوت فوق الهضبة طريقان رئيسيان أحدهما من الجنوب الغربى والآخر من الجنوب الشرقى ، واتساع كل منهما لا يزيد عن متر ، وكلاهما صخرى يرتفع دائريا الى أن يصل الى القمة . ويقع الباب الرئيسى للبلد فى بداية المنطقة وهو باب خشبى ضخم به سلسلة حديدية سميكة كان يغلق بها على السكان ليلا . ويلاحظ أن الناحية الغربية من الجارة غير آهله بالسكان ،اذ بدأ الاهالى ينزعون حجارة مساكنها القديمة وسورها المتهدم لبناء مساكنهم الجديدة أسفل « الصخرة » الى جانب استعانتهم فى البناء ببعض الدخور المعلقة المتناثرة على الهضبة والتى تسقطها الرياح أسفل الهضبة .

وبيوت الجارة المقامة فوق الصخرة نحتت داخل الحجارة نفسها . وهى مزودة بدرجات للصعود والهبوط ، أسقفها من جذوع النخيل المشقوقة الى نصفين ، وتتناثر بجوار جدرانها الكثير من أكوام القش والفضلات ورماد الافران . وتلتف كل بيوت الجارة حول الطريق الرئيسى الذى يبتدىء من البوابة الى قمة الصخرة . واذا سرنا فى هذا الطريق الى اليمين نجد ميدانا دائريا فسيحا يصل نصف قطره الى حوالى سبعة أمتار ، أرضه غير مستوية، يقضى فيه الرجال أوقاتهم بعد غروب الشمس ، ويتفرع من الميدان طريقان صغيران تحيط بهما المنازل على ارتفاعات غير متناسقة لكنها كلها من طابق واحد وذات أبواب خشبية سميكة متشابهة .

وعلى مفترق أحد الطرق توجد حجرة صغيرة كانت مستخدمة سابقا مدرسة قديمة ، وكان بها فصل لتحفيظ القرآن . وأمام المدرسة ، وفى أعلى

ـة صخرة الجارة ، يقع الجامع الذى يؤدى فيه السكان فروض الصلاة ـ
ـتى يتم بناء الجامع الجديد الذى بدأوا فى تشييده فعلا . ويوجد بالجامع
ـحة الى اسفل الصخرة لتصرف المـاء المتخلف من الوضوء . والجامع
ـام على أعمدة من جذوع النحيل ومفروش ببعض الحصر ، وتقع أمامه
لبئر الوحيدة التى كانت ــ الى وقت قريب تغذى الجارة كلها بالمياه ،
ذلك قبل أن تقوم شركة البترول بحفر الآبار الجديدة . ويصل عمق هذه
بئر الى حوالى ٢٥ مترا ، يوجد فوقها حبل ، و « كوز صغير »، وتغطى
وهته عدد من عروق خشب النخيل القديمة المتآكلة . ويوجد على جانبى
طريق ــ بالاضافة الى البيوت ــ بعض الحجرات المغلقة والمخصصة
ـهرات الشباب التى تتناول القصص ، والغناء ، والاناشيد .

ويقع مخزن التموين فى الجنوب الغربى من الجارة وتودع به المعونة
ى تقدمها الدولة سنويا للجارة والتى ترسلها اليهم من سيوة . وله باب
شبى ضخم ، ونافذة صغيرة فى أعلى الجدار لا تصل اليها يد .

وتقع المقابر أسفل الهضبة بما لا يزيد عن قدمين ، والى جوار المقابر
جد أضرحة ومقامات للأولياء مثل مقام سيدى ياقة، وسيدى الحاج عبدالله،
ـقية أولياء ومشايخ الجارة . كما يوجد مدفنان لاثنين من الاولياء لا يحبان
ـهرة هما سيدى لا خطب (١١) ، وسيدى عيسى ، ويذكر الاهالى عنهما
م كلما كانوا يحاولون بناء ضريح لهما ، كان يتهدم بناؤهما فى الصباح.
لى قبر أحدهما عصا علق بها ركاب حصان كان يمتطيه أحدهما قبل وفاته ،
جد الى جنوب الجارة مدفن سيدى ابراهيم الذى توفى على ناقته ، فسارت
حتى « ناخت » بجوار الجارة . وتنفيذا لوصيته ــ كما يذكر أهل الجارة ــ
ـ فى ذلك المكان .

وقد بدأ الأهالى يبنون بيوتهم أسفل الصخرة فى الاتجاه الشرقى ،
بدأت بعض الأسر تترك البيوت القديمة فوق الصخرة . ولكن هذا يتم ببطء

(١١) لا خطب : تعنى الخطيب .

شديد وعلى فترات متباعدة نظرا لعدم القدرة المادية ، اذا لم يزد عدد المنازل التى شيدت حتى الان عن ١٧ منزلا ، وجامع غير مكتمل البناء ، وبقيت ١٣ أسرة فى اعلى الصخرة . ويلاحظ أن المنازل اسفل الصخرة قد اخذتشكل مساكن قرى وادى النيل ، منحيث اتساعها الداخلى. ولميترك أبناء الجارة مسافات متباعدة بين المساكن الجديدة ، وربما ساعد على ذلك درجة القرابة التى تربط بينهم ، بجانب التفاهم حول مصدر المياه .

سكان الجـــارة :

اذا حاولنا الاعتماد على المصادر المكتوبة للتعرف على أعداد سكان الجارة والتغيرات التى حدثت فى هذه الاعداد فاننا نجد أنفسنا أمام تقديرات مختلفة ، ويعكس ذلك من جهة عدم قدرة من كتبوا عن الجارة على تحديد اعداد سكانها بدقة ، **وربما يرجع ذلك الى تقليدية اهالىالواحة وانغلاقهم** مما أدى الى صعوبة التقدير ، كما يعكس من جهة أخرى ظروفا وتغيرات حدثت فى واحة الجارة واثرت على سكانها سواء بالزيادة او النقصان . فيقول والتركلين أنه يبدو أن أعداد سكان الجارة قد بدأت تتزايد بعد أن انخفضت انخفاضا شديدا . فقد ذكر شيخ الجارة فى سنة ١٩٢٨ أن سكان الجارة مائتى شخص ، ولكن تناقص عددهم بسبب انخراطهم فى حرب أهلية . ويقرر نفس شيخ الجارة أنه عندما ولد بها لم يكن يسكنها من الرجال سوى اثنى عشرة رجلا فقط . ومما يذكر أن هامليتون **Hamilton** ذكر وجود نفس العدد فى الجارة فى سنة ١٨٥٣ . وهناك غير هامليتون من يتفق مع شيخالجارة فى نفس التقديرات ، فقد قدرهم كاتب آخر بحوالى ٧٥ شخصا فى سنة ١٨٩٨، وذكر كاتب ثالث أنهم كانوا مائة شخص فى العام الذى تلاه مباشرة ، غير أن أحد الكتاب قد قدرهم فى سنة ١٩٠٠ بخمسين شخصا . أما بلجراف **Belgrave** فقد ذكر سنة ١٩٢٣ أن اعدادهم لم تزد عن مائة شخص ، وقدرهم كاتب آخر سنة ١٩٠٠ بخمسين شخص . ويقول والتركلين عندما زارهم سنة

١٩٢٩ انهم كانوا حوالى ١٣٠ شخصا (١٣) . ويلاحظ أن اختلاف التقديرات لم يتعلق بالكتابات القديمة فقط بل تعلق أيضا بالكتابات الحديثة ، فقد ذكرت مجلة مرسى مطروح أن أعدادهم تبلغ ١٢٠ نسمة (١٣) ، بينما ذكر اللواء رفعت الجوهرى أنهم حوالى ١٠٠ شخص (١٤) .

وعلى الرغم من اختلاف التقديرات السابقة الا أن الثابت منها جميعا ، ومن الدراسة الميدانية التى أجراها كاتب هذا الكتاب على الجارة أن عدد سكان الجارة صغير نسبيا وأن هذا العدد يتسم بالثبات النسبى ، فلم تصل أعداد سكان الجارة فى أى فترة من الفترات الى الآلاف بل ظلت محصورة بين مائة ومائتين أو زادت على ذلك قليلا . وهناك أسطورة أو شائعة تروج فى مناطق كثيرة عن أهالى الجارة مضمونها أن عدد سكان الجارة لا يزيد ولا ينقص . والبعض يرى أن هذه الظاهرة ترجع الى أنه فى اليوم الذى يولد فيه طفل لابد أن يموت مقابله أحد الاحياء . ويرى البعض الآخر أن شيخا يدعى « الطرابلسى » دعى على أهالى الجارة بالعنة وعدم الانجاب . كما ان هناك فريقا ثالثا يرجع عدم الزيادة الى سوء التغذية وضعف القدرة على التناسل .

ومن الواضح أن هذه الشائعة تتضمن قدرا كبيرا من المبالغة ، فالأعداد ليست ثابتة ثباتا مطلقا ، فهناك تغيرات فى أعداد السكان ، ولكنها تغيرات بسيطة ولهذا فالثبات ثباتا نسبيا . وعلى سبيل المثال فان عدد سكان الجارة (الذين يسكنونها بالفعل) يتراوح بين ١٤٠ ، ١٦٠ نسمة . وقد كان هذا الثبات النسبى (على الرغم من عدم وجود أساليب تتبع لتنظيم الأسرة) ظاهرة تدعو لتساؤلات كثيرة كانت سببا أساسيا فى ظهور التفسيرات غير العلمية التى أعطت لهذه المسألة طابعا أسطوريا . وما يمكن أن نقدمة من

---

(١٢) والتر كلين ، المرجع السابق ، ص ص ٧ ، ٨ .
(١٣) مجلة محافظة مطروح ، العدد الاول ، ص ٧٥ .
(١٤) اللواء رفعت الجوهرى ، المرجع السابق ، ص ٥٥ .

تفسير لظاهرة الثبات النسبى لعدد السكان هو ارتفاع نسبة المواليد وارتفاع نسبة الوفيات فى نفس الوقت ، وخاصة نسبة وفيات الأطفال . فالثابت أن طفلا واحدا فقط يعيش من كل خمسة أطفال يولدون (١٥) . وهذا هو السبب فى صغر حجم الأسرة فى الجارة ، فلا يوجد بالجارة سوى أسرة واحدة فقط يبلغ عدد أفرادها ثمانية ، أما بقية الأسر فأقل من هذا الرقم .

ويمكننا أن نقدم تحديدا دقيقا لعدد السكان وتوزيعهم من حيث السن والجنس فى الجارة وقت اجراء أول دراسة ميدانية سنة ١٩٧٤ (١٦) ، فالتعداد الفعلى يبلغ ٢١٠ فردا ، ووجد منهم وقتها بالجارة ما يقرب من ١٥٠ فردا ، ومنهم ٥٥ من الرجال ، ٤٠ من النساء ، والباقى فتيان وأطفال . أما الباقى فيعيش ٢٠ منهم بالاسكندرية ، وحوالى ١٥ أو ٢٠ فى سيوة ، ١٣ أو ١٤ فى ليبيا و ١٠ بمرسى مطروح .

ويلاحظ أن بعض الأهالى معمرون ، فقد عاش ثلاثة منهم الى سن التسعين ، وبلغ أحدهم ١٠٥ سنوات . ويتراوح العمر عموما بين ٥٥ عاما ، ٦٠ سنة للجنسين ، ولكن توفى كثيرون على أثر اصابتهم ببعض الامراض فى سن مبكرة . وأكبر أهالى الجارة حاليا — وقت اجراء البحث — يبلغ عمره ثمانين عاما . وهناك خمسة أو ستة أفراد يزيد أعمارهم على الستين عاما ، ٤٥ فردا من ٣٠ الى ٥٠ عاما ، و ٤٥ فردا بين ٢٠ و ٣٠ عاما ،

---

(١٥) لا يوجد فى الجارة شخص لم يفقد طفلا أو أكثر . ويلاحظ أن وفيات الاطفال تكثر فى الشهور الاولى . وفى المتوسط توفى لكل أسرة فى الجارة أربعة أطفال بعد الولادة بفترة قصيرة . أما شيخ الجارة فقد أنجب ١٦ طفلا لم يعش منهم سوى أربعة . ويلاحظ أن سكان الجارة يتبعون الزواج الأحادى فلا يوجد الا شخص واحدا له زوجتين (وقت اجراء الدراسة)

(١٦) يلاحظ أنه لا توجد أى بيانات تفصيلية دقيقة عن سكان الجارة ، ولهذا تعتبر جميع البيانات والتحليلات الواردة هنا هى محصلة الحصر الذى قام به المؤلف بجهده الفردى .

وحوالى عشرة افراد ما بين ١٥ ، ٢٠ عاما ، و ٣٠ فردا بين ١٠ الى ١٥ عاما ، وحوالى ١٥ فردا أقل من عشرة أعوام .

ب ـ الأصول السلالية :

يقال أن أهالى الجارة ينتمون الى جد سودانى هاجر من السودان واستوطن فى المنطقة ، ويذكر الأهالى أن لهم جدا آخر من ليبيا . ويرجح البعض أن الجدود الأول من السيويين ، وهم بهذا مولدين اذ يعتبرون خليطا من قدماء المصريين ، والأثيوبيين ، والبربر ، والسودانيين والعرب (١٧) ومن العبيد والرقيق الذين جلبتهم القوافل من أواسط افريقيا ، وقد أصبحوا الآن أحرارا . وقد ذكر البعض أن طباعهم تتشابه الى حد كبير مع طباع وأخلاق قبائل البربر فى غرب افريقيا (١٨) .

جـ ـ الشكل الفيزيقى :

ويوضح المظهر الفيزيقى لأبناء وبنات الجارة انتمائهم لسلالات مختلفة ، فبينهم اختلافات واضحة فى المظهر ، فالبعض منهم طويل القامة ، والبعض الآخر قصير جدا ، والغالبية منهم سود البشرة ، والقلة منهم تميل الى اللون القمحى . ويلاحظ أن بعضا منهم له شفاه غليظة والبعض الآخر ليست له هذه الشفاه . كما أن بعضا منهم له أنوف فطساء ، بينما البعض الآخر له أنوف ليست فطساء .

---

(١٧) بعد أن انتشرت الطريقة السنوسية فى شمال ووسط افريقية ، أتت قبائل كثيرة من شمال أفريقيا ، والسودان ، ونيجيريا لنوال بركة السنوسى واستوطن عدد كبير منهم فى سيوة .

أنظر : رفعت الجوهرى ، المرجع السابق ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

راجع أيضا : د أحمد الخشاب ، الاجتماع الدينى ، مكتبة القاهرة الحديثة . الطبعة الثانية سنة ١٩٦٤ ، ص ٣٣٦ ـ ٣٤٥ .

(١٨) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

وينتشر في الجارة العديد من الظواهر المرضية ، فمن الملاحظ مثلا كثرة حالات الحول ، كما أن بعضا منهم مصابا بالعرج أو بشلل الأطفال . كما كان هناك ثلاثة أفراد مصابون بالصمم ، وستة مصابون بأمراض خاصة بالعين . وقد تحدث بعض الأهالى عن ظاهرة مرضية أخرى وهى موت النساء أثناء الولادة أو بعدها بفترة وجيزة . ومن المعروف أن الزواج الداخلى (بين الأقارب) على مدى فترة زمنية طويلة ــ الأمر الذى حدث وما زال يحدث بين أهالى الجارة ــ يمكن أن يكون له تأثيره على الجوانب الصحية لأبناء الواحة .

يتكلم أهالى الجارة اللهجة السيوية (١٩) . ومن الملاحظ أن طبيعة العزلة وعدم الاتصال بسيوة جعلت اللهجة تختلف اختلافا طفيفا عن لهجة السيويين، وهى لهجة منطوقة وغير مكتوبة .

واللهجة السيوية تدل بطريقة مباشرة على ارتباطها بنمط حياة تقليدية وذلك لانها كلهجة متكاملة ــ عاشت بها هذه الجماعات فى سيوة والجارة على الأقل ــ على مدى أجيال طويلة كانت تحتوى على مجموعة من التعبيرات والكلمات التى تفى بحاجة التعامل والاتصال بين الناس فى وقت مضى . ولكن هذه اللهجة ــ بوضعها الحالى تحتوى على بعض الكلمات العربية ، بعضها باق كما هو ، وبعضها اصطبغ باللهجة السيوية . ويلاحظ أن معظم الكلمات العربية الدخيلة على اللهجة السيوية ، تعبر عن ظواهر من الثقافة المادية واللامادية المستحدثة على المجتمع السيوى بصفة عامة ومجتمع الجارة بصفة خاصة فهم يطلقون على الكوب لفظ «كوبايت» (٢٠) والمدرسة «مدرسيت»، والتليفون « دى تالفون » والحكومة « حكوميت » ، والجرار « جرار » .

---

(١٩) بعض الكلمات بلهجة أبناء الجارة ومقابلها باللغة العربية :
أ ــ شبعت الحمد لله : جيونا ، ب ــ تعالى هنا : هيد يحدا .
جـ ــ أجرى : ازل ، د ــ ولع الكلوب : سنطط لكلوب .
هـ ــ اشرب الشاى : سوشاهى ، و ــ صباح الخير : صباح الخير .
ز ــ جى من مصر : أنا سيغ سمصرا .
(٢٠) يضاف المقطع « يت » الى معظم الكلمات التى تعبر عن أشياء جديدة على مجتمع الجارة .

واذ كانت اللهجة السيوية لهجة مستقلة تحوى من الألفاظ ما يغطى كل جوانب الحياة الاجتماعية فان عدم وجود مقابل سيوى لبعض نماذج الثقافة المادية أو اللامادية يؤكد أن هذه النماذج حديثة على المجتمع .

ويتكلم كثير من أهالى الجارة العامية العربية . ولكنهم لم يكونوا الى وقت قريب يستخدمونها فى حياتهم اليومية . وقد ساعد على تعلمها انتشار جهاز الراديو — خاصة فى السنوات الأخيرة فى الواحه . أما بالنسبة للعربية الفصحى فقد ساعد على تعلمها حرصهم على آداء فروض الدين الاسلامى ، وتحفيظ الأبناء نصوص القرآن .

ويتصف أهالى الجارة بكثير من الصفات ، أهمها التعاون والاخلاص والأمانة واحترام الوالدين واكرام الضيف . ويظهر التعاون واضحا عندما يقوم أحدهم ببناء منزل ، أو عندما يحتاج أحدهم لاقتراض بعض المال . ويرى الأهالى أنه لا يوجد بينهم استغلال ، فكل من يمتلك قطعة أرض يؤجر منها جزء لمن لا يمتلك على أن يكون للمستأجر حق التصرف فى كل المحصول (باستثناء محصولى البلح والزيتون ، فلا يأخذ المستأجر الا ثلث المحصول) ، فهم يؤمنون أن الأرض لمن يزرعها . أما عن المشاجرات والنزاع بين أهالى الجارة فيندر حدوثها ، ويرجع ذلك الى أنهم أقارب يكونون عائلة واحدة . ويقوم شيخ الجارة بفض أية نزاعات أو خلافات اذا حدثت. أما الأمانة فتظهر كسمة من سماتهم عندما نعلم أنه لا تحدث سرقات فى هذا المجتمع ، ولم يحاول أحدهم سرقة أو أتلاف محصول الآخر .

ويظهر كرم أبناء الجارة عند استقبالهم للضيوف والغرباء ، فهم يستقبلون ضيوفهم بفرحة شديدة . ويحرص كل فرد على تحية الضيف بيده ، ثم يصطحبون الضيف الى حجرة الاستقبال فى بيت شيخ الجارة ، ويجلس بجوار الضيف ومن حوله كل الرجال والشباب . ويحتفظ الأهالى بسجل يطلبون من كل زائر ان يسجل فيه كلمة ، وهم يعتزون بالسجل اعتزازا شديدا .

ويتميز مجتمع الجارة بالرتابة والانتظام من جهـة الروتين اليومى فالحياة اليومية تبدأ من السابعة صباحا حيث يخرج الرجال والشباب الى عملهم سواء فى الحقول أو لبناء منزل من المنازل ، أو لجمع الحطب ، أو لآداء بعض الأعمال الأخرى . وهم يعملون طوال لليوم فيما عدا فترة الظهيرة حيث يجتمعون لتناول الغذاء ، وربما يجتمعون فى بيت شيخ الجارة للاستماع الى المذياع وتناول الشـاى . والبعض يصنع السلال خلال فترة الراحة قبل عودتهم مرة ثانية الى اعمالهم . أما النساء فينشغلن فى الأعمال المنزلية ونادرا ما يخرجن خارج المنزل ، والنزهة الوحيدة للمرأة هى أن تخرج مع زوجهـا الى الحقل فى فترات متباعدة .

الغذاء والكساء والمسكن :

الغذاء : يعتبر الزيتون والجبن من الأطعمة التى تقدم فى كل وجبات اليوم فى الجارة ، كما يقدم الأرز وبعض الأطعمة الأخرى مثل البطاطس المطهية أو المقلية فى وجبة الغذاء . وهم يأكلون الأرز بأيديهم بينما يقدمون الملاعق للضيوف . أما اللحوم فيأكلونها فى فترات متباعدة ، وكانوا عادة ما يذبحون من الأغنام التى يربونها ، غير أنهم اسـتطاعوا فى السـنوات الأخيرة شراء اللحم البقرى من سيوة . وخاصة فى تلك الفترة التى كانت سيارات الشركة العامة للبترول تعمل على الطريق بين سيوة والجارة كمـا سنوضح فيها بعد . وقد بدأ اهالى الجارة فى السنوات الاخيرة أيضا فى طهى أنواع اخرى من الاطعمة مثل القرع والعدس وبعض أنواع أخرى من البقول، على أنهم يطهونها بطريقة خاصة ويستخدمون فى طهيها السمن الشيحى ، وهو السمن المستخرج من شحوم الأغنام . اما الخبز فهو نوعان : نوع يسـمى « مجردا » وهو شـبيه بالخبز الذى يصـنع فى الريف والذى يسمى « المرحرح » ونوع آخـر من الخبز يسـمى « أرغيف » ويشـبه العيش الشمسى ، وقد كان أهالى الجارة سـابقا يأكلون العيش المصنوع من الشعير كما يفعل البدو ، وكانت النساء تقمن بخبزه فى صورة أرغفة . ويعتمد أهالى الجارة فى غذائهم — بجانب ما ينتجونه من غذاء

وما يشترونه من سيوة على المعونة السنوية التى تقدمها لهم الحكومة (٢١).

ويشرب أهالى سيوة الشاى بكثرة ، وهم يدركون ذلك اذ دائما يقولون أن ما يشربونه من الشاى فى اليوم الواحد يكفى القاهرة كلها لمدة شهر . فالشاى يقدم أكثر من عشر مرات يوميا . وفى كل مرة يشرب كل شخص كوبين على الأقل . ويعتقد الأهالى أن الشاى يعوضهم عن نقص الخضروات والفاكهة فى المنطقة . ويعد أهالى الجارة الشاى بنفس طريقة البدو ، فهم يضعون السكر والشاى بكميات كبيرة جدا فى الماء ويتركونه يغلى مدة كبيرة، ثم يصبونه فى أكواب صغيرة ، ويعاد الى النار مرة أخرى ، وهكذا عدة مرات. ويقوم أحد الفتيان بعمل الشاى ثم تقديمه للجالسين ، ويقدم معه أحيانا الفول السودانى .

الكساء : يشبه زى سكان الجارة الزى السيوى تماما ، ولكن أبناء الجارة يعتبرون أكثر بساطة فى الملبس الأمر الذى يتناسب مع بساطة حياتهم. لذلك لا يرتدى أى شخص « الجرد » (٢٢) فيما عدا شيخ الجارة عندما يزور سيوة ، ولا يحتاج الشخص أن يغير جلبابه الا عندما يتسخ .

ويرتدى الرجل الجلباب والطاقية البيضاء والسروال . وقد اختفى من الجارة الجرد — كما ذكرنا — الذى يمكن أن يحتفظ به بعض كبار السن فى الجارة لكنهم لا يرتدونه . كذلك الأمر بالنسبة للصديرى والشنة الحمراء ، فهم

---

(٢١) تقدم الحكومة معونة سنوية لأهالى الجارة منذ عام ١٩٤٩ ، وهى عبارة عن مواد تموينية مثل الدقيق والسكر والأرز والشاى ، كما تشمل بعض الملابس . ولم تأخذ هذه المعونات صفة الرسمية الا بين عامى ١٩٥٤، ١٩٥٦ ، وكانت قيمتها تقدر بحوالى ٤٠٠ جنيه مصرى ، ومن الجدير بالذكر أنها ما زالت تقدم حتى الآن .

(٢٢) الجرد رداء يلبسه الرجل فى الصحراء الغربية (بما فى ذلك سيوة والجارة) فوق الجلباب . وهو ثقيل ويتصف بالرسمية ، لذلك يرتدى فى الشتاء أو فى المناسبات والمقابلات الرسمية فى أى وقت من الأوقات .

لا يرتدون الا فى المناسبات أو الزيارات . ويرتدى الفتيان والشباب الجلاليب والطواقى والسراويل والنعال .

وترتدى النساء فى الجارة قميصا ملونا تصل أكمامه الى أسفل الكوع ، ويصل طوله الى اسفل الركبة بقليل ، وتحته قميصا قصيرا أو فانلة ثم السروال. أما خارج المنزل فترتدى المرأة ملاءة رمادية مخططة باللون الأزرق تغطى الجسم كله ، كما ترتدى تحتها برقع (٢٣) ، وفستانا مشجرا ، ولكن هذا الفستان لا يظهر حيث أن السيدة تلف نفسها جيدا بالملاءة . ويقال أن أكمام الفستان بدأت تضيق . وترتدى المرأة حذاءا أحمرا مزركشا . وبالنسبة للفتاة فهى مخيرة فى ارتداء الطرحة قبل سن البلوغ ، ولكنها تلتزم بارتدائها متى بلغت سن النضج .

وتتزين النساء بالعقود والأقراط كبيرة الحجم ومختلفة الأشكال ، منها ما هو على شكل مخرطة تتدلى منها سلاسل قد يصل طولها الى حوالى ٣٠ سم ، وفى طرف كل منها جلجلة . كما يلبسن على صدورهن أطواق من المعدن تتدلى منها قطع مستديرة من المعدن ايضا عليها بعض النقوش ، ويلاحظ أن حجم الأقراط والعقود بدأ يأخذ طريقه الى الصغر . كما تلبس النساء أيضا أساور عريضة من الفضة يبلغ عرض الواحدة منها حوالى ١٠ سم ، وتسمى « دملج » .

وتتزين البنات بالأقراط والأطواق مثل النساء بالاضافة الى العقود المكونة من قطع كبيرة الحجم من البلاستيك الملون . وتتباهى الفتيات بكثرة العقود التى يلبسنها . كما تضفر الفتيات شعورهن فى شكل عدد كبير من الضفائر ، وكذلك تفعل النساء أيضا . وفى بعض الأحيان تحلق الفتيات شعورهن ويتركن بعضا من الشعر الطويل على جانبى الرأس ويضفرنه أيضا .

---

(٢٣) كان البرقع قديما أسود اللون ، ولكنه حاليا من الشاش الملون ويغطى الوجه كله .

المسكن : شيدت مساكن الجارة على نفس طراز مساكن سيوة القديمة، وذلك كنوع من الدفاع ضد أى غزو خارجى مما يؤكد أنه كان هناك نوع من الهجمات على الجارة ، الأمر الذى استدعى هذه الاحتياطات .

ويتكون البيت فى الجـارة من ٤ حجرات الى ١٤ حجـرة ، ولكل بيت حوش متسع ، ومطبخ ، وحجرة استقبال تكون معزولة عن باقى حجرات المنزل ، وتفـرش بالسجاجيد أو الحصير ، كما توضع بها شلت رقيقـة مساحتها متر واحد مربع ، ولكل منها مسند . ويدق بحائط حجرة الاستقبال عدة خوابير لتعليق البنادق . وتستخدم باقى الحجرات للنوم . ويفترض أن الفتيان لا ينامون فى حجرات الفتيات .

ولكل منزل دورتان للمياه واحدة للرجال وأخرى للسيدات ، وذلك تمشيا مع التقاليد اذ لا يمكن لامرأة أن تدخل دورة المياه امام اعين الرجال . ولهذا تكون دورة المياه الخاصة بالرجال بجوار حجرة الاستقبال ، أما دروة المياه الخاصة بالنساء فتكون فى داخل المنزل بجوار حجرات النوم . ويلاحظ عدم وجود أبواب لدورات المياه . ودورة المياه عبارة عن مسطح به فتحة مستديرة وأسفلها فراغ كبير وبكل مسكن حمام يوضع فيه برميل للمياه يستخدم فى الاستحمام وهو قائم على قاعدة صلبة .

وبعض بيوت الجارة التى شيدت أسفل الصخرة لها أكثر من مدخل . فهناك مدخل أرضى يؤدى الى الدور الأرضى ومدخل آخر يؤدى الى الدور العلوى على الرغم من أنه يمكن الوصـول الى الدور العلوى من الـدور الأرضى من داخل البيت .

ويتم بناء المنازل أسفل الصخرة ببساطة شديدة ، ودون تصاريح ، وبجهود أبناء الجارة أنفسيهم . فكل من يرغب فى بناء منزل يمكن أن يبنيه اذ أن الأرض متاحة للجميع . ونظرا لقلة عدد الأهالى وصغر حجم المجتمع تبنى المنازل بعيدة عن بعضها . وتستخدم الأحجار التى تقطع من الجبال فى البناء ، كما تستخدم الطفلة التى يحضرونها من الصحراء ، وتستخدم

مياه البئر فى عملية البناء . وكان بناء المنزل يتكلف من ٢٠٠ الى ٤٠٠ جنيه . ولهذا يتم بناء المنزل أسفل الصخرة على ثلاثة أو أربعة سنوات . ويعاون شباب الجارة « المتخصص » الذى يقوم بالبناء ، كما يشارك الفتيان الصغار أيضا فىعمليات قطع الأحجار من الجبل ونقلها على الدواب ثم عجن الطفلة ، ومناولة الحجارة لمن يقوم بالبناء .

وتبدأ مراحل بناء المنزل بتقطيع الحجارة من الجبال ، ثم نقلها على دواب الى مكان البناء ، ثم تخمر الطفلة بعد عجنها بالماء فى اليوم السابق للبناء . ويبدأ الجميع فى العمل منذ الصباح الباكر ، فيجلس البنا على الحائط ، ويناوله الصبيان الحجارة وقطعا من عجينة الطفلة . وكلما تم بناء جزء من الحائط يتركه حتى يجف ويتماسك . ويقوم العاملون فى البناء بأخذ فترات من الراحة أثناء العمل يتناولون فيها الشاى ويتبادلون الأحاديث .

وكانت المنازل فى الجارة تبنى بدون أساس ، لذلك انهارت بعض الحجرات بفعل العواصف . وتصنع أسقف المنازل من خشب النخيل وذلك بأن تقسم النخلة نصفين ويسقف بها السقف بالطول بألواح النخيل التى يبلغ طولها حوالى مترين . وعند تقاطع كل لوح بالآخر تحمله نخلتان كاملتان بالعرض . وتوضع قطع صغيرة من الخشب فوق أخشاب النخيل وقد يستعاض عنها بسعف النخيل والجريد ، ثم تصب فوقه الطفلة ، وأحيانا يدعم السقف ببعض قطع من الحديد تبدو ظاهرة خارج الحائط .

وكانت المنازل فى الماضى تبنى فوق الهضبة ولكن فى الوقت الحالى بدأ الأهالى يبنون بيوتهم أسفل الجبل اذ توفرت الامكانيات المادية للبعض . وتسمى البيوت المقامة أعلى الجبل بالجارة القديمة أو « البلد » .

وتصنع أبواب المنازل من الواح سميكة من خشب النخيل يبلغ سمكها حوالى ١٥ سم ، يتوسطها بالعرض لوحان من الخشب ومشجب لغلق الباب . وتبيض الحجرات من الداخل فقط ، ونادرا ما تبيض المنازل من الخارج ، واذا بيضت يكون بياضها خفيفا جدا لدرجة أنه سرعان ما يزول بفعل الطبيعة .

وأثاث المنزل فى الجارة بسيط وبدائى ، فكل حجرة تفرش بالحصير والأبراش التى تصنع محليا ، وتوضع الأوسدة الى جوار الحوائط فى جميع أركان الحجرة لتكون بمثابة مساند يتكىء عليها الجالسون . وأحيانا يفترشون « ألحفة » على الأرض ، وغالبا ما تستعمل للنوم عليها كما يستعملونها كأغطية أيضا ، وهى تشترى من سيوة .

ويوجد بالمنزل صناديق خشبية لحفظ الملابس ، كما يعلق البعض منهم « مشاجب » فى الأسقف بواسطة حبلين يتصل كل منهما بطرف من طرفيها . أما وسائل الاضاءة فهى اللمبة ، وتوقد بالكيروسين ، الا أن البعض استطاع شراء بعض الكلوبات الواردة من ليبيا ، كما يشترون مواقد الطهى من سيوة .

ويلاحظ أن بعض الموسرين بدأوا يهتمون بأثاث المنزل ، اذ يشترون الألحفة الغالية الثمن من سيوة ، كما يشترون أنواعا فاخرة من الأغطية الحريرية والقطنية ، والأكواب ، وأغطية الموائد (التى يغطون بها الطبلية).

أما أدوات الطعام فتتكون من الأطباق مختلفة الأحجام ، والملاعق ، ووعاء يشبه « السلطانية » يشربون فيه المياه شأنهم فى ذلك شأن البدو . أما أدوات غسل الأيدى فعبارة عن ابريق يصب منه الماء ، ووعاء لتلقى الماء المتخلف عن الغسيل وهى تأتى من سيوة أيضا .

النشـــاط الاقتصادى :

ينقسم النشاط الاقتصادى فى الجارة الى نوعين من الأعمال ، النوع الأول هو الحرف مثل حرفة الزراعة والرعى والبناء وغيرها من الأعمال البسيطة ، ثم الصناعات المحلية .

فمن جهة الحرف : تعتبر الزراعة هى اهم الأنشطة الاقتصاديـــة فى الجارة . وقد كان مجتمع الواحة يعتمد حتى عام ١٩٧٠ على ما تجـود به الطبيعة من أمطار وآبـار فى زراعة الزيتون والبلـــح وبعض الخضروات

والفاكهة . فاذا كانت الطبيعة سخية فى أمطارها وآبارها تزايد انتاج المحاصيل ، والعكس فى حالة نقص المياه ، فكثيرا ما تعرض انتاج الواحة من البلح والزيتون للنقص بسبب قلة المياه اللازمة للرى (٢٤) . ولكن فى عام ١٩٧٠ تغير الحال الى الأفضل اذ قامت الشركة العامة للبترول بالتنقيب عن البترول فى الصحراء الغربية ، وعملت على حفر بعض الآبار اللازمة لنقل المياه الى مناطق الحفر فى الصحراء ، وحفرت آبار بجوار الواحة فتمكن أهالى الجارة من استخدام مياه الآبار فى عملية زراعة هذه المحاصيل .

ونود أن نشير الى أن نقص المياه لم يكن هو العامل الوحيد المؤدى الى تلف المزروعات والمحصول فى الواحة ، فقد تعرض البلح والزيتـــون والمزروعات الأخرى للتلف رغم وجود المياه اللازمة للزراعة وذلك بسبب أمراض وآفات زراعية لم يستطع أهالى الجارة بسبب نقص خبرتهم وبدائيتهم أن يقاوموها .

والبلح والزيتون هما المحصولان الرئيسيان اللذان تعتمد عليهما الجارة كمورد أساسى ، اذ تقوم بتصديره الى سيوة . ويبلغ عدد أشجار النخيل الموجودة بالجارة نحو أربعة آلاف نخلة ، كما يصل عدد أشجار الزيتون بين مائتين أو ثلاثمائة شجرة (٢٥) . ولكن يلاحظ أن افادة أهالى الجارة من أشجار النخيل افادة كاملة لم يتـــم حتى الآن وذلك بسبب قلـــة امكانيات الاستثمار والحفاظ على النخيل . وبالاضافة الى محصول البلح والزيتون يقوم الأهالى بزراعة بعض المزروعات التى تخدم الاستهلاك المنزلى . ومن

---

(٢٤) كانت هناك بئر محفورة حتى عام ١٩٣٨ ، الا أنه فى عام ١٩٤١ وأثناء الحرب العالمية الثانية بطل عمل هذا البئر نتيجة قيام بعض الجنود الأجانب بوضع حجر على فوهته لمنع اندفاع المياه الى أعلى حتى يتمكنوا من الاستحمام . وبعد فترة تآكل الحجر وسقط داخل الماسورة التى تستخدم فى الرى وسد البئر مما ترتب عليه موت المئات من أشجار النخيل والزيتون .

(٢٥) جودت عبد الحميد يوسف ، مجلة الفنون الشعبية ، العدد ١٣ ، سنة ١٩٧٠ ، ص ١١٤ .

هده المزروعات الجرجير والبصل والفجل والرجلة والبرسيم ، كما يهتمون بزراعة الرمان . وهذه الأنواع تزرع بكميات صغيرة وفى أحواض لا تتعدى بضعة أمتار .

ويعانـى سكان الجـارة من مشقة كبـيرة فى زراعة الأرض بسبب استخدامهم لآلات بدائية يدوية . فهم يستخدمون محراثا خاصا لتقليب الأرض يطلقون عليه « توريت » وهو عبارة عن مسطح حديدى له يد خشبية تشبه الفأس ، وطوله ٤٥ سم ، وعرضه حوالى ٣٠ سم . ويلاحظ أن حرث الأرض بهذه الآداة البدائية أمرا صعبا . وهم لديهم أيضا الفأس الذي يستخدمونه فى اصلاح وتقليم أشجار النخيل والزيتون وفى استخراج الحجارة من الأرض . وبالنسبة للمنجل الذى يطلق عليه الأهالـى اسم « أمجير » فيستخدم أيضا فى تقليم اشجار النخيل والزيتون وفى جمع البلح . ويتميز السلاح الحديدى للمنجل بأن به حد « مشرشر » يساعد على القطع . وتشترى هذه الأدوات من القاهرة ، فيما عدا المنجل ، وهى ترسل للاصلاح فى سيوة اذا احتاجت الى اصلاحات أساسية .

والثروة الحيوانية فى الجارة ضئيلة جدا ، وهذا ناتج عن عدم الاهتمام بهذا النشاط بسبب أنهم جماعة مستقرة لا تحب التنقل . هذا الى جانب انخفاض المستوى الاقتصادى الـذى لا يتيح الفرصة لشراء الأبقـار أو الجاموس ، أو حتى الاكثار من الثروة الحيوانية التى لم تكن تزيد الى وقت قريب فى المجتمع كله على ٧٠ راسا من الأغنام . أما الدواجن فهى موجودة بكمية ضئيلة جدا ، ولا يهتمون بتربيتها أو الاعتناء بها ، ويبدو أنها تصاب بكثير من الأمراض فتموت .

وهناك بعض الحرف الأخرى فى الجارة من بينها حرفة البناء . ففى الجارة بناء واحد يقوم بهذه العملية ويساعده شبان الواحة . وبناء المنازل فى الجـارة يتم بطريقة بدائيـة ، ويستخدمون فيه الصخـور التى توجد بالصحراء ، كما يستخدمون الطفلة كبديل للأسمنت . وهناك أيضا مهنة

الحدادة أو السباكة التى يقوم بها أحد السكان . وينحصر عمله فى اصلاح صنابير المياه والأوانى المعدنية ، بالاضافة الى اصلاح الأجزاء المعدنية من أبواب المنازل وغيرها من الأدوات الزراعية . ويستخدم فى عمله بعض المواد الخام التى يشتريها من سيوة . وفى الجارة يوجد شخص واحد أيضا يقوم بأعمال النجارة ، وهو يقوم بعمل الأبواب والشبابيك وايادى الفئوس والعصى وبعض الأحمال الخشبية التى توضع على الدواب .

أما من جهة **الصناعات المحلية** : فيقوم الرجال فى الجارة بانتاج بعض الصناعات اليدوية البسيطة التى يستخدم فى انتاجها بعض الخامات المتوفرة مثل سعف النخيل والليافه والغاب . ومن أهم المصنوعات التى تصنع من سعف النخل الحصير ويسمونه « تمسلط » ، والغلق الكبير ويسمى « تعادلت » ، والغلق الصغير ويلقب « اكروش » ، والبرش ويسمى أيضا « برش » ، والمصلية ، والأشاير وهى عبارة عن صفائح مصنوعة من الخوص مفتوحة من أحد جوانبها يكبس فيها البلح لعمل العجوة التى تعتبر هى أيضا من أهم الصناعات المحلية . أما الياف النخيل فتصنع منها الحبال ، والغاب يستخدم مع سعف النخل وجلد الحيوانات المزركش ـ المشترى من سيوة ـ فى عمل المنشات .

وتقوم نساء الجارة بالاضافة الى أعمالهن المنزلية من طهى وغسيل وتربية الأطفال ، بحياكة ملابسهن وملابس أزواجهن وأطفالهن ، كما يقمن ببعض أعمال التطريز التى تتقنها كل نساء الجارة ، فمن العيب الا تصنع السيدة ملابسها بنفسها . وتقوم النساء أيضا بعمل « المراجين » (٢٦) وبعض الأطباق الملونة من القش وهن يجدن تلك الحرفة ويتفنن فى انتاجها

---

(٢٦) المرجونة (الجمع مراجين) هى وعاء مستدير (يأخذ شكل كروى) وله غطاء ، وهو يتميز بالصلابة ، ويصنع أساسا من الخوص الذى يتم تلوينه بألوان زاهية . ويحفظ فى المرجونة الخبز وأحيانا الملابس ، ولهذا فهى تصنع فى أحجام مختلفة .

على أحسن صورة ويستعملن فى ذلك الوحدات الهندسية المتكررة من النقش الملون . وتقوم النساء بهذه الأعمال اثناء تجمعهن معا فى أحد البيوت .

تقسيم العمل (٢٧) :

يتم تقسيم العمل فى الجارة فى أضيق نطاق نظرا لضآلة حجم النشاط الاقتصادى الذى يمارسونه ، بالاضافة الى قلة عدد الأفراد الذين يكونون الأيدى العاملة فى الواحة مما يؤدى الى عدم وجود مصالح متنافرة ومتضاربة ، كما لا يؤدى الى وجود تنوع كبير فى الأعمال التى تمارس فى الواحة .

وفى مجتمع الجارة يمارس الأفراد بعض الأعمال بما يمكن أن نطلق عليه نظام العمل الجماعى (٢٨) . اذ يخرج الشباب من أبناء الواحة للعمل فى الحقول متنقلين من حقل الى آخر بصورة جماعية ، خاصة وأنهم يستعملون المعدات الزراعية البدائية التى لا تحتاج الى الكثير من الوقت والجهد مما لا يستطيع معه الفرد ان ينجز عملا بجهده المحدود .

---

(٢٧) لابد للنشاط الانسانى من بذل الجهد للحصول على متطلبات المعيشة . ولما كان الانسان الفرد لا يستطيع بمفرده أن يقوم بأوجه النشاط المختلفة للحصول على متطلباته ، وتلبية رغباته ، خاصة وانه لا يستطيع أن يكون زارعا وصانعا فى نفس الوقت ، لذا كانت الضرورة تفرض نفسها على كل مجتمع بأن يكون هنالك (تخصص) فى الانتاج ، زراعيا كان أم صناعيا ، وبالتالى يقسم فيه الأفراد العمل الذى يقومون به لسرعة انجازه من ناحية ولاتقانه من ناحية أخرى .

وقد وجد الأنثروبولوجيون أن من أهم الخصائص التى تميز المجتمع البدائى هى بساطة العلاقات الاقتصادية والفنية ، وبساطة نظام تقسيم العمل . د. عبد الحميد لطفى ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٦٨ ، ص ٨٧ .

(٢٨) يستعمل مصطلح العمل الجماعى Communal labour للدلالة على الأعمال التى يمارسها عدد كبير من اناس باشتراكهم فى آدائها كجماعة وهو يختلف عن لفظ (العمل المنظم Organized labour) الذى يدل على ممارسة عدد من الأفراد لأعمال مختلفة متمايزة لكنها متكاملة .

انظر : احمد أبوزيد ، البناء الاجتماعى ، الجزء الثانى (الانساق) ، دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٧ ، ص ١٨٨ .

ويلجأ أبناء الجارة فى أثناء نمو المزروعات الى استصلاح مناطق جديدة ، أو تطهير الحقول من الأعشاب الضارة ، أو ريها ، أو الى شتل النخيل . أما فى وقت جنى المحصول فانهم يقومون بجنيه بطريقة جماعية بنفس أسلوب زراعتـــه (٢٩) .

وهناك بعض أعمال البنـــاء لا يقوم بها فرد بمفـــرده ، بل يعاونه جماعة من الشباب ممن تتراوح أعمارهم بين ١٢ - ٢٠ ســـــنة ، فمنهم من يقوم بقطع الحجارة ، ومنهم من يتولى نقلها ، وآخرون يساعدون فى عملية البناء . والملاحظ أن عملية البناء لا تتم دفعة واحدة بل كثيرا ما يعملون فى الحقول بينما يقومون بالبناء فى نفس الوقت . فقد يعملون فى البناء يوما ، وفى الحقل فى اليوم الذى يليه أو قد يقتسمون العمل فيما بينهم بين الحقل والبناء اذا دعت الضرورة الى ذلك .

واذا كان دافع الحصول على الطعام يمثل دافعا قويا للعمل ، فان الالتزام الاجتماعى هو الدافع للعمل الجماعى . فكل شخص فى الجـــارة يشعر بأنه مطالب بالتعاون مع الآخرين فى مختلف الأعمـــال التى يمكن تأديتها جماعيا . كما أن عامل القرابة يلعب دورا هاما فى هذا الصدد . بالاضافة الى هذا فان اجتماع الشباب للعمل الجماعى بعد الظهـــيرة فى الحقول يتسم بالترويح ، اذ يعودون بعده فى المساء الى جلسة جماعية فى منزل شيخ الجارة .

---

(٢٩) يشبه التعاون فى العمل الزراعى فى الجارة ، تعاون أفراد العائلة الكبيرة عند (الايبو) فى الزراعة . فهم يقومون فى بداية موسم الزراعة باعداد الحقول مع بعضهم البعض ويستمر هذا التعاون كلما اقتضت الضرورة ذلك . وقد يتعاون الفرد فى مجتمع الايبو فى زراعة أرض فرد آخر غائب ، وذلك نظير هدية من حين لآخر . (أنظر د. أحمد أبو زيد ، المـــرجع السابق ، ص ١٦٢) .

ومثل هذا يحدث فى مجتمع الجارة ، فهم يقومون بزراعة أرض أحدهم اذا كان مسافرا الى سيوة ، أو مطروح ، أو الى الأراضى الحجازيـــة ، وذلك دون مقابل نظرا لأن الجميع أقارب .

. يبدو تقسيم العمل واضحا فى الجارة بين الرجال والنساء . فاذا كان الرجل يرتبط بالحقل والزراعة ، فان المرأة تقوم بالصناعات اليدوية كعمل « الحصر » ، والسعف المجدول ، والمراجين ، والأبراش ، الى جانب التزامها بالعناية بالمنزل ، والأطفال ، وحياكة ملابس النساء والرجال . وتقوم أكبر النساء فى الجارة سنا بعملية الولادة ، بينما يقوم أحدهم وهو الطبيب الشعبى بوصف العلاج لمختلف أنواع الأمراض .

ويلاحظ أن تقسيم العمل يقوم على اعتبارات الجنس ، ولا يخضع توزيعه لنوعية العمل من حيث كونه شاقا أو غير شاق بقدر ما يخضع للتقاليد المرعية ومقدرة المرأة على الحركة أو الخروج . فالتقاليد لا تسمح للمرأة بلقاء الرجل أو التحدث معه ، لهـذا لا يمكنها المشاركة فى أعمـال الحقل أو فى أية أعمال أخرى . ونجد الفتيات الصغيرات والفتيان يقومون بجلب المياه من البئر ، بينما لا تقوم النساء بهذا العمل خاصة بسبب الزى الذى يعوق حركتهن . اذ لا يمكنهن من أداء الكثير من الأعمـال مباشرة ومن هنا فان تقاليد الجارة واحتجاب المرأة فى مسكنها قد أدى الى نمط محدد من تقسيم العمل فى هذا المجتمع . وان كان هذا التقسيم لا يترتب عليه أية امتيازات لجنس على الآخر ، الا ان بعض الأعمال ينفرد بها الرجل نظرا لقوته البدنية مثل أعمال البناء ، وأعمال الزراعة كالحرث والرى وشتل النخيل ، الا أن هذا كله لايمنع الرجل ان يقتسم العمل مع المرأة من مشاركتها فيما تصنع من سلال من جريد النخيل فى أوقات الظهيرة . كما تقوم النساء بمساعدة الرجال فى صناعة « المنشات » و « الحصر » و « الأبراش » ، ومختلف أعمال السعف التى تحتاج لصباغة .

وان كان تقسيم العمل يبدو واضحا بين الرجل والمرأة فان اختلاف السن يعتبر عاملا هاما فى تحديد الشخص الذى يقوم بالعمل ، ففى البناء يقوم « البنا » وهو رجل كبير السن بعملية تصفيف الحجارة ، حيث أنها تتطلب مهارة حرفية بينما لا تتطلب قوة بدنية ، بينما يقوم مجموعة من الشباب بخلط الطفلة بالماء (تستعمل الطفلة كبديل للاسمنت) بينما يقوم بعض الفتيان

بتقطيع الحجارة من التلال المحيطة . أما الأطفال فيقومون بقيادة « الدابة » التى تحمل الحجارة من « المحاجر » الى مكان البناء .

وفى الزراعة يقوم الأصغر سنا بتطهير الحقول من الأعشاب ، بينما يقوم الكبار بالأعمال التى تحتاج الى مهارات وخبرات فى الزراعة . كذلك فى النجارة يقوم النجار الـــوحيد فى القرية بأعمال النجارة يساعده ابنـــه فى الاعمال البسيطة .

ويبدو تقسيم العمل أيضا فى آداء الأعمال المنزلية اذ يمكننا أن نلاحظ أن العمل مقسم بطريقة تلقائية أثناء عمل الشاى — وهو المشروب الرئيسى — فى جلسات المساء . فالشيخ لا يقوم بأى عمل ، بل الأصغر سنا يتولى عمل الشاى ، بينما يسارع الأبناء بغسل الأكواب وتنظيف الآنية وتقديم الشاى للحاضرين . مع مراعاة اعتبارات السن بأن يقدم للكبار قبل الصغار .

ومن الأمور الهامة الاستعانة بخبرة ومشورة الكبار فى شتى المجالات سواء فى الحقل أو فى البناء حيث أنهم قد مارسوا هذه الأعمال قبل أن يصبحوا شيوخا ولديهم من الخبرات والمهارات ما يمكن أن تنتقل من السلف الى الخلف .

البيع والشراء والتبادل :

لا يسود بين أبناء الواحة تبادل تجارى بمعناه المعروف ، وذلك بسبب صغر حجم مجتمع الجارة علاوة على درجة القرابة الموجودة بين أفراده حيث يمكن القول بأن أفراد هذا المجتمع يعتبرون كأسرة واحدة تسكن فى منزل واحد هو الجارة . ويلاحظ أن الجميع يزرعون البلح والزيتون وهما المحصولان الأساسيان فى الجارة كما يزرعون فى الأراضى الزراعية الضيقة الموجودة بالجارة مزروعات أخرى هى عبارة عن بعض الخضروات البسيطة التى يمكن لأى فرد من الجارة ان يأخذ منها ما يشاء لاستعماله الخاص دون استئذان ، أو دون دفع مقابل فى سبيل الحصول عليها .

مما سبق يمكن أن نقرر أنه لا يوجد بين أفراد الجارة أى تبادل تجارى ، اللهم الا فى حالات نادرة يتم فيها تبادل السلع بينهم مثل حالة بيع لحم الماعز

فانه اذا كان هناك فرد فى الجارة يريد أن يقوم بذبح واحدة من الماعز ، فهو يمر على الأهالى ليعرف عما اذا كان هناك طلب على لحمها ، فى هذه الحالة يقوم بذبحها ثم يوزع لحمها مقابل حصوله على مبلغ من المال او على سلع أخرى يحتاج اليها مثل المنتجات اليدوية من الأبراش ، والحصر . وتتم عملية البيع والشراء فى مثل هذه الحالة . اما نقدا او عن طريق المقايضة . ويمكن القول بأن درجة القرابة بين أفراد الجارة تؤثر على هذا التعامل . اذ ليس هناك حساب دقيق لقيمة السلع المتبادلة بين الأفراد بعضهم ببعض .

ويلاحظ أن فكرة تبادل المزروعات الحقلية يشبه نظام « التهادى » (٣٠). فيمكن لاحدى الأسر ان ترسل بعض الخضروات من حقلها الى أسرة اخرى. وتؤدى هذه العلاقات الى تقوية الروابط الاجتماعية بينهم .

على أن فكرة التبادل لا تسود معظم العلاقات الاجتماعية بين أهالى الجارة . فهى نادرا ما تتم فى صورة تبادل سلعة فى مقابل سلعة أخرى . ولكنها تتم بصورة بغير متعمدة ، اذ هى ترد كنوع من المجاملة (٣١) .

وعملية التبادل فى الجارة ليست لها الصفة الرسمية التى تتمثل فى تقييم السلع فى حد ذاتها ، ولكن لها الصفة الاجتماعية .

لذلك لم يكن هناك حاجة لقيام عمليات تجارية تحدد السلعة فى ذاتها دون

---

(٣٠) نظام انتهادى هو تبادل السلع الذى يتم بين الأفراد والجماعات الذين يرتبطون معا ببعض العلاقات القوية الدائمة .

انظر : د. أحمد أبو زيد ، المرجع السابق ، ص ٢٣٤ .

(٣١) تسود هذه الظاهرة فى وادى النيل حيث اعتاد الناس أن يقدموا بديلا للاشياء التى تقدم لهم سواء كانت سلع او خدمات . وهى ترد فى مناسبات ، وفى أوقات مناسبة . وحتى فى تقديم مأكولات بين الأسر اعتادت الأسر ان تقدم مأكولات أخرى فى نفس انوعاء .

ورغم أن هذه الظواهر مختلفة نوعا عن مفهوم التبادل الا أنه يمكن اعتبارها نوعا من التبادل تدعمه العلاقات الأسرية .

وجود علاقات شخصية بين طرفى التبادل ، أو البيع أو الشراء ، كما أنه ليس هناك حاجة للسوق ، لأن المجتمع صغير من حيث عدد افراده ، ومن حيث حجم المعاملات التجارية . كما أن العلاقات لا تحتاج لوجود سوق تتميز العلاقات فيه بأنها تجارية . وقد ساعد على ذلك عامل القرب المكانى وامكانية اتصال أفراد المجتمع بعضهم ببعض متى شاءوا ، فليس من الضرورة تحديد يوم معين يلتقون فيه لاجراء مثل هذا النوع من المعاملات .

واذا انتقلنا الى مناقشة النشاط الاقتصادى بين مجتمع الجــــارة والمجتمعات المحيطة بها مثل سيوة وغيرها ، نجد أن أهالى الجارة يقومون ببيع الجزء الأكبر من محصول البلح والزيتون لهيئة تعمير الصحارى . أما باقى المحصول فيخزن منه للاستعمال الشخصى ، ويباع جزء لسكان واحة سيوة . ويلاحظ أن التعامل فى هذه الحالة يتم نقدا .

وقديما كان أحد أهالى الجارة يقوم مرة كل شهر على دابة قاصدا واحة سيوة ، وحاملا معه بعض المنتجات اليدوية لبيعها لسكان سيوة ، وبعد ذلك يقوم بشراء ما يلزم الأهالى من اطعمة ومواد تموينية أو ما شابه ذلك . وكانت هذه الرحلة تستغرق ثلاثة أو أربعة أيام فى الذهاب ومثلها فى العودة .

الملكيـــــة :

للأرض فى الجارة قيمة كبرى حتى أنهم يقرنون وجودهم فى الحيــاة بالأرض التى اصبحت مضرب الأمثال عندهم . فالأرض « حنونه » وهى التى « تربى الانسان » ، وهى المصدر الوحيد للعيش خاصــة وأن مختلف المنتجات الاقتصادية مصدرها فى الغالب الأرض . كما أنها رأس المال الوحيد الذى يمكن توريثه من الآباء الى الابناء . والارض الزراعية فى هذه المنطقة تتضمن أشجار النخيل والزيتون ، التى يعتبر انتاجها مصــدر الـــرزق الأساسى . لذلك فهم يعتبرون أن النخلة أهم شـــىء وهى على حــــــد قولهم « من ولد لولد » أى أنها تبقى اكثر من الانسان ، وهى التى ستنتفع بها الأجيال القادمة .

وترتبط ملكية الارض فى الجارة بنظام القرابة . فالمجتمع — كما ذكرنا — أسرة واحدة ذات مصالح مشتركة . لذلك ففى استطاعه أى منهم أن يستصلح أى قطعة أرض من الاقليم فتصير ملكا له دون قيود وهم يتعـــاونون فى استصلاح الارض .

ويمكن القول بأن التكامل الاجتماعى يبدو بوضوح ، حتى ان مالك الارض ، يقوم بتوزيع جزء من محاصلية الزراعية على بعض من لا يملكون اراضى وذلك نظير عملهم فى الارض . فهو يعطى ⅛ المحصول لمن يلقح له النخيل ويرويه ، أما الذى يرويه فقط فله ½ المحصول . وقد تواتر هذا النظام منذ القديم من السلف الى الخلف .

وفى الماضى كانت الأملاك تسجل فى دفتر أملاك البلد ، الذى لم يكن يزيد حجمه عن حجم علبه سجائر . لكن هذا الدفتر فقد واستعيض عنه بورقة تودع لدى كل من الأطراف المعنية مسجلا بها الأرض التى اشتراها وكتبت على اسمه ، أو الارض التى استصلحها وأصبحت مالكا لها .

والملكية فى الجارة ذات نمط تنفرد به ، فان كانت تظهر — كما يرى ميك Meek — [٣٢] فى وجود نوعين من الملكية هى الملكية الفردية والملكية الجماعية . وعلى الرغم من ازدياد الميل الى الملكية الفردية فى السنوات الاخيرة ، الا أن هذا المجتمع يعد فى مرحلة انتقالية بين الملكية الفردية والملكية الجماعية . اذ يبدو نمط الملكية الفردية فى محاصيل السوق كالبلح والزيتون، لذلك يتقاضى كل منهم ثمن انتاجه . بينما يختلف الأمر فيما يتعلق بالمزروعات الخاصة بالاستهلاك المباشر ، كالخضروات وما اليها ، اذ يأخذ الفرد منها قدر حاجته من اى حقل دون مقابل . ولعل السبب فى ظهور مثل هذا النمط المميز ، ان سكان الجارة — كما ذكرنا — أسرة واحدة أولا ، وان الغلات لا تباع ، ولا تمثل دخلا أساسيا .

---

(٣٢) د. أحمد أبو زيد ، المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

واذا كانت الأرض الزراعية تشكل عنصرا هاما فى اقتصـــادهم ونشاطهم الاجتماعى ، الا أن الأرض الزراعية ليست وحدها صاحبة المكانة فى نفوسهم ، اذ لا نلبث أن نجد الأراضى المقدسة ، وهى التى تقدســت بالمعجزات ، أو التى أظهر فيها « الأولياء » اعجازهم ، الى جانب أرض « الأضرحة » والمقابر ، فهى تعد ملكا للواحة كلها .

ومن هنا ساهمت مختلف المعتقدات المتصلة بالأجداد فى تقديس الأرض والابقاء على ملكيتها . فحفاظ الفرد فى الجارة على أرضه لا يقل عن حفاظه على ابنه ، وهذا ما دفعهم الى معارضة كل المحاولات التى بذلت لتوطينهم فى مناطق مستصلحة فى سيوة ، أو فى مناطق مجاورة « كالزيتونة » لاعتقادهم أن هذه الأرض هى أرض الاجداد تركها السلف للخلف ، لذلك فمن واجبهم تجاه أجدادهم ـ على اقل تقدير — أن يحافظوا على الامانة التى اسلموها اليهم ، وبالتالى فان قيمة كل فرد تتحدد بمقدار ولائه للارض الزراعية ، فيبذل مزيداً من العناية والاصلاح بالعرق والجهد من أجل الأبناء ، ومن أجل ولائه لاقليم الجارة الذى يفضل الحياة فيه عن أى مكان آخر .

يمكننا اذن أن نميز ثلاثة أنواع من ملكية الأرض فى الاقليم :

أراضى زراعية ، أراضى مقدسة ، وأراضى تعد ملكا للواحة ، مالم يبين عليها البيت فتعد حينئذ ملكية فردية .

وقد ظلت ملكية الارض فى الجارة تخضع لتصرف الأهالى ، فلـــم تتدخل اية سلطة خارجية للحد من هذا التصرف ، وساعد على ذلك عــدة ظروف هى :

ا — عدم وجود جماعات سلالية أخرى تنازعهم الملكية ، أو تحاول استغلال الأرض والانتفاع بها ، فحتى البدو الرحل الذين يمرون بالمنطقة لا ينتفعون الا بحشائش الأرض لرعى أغنامهم ، ولكن هذا لا يعد بأية حال عدوانا على الأرض .

٢ — عدم اختلاف الظروف الاجتماعية التى مرت بها الجارة ، اذ عاشت سنينها الطويلة بعيدا عن العمران مما أكسبها طابعها المميز . فحتى ابان الحرب العالمية كانت المنطقة موضع اشفاق القوات المتحاربة التى وجدت فى الصحراء الغربية .

٣ — أن ضآلة حجم الحيازة الزراعية بالنسبة لأبناء الجارة ككل ، بجانب طبيعة الجدب التى تسود الاقليم ، أشاع فكرة عامة مازال لها آثارها حتى الآن ، هى أن أهلها فقراء ، لا يملكون ، ولا يقتنون ، مما جعل المنطقة لا تتمتع بعامل جذب لاقامة البدو ، أو الاغارة على الاقليم لاستغلاله فبقيت الأرض ملكا لمن عليها .

أما بالنسبة للثروة الحيوانية : فلا توجد بالجارة ثروة حيوانية تذكر ، اللهم الا ما يتناسب مع أعدادهم . ففيها ما يقرب من ٧٠ رأسا من الماعز والاغنام . وأقصى ما يمكن أن تملكه أسرة لا يزيد عن خمسة رؤوس ، بينما البعض لا يمتلك شيئا . ونظرا لضآلة حجم القطيع انعدمت ملكية المرعى .

وبالجارة أنماطا أخرى من الملكية ، فهناك ملكية آبار المياه التى تعتبر ملكا لاهالى الجارة جميعا . وهم ينتفعون بالمياه عن طريق عمل قناه صغيرة موصلة لكل حقل وتوجيه المياه الى الحقول بطريقة بدائية . وكذلك عين المياه الموجودة بالمنطقة فملكيتها جماعية وينتفعون بها بنفس الطريقة التى ينتفعون بها من الآبار .

وهناك ايضا ملكية الادوات الشخصية ، والمنزلية ، ووسائل التسلية (الراديو) فهى كلها ملكية فردية . غير أنه يمكن تبادلها بين الاخوة الذين يقيمون فى منزل واحد .

وهناك بعض الملاحظات على نمط الملكية فى الجارة :

١ — أنه نمطا يتسم بأنه وسط بين الملكية الفردية والملكية الجماعية .

وان المجتمع يميل الى الملكية الفردية كلما كانت الاشياء المملوكة مصدرا أساسيا للرزق أو موضوعا للاستخدام الشخصى .

٢ ـــ يساهم عامل القرابة ، وطبيعة المجتمع المحلى بجانب مختلف الظروف التى مرت بها الجارة فى الابقاء على كثير من مظاهر الملكية الجماعية ، والتكامل الاجتماعى .

٣ ـــ ينتظر أن يتجه هذا المجتمع الى الملكية الفردية كلما ازداد التطور وكلما تعقد اقتصاد الواحة واصطبغ بالصبغة التجارية ، أو بما يعـــرف بالانتاج من أجل التجارة والسوق .

الـــدين والمعتقـــدات :

يدين أهالى الجارة بالدين الاسلامى ، ويحرصون على أداء فروضه فيؤدى الرجال جميعا الصلاة اما فى الجامع أو فى مكان العمل ، وتصلى النساء فى البيوت لأنه غير مسموح لهن بالصلاة فى الجامع سوى للكبيرات فى السن . ويتجمع كل الأهالى لتأدية صلاة الجمعة فى الجامع الصغير القائم فوق الصخرة ، ولا يتخلف أحد منهم سواء كبيرا أم صغيرا ، فهم يحرصون على أن يؤدى الأبناء صلاة الجمعة . وأثناء الصلاة يقف الفتيان والأطفال خلف الرجال . وتعتبر صلاة الجمعة فرصة لاجتماع الأهالى والتشاور فى أمورهم .

ويحرص أهالى الجارة كذلك على الصوم ، فيبدأ الأطفال فى ممارسته من سن ١٢ سنة . كما يهتمون اهتماما شديدا بحفظ القرآن وتحفيظه للأطفال منذ حداثتهم ، وتعتبر كلمات القرآن هى أول الكلمات التى يتعلم بها الطفل النطق والكلام فى الجارة ويساهم هذا الايمان بالدين فى توجيه كثير من معالم ايديولوجية [٣٣] هـــذا المجتمع . فهم يؤمنون بالآخرة ،

---

(٣٣) النسق الايديولوجى هو نسق المعتقدات التى تفسر طبيعـــة الانسان والكون ، والممارسات والشعائر المتصلة بهذه المعتقدات . انظر د . احمد أبو زيد ، المرجع السابق ، ص ٥٣٠ .

وبالحساب الذى يتضمن الثواب أو العقاب . ويوجه هذا المعتقد كثيرا من انماط سلوكهم . فتشتمل مثلا النصيحة التى يسديها الآباء الى الأبناء فيما يتعلق بالحث على السلوك الحميد بأن ذلك ارضاء الله ، أو وفاء لما أمر به الدين وبذلك يكون مصيره الجنة وينجو من عذاب جهنم .

ويؤدى الارتباط بدين واحد الى أن يشعر الأفراد بوحدة مجتمعهم كما يؤدى الى الحفاظ على تقاليده وقيمة . فالتأثير متبادل بين المجتمع المحلى والدين ، فالمجتمع المحلى يحاول الحفاظ على الدين ، ويساهم الشعور الدينى بدوره فى الحفاظ على الوحدة الاجتماعية .

ويعتقد أهالى الجارة فى الكثير من الأولياء ، والبعض منهم مدفون فى الجارة وللبعض الآخر له أضرحة فقط فى الجارة ومن الأولياء المحليون فى الجارة سيدى ياقة ، ويقال أنه كان رجلا صالحا من أصل ليبى ، تزوج من الجارة ثم مات أولاده جميعا ، وكانت مهنته قراءة القرآن .

أما سيدى الحاج عبد الله ، وله مقام فى الجارة ، فهو من أهلها أصلا وتوفى فيها ، ويعتقد الأهالى أنه يشفى المرضى . ومن الأولياء المشهورين الشيخ ابراهيم ويقال أنه لا يحب الشهرة فقد حاولوا أن يبنوا له مقاما ولكنهم وجدوه مهدوما وتكرر ذلك لعدة مرات ويقال أنهم يشاهدون ضوءا ينبعث من قبره ، وهو مدفون على بعد ٣٠٠ متر شمال شرقى صخرة الجارة ، كما يقال انه أوصى بأن يترك جسده بعد موته على جمل ، وأن يدفن فى المكان الذى يبرك فيه الجمل . وقد نفذ الاهالى وصيته بعد موته . ومن الأولياء أيضا سيدى لا خطب (٣٤) .

ويعتقد أهالى الجارة كثيرا فى كرامات الأولياء ، ويحكى أن شيخا ورعا يدعى « عبد السيد » كان مسافرا من طرابلس ليلحق بقافلة الحجاج فى القاهرة يرافقه عدد من الرجال المتعبدين ، وعندما وصلوا الى القارة هاجمهم الرجال بدلا من اكرامهم . ونجح الشيخ ورفاقه فى الهرب ، وعندما وصلوا الى وادى آمن وقف الشيخ « عبد السيد » وأخذ فى الدعوة على أهل القارة مقسما أنهم لن يكونوا أبدا أكثر من ٤٠ رجلا على قيد الحياة فى أى وقت

---

(٣٤) لا خطب : تعنى الخطيب .

وهناك حكاية أخرى تقول بأن مجموعة من الأعراب قاموا بالاغارة على القارة وتقهقر سكانها ، واغلقوا البوابة الوحيدة لهـا . وتوسلوا الى الشيخ الولى المدفون خارجها طالبين النجدة ، فظهرت روح الشيخ الميت لتخطف أبصار الأعداء ، فلم يستطيعوا العثور على البوابة حتى انهكت قواهم مما مكن أهل القارة من التغلب عليهم وقتلهم .

ويؤثر الاعتقاد فى الأولياء تأثيرا واضحا فى الحياة الاجتماعية فى الجارة ويتضح ذلك بصفة عامة فى أن الأهالى يسلكون مسلكا لا يؤدى الى اغضاب أى ولى من هؤلاء الاولياء ، وذلك جلبا لرضاه أو اتقاء لأذاه . ويعتقدون أن الأولياء هم الذين يحفظون أبناء الجارة ويرعونهم ضد أية محاولة من أى فرد خارج الجارة . ويخشى الشخص الذى تسول له نفسه فعل شر بأخيه أن يقع تحت طائلة عقاب أولياء الجارة . وقد اعتاد أهالى الجـارة قراءة الفاتحة على ضريح الولى اذا صادفهم وهم فى الطريق .

واذا كان اهالى الجارة يعتقدون أيضا فى كرامات أولياء سيوة ومن أشهرهم « سيدى سليمان » ويدعى « سلطان سيوة » ، الا انهم أكثر التصاقا بأوليائهم ، وأكثر اعتقادا فيهم . ذلك ان عامل القرب المكانى ، ووجود رفات الولى فى الجارة يجعلهم أكثر ارتباطا به .

وبجانب اعتقاد أهالى الجارة فى الدين الرسمى والأولياء ، فانهـم يعتقدون أيضا فى الأحجبة والتعاويذ (٣٥) . ويقوم شيخ الجامع فى الجـارة بعمل الأحجبة التى يعلقونها على صدور كثير من الأطفال ، ويذكرون أنه يكتب فيها آيات قرآنية .

---

(٣٥) التعاويذ هى اشياء ترتبط بقوى سحرية ، وقد يكون لها اشكال عديدة ، فمنها ما يعمل للحماية فى الأحداث الضارة ، أو ضد السحر الشرير . وبعضها يمكن أن يعطى قوة أو حظا أو صحة . انظر :

Notes and Queries in Anthropology, By : a Committee of Royal Anthropological Institute of Great Britan and Ireland, Routledge and Kegan Paul, London, Six Edition, 1951.

كما يعتقدون بوجود « العفاريت » ويذكرون أن شخصا قد قتل فى مكان ما بالقرب من الجارة ، وأن ظواهر غير مألوفة حدثت فى هذا المكان ، اذ سمع البعض آذان ديك ، وشاهد البعض ضوءا يتحرك فى المكان .

ومن أهم المعتقدات التى مازالت راسخة فى مجتمع الجارة هو معتقد « الغولة » (٣٦) الذى يعتقد فيه أيضا السيويين — ويذكرون أن أحد الجنود حاول اثبات عدم صحة هذا المعتقد فتعمد مقابلة « الغولة » ، ويقال أن السيارة انقلبت به فى الطريق . وتمكث مع الغولة سيدتان من أقاربها لمواساتها ، وقضاء احتياجاتها . ويعتقدون أن هاتين السيدتين لا يصيبهما ضررا من الغولة (ه)

النسق السياسى :

تقوم السلطة السياسية فى الجارة على أساس نظام المشيخة . وينتخب الشيخ من الأهالى ، وهم لا يلتزمون بطريقة الوراثة فى المشيخة ، وان كانوا قد اتبعوها فى بعض الأوقات . ويرون ان اختيار الشيخ يكون على أساس أنه محبوب من الجميع وأنه يتمتع بشعبية كبيرة . وهو لا يعزل ولا يترك المشيخة ، حتى لو كانت به بعض العيوب اذ من الممكن اصلاح اى عيب . ولم يحدث أن عزل أى شيخ من مشايخ الجارة . وللجارة حاليا شيخان (٣٧) ، شيخ الجارة الرسمى وهو الشيخ مهدى ، والشيخ الفعلى للجارة وهو الشيخ حسن خليفة سليمان ، وهما ابناء عمومة .

ويرجع نظام تسلسل المشايخ فى الجارة الى أكثر من مائة عام . واول شيخ يذكره الأهالى هو الشيخ سعيد ، وأن كان لا يوجد فى الأحياء الآن من عاصره . وتلاه الشيخ سليمان الذى توفى سنة ١٩٢٦ والذى ظل حوالى ٤٠ سنة شيخا للجارة حتى بلغ ٩٥ سنة ، وكان يساعده شخص آخر يدعى الشيخ مبارك . ثم تولى بعده ابنه الشيخ حمزة الذى توفى سنة ١٩٦٨ ، ثم

---

(٣٦) أنظر التغير فى معتقدات سيوة .
(٣٧) كان ذلك وقت اجراء الدراسة .

تلاه الشيخ مهدى . ومنذ ذلك التاريخ حتى اليوم والشيخ مهدى هو شيخ الجارة الرسمى وهو ابن الشيخ حمزه ، ويلاحظ أنه ليس أكبر أبناء الشيخ حمزه ، وهو صغير السن . ولكن الشيخ الفعلى للجارة هو « الشيخ حسن » وقد اختاره الأهالى نظرا لتمتعه بسمعه حسنة وعـــلاقات طيبة بالأهالى . ويعتبر انتخاب الشيخ حسن هو أول انتقال لنظام المشيخه من نظام الوراثه الى نظام الانتخاب ويلاحظ أن الشيخ مهدى راض تماما عن ذلك ، ويرجع ذلك الى اثر علاقة القرابة بينهما .

وعلى الرغم من أن سلطة الشيخ ليست ملزمة ، الا أنه من الملاحظ خضوع أبناء الجارة له وتقبلهم لنصائحة ، وربما يساعد على ذلك روابط القرابة التى تربطهم به . وشيخ الجارة لا يتمتع بسلطات مطلقة على الأفراد بل أن رأية ينفذ بالرضى . كما أنه كثيرا ما يستعين بكبار الســـــن فى فض المشكلات . ويلاحظ أيضا أن شيخ الجارة ليست له الزعامة التى تكون عادة لمشايخ القبائل البدائية وهو لا يقوم بتوقيع عقوبات بدنية بل يتولى دائمـــا اسداء النصح والارشاد . ويقوم بتنظيم العلاقات وفض الخلافات اذا لزم الأمر .

ويلاحظ أن الخلافات لا تصل الى حد كبير يدعو الى استعمال القوة أو استصدار احكام . كما يقوم الشيخ أيضا بحفظ حقوق الأفراد ، والافتاء بشأن تقسيم الأراضى أو النخيل بين أبناء المتوفى .

ويلاحظ أن هذا النمط السياسى السائد فى مجتمع الجارة نمط يتفق مع طبيعة الاقليم ، ومع طبيعة التجمع السكانى ، ونمط الحياة الاجتماعية فى المنطقة . فلا تستدعى علاقات القرابة التى تربطهم وجود سلطات رادعة ، كما أدى عدم وجود جماعات أو قبائل مجاورة ، تبادلها العداء (٣٨) ، الى

---

(٣٨) يرى سير هنرى من أن روابط الدم والقرابة تجعل النـــاس يخضعون للسلطة السياسية وللقوانين التى تصدرها .

(انظر : أحمد أبو زيد ، المرجع السابق ، ص ٤٨٢) .

ويتمثل ذلك فى الجارة اذ يصل أبناء شيخ الجارة وأبناء اخوته حوالى نصف عدد المقيمين بها . اذ أنهم حوالى ٤٤ فردا فيما عدا الأخفاد . (الشيخ حسن من مواليد سنة ١٩٢٣) .

عدم وجود ضرورة لتكوين قوى للدفاع عن الجارة . لهذا اقتصرت مهمة القيادة السياسية على فض الخلافات البسيطة داخل الاقليم ، وتمثيل الجارة لدى الجهات الرسمية فى سيوة ، واستقبال الزوار الوافدين للمنطقة .

الخدمات :

التعليم : ظل جميع أهالى الجارة أميون الى وقت قريب حيث أن الخدمة التعليمية كانت ناقصة جدا وتكاد أن تكون معدومة .. ففى سنة ١٩٣٨ أوفدت الحكومة المصرية مدرسا الى الجارة انتهت مهمته سريعا نتيجة قيام الحرب سنة ١٩٤٠ . وظل الحال كذلك حتى عام ١٩٦٩ حينما افتتح فصلا لتحفيظ القرآن . وكان يقوم بالتدريس فيه شيخ الجامع نظير أجر قدره ثلاثة جنيهات كان يتقاضاها من جمعية الشبان المسلمين خارج الجارة الى أن ترك شيخ الجامع الجارة ، فأغلق الفصل .

ولم يكن يوجد بالجارة الا فردا واحدا يجيد القراءة والكتابة حتى سنة ١٩٧٠ ، وكان هناك خمسة أفراد يحاولون القراءة بصعوبة بالغة . بهذا أبدى الأهالى رغبة شديدة فى التعليم . وكانوا دائما يشعرون بالأسف لعدم توفر الخدمة التعليمية ، ويطالبون باعادة فتح فصل تحفيظ القرآن ، وأن يأتى اليهم ولو مدرس واحد لكى يعلم أولادهم القراءة ، وفى نفس الوقت يساهم فى محو الأمية ، وذلك نظرا لأنهم فقراء لا يستطيعون ارسال أولادهم الى المدارس فى سيوة . كما اقترحوا أن يتناوب الخدمة بها عدد من المدرسين بحيث لا تزيد مدة اقامة أحدهم عن شهر فى المنطقة وذلك لصعوبة الاقامة فى الجـــارة .

الصحة : يفتقر مجتمع الجارة الى الخدمات الصحية الرسمية حيث يقوم بالخدمة الصحية «تومرجى» من أهالى الجارة فهو يقوم ببعض أعمال التمريض الأولية ، مثل « اعطاء الحقن » أو « تطهير الجروح » التى تدرب عليها فى

مستشفى سيوة . كما يقوم بصرف بعض الأقراص للحالات المرضية البسيطة كالصداع والمغص . وتوفد سيوة الى الجارة طبيبها المقيم مرة كل شهر تقريبا ، وكذلك فى أوقات التطعيم ضد الأمراض المختلفة . ويحترم الأهالى الطبيب ويقدرونه حيث انه يهتم بأبناء الجارة الذين يذهبون للعلاج فى مستشفى سيوة .

ويمثل أيضا نقص الخدمة الصحية نوعا من القلق خاصة وأن اهمال المرضى قد يؤدى الى الموت ، لا سيما وأن سيوة بعيدة عنهم والطريق اليها ليس سهلا بالنسبة للشخص العادى فكيف يكون بالمريض . وأهل الجارة يتقبلون أوضاع المرض والموت فهم يؤمنون أن المرض والشفاء والموت كلها « بأمر الله » . وقد ظلوا سنوات يأملون اصلاح الخط التليفونى بين سيوة والجارة لكى يمكنهم الاتصال بسيوة لانقاذ مرضاهم فى حالة الطوارىء .

ولما كان وصول الخدمات الصحية اللازمة الى هذه المنطقة صعبا فقد كان من الطبيعى أن يجد أهالى الجارة وسيلة أخرى يواجهون بها الأمراض التى يتعرضون لها .

ولما كان البدو — وهم سكان الصحراء — يشتهرون بالمهارة فى العلاج الذى يعرف « بطب العرب » ، فقد كان من الطبيعى أن يأخذ أبناء الجارة هذا النوع من المعرفة عنهم . ولهذا فمثلهم مثل البدو يمارسون الكى ، والخرط ، والخزم ، والتداوى بالأعشاب الموجودة فى الصحراء . ويثقون فى أن الطب البدوى يمكن أن يعالج أمراضا لا يستطيع الطب الحديث علاجها (٣٩) .

---

(٣٩) كان الطب الشعبى من الأهمية بمكان قبل تقدم الطب كعلم ، فكان الناس يعتمدون عليه فى علاج الأمراض ، ورغم أن هذه الأنواع من العلاج تبدو غريبة فى العصر الحديث ، الا انها كانت فى وقت معين تبدو منطقية وعادية .

ويعتقد أهالى الجارة أن الخزم أقوى فاعلية من الكى لأنه يؤدى الى الرشح الكثير . ورغم ذلك فالكى يعالج أنواعا من الأمراض منها المزق ، والصداع . أما الحروق فتعالج عن طريق نثر عظام الدجاج المسحوق على مكان الحرق ، وتعالج قرصة العقرب بحك مكانها بقطعة من الفضة والضغط عليها حتى ترشح دما . كما تعالج أمراض المعدة بأن تقطع حبة حنضل ، وتملأ بالماء أو اللبن ، ويشرب منها مرة واحدة .

واذا أصيب أحدهم بالرطوبة فهو يعالج بنبات الحرمل ، الذى يقولون عنه بأنه ينتزع من الأرض الا اذا وضعوا عليه شعير .

كما يعالج الطبيب الشعبى كسور الحيوان عن طريق التجبير ، ولكنه لا يعالج كسور الانسان . وتعالج قرصة الطريشة (٤٠) بتشريط المكان الملدوغ ، أو بوضع بيضة مفتوحة فتحة صغيرة على مكان اللدغ لمدة نصف ساعة ، تنضج البيضة بعدها من شدة الحرارة ، فيشفى المريض . وتعالج لدغة العقرب أيضا بحك قطعة من المعدن فى مكان اللدغ بشدة حتى ينزف الدم .

ويذكر الطبيب الشعبى أن الكى يختلف موضعه فى الجسم باختلاف الأمراض ، كما يذكر أن هذا النوع من العلاج مذكور فى القرآن (٤١) .

---

(٤٠) توجد الطريشة فى النخيل وفى الجناين ، ويسميها البدو « لفعة » وهى نوع من أنواع الزواحف يقال أنها تشبه الثعبان وهى خطيرة جدا .

(٤١) ارتبط الطب بالدين ارتباطا معقدا طويل الأجل . كذلك عزا الفرد الأمراض للأرواح والكائنات فوق الطبيعة ، لهذا كان الشكل المناسب لضبطها ، وسبيل التحكم فيها هو السحر . وقد سيطر هذا الاتجاه على المدنية الغربية الى أن أوجد اليونان التفسير الطبيعى للأمراض ، ونقل الى أوروبا فى العصور الوسطى عن طريق دارسى الطب العرب الذين سيطروا على تدريس وممارسة الطب على مدى مئات السنين . راجع :

James Davis; Social Problems enduring Major Issues and Social change, New York and London; 1970, p. 114.

راجع أيضا : Notes and Queries, op. cit., pp. 189, 190.

ويعتقدون اعتقادا كبيرا فى فاعلية العلاج عن طريق الدفن فى الرمال ، ويقوم بها فى سيوة طبيب شعبى يدعى « سطوحى » .

وهناك فى الجارة أيضا بعض النسوة يمارسن الطب الشعبى فى معالجة النساء . ولكن فى بعض الأحيان تلجأ النساء الى الطبيب الشعبى من الرجال لاجراء الخرط أو الخزم اذا اشتد المرض بهن . كما توجد فى سيوة سيدة تقوم بعمليات الوضع ولا تتقاضى فى مقابل ذلك سوى بعض الهدايا .

ويلاحظ أن هناك مظهرين يعيشان جنبا الى جنب فى هذه الواحة ، وهما الطب الرسمى والطب الشعبى . ففى الجارة « تومرجى » تدرب فى مستشفى سيوة على بعض الاسعافات الأولية البسيطة ، كما يوجد بجانبه الطبيب الشعبى الذى يمارس الطب البدوى . ولم يحدث بين هذين الشكلين اى نوع من الصراع . فالأهالى يلجأون الى التومرجى لصرف الأقراص اللازمة لبعض حالات مرضية أو للحقن . كما أنهم يلجأون الى الطبيب الشعبى فى الحالات التى يتطلب فيها المرض الكى أو الخزم . هذا فضلا عن أنهم يستعملون كثير من الأعشاب دون اللجؤ للطبيب الشعبى . أما بالنسبة للعمليات الجراحية أو علاج الكسور الشديدة (٤٢) فانهم لا يقومون بها ، ويذكرون أنها مهمة المستشفى . وقد كانت هناك فى الماضى صعوبة بالغة فى أن يذهبوا الى مستشفى سيوة للعلاج ، ولكن بعد استعمال سيارات شركة البترول أصبح الذهاب الى المستشفى للعلاج أمر ميسورا . ويساعد على قبول هذا النمط عدة عوامل :

١ — أن التومرجى فرد من أبناء الجارة نفسها ، فهو ابن شيخها السابق لهذا لا يشعرون أنه دخيلا عليهم ، ولهذا أيضا يمكنه أن يحقن نساءهم . ويعكس هذا اثر حاملى الأنماط الثقافية على تقبل الأنماط

---

(٤٢) وقع أحد أهالى الجارة من على نخلة واصيب اصابات خطيرة ، ولم تجر له الا اسعافات بسيطة بدائية وكان يرقد منذ عدة شهور اثر هذه الاصابة .

نفسها ، فاذا كان هذا الشخص غريبا عن أهالى الجارة فلن يكون مسموحا له دخول البيوت .

٢ — أن تيار الطب الرسمى المتمثل فى هـذا التومرجى لا يعارض أو يهاجم الأسلوب الشعبى القديم فى العلاج ، وذلك من ناحيتين : الأولى هى أنه لا يقاوم الطبيب الشعبى ، بل أن التومرجى يعالج بالطرق الشعبية فى منزله أو مع أقاربه فى كثير من الحالات وخاصة عندما لا يكون لديه علاج طبى لأحد الأمراض ، والثانية هو أن تيار الطب الرسمى ضعيف جدا اذ لا يملك التومرجى سوى بعض الأقراص وحقن البنسلين . وبهذا لم يمثل هذا التيار هجوما على كل طرق الطب الشعبى . واذا أضفنا الى ذلك فكرة قصور وسائل الطب الشعبى عن علاج بعض الأمراض ، فان نمط الطب الرسمى الموجود فى الجارة يكون مكملا للطب الشعبى .

٣ — ان دخول الطب الرسمى للمنطقة لم يكن بصورة جبرية ، ولم تحاول أى جهة — ولو بطريقة عرضية — التوهين من قيمة الطب الشعبى ، لهذا لم تكن هناك حاجة لمعارضة القائمين على الطب الشعبى .

٤ — أختبر الناس الأثر الفعال الذى تحدثه وسائل العلاج الرسمى من أقراص أو حقن وخاصة أن مفعولها يكون أكثر سرعـة من كثير من وسائل الطب الشعبى فى تخفيف الآلام . وهذا دعا الناس الى الالتجاء الى الطب الرسمى بجانب ممارستهم للطب الشعبى .

المواصلات : كانت الـدابة هى وسيلة المواصلات الأساسيـة التى يستخدمها سكان الجارة فى تنقلاتهم الى سيوة التى تبعـد حوالى ١٣٠ كيلو مترا عن سيوة ، وكانت تقطع المسافة اليها فى ثلاثة أو أربعة أيام . وكان هناك خطا تليفونيا استمر صالحا للعمل منذ وجوده عام ١٩٠٩ وحتى عام ١٩٤٠ ، وكان يستخدم فى طلب النجدة من سيوة فى حالة الطوارىء . ولكن تعطل هذا الخط فى الوقت الحالى وتهتكت أسلاكه وبالتالى لم تعـد هناك وسيلة للاتصال التليفونى بين الجارة وبين سيوة .

ويرجع سبب تعذر وجود مواصلات بين سيوة والجارة الى وعورة الطريق . فالطريق غير ممهد ، بل ان معالمه يصعب تحديدها ، ويمكن ان يضل السائق الطـريق اذا لم يكن له دراية كبيرة بالمنطقـة أو اذا لم يكن يقظا تماما طول الوقت . وقد كان الخط التليفونى قبل ان يتهتك مرشدا للطريق ، ولكن فقد كل مسافر هذا المرشد . لذلك دائما ما كان الأهالى يخشون من السفر حتى ولو كان للعلاج ، ويفضلون الموت فى الجارة على الموت الذى يمكن أن يلحق بالمريض نتيجة صعوبات الطريق .

اتضح لنا من الوصف السابق أن مجتمع الجارة مجتمع زراعى صغير يعيش فى حضن الصحراء فى حالة عزلة نسبية . ويوضح لنا هذا النموذج مدى ارتباط الشكل الاجتماعى للمجتمع والمناشط الاجتماعية للانسان فى مثل هذه البيئات غير المتحضرة بطبيعة البيئة التى يوجد بها المجتمع فقد ادت مثلا طبيعة الصحراء مع خوف أهالى الجارة من اغارات البدو الى السكنى فى شكل تجمع واحد فوق صخرة تحول دون وصول أى غريب يهدد أمن الأهالى . كما أن وجود مصدر مائى (البئر) قد أدى الى تركز أشجار النخيل والزيتون والمنطقة الزراعية بجوارة ، وهذا تحكم بدوره فى شكل السكنى وفى تقارب حـدود المجتمع المحلى . وقـد ادت السكنى فى مكان واحد مع عزلة المنطقة عن المناطق العمرانية الصحراوية الأخرى الى وجود نظام الزواج من الداخل مما جعل من هذا المجتمع أسرة واحدة .

الفصل الحادى عشر

جارة أم الصغير

الاتصال والتغير

ظل مجتمع الجارة على حالته البدائية التقليدية البسيطة فترة طويلة من الزمن ، وكما أشرنا فان ذلك يرجع الى العزلة الجغرافية التى أدت الى عزلة الواحة اجتماعيا وعوقت اتصالها بجماعات أخرى كان يمكن أن تؤدى الى احداث التغير فيها ٠ فأبناء الجارة لم يخرجوا منها الى مجتمعات أخرى باستثناء واحة سيوة ٠ وحتى وقت قريب لم تكن النساء تذهبن الى سيوة الا للعلاج ولم يكن الرجال يذهبون اليها الا لقضاء مصالحهم ٠ وحتى هذا النوع من الاتصال بسيوة كان ضعيفا جدا فعدد النساء اللواتى ذهبن الى سيوة قليل جدا ٠ وعلى وجه التحديد لم يذهب الى مدينة مرسى مطروح من رجال الجارة حتى سنة ١٩٧٣ الا عددا قليلا جدا ، ولم يزر مدينة الاسكندرية حتى هذا التاريخ الا ثلاثة فقط من أهالى الجارة ، وهناك شخصان أو ثلاثة فقط زاروا القاهرة ٠ واذا كانت قد تولدت رغبة شديدة لدى شبان الجارة لرؤية القاهرة نتيجة سماعهم عنها (من خلال الراديو وعمال شركة البترول كما سنشير فيما بعد) الا أن العجز المادى ، بالاضافة الى صعوبة المواصلات وعدم توفرها ، وخوفهم من أن يقعوا فى ايدى بعض المحتالين فى المدينة ، بالاضافة الى شعورهم بأنهم غير متعلمين وبالتالى فقد لا يستطيعون التعامل مع أهالى المدن ٠٠٠ كل هذا عوق خروجهم من الجارة وأبقى المجتمع فى ذلك النطاق الصحراوى الضيق وفرض قيودا على امكانيات تغييره ٠

بالاضافة الى ذلك لم يشجع هذا المجتمع شبابه ورجاله على الخروج منه والعمل فى أماكن أخرى الا نادرا · وحتى عندما عملت الشركة العامة للبترول فى المنطقة لم يقبل ابناء الجارة على العمل فى الشركة (١) ، رغم وجود نظام المقاول (وهو يتيح لأى فرد فرصة العمل ولو مؤقتا فى الشركة) الذى كان يأتى بعمال من الدلتا والصعيد · ورغم تعاطف المسئولون من الشركة مع أبناء الجارة واعلان استعدادهم لتشغيل اى عدد منهم · وربما يرجع ذلك الى اعتماد أهالى الجارة على عمل الصبيان والشباب فى الحقول وما تحتاجه الأرض من جهد شاق على مدار السنة نظرا لبدائية الأدولت المستخدمة ، بجانب ذلك فان أهالى الجارة لا يميلون بصفة عامة الى الخروج من المجتمع الأمر الذى يبقى على عزلهم وتقليديتهم اذ لا تتح لهم فرصة الاحتكاك بثقافات أخرى ومشاهدة تقدمها الأمر الذى ربما يشجعهم على التغيير · ويؤكد ذلك ان الشخص الوحيد الذى خرج من الجارة وعمل فى ليبيا ويتردد على الجارة هو الشخص الذى لديه طموح لتحقيق مستوى معيشى أفضل خارج الجارة · وعلى الرغم أن ولائه واعتزازه بالجارة لم ينقص الا أن تفكيره قد امتد الى آفاق أبعد من المجالات التقليدية والطموح المحدود لأبناء الجارة داخل الاقليم ·

---

(١) لم يحدث ذلك بالنسبة لأبناء الجارة فقط ، اذ حدث مع جماعات أخرى ، وعلى سبيل المثال عندما طافت جماعات عربية بالسواحل ، اشتغل بعضها بصيد اللؤلؤ فى دنجوناب وغيرها من الجهات ، غير أن البجة لم يتعلموا شيئا من ذلك ، مع كثرة السفن والنشاط البحرى الذى قام به المصريون والبطالسة والعرب اليمنيون والحضارمة والهنود والصينيون فان البجة لم يكترثوا بشىء من هذه الأعمال البحرية ولم يحاولوا أن يتعلموا صناعة من الصناعات العديدة التى تتصل بالنشاط البحرى ·

أنظر : محمد عوض محمد السودان الشمالى ، سكانه وقبائله ، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٥١ ، ص ٤١ ·

واذا كان عدم خروج أبناء الجارة منها قد ابقى على تقليديتها ، فان التيار الوافد الى الواحة أيضا كان ضعيفا جدا لدرجة انه لم يتمكن من احداث تغير على مدى هذه السنوات الطويلة • وقد كان هذا التيار يتمثل فى قيام رجال من الادارة وأجهزة الخدمات فى محافظة مطروح أو من سيوة بزيارات للمنطقة أوقات متفاوتة • ولكن كانت هذه الاتصالات مؤقتة وقصيرة،وكان مرورهم السريع بالواحة دون الاقامة اكثر من ساعة أو بعض الساعات غير مؤثر فى الواحـــة عـلى الاطلاق • فقد كان يأتى الى الواحة على سبيل المثال أفراد حملات مقاومة البعوض الذين نادرا ما يضطرون للمبيت فى الواحـة كذلك كان يزور الواحة من يؤدون خدمات لها مثل الطبيب الذى يزورها فى أوقات منتظمة ولكنها متباعدة للكشف أو للتطعيم • وكذلك من يقومون بتوصيل الخدمات الى المنطقة ، ومن هؤلاء الأفراد الذين يقومون بتسليم المعونـــة السنوية الى الجارة كذلك فان المدرس الذى عين فى الواحة لم يستمر فيها ــ كما أشرنا قبل ذلك ــ وبالتالى لم يتغير المستوى التعليمى لأبناء الواحة • هذا بجانب أن من يفدون الى المنطقة لايتعاملون فى الغالب (فيما عدا الطبيب) الا مع عدد قليل من رجال الجارة ، وأحيانا يكون لدى بعضهم شعور بالاستعلاء ، وفى أحيان أخرى نجدهم يودن آداء الخدمة بسرعة والعودة من حيث أتوا ، وربما عذرهم فى ذلك مشقة الطريق وخطورته •

وهناك عامل آخر أثر فى العلاقات بين أبناء الجارة ومن يفدون الى المنطقة هو أن أبناء الجارة يتعاملون معهم بطريقة متكلفة نتيجة أنهم أحيانا يخجلون من مستواهم الاقتصادى ، أو من بساطة امكانياتهم وعدم قدرتهم على ادارة الحديث بلباقة • كل هذا أدى الى عدم افادة أبناء الجارة حتى من هذه الاتصالات السريعة المؤقتة • وهذا هو السبب ــ بالاضافة الى الأسباب التى سبق ذكرها ــ الذى ادى الى بقاء أوضاع الجارة كما هى زمنا طويلا •

ويلاحظ ان العلاقة مع واحة سيوة لم تؤد أبدا الى تغيير الجارة .

فعلى الرغم من أن الجارة تعتبر - اداريا جزءا من سيوة ، اذ أن سيوة هى أقرب مركز عمرانى بالنسبة لها فان ضعف الاتصال بسبب العزلة الجغرافية حتى عن سيوة قد ساهم فى بقاء الجارة غير متأثرة بأى تيار سيوى ، فالطريق وعربينهما الأمر الذى منع حتى الاتصالات الرسمية ، فشيخ الجارة لم يكن يلجأ الى سيوة الا نادرا فى أى أمر يتعلق بالجارة ، ولم يحدث أن تدخلت سلطة البوليس فى سيوة لفض نزاع أو توقيع عقوبة على أحد الأفراد فى الجارة • وثمة عامل آخر وهو ادراك أهالى سيوة المستوى الاقتصادى المنخفض الذى يعيش فيه أبناء الجارة ، الأمر الذى لم يشجع كثير من السيويين على التنقل الكثير بين سيوة والجارة • وهذا بالاضافة الى أن سيوة لا تعتبر منطقة مختلفة اختلافا ثقافيا تاما عن الجارة فهناك ظواهر اجتماعية وثقافية مشتركة بينهما الأمر الذى ربما لا يجعل من سيوة منطقة مغايرة ثقافيا بالنسبة للجارة ، وبالتالى لا يجعلها منطقة اشعاع تؤدى الى تعديلات فى الثقافة والحياة الاجتماعية للجارة •

أما عن علاقة الجارة بالبدو فهى لم تؤد أيضا الى تغيرات تذكر فى الواحة ، اللهم الا فيما يتعلق باكتساب بعض أساليب الطب بين البدو وأهالى الجارة الا أن هذه الاتصالات كانت تتميز بطابع خاص • فالجارة تعتبر منطقة بعيدة عن تجمعات البدو ، ولكن طبيعة تنقل الجماعات البدوية قد أدى الى مبيت بعض الأفراد من الحين الى الآخر كضيوف على شيخ الجارة، وفى هذه الحالة نادرا ما اختلطوا بالأهالى •

واذا أضفنا الى ذلك الاحساس باختلاف الهوية الذى يوجد لدى كل فريق من الفريقين فاننا يمكن أن ندرك مدى ضعف العلاقة بينهما •

لقد أدت كل هذه الظروف والعوامل الى أن تبقى الواحة فترة طويلة من الزمن تقليدية تحتفظ بخصائصها دون تغيير ، وقد أدى هذا بدوره الى تقوية احساس الأهالى بأنهم « أسرة واحدة » ذات مصالح مشتركة لا تشعر

اى أسرة ولا يشعر اى فرد فيها بالعزلة او الاغتراب عن بقية المجتمع ، كما ان صغر حجم المجتمع ، وبساطة نظامه لم يدع فرصةلظهور مصالح متعارضة الأمر الذى ساعد على تقوية التماسك والاحساس بالتميز عن المجتمعات الخارجية · والوضع يصبح عبارة عن عوامل دائرية يؤدى كل منها الى الآخر · فالعزلة تؤدى الى تماسك الجماعة ، وتماسك الجماعة يؤدى الى الاحساس بالأمن ، ويقود الاحساس بالأمن والتماسك الى مزيد من الحفاظ على التقليدية التى تدعم بدورها العزلة ·

وفى ضؤ ذلك وبسبب وجود هذه العوامل الأخيرة عاش اهالى الجارة يصارعون الطبيعة فترة طويلة من الزمن · صارعوا ضد الطبيعة وضد قلة الامكانيات · وحاولوا توسيع الرقعة الزراعية رغم كل ما يكلفهم ذلك من مشقة بسبب بدائية الآلات كما سبق وذكرنا · وقد تسلحوا بالصبر فى هذه الفترة ايضا من جهة ضعف الخدمات فى المنطقة ، فعزلة المنطقة لم تمكن المجتمع الأكبر من توصيل خدماته كاملة اليهم · وفى خلال هذه الفترة استسلم ايضا أهالى الجارة لكثير من الظروف التى مرت بهم ولم يمكنهم بامكانياتهم البسيطة مواجهتها ·

والموقف الذى يستحق منا نظرة تأمل هو انه برغم شدة وقسوة الطبيعة ، وبرغم قلة الامكانيات المتاحة ، وصعوبة توصيل الخدمات الى المنطقة ، فان الأهالى لم يفكروا فى الهجرة الى مناطق اخرى مثل سيوة رغم توفر الامكانيات وسبل المعيشة بها (٢) بل انهم قاوموا كل محاولة لتوطينهم فى مناطق اخرى بمعارضة شديدة عندما عرض المسئولون فى سيوة عليهم هذا

---

(٢) يختلف هذا الموقف عن موقف بعض بدو الواحات الخارجة الذين هربوا من مختلف العوامل الطبيعية التى تؤثر على النواحى الاقتصادية رغبة فى الحصول على دخل اكبر ·

انظر : احمد ابو زيد ، المرجع السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩ ·

الأمر اشفاقا عليهم من قسوة الحياة التى يعيشونها • ويرجع ذلك لأسباب كثيرة ذكرناها الآن ويمكن ايجازها فى النقاط الآتية :

١ ـ التماسك الأسرى ووجود نسق قرابة واحد يضم كل أفراد المجتمع حتى انه يمكن النظر اليهم على أنهم أسرة ممتدة واحدة •

٢ ـ الارتباط بارض الأجداد التى يحوى ثراها أجسادهم تلك الأرض التى عالت الجدود والأباء ومازالت تعول الجميع •

٣ ـ التاريخ المشترك وطول فترة الاستقرار فى المكان •

ومع اصرار أبناء الجارة على البقاء فى المنطقة كانت لديهم وسيلتين يأملون بهـا أن يصلوا الى حياة أفضل الأولى هى الطلب الى الله والتوسل اليـه أن يمنح الجارة رزقا أوفر، والثانية هى أن يطالبوا المسئولين فى المجتمع الأكبر أن يقدموا ما يمكنهم من مواجهة هذه الظروف • ويلاحظ أن معظم أبناء الجارة يسود لديهم الاعتقاد بأن المجتمع الكبير يستطيع أن يوفر لهم امكانيات التغلب على ظروف البيئة الطبيعية دون النظر الى العوائق التى تحول دون توصيل الخدمات الى الاقليم •

لقد ظل أهالى الجارة يعيشون فى ظل هذه الظروف ويتمسكون بالامكانيات الضعيفة الى نهاية الستينات ، الى أن حدثت بعض التغيرات فى بدايـــة السبعينات •

البحث عن البترول :

تعرضت الواحة فى بداية السبعينات الى اشراقة من تيار وافد اليها من الخارج عمل على نقل أبنائها الى خارجها •• ذلك التيار هو محـــاولة البحث عن البترول فى الصحراء الغربية الذى قامت به الشركة العامة للبترول فى مصر • فكما أشرنا فى مناقشتنا لعوامل التغير فى واحـــة سيوة اتخذت

الشركة العامة للبترول سيوة مقرا رئيسيا لها فى الصحراء الغربية ، ومن هذا المقر امتدت بخطوطها الطويلة تغزو الصحراء وتنتقى المواقع التى تحفر فيها آبارها (٣) ، وقد كانت هناك مواقع الحفر على الرغم من تفاوت بعدها عن الجارة ، الا أن الجارة كانت تعتبر محطة (او استراحة) بالنسبة للعمال المسافرين من مقر الشركة فى سيوة الى مواقع الحفر فى كثير من مناطق العمل. ولذا كان وجود الشركة فى سيوة قد احدث كثير من التغيرات ، فقد كان اتصال من يعملون فى الشركة بامكانياتهم المتعددة باهالى الجارة عاملا من عوامل التغير الذى تشهده الجارة من قبل ، على الرغم من بساطته .

مظاهر التغير :

وقد كان أول مظهر من مظاهر التغير فى الواحة هو ما تعلق باقتصاديات الواحة نتيجة التغييرات التى احدثتها الشركة فى المنطقة ونتيجة تمكين الأهالى من الافادة من الامكانيات التكنولوجية التى تمتلكها . فبعد بدء مشروع التنقيب عن البترول فى الصحراء الغربية قامت الشركة بتمهيد جزء من الطريق الذى يربط بين سيوة والجارة لاستخدامه . وعلى الرغم من أن الشركة لم تمهد الا ما يقرب من ثمانية كيلو مترات فقط الا أن سيارات الشركة كانت تنتقل يوميا بين سيوة ومناطق الحفر مارة بالجارة . وبهذا لم تعد الدواب هى وسيلة الاتصال الوحيدة بسيوة ، بل أن الأهالى تخلوا عن هذه الوسيلة تماما بعد أن أدركوا انهم يمكنهم الذهاب الى سيوة والعودة فى اليوم التالى عن طريق سيارات الشركة التى تمر بالواحة وتعرض على الأهالى تقديم اية خدمات بما فى ذلك نقلهم الى سيوة ، واحيانا الى مطروح . وقد حاول أبناء الجارة استغلال ذلك استغلالا جيدا فقد انتقلوا ونقلوا كل شىء بما فى ذلك الدواب على سيارات الشركة . وادى هذا الى سهولة نقل المحصول الى سيوة ومطروح ومنها الى القاهرة والاسكندرية

---

(٣) يبعد بئر « غراب » عن الجارة حوالى ٣٠ كيلو مترا ، ويبعد بئر « الكيفار » عنها حوالى ١٠٠ كيلو مترا .

ونظرا لأن بلح وزيتون الجارة يعتبران من أجود الأنواع فقد أدى هذا الى سهولة بيعهما ، هذا بالاضافة الى استعداد الكثير من عمال الشركة لنقلهما الى العاصمة • وثمة ظاهرة هامة وضحت بعد التوسع فى تسويق المنتجات ، فقد أصبح أهالى الجارة يتحكمون فى الأسعار الى حد كبير بعد ان كانوا يبيعون المحصول بأى سعر خشية فساده • وقد كان أهالى الجارة حريصون على أن يعاملوا الموظفين والعاملين فى الشركة معاملة مادية خاصة فى البيع والشراء مقابل خدماتهم وهذا أدى بالتالى الى تحقيق رغبات أبناء الجارة فى نقل المحصول • بالاضافة الى ذلك فقد عمدت الشركة الى حفر بئرين بجوار الأراضى الزراعية ، وأدى ذلك الى استصلاح بعض الأراضى وبالتالى توسيع الرقعة الزراعية نسبيا • كما ساعدت السدود والمصارف التى أنشأتها الشركة أيضا على رى مساحة أكبر من الأرض •

بالاضافة الى ذلك فقد أفاد الأهالى افادة كبيرة من استخدام الكثير من مخلفات الحفر التى تعد صالحة للاستخدام بالنسبة للشركة ، فاستخدموا براميل الزيت بعد تنظيفها فى تخزين المياة • وقد ملأتها لهم السيارات بمياة صالحة للشرب آتية من سيوة أو مطروح ، فقد كانت السيارة (الخاصة بنقل المياة لمواقع الحفر) تفرغ جزء من المياة التى تحملها فى البراميل أمام المساكن ليشرب منها الأهالى • واستخدم الأهالى أيضا مخلفات الحديد والصفيح وبعض المعادن الأخرى فى صناعة أبواب المنازل الجديدة (بالاضافة الى أخشاب جذوع النخيل) كما استخدموها فى اصلاح أدوات العمل الزراعى • بالاضافة الى ذلك فقد كان لحفر البئرين السابق الاشارة اليهما واعداد العديد من المصارف واقامة بعض السدود والقنوات أثر كبير على المنطقة مما سهل عملية نقل وتصريف المياة من الآبار الى الأحواض • وأدى وضع الصمامات على فوهات الآبار الى التحكم فى كمية المياة الخارجة منها وبهذا أمكن

تلافى ماكان يفقد منها نتيجة اندفاعها من البئر (٤) ٠

كما تأثر شكل البيوت واثاثها ـ ولو بطريقة غير مباشر ـ بوجود الشركة ٠ واذا كان بناء المساكن اعلى الصخرة ـ الذى سبق الاشارة اليه ـ قد سبق مجيء الشركة الى المنطقة بسنوات الا ان الرواج الاقتصادى وتعدد الامكانيات الذى صاحب وجود الشركة فى المنطقة قد شجع على تحقيق مستوى اقتصادى مرتفع مكن بعض الأسر من التفكير فى الانتقال من أعلى الصخرة الى أسفلها ٠ فالأسر غير القادرة هى التى مازالت موجودة فوق الصخرة واذا كانت ظاهرة بناء البيوت اسفل الصخرة ترتبط بالمستوى الاقتصادى فهى تشير أيضا الى تغير حدث فى المنطقة يتعلق بالأمن فلم تعد هناك حاجة الى الاحتماء من غزوات ، كما لم تعد هناك حاجة الى باب خشبى كبير يغلق على أهل الواحة ليلا ٠

ومن الطبيعى أن يؤدى اتساع المنطقة السكنية بالواحة نتيجة بناء البيوت اسفل الصخرة ـ خاصة وأن البيوت تبنى الى حد ما بعيدة عن بعضها ـ الى التأثير على العلاقات بين الأهالى من اكثر كثافة الى أقل كثافة فى حالة انتقالهم من أعلى الصخرة الى اسفلها ، اما فى حالة حدوث تغيرات غير متوقعة الآن ـ اذا اتسع نطاق المنازل تحت الصخرة وحفرت آبار متباعدة عن منازل الصخرة ـ فانه يتوقع أن تتسع الرقعة الزراعية ، ويتوقع ان يؤدى ذلك الى ضعف العلاقات الاجتماعية وحدوث تغيرات فى نمط الاجتماعية بصفة عامة ٠

وقد حدثت بعض التغيرات فى الأثاث والأدوات المنزلية فى بعض البيوت٠ وعلى سبيل المثال فقد ظهرت لدى احدى الأسر فى الجارة بعض الألحفة الحريرية

---

(٤) قام أيضا عمال الشركة باستخراج بقايا الحجر الذى كان قد سقط على فوهة البئر القديم واشرنا اليه فى الفصل السابق ٠

واغطية الموائد المصنوعة من البلاستيك والتى ترد من مصر والاسكندرية ومطروح عن طريق سيوة • وقد ظهرت نفس هذه الأشياء فى الأسرة التى عمل الزوج فيها بليبيا •

اما المنزل الآخر الذى ظهرت فيه بعض التغيرات البسيطة فهو منزل شيخ الجارة ، نظرا لأنه يستطيع ان يكلف احد السائقين العاملين بالبترول بشراء جميع مستلزماته من سيوة ، ولذلك فحجرة الاستقبال الخاصة به مزودة بسرير ينام عليه الزوار الذين يضطرون للمبيت ، كما أنه لديه بعض الألحفة المفترشة على الأرض وهى تستعمل كذلك ليجلس عليها الضيوف • ويلاحظ انهم فى هذا المنزل يضعون اغطية من البلاستيك على « الطبلية » فى حالة وجود ضيوف •

وهناك مظهر آخر من مظاهر التغير فى الأدوات المنزلية • فقد اشتهر البدو وساكنو الصحراء عموما بأكواب الشاى الصغيرة ، ولكن يلاحظ ان مجتمع الجارة بدأ يقدم الشاى فى الأكواب ذات الحجم الكبير التى تستعمل فى وادى النيل • ولكن لا زالت عادة تقديم الشاى أكثر من مرة فى وقت واحد موجودة رغم كبر حجم الأكواب ، كما يلاحظ ان الأكواب مزركشة كما بدأ الموسرين فى تقديم الحلوى والبسكويت مع الشاى •

الاختراعات التكنولوجية :

وقد عرف اهالى الجارة بعض الاختراعات التكنولوجية الحديثة ، كما انتشرت فى الواحة بعض الأجهزة والأدوات التى وان كان وجودها يعتبر تغيرا فى حد ذاته ، الا انها ادت أيضا الى تغيرات اخرى (٥) كما

---

(٥) اذا كانت اعداد الأجهزة والاختراعات التى سنذكرها قليلة الا انها تعتبر مظهرا للتغير بالقياس الى صغر حجم الواحة وعدد سكانها ، ونظرا الى انها لم تكن موجودة على الاطلاق حينما كان وجه الواحة تقليديا تماما •

سيتضح الآن · واهم الأجهزة التي وجدت فى الجارة « الراديو » · فيوجد فى الجارة العديد من أجهزة الراديو التي اثرت تأثيرا كبيرا فى دراية أبناء الجارة بأحوال المجتمع الأكبر الذى يعيشون فيه (المجتمع المصرى) كما ساعدتهم على تعلم اللغة العربية ، وخاصة باللهجة العامية · وبالاضافة الى الراديو ، كان يوجد فى الجارة سنة ١٩٧٣ جهاز تسجيل واحد (ريكوردر) يحتفظ به شيخ الجارة ، ويتجمع لديه الرجال والشباب ليلا لسماع الأشرطة التى يمكن أن يشتريها له عمال البترول من مصر ·

كذلك بدأ بعض الرجال يلبسون الساعات ، وان كانوا لايتعدون خمسة رجال فى سنة ١٩٧٣ · وقد أدى دخول هذا الاختراع التكنولوجى الى المنطقة الى اختفاء ظاهرة التقدير الشخصى للوقت · ولكن من الملاحظ أن معظم الأهالى لم يكونوا يشعروا بحاجتهم الى الساعة الى وقت قريب نظرا لأن جهـــاز « الراديو » يؤدى الوظيفة التى يمكن ان تؤديها الساعة وذلك لأنهم قلمـا يحتاجون الى معرفة الوقت محددا بالدقائق · هذا بالاضافة الى صعوبة اصلاح الساعة الأمر الذى أدى لأن يصبح الراديو بديلا عنها · وهناك عوامل أخرى لم تشجع على انتشار الساعة أيضا ، منهـــا عـــدم توفرها فى أماكن مجاورة ، بالاضافة الى انها غالية الثمن ·

كذلك بدأ الرجال يفاضلون بين الأنواع المختلفة من شفرات الحـلاقة ، بعد أن توفرت فى سيوة كثيرا من الأنواع الموجودة فى القاهرة · كما ظهرت فى منزل شيخ الجارة بعض زجاجات الروائح التى يستعملها الرجال بعـد الحلاقة ، كما يستعمل الرجال « الشباشب » المستوردة من ليبيا · ويساهم توفر هذه العناصر الثقافية فى سيوة على انتشارها فى الجارة ·

كذلك كان يوجد بالجارة سنة ١٩٧٣ ثلاث ماكينات للحياكة مما أدى الى تعلم بعض النساء الحياكة من نساء سيوة · وقد ارتبط ذلك بالتخصص

اذ لم تعد كل زوجة مضطرة الى حياكة كل ملابس أسرتها بيدها ، بل أمكنها ان تذهب بالقماش الى صاحبة الماكينة ·

وللانارة ليلا عرف أهالى الجارة « الكلوب » الذى حل محل مصباح الكيروسين وعرفوا ايضا البطاريات ، فلكل بيت بطارية · ويساعد على انشار البطارية عدة أسباب منها أنها رخيصة الثمن ، ومتوفرة فى سيوة ، بالاضافة الى سهولة استخدامها ، وعدم التعرض لأى اضرار من جراء استخدامها (٦) · وقد أدى استعمال « البطارية » الى تأخر الشباب فى الحقول ليلا ولم يكن من الممكن أن تؤدى مصابيح الكيروسين دور البطاريات نظرا لعدم تحملها تيارات الهواء · ونتيجة لاستعمال البطاريات بدأ يظهر نمط من التسلية خارج البيوت الى وقت متأخر من الليل · كذلك يحاول أبناء الجارة استخدام البطارية فى ارشاد السيارات التى تضل الطريق ليلا بالقرب من المنطقة بأن يصعدوا الى قمة الصخرة ، المقامة عليها المنازل القديمة ، ويلوحون بالبطاريات المضاءة للسيارات · كذلك تمكنوا من اكتشاف الحيوانات الضارة التى قد تتعذر رؤيتها فى الظلام · وعموما فالبطارية تعتبر سلاحا فى يد الفرد فى الجارة ·

غير ان استخدام بعض الأجهزة والأدوات والأشياء الحديثة قد ارتبط ببعض الظواهر التى يمكن أن ننظر اليها كآثار لما يسميه علماء الأنثروبولوجيا « الثغرة الثقافية » (٧) فقد كان من السهل بعد وجود الشركة فى المنطقة وصول

---

(٦) اذا توفرت هذه العوامل فى أى اختراع تكنولوجى فسوف تفوق سرعة انتشاره فى أى مجتمع سرعة انتشار أى اختراع آخر ينقصه عامل أو أكثر منها ·

(٧) « الثغرة الثقافية » أو كما يطلق عليها البعض « الهوة الثقافية » Cultural Lag ويدل هذا على عدم مسايرة المعرفة النظرية للاختراع التكنولوجى كما يدل على عدم وجود خلفية ثقافية تعطى امكانية نمو القدرة الميكانيكية · ومن الطبيعى ان يؤثر ذلك على المدى الطويل الى اختفاء هذا الاختراع ، اما اذا لم يتمكنوا من اصلاحه فى حالة تعطله ، فسوف يؤدى =

هذه الأجهزة الي الواحة ، لكن لم يكن ممكنا ان يعرف أبناء الواحة كل ما يتعلق بكل جهاز او آداة من معرفة ضرورية للتشغيل أو الصيانة او الاستخدام ، لهذا حدث تغير في استخدام الأشياء ، وعندما كان يحدث عطل فى الجهاز كان يصعب اصلاحه . وعلى سبيل المثال أحيانا كانوا يسجلون - خطأ - مادة فوق مادة على الشريط عند التسجيل على جهاز التسجيل الوحيد الموجود بالواحة . ويظهر الارتباك شديدا على وجه من يستخدم الجهاز اذا حدث به أى عطل ، وهذا يعكس تخلف المعرفة عن أن تجعل هناك سهولة فى معالجة مشكلات جهاز التسجيل . ونفس الأمر بالنسبة « للكلوب » ، فأبناء الجارة حصلوا على الكلوبات ولكنهم فى البداية لم يكونوا يعرفوا كيفية تشغيلها ، ولم تكن لديهم معلومات عن الأجزاء المكونة لها وكيفية اصلاحها .

أما من حيث استخدام الأشياء الجديدة على المجتمع فى غير موضعها فقد حدث عندما بدأ تعرف أهالى الجارة على المبيد الحشرى « البيروسول » ذو الرائحة المقبولة فقد استخدمه بعض الفتيان لتعطير ملابسهم . كذلك فانه فى البداية أيضا عندما كان أحد الأشخاص يضغط على الجزء المخصص للضغط عليه فى العلبة وينحدفع السائل بشدة كان يصيب بعض الفتيان - كما يحدث عادة لدى كثير من الناس عندما يرون مثل هذه الأشياء لأول مرة - نوع من الفزع بحيث يجرون خارج الحجرة خوفا من ذلك الشىء المندفع

= هذا الى الرجوع الى المصابيح الأكثر بدائية (وهى مصابيح الكيروسين) .
أما اذا تسبب « الكلوب » فى احداث حريق مثلا - وخاصة عند البدء فى استعماله فى المجتمع - فان ذلك سوف يحد من استعماله مباشرة . وأكثر من ذلك فقد يعرض الكثيرون عن مجرد التفكير فى شرائه . ويمكن أن يلعب التشاؤم دورا كبيرا فى هذا . ويلاحظ أن حالك العزلة الجغرافية ، تساهم مساهمة فعالة فى تصور المعرفة التى يجب أن ترتبط بالاختراع التكنولوجى فاذا قارنا بين وجود المعرفة المرتبطة بالاختراع فان وجود الأول فى المدينة يتيح له فرصة التعليم أكثر مما تتح لابن الجارة فى منطقته المعزولة .

من العلبة (٨) · كذلك استخدم بعض أبناء الجارة الاقراص « الشكالوز » (المضادة للحموضة) فى غير موضعها ، فقد استخدموها كعلاج للامساك او لتخفيف آلام الراس وأكدوا أن مفعولها قوى فى الحالتين ·

وقد وضح تخلف المعرفة عن الاختراعات أيضا فى التفسيرات التى قدمها أبنــاء الجارة لبعض الظواهر المرتبطة بالارسال الاذاعى · فقد فسر بعضهم انقطاع الارسال الاذاعى بوجود اشخاص مشاكسين « يمسكون الصوت بمغناطيس » فينقطع · وأكدوا قدرة عمال البترول على العمل ليلا بأنهم لابد وأن يكونوا يتعاطون اقراصا للسهر · ولعل هذه التفسيرات توضح الهوة السحيقة بين هذه الاختراعات التى وصلت اليها أو سمعوا عنها وبين مستوى المعرفة الأمر الذى يؤثر تأثيرا قويا على تفسير ما يرتبط بهـذه الأختراعات ، كما يؤثر على امكانية حل مشكلاتها وتعقيداتها أو حتى على التعرف على وظائفها الأساسية ·

وهناك بعض التغيرات المادية الأخرى حدثت فى الواحة ، بعضها ارتبط بوجود الشركة فى المنطقة وبعضها الآخر ارتبط بعوامل أخرى · فقـد حدث تغير فى الزى الذى يرتديه الرجال والنساء فى الواحة ، كما حدث تغير أيضا فى وسائل وطرق التزين والنظافة · واذا كانت الملاءة السيوية التى تغطى جميع اجزاء جسم المرأة مازالت هى الزى الذى تخرج بهالمرأة فى الجارة من بيتها فقد تغيرت طريقة تصفيف الشعر ، فبدأت الضفائر تختفى وخاصة بالنسبة للفتيات ، وبدأت فى تسريح شعورهن الى الخلف · أما الضفائر فلا تستعمل الا للبنات الصغيرات وذلك للحفاظ على شعورهن مرتبة ، خاصة وأنهن لا يغطين رؤوسهن ·

---

(٨) يمكن لأى اختراع أن يستخدم استخدامات غير التى صنع من أجلها اذا كان ذلك لا يؤدى الى حـدوث أضرارا بالغة ، وفى هذا الحـالة اذا كان استخدام البيروسول للتعطر يؤدى الى ضرر مثل التسمم لبطل استخدامه فى هذا الغرض ·

كما تستعمل النساء حاليا الصابون فى غسل رؤوسهن وشعورهن بدلا من الطفلة • كما يشترين الروائح والكحل والحنة من مصر ، عن طريق سيوة•
وقد حدث انتشار لأدوات الزينة بالنسبة للنساء نتيجة توفرها فى سيوة ، ونظرا لحدوث احتكاك بين سيوة والجارة فقد انتقلت هذه الأنماط الثقافيـة، وساهم فى تسهيل هذا الانتقال أن نساء الجارة يعتبرون أنفسهن منتميات هن ونساء سيوة الى أصول مشتركة ، ولهذا يمكن التشبه بهن بعكس ما اذا كانت هذه العناصر الثقافية قد نقلت الى الجارة عن طريق نساء وادى النيـــل مثلا •

اما بالنسبة لوسائل التزين الأخرى مثل الأقراط ، والأساور ، والعقود•• الخ فلا ترتدى نساء الجارة الا البسيط منها • واصبحت هذه الأنواع غير مستعملة الا فى المناسبات مثل الأفراح ، كما يرتديها الأطفال عند التصوير• ويرجع ذلك الى ثقل وزنها وصعوبة التحرك بها •

أما بالنسبة لأزياء الرجال فقد اختفى الجرد تماما من الجارة اذ لا يرتدونه خلال يومهم ، الا بالنسبة لشيخ الجارة فهو يرتديه عند الذهاب الى سيوة كما ذكرنا قبل ذلك ، اذ يعتبره الزى الرسمى ، أما باقى الرجال – حتى كبار السن – فيكتفون بارتداء الصيرى (الصدرية) فوق الجلباب الأبيض • وربما يرجع عدم ارتداء الجرد فى الجارة أو خارجها الى أن طبيعة العلاقات لا تستدعى أى نوع من الرسمية داخل الواحة فى الوقت الذى يعتبر فيه الجرد الزى الرسمى فى معظم الصحراء الغربية ، كما ساعد على اختفائه من الجارة أيضا طبيعة العمل الزراعى الذى لا يتلائم مع ارتدائه (٩)•

---

(٩) تعتبر هذه الظاهرة ظاهرة عامة فى كل مناطق الصحراء التى يعمل أهلها بالزراعة ، أو التى شهدت قدرا من التحضر ، أو التى يشتغل أهلها فى أعمال المدينة فبـدو مطروح والسلوم القاطنون داخل المدينة لا يرتدون الجرد أما البدو الرحل فما زالوا يستعملونه نظرا لأنه يستعمل كغطاء اثناء النوم=

إذا كانت قد حدثت تغيرات فى الثقافة المادية لأبناء الجارة ، فإن البناء الاجتماعى والثقافة اللامادية قد ظلت كما هى ولم تخضع لتغيرات تذكر الا ربما فى مجال العادت المرتبطة بالصحة وفى الجانب اللغوى. اما شكل الأسرة ونمط القرابة والعلاقات بين ابناء الجارة فقد ظلت كما هى . ويرجع ذلك الى ان عامل التغيير فى الواحة « شركة البترول » وما ارتبط بها من أنماط مادية ـ كان عاملا ماديا بصفة اساسية اتى بتكنولوجيا متطورة ونقل الى الواحة اشياءا مادية . وفقدت الواحة تماما اية عوامل يمكن ان تؤدى الى تغيرات فى التقاليد والثقافة . فالاتصال بين جماعات سكانية مغايرة وبين اهالى الجارة لم يحدث ولهذا لم تتغير الثقافة الروحية . وعلى سبيل المثال ما زالت التقاليد الصارمة فى الجارة والخاصة بالعلاقة بين الجنسين على اشدها . فلا يستطيع شخص من الجارة ان يتكلم مع أى امرأة فى الطريق ، او يقف معها خارج المنزل الا اذا كانت ابنته او اخته أو امه واذا كانت الضرورة تستدعى ذلك .

اما الجنسان فى سن الشباب فلا يسمح لهما بالاختلاط مطلقا . وحتى بالنسبة للمخطوبين ، فاذا قابل الشاب خطيبته فهو يلقى عليها التحية فقط . ويساعد على حفاظ الناس فى الجارة على هذه التقاليد ان المجتمع الوحيد الذى امكن الخروج اليه وهو مجتمع سيوة لا يزال يتمسك بنفس هذه التقاليد .

واذا كانت المرأة فى الجارة لا يسمح لها بمخالطة الرجال ، فانه من الطبيعى الا توجد علاقات بينها وبين الغرباء . فلا يمكن للمرأة فى الجارة أن ترى الغريب او تكلمه ، وحتى عندما تركب السيارة الى سيوة فهى تظل

= فى الصحراء ليلا ، اذا دعت الضرورة لذلك . وفى هذه الحالة يظهر أثر المسكن ، فاهالى سيوة أو أبناء الجارة لايحتاجون الى استعمال الجرد كغطاء بل استعاضوا عنه بانواع الأغطية المعروفة فى المدن المصرية ، ولهذا بطلت وظيفة من وظائفه وقل استخدامه .

مغطاة بالملاءة تماما طوال الطريق ولا تتكلم على الاطلاق • ومنذ عشرات السنوات لم تر معظم النساء الا وجوه ابناء الجارة • لذلك يبدو عليهن الارتباك الشديد والحيرة اذا اضطرت احداهن الى الكشف لدى الطبيب • وعند دخول احدى سيارات البترول الى المنطقة لا تخرج النساء من البيوت • وهناك تقاليد أخرى لم تتغير أيضا مثل التقاليد الخاصة بالسفر فما زال أهالى الجارة يخرجون جميعا رجالا ونساءا لوداع المسافر ، وما زالوا يتلون الآذان بمجرد تحرك الشخص من الجارة ، على انه من الملاحظ أن هذا النمط قد تغير فى سيوة نتيجة اتساع نطاق المجتمع ، وكثرة التنقلات •

أما فيما يتعلق بالتغير فى مجال الطب الشعبى فقد أشرنا قبل ذلك الى أن هناك شكلان يتعايشان جنبا الى جنب هما الوسائل الشعبية فى العلاج ، ثم العلاج الطبى ويتمثل فى الزيارات التى يقوم بها طبيب سيوة للجارة بجانب التومرجى الذى يعمل فى الجارة وهو من أبنائها • وفى السنوات الأخيرة على وجه الخصوص زادت زيارات الطبيب للواحة وأصبحت مرة كل شهر ، وهذا أدى الى الفه بين الطبيب وبين الأهالى ، وبالتالى بينهم وبين الطب الحديث • فالأهالى يثقون فى قدرة الطبيب الفائقة على شفاء الأمراض وان كان هذا لا ينفى اعتقادهم فى أن بعض الأمراض لا يعالجها الا الكى أو الخزم • ومما يوضح تغير الاتجاه نحو الطب الحديث أن نساء الجارة — على الرغم من خجلهن — الا أنهن بدأن يقبلن على الفحص الطبى فى حالة الحاجة اليه • ويقبل أهالى الجارة على التطعيم ضد الأمراض المعدية حينما يأتى الطبيب لتطعيمهم ، ويرجع ذلك الى ادراكهم لفاعليته التطعيم ، والى خوفهم من انتشار الأوبئة ، وخاصة لعدم توفر الاسعافات السريعة ، كما يساعد على تقبلهم للتطعيم انتقال الطبيب الى الواحة للقيام بعملية التطعيم بنفسه • ومما يشير أيضا الى التغير فى اتجاههم نحو الطب الحديث هو ما ذكره البعض من أن هناك من أبناء الجارة من سافروا الى الأسكندرية للعلاج • كذلك أدى وجود شركة البترول فى المنطقة الى التأثير فى اتجاهات وسلوك الناس فى هذا المجال ، فقد قدمت الشركة كثير

من الخدمات الصحية للأهالي ، فنقلت المرضى الى سيوة ، خاصة فى الحالات المفاجئة كما قدمت بعض انواع الدواء المتوفرة فى صيدليات معسكرات الحفر.

اما من جهة التغيرات التى حدثت فى اللغة فقد ذكرنا أن الكبار من أبناء الجارة يتكلمون اللهجة العربية العامية بطريقة شبه طلقة وان كانوا يستخدمون فى حياتهم اليومية او معاملاتهم الخاصة اللهجة السيوية . والى وقت قريب كان يصعب على الطفل أن يتكلم اللهجة العامية العربية ولكن غزت هذه اللهجة الواحة بفعل جهاز الراديو واصبحت هناك دراية واسعة بها حتى بالنسبة للأطفال . كذلك اقتبس اهالى الجارة من العربية العامية الكلمات التى تعبر عن اشياء لم تكن مالوفة لديهم وليس لها مقابل فى لهجتهم الخاصة ، وان كانوا ينطقونها بطريقة تختلف نوعا كما ذكرنا .

لقد ظلت واحة الجارة طوال سنوات البحث عن البترول تعيش على أمل أن يتم اكتشافه فى الصحراء الغربية فتصبح بهذا الجارة عاصمة نتيجة التغيرات التى توقعوا أن تحدث فى الصحراء بعد اكتشاف البترول فى الصحراء وتصبح أيضا محطة ليس للقوافل البطيئة بل محطة للنقل السريع. وعاش اهالى الجارة يحتضنون هذا الأمل فهل اكتشف البترول فى المنطقة ؟ وماهى التغيرات التى حدثت بعد ذلك ؟ .

تغيرات نهاية السبعينيات وأوئل الثمانينيات :

مع نهاية السبعينيات كان التساؤل الذى ظل يبحث اهل الجارة عن اجابة له عدة سنوات تمت الاجابة عليه . ذلك هو السؤال التقليدى « هل سيكتشف البترول بالقرب من الجارة ؟ . ولكن الاجابة كانت بالسلب. ففى نهاية السبعينيات انهت الشركة العامة للبترول اعمالها فى الصحراء الغربية ، وازالت مقرها الذى كان فى سيوة ، وبذلك فقدت الواحة اهم وسيلة للاتصال بالعالم الخارجى ، وبدأت تعود الى حالة من الاظلام

والصمت مرة أخرى كما حدث فى سيوة • وظل الأمر كذلك عدة سنوات فقد اهالى الواحة خلالها كل تلك الآمال التى كانوا قد عقدوها على اكتشاف البترول فى صحراء مصر الغربية •

ولكن مع بداية الثمانينيات طرأت على الواحة ظروفا جديدة ، فقد بدأت بعض العوامل تؤثر فى الجارة تاثيرا فعالا • وكانت هذه العوامل الفاعلة فى التغير عوامل مختلفة ، كما أن الآثار التى ترتبت على ذلك كانت آثارا مغايرة أيضا لآثار فترة البحث عن البترول ويمكن ان نلمح عاملا أساسيا مؤثرا فى حياة اهالى الجارة فى هذه السنوات الأخيرة وهو ما يمكن ان نطلق عليه اهتمام المسئولين بتنمية الواحة بمعنى اهتمام المسئولين بأهالى الجارة واذا كان ذلك يأتى ضمن الخطة العامة لتنمية المناطق الصحراوية ، وضمن اهتمام المسئولين بكل الصحراء الغربية ، الا ان الناس يجمعون على ان هناك اهتماما شديدا باهالى الجارة • وقد أدت مشاهدة المسئولين لطابع الحياة فى الجارة بجانب بساطة الناس الى نوع من التعاطف والاهتمام الذى ظهر فى صورة اعتمادات ومشروعات تعمل خصيصا لأبناء الجارة • وقد كانت الزيارات المتكررة نفسها للمسئولين هى مظهر من مظاهر الاهتمام • وقد حباهم بعض المسئولين بعناية خاصة حتى انه اصبح من الصعب ان يرفض لهم طلب • ولعل ذلك يكون تعويضا عن المعاناة التى يلاقونها فى المعيشة فى هذه المنطقة المعزولة • فيحرص المحافظ ويحرص رجال الأجهزة التنفيذية على زيارة الجارة سنويا حتى يشعروا أنهم ليسوا منسيين كما شعروا فى الأزمنة السابقة • ولكى يمكن ان يساعدهم المجتمع على ان يحيوا هذه الحياة الطبيعية فى ظل ظروف افضل • وربما شجع المسئولين أيضا حالة الرضى التى يتميز بها اهالى الجارة مما يجعل المسئولين أكثر رغبة فى تقديم المساعدات الممكنة •

ويدرك أبناء الجارة ذلك الاهتمام لهذا فان الكلمات التى يقولونها

منذ عشرة سنوات والتى تعبر عن انهم « منسيين » من المجتمع قد تغيرت الى كلمات وتعبيرات أخرى عديدة تعبر عن حالة التغير التى حدثت لهم . فهم يقولون « انه من سنة ١٩٢٣ لم يقدم أحد شيئا الى الجارة ، ولكن الآن لنا نصيب فى كل شىء موجود فى المناطق الأخرى . فكل المبيدات والمواد الغذائية التى ترد الى سيوة لنا نصيب فيها وفى غيرها ايضا ». ويقولون أيضا ان سيوة - أقرب مركز عمرانى للجارة - ومدينة مرسى مطروح - كعاصمة للمحافظة التى تقع الجارة فى نطاقها تعتبر هى المحطة التى نرسو فيها » وقد لاحظ ذلك أبناء المحافظة الذين يعيشون فى مناطق أخرى ذلك ، وأصبح البعض يرى أن الجارة أصبحت هى « الابن المدلل » للمسئولين . وان كان ذلك لم يثر أى روح عدائية نظرا لأن الجميع لديهم رغبة فى مساعدة سكان الواحة .

وسوف نناقش فى الجزء التالى المظاهر الدالة على اهتمام المسئولين بالجارة فى مجالات الحياة المختلفة وأثر ذلك على تغير بعض ملامح واحة أم الصغير .

فى مجال الاسكان « البيوت الجديدة » :

فى خلال فترة عشرة سنوات من ١٩٧٠ وحتى بداية ١٩٨٠ كانت الأسر التى تعيش فوق الصخرة قد نزلت وبنت لها بيوتا أسفل الصخرة حتى لم يعد يعيش فوق الصخرة سوى أسرتين بصفة دائمة ، وعدد قليل آخر من الأسر يعيشون فوقها بصفة مؤقتة الى ان يكتمل بناء بيوتهم أسفل الصخرة .

ولكن قرر بعض المسئولين انشاء بيوتا جديدة لأهالى الجارة فى نفس المنطقة ، وبعد هذا حدث تطورا كبيرا فى الشكل العمرانى للواحة . اذ أن الواحة - وكما ذكرنا قبل ذلك - لم تكن سوى صخرة مرتفعة يسكنها الأهالى ، تغلق بابها ليلا وتفتحه نهارا . ولم يكن يتبع

الصخرة سوى المساحة الصغيرة التى يزرعها أهالى الواحة • وعلى مدى عشرة سنوات حدث زحف بطىء لمعظم الأسر التى تسكن الصخرة الى أسفلها حيث تمكنت هذه الأسر من بناء بيوت بسيطة ولكنها مميزة عن البيـوت التى فوق الصخرة • ولم يكن أحد يفكر أن مجتمع الجارة الذى شهد بنـــاء عدد قليل من البيوت البسيطة فى مدى عشرة سنوات يمكن أن يظهر فيـــه عدد كبير من المساكن الحديثة فى مدى قصير • وما حدث هو أن الجهات المسئولة مثـل المحافظة وهيئـة تعمير الصحارى بالتعـاون مـع برنـامج الغذاء العالمى قررت بناء ٣٠ مسكن لأهالى الجـارة (١٠) •

والمسكن الجديد عبارة عن بيت يتكون من حوش وعـلى جانب من هذا الحوش يوجد حجرتين ، وعلى الجـانب الآخر يوجد المطبخ وحمام ودورة المياة • ويشبه البيت نمط المسكن البدوى ، فقـد روعى فى بنـــاء البيت بعض الجوانب التقليدية • فدورة المياة مرتفعة قليلا عن الأرض بحيث يوجد تحتها فراغ كبير مملوء بالرمال • وذلك لـكى يتمكنوا من استخدام مخلفات الانسان كنوع من السماد للأرض الزراعية • كذلك فقد ترك الحوش دون سقف • وتم سقف بقية أجزاء المنزل بالأخشـاب • وقـد اسـتخدمت الحجارة المتوفرة حول الجـارة فى بناء المساكن • أما الجير والأسمنت فقد كان ينقل من مطروح • وبلغت تكاليف الوحدة السـكنية ٢٤٠٠ جنيـه ، فتكلفت بهـــذا الوحدات جميعا مبلغ ٧٢ ألف جنيه • واستغرقت عمليـــة البناء ما يقرب من عامين بدأت فى شهر مارس سنة ١٩٨١ وانتهت فى نفس الشهر من عام ١٩٨٣ •

وقد تم بناء المساكن عن طريق مقاول كان يعمل بالاستعانة بعشرة

---

(١٠) تم بناء مساكن مشابهة أيضا فى مناطق أخرى فى الصحراء مثل منطقة « أبو شروف » على بعد ٣٠ كيلو متر من واحة سيوة • وعـــادة ما يرتبط بالحصول على المسكن الحصول أيضا على حصة من المواد الغذائية والتموينية مثل الدقيق والسمن والمربى والجبن وهى تقدم مرة واحدة فقط•

عمال يقضون فى الواحة ٢٥ يوما يعودون بعدها الى مطروح لـكى يأتى عدد مماثل لاستكمال العمل • وقد شارك ابناء الجارة فى مختلف مراحل بناء المنزل وأدى هذا بهم الى اكتساب خبرة جديدة فى اعمال البناء والنجارة ، كما انهم حصلوا على مقابل مادى من المقاول عن هذا العمل •

وقد تم بنـاء المساكن فى شكل هندسى منتظم بحيث شيدت فى شكل صفوف جانبية وتركت فراغات كونت شوارع بين هذه المساكن • واذا كـان الشكل الهندسى قد أعطى مظهرا منظما للمساكن فان قرب المسافة بين المساكن وبعضها اعطى للأهالى نوعا من الاطمئنان الى أن المسكن الجديد سوف لا يؤثر على قوة العلاقات بينهم •

وبقدر ما كان بناء هذه المساكن يعتبر منحة لأهـالى الجارة ، وتغييرا أساسيا فى نظـام سكنى المجتمع ، بقدر ما اتاح ذلك الفرصة لوجود مشكلة كـان على المجتمع ان يواجهها وأن يحسن التصرف فيها • تلك هى مشكلة توزيع المساكن على الأسر واختيار كل اسرة لموقع المسكن الذى تود أن تعيش فيه • وقد قلل من حدة هذه المشكلة عدة عوامل هى :

١ ـ تشابه المساكن الأمر الذى لم يجعل هناك مسكن أفضل من آخر من حيث الاتساع •

٢ ـ ضآلة حجم المجتمع • فاعداد الأسر التى تعيش فى الجارة لاتزيد كثيرا عن عدد المساكن التى تم تشييدها •

٣ ـ عامل القرابة الذى يضمن قدرا من الخضوع لأولى الأمر فى الجارة•

وعلى الرغم من ذلك فقد كان هذا الموقف جديدا وكان على أبنـــاء الجـارة ان يتصرفوا فيه بطريقة مناسبة خاصة امام ممثلى الحـــكومة والهيئات التى ساهمت فى المشروع • وبالفعل طلب شيخ الجـارة ان يترك

امر توزيع المساكن له ، وكـان هذا بمثابة ضمان لعـدم ظهور شـكاوى تتعلق بعمليات الاختيار وتحقيق رغبـات الأسر المختلفة • والأسلوب الذى اتبعه شيخ الجارة وكبارها فى توزيع المساكن اسلوبا ديموقراطيـا يتسم بالبساطة التى تتناسب مع طابع المجتمع ، ولكنه يعكس أيضا نوعـــا من المرونة فى استحداث أساليب معالجة المواقف الجديدة • وكان الطلب الأول الذى أعلنه كل شخص فى الجارة هو أن يسكن بجوار جارة الذى كان يجاوره أثنــاء السكنى فوق الصخرة • وقد أمكن تحقيق ذلك •

أما عن الأسلوب الذى اتبع فهو يتلخص فى أنهم :

١ ـ انتقوا ستة رجال من كبار السن وعملوا قرعة بينهم بحيث يأخذ الشخص الأول أول صف يضم خمسة مساكن ، ثم الشخص الثانى يكون من نصيبه الصف الثانى الذى يضم خمسة مساكن أيضا ، ثم الثالث والرابع ••• وهكذا الى السادس •

٢ ـ بعد ذلك تأتى المرحلة الثانية من العملية وتتلخص فى أن كل شخص من الستة الكبار عليه أن يختار أربعة من الأسر تسكن بجواره فى بقيـــة صف المساكن الذى سيسكن هو فى أوله •

٣ ـ ثم بعد ذلك تأتى المرحلة الثالثة والأخيرة وهى كيفية توزيع البيوت على هذه الأسر الأربعة • لقد قرروا أن يكون ذلك عن طريق القرعة أيضا فالشخص الأول يسكن المسكن الثانى الذى يجاور كبير السن مباشرة ويشغل المسكن الثالث من يظهر اسمه بعد ذلك ، وهكذا ••••

وقد استخدموا شخصا لا يعرف القراءة والكتابة لاختيار الأوراق التى كتبت بها الأسماء •

وقد جمع أهالى الجارة بهذه الطريقة بين نظام اختيــار الجـــار وبين القرعة التى تعتبر حلا مرضيا للأطراف فى حالات الاختيار أو التوزيع.

فالجمع بين الطريقتين لم يعط فرصة لانسان أن يختار اختيارا مطلقا المسكن الذى يناسبه ، وفى نفس الوقت أتاح الفرصة لأن يختار جاره الذى يريد أن يعيش بجواره ويقول الأهالى أن النتيجة كانت مرضية للجميع وعلى حد قولهم « كل شخص وجد جاره بجواره » ٠

وقد استطاع أبناء الجارة التغلب على مشكلة زيادة عدد الأسر عن عدد المساكن بطريقة مناسبة ٠ فبينما كان هناك رجل مسن وابنه المتزوج فقد منحوا ابنه مسكنا ولم يعطوه هو على أساس أنه يمكن أن يعيش مع ابنه أو أن يظل يعيش فى المسكن القديم ، ويعيش ابنه بأسرته فى المسكن الجديد ، وهكذا استطاعوا ارضاء الجميع ٠ وقد دونوا أسماء الأشخاص فى كشوف وحدد أمام كل شخص المسكن الذى سيعيش فيه ، وأرسلت الكشوف الى الجهات المختصة ٠

فى مجال الثروة الحيوانية : دخول الأبقار الى المجتمع :

والتغير الذى طرأ على هذا المجتمع فى مجال الثروة الحيوانية هو دخول الأبقار الى الواحة وتعرف المجتمع عليها لأول مرة ٠ وقد وجد الاهالى فى البقرة حيوانا مختلفا عن بقية الحيوانات التى اعتادوا عليها ، فهم لم يعتادوا الا على الأغنام والماعز تلك التى يرعاها بدو المنطقة أو التى تتكون منها الثروة الحيوانية للجارة ، تلك التى لم تزد حتى الآن على ٢٠٠ رأس٠

وثروة الجارة كلها من الأبقار أربعة أبقار اشتراها من سيوة شيخ الجارة وثلاثة أفرادآخرين ٠ وقد واجه المجتمع مشكلات خاصة برعاية الأربعة أبقار نظرا لعدم وجود خبرة سابقة برعايتها ونظرا لعدم وجود من يمكنه الاعتناء بها ٠ وقد قرر أهالى الجارة بيع أحدها « ثور » لأنه كان يطرق أبواب البيوت ويدخلها ويخيف الأهالى ٠ ويقول بعضهم ان شكله أصبح كبيرا لهذا قررنا بيعه ٠ ويشعر أهالى الجارة أنهم أهل زراعة وليسوا رعاة ولهذا لا يجدون حتى من بين الشباب من يريد

رعاية الأبقار أو حتى الأغنام الموجودة لديهم خارج نطاق اراضى الواحة ·

فى مجال التعليم : المدرسة ذات الفصل الواحد :

فى سنة ١٩٨٠ تقريبا أتيحت للجارة فرصة التعليم مرة أخرى بعد أن كانت الفرصة غير متاحة بالنسبة لهم على مدى سنوات طويلة · حدث ذلك عندما أرسلت مديرية التعليم مدرسا عمل فى المدرسة لمدة سنتين ثم حل محله مدرس آخر ما زال يعمل حتى وقت كتابة هذا التقرير · ويعمل المدرس الوحيد بالجارة فى المدرسة ذات الفصل الواحد ويقبل التلاميذ فى فترة العمر من ٦ ـ ١٣ سنة · ويقوم المدرس بتدريس الجميع معا · أما عن طريقة آداء الامتحان فان لجنة من مديرية التعليم بمطروح تشرف على امتحانات أبناء الجارة · ولم يتم انشاء مبنى خاص للمدرسة بل أمكن استغلال استراحة قائمة على ربوة عالية مقابلة للصخرة التى كان يعيش عليها أهالى الجارة · وتتم فيها عملية التدريس ·

وقد قابل أهالى الجارة انشاء المدرسة بالترحاب ، واأظهروا رغبتهم الشديدة فى تعليم أبنائهم وذلك من خلال حرصهم على انتظام الأبناء فى المدرسة ، بجانب اهتمامهم بالمدرس وتوفير سبل الراحة وتوفير الطعام وتقديم الاحترام اللازم له فى كل وقت كمعلم لأولادهم · حتى أن المدرس تعلق بالواحة وبأهلها وأصبح يؤدى عمله برغبة شديدة وأصبح شخصا متفانيا فى خدمة أبناء الجارة ·

وقد اتبع المدرس أكثر من أسلوب تعليمى مما أدى الى ظهور نتائج ذلك بسرعة · وعلى سبيل المثال ـ وكما يقول الأهالى ـ فقد التزم بالتواجد فى الجارة طول الوقت ولم يغادرها الا نادرا وفى أوقات الأجازات · بجانب أنه حاول هو نفسه أن يتعلم اللهجة السيوية لكى يتعامل مع الاهالى بسهولة وفى نفس الوقت حظر على الأولاد التكلم باللهجة السيوية فى المدرسة لكى يتقنوا اللغة العربية ، وطلب من الأهل أن يشجعوهم على تكلم العربية

فى المنازل ، الأمر الذى جعل بعض التلاميذ يتلفتون حولهم للتأكد من عـدم وجود المدرس اذا أرادوا أن ينطقوا كلمة باللهجة السيوية ٠

فى مجال الأشغال والصناعات المحلية : تشجيع الانتاج وتسويقه :

قامت مديرية الشئون الاجتماعية ببعض المشروعات والأنشطة التى أدت الى ازدهار وتنشيط الصناعات المحلية فى الجـارة ٠ وهى لا تشجع الصناعات فقط وانما تعمـل على تسويق أى انتاج لأهـالى الجـارة ٠ فهى تشترى منهم انتاجهم من المراجين والاسبته بالكامل تشجيعا لهم على مزيد من العمل كما تشترى منهم ما يبيعونه لها من محصول البلح والزيتون وتقوم بعرضه فى المعرض الدائم فى مطروح ، وفى المعرض السنوى الخاص بالأسر المنتجة ويوم العمل الاجتماعى الذى يتم اقامته بأرض الجزيرة فى ابريل من كل عام٠ بالاضافة الى ذلك فقد غطت الشئون الاجتماعية كل الأسر الموجودة فى الجارة بمشروع الأسر المنتجة وبهذا تعتبر الجارة هى المنطقة الوحيدة التى انتفعت جميع الأسر التى تعيش فيها من هذا المشروع ٠ فقد حصلت كل أسرة على مالا يقل عن مائة جنيه من المشروع لتستثمرها ، لهذا زاد انتاج الواحـة من المراجين والعقود والجلود وغيرها ٠ وينتظر أن يؤدى استمرار هذه المشروعات الى رواج انتاجى فى الواحـة فى المستقبل ٠

فى مجال التكنولوجيا : السـيارة

من التغيرات التى حدثتفى الجانب المادى والتكنولوجى فى الجـارة امتلاكهم لسيارة « تيـوتا » فقـد قـرر مجلس سـيوة أن تخصص هـذه السيارة لهم حيث يستخدمونها فى الانتقال وفى نقل بضائعهم ومحصولاتهم وشراء تموينهم ومشترواتهم من سيوة ومرسى مطروح ٠ ويقود السيارة أحد أبناء الجارة ، وقد اتفق على أن يقدم مجلس المدينة السيارة عـلى أن يتحمل أبناء الجارة ثمن الوقود ونفقات الصيانة ٠ واذا كانت السيارة قد سهلت حركة أبناء الجـارة الى خارجها فقد أدى وجودها الى تعلم مهارة القيادة والصيانة على الأقل بالنسبة لمن يقودها ٠ وقد كان بعض كبـار

السن يناقشون فكرة استخدام اجزاء من السيارات « الكهنة » فى سيوة لاصلاح سيارتهم · واذا كانت السيارة قد اصبحت همزة وصل بين الجارة والعالم الخارجى واصبحوا يستخدمونها لأغراض عدة فان احساسا بالفخار يشعر به ابناء الجارة حينما يتكلمون عن امتلاكهم تكنولوجيا حديثة مثل هـــذه ·

فى مجال الزراعة : محصول جديد :

مازالت الزراعة كما هى ، فاشجار النخيل والزيتون هى المحصول الرئيسى الذى يتم تسويقه بجانب زراعة أنواع أخرى من المزروعات التى تستخدم استخداما محليا مثل الليمون والرمان · ومازالت عملية استصلاح الأرض تتم بالفاس لهذا فان التوسع فى الأراضى الزراعية لا يكاد يذكر ·

والمحصول الذى بدأ يهتم به أهالى الجارة (وقد حدث نفس الشىء فى سيوة أيضا) هو « البرسيم الحجازى » وهم يقولون أنه يبقى فى الأرض عدد من السنوات وكلما نما وتم حصده ينمو مرة ثانية وثالثة وهكذا · وقد أصبح هذا المحصول ضرورى فى الجارة نظرا لوجود الأبقار ·

والتغير الذى يذكر فى الجارة فى السنوات الأخيرة هو ما يتعلق بتسويق محصولى الزيتون والبلح · فكما أن ارتفاع أثمان هذه المحاصيل أدى الى نوع من الرواج بالنسبة لسيوة ، فقد حدث نفس الشىء بالنسبة للجارة وان كان رواجا أقل نظرا لصغر حجم محصولها من الزيتون والبلح · واذا كان أهالى سيوة قد استطاعوا استصلاح أراضى جديدة فان أهالى الجارة لم يستطيعوا ذلك بسبب قلة الأيدى العاملة وندرة الخبرة والامكانيات · ولكن على أى الأحوال فان المحصول القليل الذى تنتجه الجارة أصبح يسوق بمبالغ كبيرة نظرا لارتفاع أسعار هذه المحاصيل كما سبق وذكرت · ولم يعد أهالى الجارة الآن كما كانوا فى الماضى يبيعون البلح للبدو فى مقابل الشعير ، بل اصبحوا يبيعونه فى مطروح · وبدأوا (خاصة بعد انتهاء أعمال شركة البترول من المنطقة) ينتقلوا الى مدينة مطروح لتسويق البلح والزيتون بأنفسهم وساعدهم على ذلك وجود السيارة التى خصصها مجلس مدينة سيوة للجارة ·

واذا كانت عملية تسويق أهالى الجارة لمنتجاتها خارجها تعتبر تطورا جديدا فان معظم صور البيع والشراء والتجارة التقليدية ما زالت كما هى فى الواحة · فما زالت عملية بيع اللحوم تتم بالطريقة التقليدية بأن يذبح

شخص غنمه ويبيع لحمها للسكان بعد معرفة الطلب عليها • كذلك فان الصابون والمياه الغازية وبقية السلع التموينية التي تشترى عن طريق السيارة من سيوة يتم بيعها فى بيت شيخ الجـارة •

اتجاه وآثار تغيرات ما بعد ١٩٨٠ :

ذكرنا ان التغيرات قد بدأت تأخذ مكانها فى هذا المجتمع مع قـدوم شركة البترول الى المنطقة فى بداية السبعينيات ، ثم بدأت مجموعة اخـرى من التغيرات تحدث فى هذا المجتمع مع بداية الثمانينيات بفضل اهتمـــام المسئولين بالمنطقة بصفة عامة وبالواحـة بصفة خاصة • ويجب ان نلاحظ ان هناك اختلافات جوهرية بين طبيعة وآثـار التغيرات فى الفترة الأولى وبين طبيعة وآثار التغيرات فى الفترة الثانية • فخلال حركة التنقيب عن البترول كانت اتصالات العاملين فى شركة البترول باهالى الجارة اتصالات محدودة ومؤقتــة ومقصــورة عــلى نـــوع من التعـــامل لا يعطـى لثقافــــة وادى النيل فرصة التغلغل فى المنطقة • وعلى الرغم من ان شيخ الجارة كان يستضيف الـكثير من ابناء الوادى فى منزله الا ان شعور هؤلاء بالغربة وبأنهم يقيمون بصفـة مؤقتـة انتظـارا لســيارة تنقلهم لأى مكان آخـر لم يجعلهم يرتبطون بعلاقات مكثفة مع الأهالى • بل ان بعضهم لم يظهر اى رغبة فى التعرف على المنطقة ، لذلك يمكن القول بانه رغم دخول ثقافة وادى النيل منطقة الجارة ، الا ان ظروف وجودها ودوافع حامليها لم تمكن من تحقيق النتائج المطلوبة • وبالرغم من ذلك فان سائقى الشركة بالذات كان لهم اثرا فى المنطقة ، فقد ادت جلساتهم ومناقشاتهم مع بعض الأهالى حول طبيعة العمل فى مناطق الحفر ، الى الاسهام فى نقل كثير من الأنماط الثقافية • فهم ينقلون الى الواحـة الـكثير من المصطلحات الخاصة بالسيارات واصلاح السيارات ، والأسماء الخاصة بقطع غيار السيارات ، والمعرفة الخاصة بالسيارات ، والمعرفة الخاصة باعمال الحفر • ورغم ان اتصال الأهالى بهؤلاء العاملين كان اتصالا محدودا الا انهم ارتبطوا معهم بعلاقات

طيبة . فالسائقون كانوا يؤدون الكثير من الخدمات للأهالى ، مثل نقلهم الى سيوة لقضاء عدة أيام ، أو لشراء مستلزماتهم منها ، كما قام الأهالى بخدمة هؤلاء السائقين فارشدوهم الى النقاط التى تفترق فيها الطرق وغير ذلك مما يساعدهم على السير فى الصحراء . وعلى الرغم من ذلك فيجب أن ندرك كما سبق واشرنا أن اتصالات عمال شركة البترول مع الأهالى كانت معوقة تماما ، فهم عندما كانوا يصلوا الى الجارة كان يستقبلهم شيخ الجـارة وبعض ممن يكونوا متواجدين عنده فى هذا الوقت ، وعادة ما يقضون طول الوقت مع هذه القلة دون اتصـال ببقية الأهالى ، واذا أراد أحدهم شراء شىء ما من الأهالى فنادرا ما يتصل بهم بنفسه ، بل غالبا ما يقـوم شيخ الجـارة بالاتصال بالأهالى واتمام العمل . وبنفس الطريقة اذا اراد احـد الأهالى تكليف سائق بشراء أى نوع من الاحتياجات من سيوة فانه يوصى شيخ الجارة ، ويقوم هذا الأخير بتكليف السائق بشرائه . وعلى الرغم من أن وساطة شيخ الجـارة لم تكن تهدف الى منع الآخرين من الاتصال بالأغراب الا أن الأمور كانت تسير على هذا النحو نظرا لأن شيخ الجـارة هو الذى يقـوم برعاية شئون الأهـالى ويهتم بـكل صغيرة وكبيرة تتعلق باحتياجاتهم .

بناء على ذلك فان تغيرات فترة السبعينيات كانت محدودة ومرتبطة بعملية تسهيل نقل البضائع والأشخاص وتوفير المياة أكثر منها فتـرة ارتبطت بتغيرات جذرية تؤثر فى حياة الناس وفى جوانب الثقافة المختلفة والثقافية اللامادية على وجـه الخصوص . أما تغيرات فتـرة الثمانينيات فعلى الرغم من اننا فى بداية هذه الفترة الا أن الواحة قـد اختبرت اهتمام المسئولين الذى ادى الى استحداث ظواهر واشياء لم تكن موجودة فى الواحة قبل ذلك تلك التى شرحناها تفصيلا فى الفترة السابقة . لقد ادت هذه التغيرات التى أحدثها اهتمام المسئولين بالواحة الى نتائج عديدة هى :

١ ـ زيادة درجة الحراك السكانى الى خارج الجارة :

لقد زادت درجة الحراك من الجارة الى مناطق اخرى • وان لم يكن ذلك يعنى الهجرة الدائمة او المؤقتة اذ ان اهالى الجارة ماؤالوا متمسكين بالحياة داخلها ، فانه يتضمن زيادة فى معدل الانتقال الى مطروح واحيانا الى الأسكندرية • ويكون ذلك لأغراض عدة اهمها تسويق المحصول والعلاج الطبى فى الحالات التى ينصحون فيها بأن يلجأوا الى الأخصائيين • وقد أدى هذا الى مزيد من الدراية بالعالم خارج الجارة والى مزيد من الاحتكاك به•

واذا كانت فترة وجود شركة البترول قد اثرت على وعى اهالى الجارة بالمجتمع الأكبر فانه فى السنوات الأخيرة ادت محاولات المجتمع لاستغلال الصحراء وتوافد كثير من العلماء من تخصصات مختلفة الى الجارة الى ان يتسع افق الأهالى وتتسع درايتهم ووعيهم به • فالرجال من ابناء الجارة يتكلمون عن الجيولوجيين والمهندسين الزراعيين وغيرهم • واذا كان حفر بئر للامياة قد ولد لديهم الرغبة فى التوسع فى زراعة الجارة فان التغيرات الحالية مثل انشاء المساكن الجديدة وتوفر السيارة ، وزيادة كثافة الخدمات الصحية ، وافتتاح المدرسة ذات الفصل الواحد بجانب خدمات الشئون الاجتماعية قد زادت من درجة وعى أهالى الجارة بامكانيات المجتمع الكبير وبالقدرات والخبرات البشرية التى توجد به • وزادت من درجة وعيهم ايضا بما يمكن ان يحققه لهم هذا المجتمع • كذلك اعطتهم هذه التجديدات فى الواحة فرصة أن يفكروا فى مسائل جديدة لم يكونوا قد فكروا فيها مثل طريقة توزيع المنازل وصيانتها،ومحاولة الحصول على سيارة وتعلم شخص من الجارة قيادتها وصيانتها • وقد امتد وعى وطموح الأهالى الى محاولة الحصول على التلفزيون فقد اشترى شيخ الجارة جهاز تلفزيون يعمل بالبطارية • ويقول شيخ الجارة ان الجهاز كان يستقبل بوضوح ارسال قناتين من قنوات التليفزيون فى القاهرة حتى قبل انشاء محطة الاذاعة والتليفزيون فى مرسى مطروح ، ذلك ان وجود الجارة فى موقع متوسط فى الصحراء سهل عملية استقبال ارسال القاهرة • وعلى ذلك فان ابناء الجارة قد شاهدوا برامج التليفزيون قبل أن

يشاهدها من يسكنون أى منطقة أخرى فى الصحراء حتى هذه المناطق الأكثر تحضرا فى سيوة أو مدينة مرسى مطروح نفسها • وقد كان من الواضح تأثير التلفزيون وبرامجه على أبناء الجارة • فقد أدى تتبع البرامج ، وخاصة المسلسلات الى مزيد من الدراية بطابع الحياة فى المجتمع الأكبر ، فقد أصبح من الممكن مشاهدة الأماكن والمواقف والمنازل والمشكلات التى كانوا يسمعون عنها فقط منذ سنوات • كذلك فان الكلمات التى ينطقونها توضح أن التلفزيون قد ساهم هو الآخر بجانب جهاز الراديو – فى مزيد من تعلم اللغة العربية •

٢ – تغير الاتجاهات :

لقد حدث لأبناء الجارة تغيرا فى الاتجاهات المتعلقة ببعض جوانب حياتهم ، بينما ظلت الاتجاهات الأخرى الخاصة بجوانب أخرى من حياتهم كما هى • وينبغى أن نلاحظ أن مسألة تغير الاتجاهات لم تعن بالضرورة تغيرا فى السلوك المرتبط بهذا الجانب ، ذلك أن الاتجاه يمكن أن يتغير نتيجة اقتناع ناتج عن الاحتكاك بثقافة أخرى أو نتيجة لادراك لفشل أو مخاطر السلوك بطريقة معينة ، بينما يظل الاقدام على تغيير السلوك والعادات والتقاليد أمرا صعبا يحتاج الى وقت طويل • ومع ذلك فان تغير الاتجاه هو الخطوة الأولى نحو تغير السلوك • وسوف نحاول هنا أن نقدم نماذج من تلك الاتجاهات التى بدأت تتغير ، وتلك التى ما زالت راسخة •

(ا) تغير الاتجاه نحو العمل خارج الجارة: ولقد ظل أبناء الجارة يحرصون على أن يظلوا داخلها ، يعملون فى أرضها وينامون على ترابها ، ولم يسجل تاريخ الجارة الا خروج عدد ضئيل جدا من الأفراد للعمل خارجها • ولكن مع زيادة الاحتكاك بالعالم الخارجى وبعد أن بدأ أهالى الجارة ينالون اهتمام المسئولين ويتمتعون برعايتهم وعندما تمكنوا من الانتقال الى المجتمع الكبير ، والى المدن المصرية بدأوا يوافقون على انتقال أبنائهم للعمل فى هذه الأماكن ، وان كانت فكرة هجرة الجارة تماما والمعيشة فى مناطق أخرى بصفة دائمة لم تراود أحدهم حتى الآن • فالكل يرد أن يعمل فى أى منطقة على أن يعود الى الجارة مرة أخرى •

(ب) **تغير الاتجاه نحو تقليدية مجمتع الاناث** : مازال مجتمع المراة في الجارة مجتمع مغلق ، غير انهم اصبحوا يشعرون بحرج ويحاولون - حتى على مستوى الحديث أن يوضحوا أن المراة المتزوجة هى فقط التى لا يجب أن يراها أحد أما الفتاة فيمكن أن تتقابل مع الناس • وقد حرص ابناء الجارة على تعليم بناتهم فى المدرسة ذات الفصل الواحد فى الجارة غير انهم يرون أن بناتهم لا يمكن أن يخرجن خارج الجارة لاستكمال التعليم وعلى ذلك فسيتوقف تعلمهن عند مستوى معين ولن تستكمل الفتاة تعليمها مهما كانت متفوقة ، تلك الفرصة التى تعتبر متاحة امام الذكور •

(جـ) **تغير الاتجاه نحو زواج الاقارب** : يعتبر زواج الأقارب قانون اجتماعى بفعل عاملين احدهما التقاليد والآخر العزلة الجغرافية • فالتقاليد فى الجارة تحتم ان يتم الزواج بين الأقارب « فهم افضل وأولى من الأغراب » كما ان العزلة تحد من وجود فرصة التزاوج من غير ابنـــاء الجارة • ومازال هذا التقليد موجودا فى الجارة • وكل ما حدث هو ان كبار السن فى الجارة قد أتاحوا لأنفسهم فرصة مناقشة هذا الأمر والاستماع الى آراء المتخصصين فى الآثار المترتبة على زواج الأقارب • وعلى ذلك لا يمكننا أن نقول انـه قد حدث تغير فى الاتجاهات نحو هذا الموضوع ، فكل ما حدث هو تغير فى رفض مناقشة هذا الموضوع • فقد استمع المسئولين فى الجارة الى آراء الأطبـاء الذين حذروهم من الاستمرار فى التزاوج الداخلي بين هذا العدد الصغير من الناس • كما أدار كاتب هذه السطور مناقشة مع بعض رجال الجارة عندما وجدهم يتناقشون حول بعض الأمراض التى اصيب بها عدد من أطفالهم ، فقد أصيبوا بأمراض وجوانب نقص مشابهة • وقد ادى الى تطرق أبنـاء الجارة الى هذه المناقشة عدة عوامل من اهمها :

زيادة ادراكهم للأمراض التى اصابت اطفالهم وابنائهم بصفة عامة ، خاصة عندما عرفوا جماعات اخرى اكثر تحضرا تعيش فى مستوى صحى افضل • واذا كان هذا قد ادى الى زيادة ادراكهم لمشكلاتهم الصحية فقد ادى ايضا الى رغبتهم فى التخلص منها •

٢ ـ الاحتكاك بالأطباء سواء الذين يأتون الى الجارة لأغراض الفحص الدورى أو الاطباء الذين يذهب اهالى الجارة اليهم فى سـيوة ومطروح والاسكندرية فهم أحيانا ينبهونهم الي ذلك ٠

٣ ـ الاحتكاك بالناس فى الأماكن التى ينتقلون اليها ، وخاصة الاحتكاك باهالى سيوة الذين يعتبرون اقرب جماعة اليهم من الناحية السلالية والثقافية ٠ وقـد عبر أحد أبناء الجارة عن سرورة اذا اتيحت له فرصة الزواج من فتاة من أبناء الوادى ٠ ومع ذلك يشعر أبناء الجارة بأن زواج الذكور من اناث من غير بنات الجارة سيؤدى الى مشكلات تتعلق بمن سيتزوج بنات الجارة ؟ خاصة اذا عرفنا أن عدد الاناث يزيد قليلا عن عـدد الذكـور ٠ وقد عبر بعض الذكور عن سعادتهم للزواج من بنات المناطق الأخرى لذا وجدوا من يتزوج بناتهم من ابناء هذه المناطق ٠

خـــاتمة :

انتهينا من دراسة مجتمع الجارة الى أننا ازاء نمط فريد من المجتمعات الصحراوية يتمثل فى مجتمع محلى صغير يقع فى اطار وحدة سياسية وقومية لمجتمع كبير هو مجتمع جمهورية مصر العربية الذى عاش كدولة كبرى ذات وحدة داخلية على مدى آلاف السنين ٠ وقد كانت الظروف التى مر بهـا مجتمع الجارة ذات طبيعة مختلفة فى تفاصيلها الدقيقة ـ عن مختلف الظروف التى مر بها المجتمع الأم ، فقد أدت العزلة الشديدة الى فرض قيود على تأثر مجتمع الجـارة بمختلف التغيرات وعوامل التحديث التى لحقت بالمجتمع الأم ولقد مر أبناء الجارة منذ بداية السبعينيات بتجربة احتكاكهم بثقافة الوادى وذلك نتيجة حركة التنقيب عن البترول فى الصحراء الغربية ، فشعروا بالفـارق بين وسائل المعيشة البدائية داخـل مجتمعهم وبين الامكانيات الكبيرة التى يملكها المجتمع الكبير والتى تسهل طرق المعيشة ٠

ولقد حاول المسئولين فى المجتمع قبل وأثناء حركة التنقيب عن البترول

اقناع أبناء الجارة بالانتقال والمعيشة بجوار المناطق الحضريه لكى يسهل تقديم الخدمات اليهم ويمكنهم الانتفاع بامكانيات المجتمع التى يصعب توصيلها اليهم فى هذا المكان النائى . وكان هذا الاقتراح مقترنا بعرض مميزات يمكنهم الحصول عليها فى حالة الموافقة مثل تمليكهم اراض زراعية ومساكن فى المناطق التى سينتقلوا اليها . ولكنهم رفضوا كل اقتراح قدم لهم فى هذا الشأن واصروا اصرارا شديدا على البقاء فى المنطقة فى الوقت الذى كانوا يرون افرادا من اسرهم يموتون امام عيونهم دون ان يمكنهم اسعافهم او نقلهم الى سيوة للعلاج . وعندما احتك اهالى الجارة بثقافة الوادى اثناء حركة التنقيب عن البترول كان من المتوقع ان يؤدى الوعى بالفارق الكبير بين المجتمعين الى موافقتهم على الانتقال الى منطقة اخرى يمكنهم فيها الانتفاع بخدمات المجتمع الكبير . ولكن العكس تماما هو ما حدث ، فقد ظل لديهم الاحساس المفرط بالهوية المتميزة ، وتمسكهم بالبقاء فى أرض الأجداد ، ورغبتهم فى الاستمرار فى المعيشة بجوار الأولياء وفى مكان مسقط الرأس الأمر الذى أدى الى استمرار رفضهم لكل العروض التى تعرض عليهم .

وأمام قسوة الحياة بدون امكانيات فى الواحة ، والرغبة الشديدة فى التمسك بالمكان حاول أبناء الجارة أن يجدوا مخرجا من هذا الاحساس المؤلم ، وتمثل ذلك فى امرين :

الأول : هو انهم طالبوا المجتمع الأكبر ان يحل مشكلاتهم داخل منطقة الجارة . فقالوا ان اقليم الجارة يتسع للآلاف من البشر ، وعلى الحكومة ان تعمره وتكثر به الانشاءات لعل ذلك يكون حلا جزئيا لأزمة المساكن فى المدن المزدحمة . وطالبوا فى نفس الوقت بتوفير الخدمات داخل نطاق هذا المجتمع المحلى . فطالبوا مثلا بخدمات تعمير الصحارى لاستصلاح المنطقة ، وطالبوا كذلك بخدمات الصحة والتعليم . وكانت وجهة نظرهم ان استصلاح اراضى المنطقة سوف يجذب بعض من البدو وابناء سيوة للمعيشة فى الجارة . اما اذا رحلوا هم عن الجارة فسوف تنتهى وتموت الجارة

الى الأبد بعد أن كانت مملوءة بالحياة . وقد رفض أبناء الجارة التوطن خارج المنطقة أيضا لاحساسهم أنهم غير متعلمون ولا يمكنهم أن يعيشوا فى مجتمع أكثر تقدما وعلما . وظلوا يعتقدون أيضا أن الحيـــاة فى المناطق الأكثر تحضرا سوف تضع عليهم أعباءا ربما لا يستطيعون تحملها . ولهذا رفضوا كل محاولة لنقلهم من المنطقة وأعلنوا استعدادهم للموت فيهـا (١١) وقد مارس أبناء الجارة نوعا من الالحاح على المجتمع حينما كانوا يذكروا دائما أن المجتمع الكبير قد أهملهم ، أو على حد قولهم أنهم « منسيون » .

وبالفعل فقد كانوا يشعرون بذلك فى وقت من الأوقات . وساهم فى وجود هذا الاحساس مارددده لهم بعض الزوار والعاملون فى الشركة من أن أحـــدا لا يعلم شيئا عن هذه المنطقة أو عن من يعيشون فيها .

الثانى : هو أنهم ــ وبعد أن انتابهم الاحساس بالألم نتيجة عـــدم امكانية توصيل الخدمات اليهم فى المنطقة ، وفى نفس الوقت تمسكهم بالمعيشة فيهاــ وجدوا ضالتهم فى حركة التنقيب عن البترول . فقد جعلوا من أمل اكتشاف البترول فى الصحراء الغربية أملا مكنهم أن يعيشون عليه يحلمون به وكأنه نبؤة عن سعادة المستقبل ، الأمر الذى ساعدهم على احتمال صعوبات الحياة اليومية ، فقد علقوا الآمال عـلى اكتشاف البترول ، وتصوروا أن الجارة سوف تصبح مدينة بعد اكتشافه وبقدر ماتضخم الأمل المفقـــود

---

(١١) ترتبط الكثير من الجماعات بالأقاليم التى تعيش فيها فى ظروف مشابهة ارتباطا مصيريا . ففى منطقة (خشم القربة) بشرق الســـودان عندما أرادت الحكومة انشاء خزان على نهر عطبره واجهت صعوبات جمة فى عمليات التهجير . وعلى الرغم من أنهم صرفوا تعويضات مجزية عن ممتلكاتهم ، وبالرغم من أنهم منحو أراضى وقدمت لهم خدمات فى المهجر الجديد ، فقد فضل البعض أن يدخل السجون على أن يترك بلده . وقادت النساء المظاهرات ضد عمليات التهجير حتى اضطرت الحكومة الى اجبارهم على ذلك .

انظر د. محيى الدين صابر ، لويس مليكه ، البدو والبداوة مفاهيـــم ومناهج ، سرس الليان ١٩٦٦ ، ص ١٠٩ ، ١١٠ .

على اكتشاف البترول ، بقدر ما كانوا يحركون أن المـــوت محقق اذا لم يتم اكتشافه فى صحراء مصر الغربية ٠

ولم يتم اكتشاف البترول فى الصحراء الغربية ، ولـكن المجتمع الكبير اسعف ابناء الجارة بحل آخر كانوا قـد طلبوه منذ سنوات طويلة وهـــو توفر الخدمات فى المنطقة والعمل على مساعدتهم على أن يبدأوا المشروعات التى يمكن اقامتها فى نفس المكان ٠ وقدمت الحـكومة عن طريق اجهزتهـا المتخصصه نوعية من الخدمات والمشروعات أدت الى تغيرات يتوقع أن تـكون لها نتائج حاسمه فى فترة مقبلة ٠

والآن لقد تركنا هذا المجتمع عندما اجرينا عليه أول دراسة منذ عشرة سنوات ٠ وكان تساؤلنا ماذا سيحدث اذا اكتشف البترول ؟ وماذا يحـدث للجارة اذا لم يكتشف البترول ؟ والآن ونحن نترك الجارة بعد الدراسـة الثانية لدينا أكثر من سؤال واحد ، لدينا اسئلة عديدة هى :

١ ـ الى أى مدى سوف ينمو تعداد الجارة بعد أن حدثت به بعض التغيرات ؟ وهل ستؤدى الخدمة الصحية الجديدة الى التقليل من نسبة الوفيات وخاصة وفيات الأطفال ؟ لقد كان عدد ابناء الجارة المقيمون فيها بالفعل سنة ١٩٧١ حوالى ١٥٠ فردا ٠ وبعد عشرة سنوات وصل التعداد الى عدد يتروح بين ١٧٢ ، ١٧٦ فردا يشكلون ٣٥ اسرة ممتدة (٤٨ اسرة نووية) فكيف ستكون الزيادة الطبيعية فى المستقبل ؟ ٠

٢ ـ لقد شيدت تعمير الصحارى الثلاثون مسكنا لأهالى الجارة ٠ والى وقت اجراء هذه الدراسة الأخيرة (يونيو ١٩٨٣) لم يكونوا قد سكنوها بعـــد لـكنهم استطاعوا أن يواجهوا مشكلات توزيعها ٠ وأن يجتـــازوا هـذا الاختبار بنجاح ودون حاجة الى انسان من الخارج يوزعها عليهم ٠ والسؤال هو ما هى انماط التكيف للمسكن الجديد ؟ وهل ستغير السكنى الجـديدة من عاداتهم ٠ فى أى شىء ستستخدم كل مرافق المنزل ؟ ثم ماذا سيفعل الابن

الجـارة با لمسكن القديم فى حالة انتقاله الى المسكن الجديد ؟ ما هى نوعية العلاقات التى سترتبط بتجاوز المساكن الجديدة ؟ هـل ستكون فى نفس كثافة العلاقات اثناء السكنى فى داخل الصخرة ؟ أم اضعف ؟ أم اقوى ؟ .

٣ ـ لقد افتتحت فى الجارة المدرسة ذات الفصل الواحد ، فهل ستنمو الى أكثر من فصل ؟ وهل يمكن أن تتحول الى مدرسة مثل بقية المدارس الموجـودة بالمنـاطق الصحـراوية النائيـة ؟ وهـل يسمح أبنـاء الجارة بتعليم الفتاة ؟ وما هى آثار التعليم على التمسك بالاقامة فى المكان وعلى التزاوج من الداخل وما الى ذلك من الظواهر ؟ أم يمكن أن يهجر المدرس الجـارة ولا يعود اليها مرة أخرى وتتوقف عملية التعليم كما توقفت قبـل ذلك ؟

٤ ـ على الرغم من التغيرات التى حدثت فان حجم الانتاج الزراعى ، وحجم التبادل التجارى مازال فى حالته البسيطة البدائية . فهل من تغيرات فى المستقبل تبشر باتساع نطاق الزراعة والتجـارة ؟ وهل ستتغير الملكيـة الزراعية فى الجـارة أم سيظل الحال كما هو منذ عشرات السنين : عـدد قليل من الأسر يملك معظم اشجار النخيل والزيتون وتصل الملكية الى مائة وعشرون نخله أو شجرة زيتون بينما لا تملك أسر أخرى سوى خمس نخلات وخمس شجرات ؟ . وهل سيطور الانتاج الزراعى وسيصل الى استخدام الأدوات التى يستخدمها الفلاح المصرى التقليدى مثل المحراث الذى تجره الثيران ؟ ان أهالى الجارة على الرغم من أنهم واجهوا مرحلة صعبة من التكيف للحيوان الجديد (الأبقـار) فهم يأملون فى تكوين مزرعة للأبقـار فى المستقبل فهل سيمكنهم عمل ذلك ؟ . انهم مازالوا يأملون فى ان يكتشف البترول فى المستقبل وانيصبح « المدق » الذى يربطهم بالفيوم طريقا ، وان يتصلوا بسيوة ومطروح بطرق مباشرة مرصوفة فهل سيتم تحقيق ذلك ، وهل سيؤدى ذلك الى مزيد من الحراك واتساع نطاق التجارة ؟ .

٥ ـ لقد تزوج البعض الزواج الثانى على الرغم من أن معظم أبنـاء الجـارة يتزوجون زوجة واحدة فقط . فهل يمكن أن يؤدى هذا السلوك الى أن يحاول أبناء الجارة تقليده ؟ وماذا سيكون الحال اذا تم ذلك وهل سيظل المجتمع يمارس الزواج الداخلى ؟ ان عدد الاناث لا يختلف كثيرا عن الذكور لهذا فاذا كثرت حالات تعدد الزوجات ولم يجلب الرجال زوجات من الخارج فلن يجد بعض الذكور زوجات لهم .

٦ ـ والتساؤل الهام أيضا هو ما يتعلق بتغيير الاتجاهات التى ذكرناها هل سيتطور هذا وينمو ويصل الى حـد تغيير السلوك الفعـلى أم سيظل الأمر مجرد تغيرات طارئة فى طرق التفكير نفسرها نحن على أنها تغير فى الاتجـاهات ؟ .

٧ ـ والسؤال الأخير يتعلق بالعامل الآساسى الذى أحدث التغير فى الجـارة وهو اهتمام المسئولين . هل سيستمر اهتمام المسئولين ويؤدى الى المزيد مما يغير وجه الحياة فى الجارة ؟ . لقد طالب أهالى الجارة المسئولين ببعض الأشياء مثل مولد كهربائى وجرار . ويطالبون أيضا كل شركة أن تهب الجارة ٣٠ كيلو متر مواسير لـكى يتم مد خط مياة من أقرب مـكان تتوفر فيه المياة . كذلك طالبوا باصلاح الخط التليفونى بين الجـارة وسيوة بـدل الاعتماد على نقطة الحـدود . فهل سيستجيب المسئولين ويمكنهم تحقيق هذه المطالب وغيرها . من ناحية أخرى فان المسئولين لديهم ما هم عازمون على تنفيذه فى المستقبل فى الجارة . فهناك على سبيل المثال تفكير فى اقامة بناء لمدرسة ومسجد واستراحة . وقد انتهى جهاز تعمير الصحارى بالفعل من عمل المقايسات اللازمة . وتنـوى الشئون الاجتماعية البـدء فى برنامج تدريبى للنساء على الصناعات اليدوية الخاصة بأعمـال « الخوص » كما أن هناك تفكير فى تعليم أبناء الجـارة عمل الاقفاص والاتفاق مع مدرس المدرسة على تخصيص حصص للأشغال يتعلم فيها التلاميذ مهارات فنية . فالى أى مدى سيمكن تحقيق هذه المشروعات وغيرها ؟ .

ان الأسئلة التى أثرتها وغيرها كثير هى اسئلة تـدور فى الذهن فى هذه المرحلة التى يمر بها مجتمع الجارة ، والاجابة عليها سوف تكتب على صفحات السنوات القادمة ٠٠ يجيب عليها الواقع والتاريخ الذى نصفه بأنه « مستقبل » بالنسبة لوقتنا الذى نعيش فيه الآن ٠ بل ينتظر أن يطلعنا المستقبل على اجابات علينا ان نسجل أسئلتها ، وعلى تغيرات وعــوامل لم تـكن فى حسابنا اليوم ونحن ننظر للمستقبل من وراء ساتر ٠٠ تماما كما طلعت علينا السنوات الماضية بعوامل جديدة لم تكن محسوبة أثــرت فى حياة الواحــة ٠

وكل ما أستطيع ان أعد به هو تتبع أحداث المستقبل من خلال زيارات ميدانية كل فترة زمنية لكى أرصد التغيرات التى تحدث لأهالى الجارة الكرام الذين علمونى الكثير فى اول بداية لبحثى العلمى فى صحراء مصرنا الحبيبة٠

الباب السادس

الجريمة والانحـــراف

الفصل الثانى عشر : التهريب على الحـدود فى منطقة تل الطـــوايلة

« دراســـة ميدانيـــة » ٠

الفصل الثانى عشر

التهريب على الحدود فى منطقة تل الطوايلة (١)
دراسة ميدانيـــة

تقع منطقة تل الطوايلة على الحدود بين دولتين عربيتين · وقد سميت بهذا الاسم نظرا لأن المنطقة عبارة عن سهل ساحلى يتوسطها مرتفع أوتل ويعيش فى المنطقة مجموعة من البدو ينتمون الى قبائل الطوايلة · وعـــلى الرغم من أن هذه المنطقة تقع فى النطاق الجغرافى والقومى لدولة عربية الا أنها تقترب من حدود دولة أخرى اقترابا شديدا فلا تبعد عنها الا بعده كيلو مترات فقط وهذا ما جعل لهذه المنطقة أهمية خاصة ، وأتاح للبدو الذين يقيمون بها فرصة العمل فى التهريب واجتياز الحـــدود بين الدولتين دون خضوع للقوانين والنظام التى يخضع لهما أفراد الدولتين اذا أرادوا اجتياز حدود دولة الى أخرى ·

ومنذ وقت بعيد كان لا يسكن هذه المنطقة الا عددا قليلا من البدو ويرعون فيها قطعانهم ، وكانوا أحيانا يدخلون بهـا الى عمـق الصحراء ثم يعودون مرة أخرى ، بالاضافة الى أنهم كانوا يقضون عددا من شهور السنة فوق التل يزرعون الأرض بالشعير فى موسم الامطار ثم يطحنونه ويحولونه الى خبز يتغذون عليه بقية شهور السنة · وكانت أعداد البدو الذين يسكنون المنطقة قديما أقل بكثير من أعدادهم فى السنوات الأخيرة · ويلاحظ

---

(١) تقع المنطقة موضوع الدراسة فى احدى الدول الافريقية ، وقـــد أعطيت المنطقة اسما استعاريا « تل الطوايلة » حفاظا على خصوصية الجماعة الأمر الذى درج عليه غيرى من الباحثين قبل ذلك ·

انه بسبب وقوع المنطقة على الحدود فقد كان يتوسطها دائما عدد من المبانى الحكومية الصغيرة الخاصة بنقطة الحدود والجمارك والمرافق المرتبطة بهـا بالاضافة الى ذلك فقد كانت هناك دائما فرقا للهجانة أو قـوات لحراسة الحدود تقيم على مقربة من الأماكن التى يعيش فيها البـدو ٠

ومنذ سنة ١٩٤٧ بدأ البدو يعملون فى تهريب البضائع بين الدولتين ، وساعدهم على ممارسة هذا النشاط توفر نوعيـات عديدة من البضـائع فى دولة مع عدم توفرها فى الدولة الأخرى ٠ كما ساعدهم أيضا على النجاح فى الاستمرار فى ممارسة هذا النشاط درايتهم الواسعـة بالصحراء ومجاهلها ومعرفتهم للطرق والمدقات المؤدية الى الدولة الأخرى ، تلك التى لم تكن معروفة لغيرهم ، ولا حتى للسلطات القائمة على حراسة الحدود ٠ وبالتدريج بدأ يتزايد عدد البدو الذين يعملون فى تهريب البضـائع مما أدى الى عـدم الاهتمام بالزراعة والرعى ٠ وساعد على ذلك احساسهم بأن الربح الذى يحصلون عليه من الزراعة يعتمد أساسا على الأمطار التى يمكن أن تتذبذب من عام الى آخر ٠ وبعد بداية العمل فى التهريب بعـدة سنوات كان عـدد البدو الذين يعملون فى التهريب فى المنطقة يفوق بكثير هؤلاء الذين ظلوا مرتبطين بالنمط الاقتصادى التقليدى ٠ بل أن البدو المقيمين فى المنطقـة قد أغروا الكثير من البدو والمقيمين داخل الصحراء أو الذين يمارسون التجوال فتركوا المناطق الداخلية وتركوا التجوال واستقروا فى منطقة تل الطوايلة للاشتراك فى التهريب ٠ وساعد على ذلك العلاقات ونمط الاتصال الذى يربط بين البدو وبعضهم بجانب عامل القرابة والانتماء القبلى ٠ فقـد ساعدت العلاقات المكثفة بين الأقارب مثلا الى اغراء من هم داخل الصحراء بالاشتراك فى التهريب وأدت الى أن يقبل البدوى المقيم أساسا فى تل الطوايلة بدوى آخر ويستضيفه فى بيته أو خيمته الى أن يستطيع بما ربحه من التهريب أن يبنى بيتا أو يستقل فى خيمة ٠ على أن الأكثرية اتجهت الى تفضيل البيوت نظـرا لامكانية اخفاء البضائع بها ونظـرا لأن العائد من التهريب كان كبيرا لدرجة أن بناء بيت لم يكن أمرا صعبا بالنسبة لأى بدوى يعمل فى

التهريب • وقد سلك نفس المسلك هؤلاء الذين نزحوا من مناطق اخـــرى ومن مدن اخرى لنفس الهدف (كما سنذكر فيما بعد) اذ حاول كل منهم ان يبنى لنفسه بيتا فى المنطقة •

وخلال هذه الفترة تغير شكل المنطقة ، اذ اتسعت الرقعة التى سكنها البدو وغيرهم ممن وفدوا الى المنطقة • وتتيجة لهذا ظهرت الشـــوراع والمبانى والمحال التجارية والمقاهى الشعبية والحديثة ، ومحلات البقالة والسلع التموينية والفاكهة والخضر والخردوات والملابس • كما زاد ايضا عـــدد افراد الأجهزة الحكومية المكلفة بخدمة ســـكان المنطقـــة ، وتطلب التهريب زيادة فى عدد افراد قوة الحدود وقوات البوليس مما ادى فى النهاية الى تغير كبير فى شكل المنطقة وتركيبها السكانى ونوعية النشاط الاقتصادى السائد فيها وطبيعة العلاقات التى تسود بين من يسكونها •

ومما يوضح اثر عائد التهريب على جذبالبدو الى المنطقة ان هذه المنطقة تعتبر منطقة قاحلة ليست بها اية موارد ، وهى تبعد مئـات الكيلو مترات عن المدن الواقعة فى كلا الدولتين وبالتالى فان جلب المواد الغـــذائية الى المنطقة كان امرا صعبا ومكلفا • ويمكن هنا ان ناخذ مثالا واحد يوضح صعوبة الحياة فى المنطقة وهو ندرة المياة • فالمنطقة ليست بهـا آبـار للمياة وتصلها المياة عن طريق القطار مرة كل اسبوع وتحدثمشاجرات ومشاحناتبين الأهالى وبعضهم ، وبينهم وبين الموظفين وافراد القوات الحامية للحدود على توزيع المياه • ولهذا يرتفع سعر برميل المياه ارتفاعا كبيرا اذ يصل الى أربعة اضعاف ثمنه فىمنطقة لا تبعد عن تل الطوايلة سوى ٨٠ كيلو مترا • ولعل هذا من اهم الأسباب التى أدت بمنطقة تل الطوايلة ان تظل منطقة جرداء غير قابلة للزيادة السكانية على مدى مئات السنوات الى ان بدا التهريب فكان عامل جذب بالنسبة للبدو ، وكان عامل جذب أيضا بالنسبة لفئات أخرى من سكان المدن البعيدة •

التركيب السكانى لمنطقة تل الطوايلة :

ضمت منطقة تل الطوايلة ثلاثة فئات : ـ

الفئة الأولى : وهى تشكل الجزء الأكبر من سكان المنطقة وهم البدو الذين كانوا يقيمون أساسا فى تل الطوايلة أوالذين ارتبطوا بها بسبب اغراء عملية التهريب ٠

الفئة الثانية : وتتكون ممن يمثلون الجهات والسلطات الرسمية أو يؤدون خدمات للبدو وتعتبر اقامة هذه الفئة فى المنطقة اقامةمؤقتة ترتبط بتقديم خدمات فى فترة زمنية محددة ٠ تضم هذه الفئة مجموعة الموظفين الاداريين الذين يقيمون اقامة دائمة مثل موظفى البنك ، والجمرك ، والمستشفى والخـــدمة الاجتماعية وعمال التراحيل ومهندســـو الشركات التى تعمل فى المنطقة او بالقرب منها ٠ بالاضافة الى العسكريين من قوات بوليس وأمن وقوات حدود ٠

الفئة الثالثة : وتتكون ممن هاجروا من مدن الدولة التى تقع فيهـــا منطقة تل الطوايلة وهـم لا ينتمون الى اصـول بدوية وليســوا أبناء قبائل بل هم عمال اشتغلوا فى المنطقة فترة ما ثم قرروا البقاء فيها بسبب نفس الاغراء ، أو اشخاص نزحوا الى تل الطوايلة عندما سمعوا عن العائد المادى الذى يجنيه البدو من التهريب ٠ وغالبا لا يصطحب معظم هؤلاء عائلاتهم معهم للاقامة الدائمة فى تل الطوايلة وذلك بسبب خطورة الاقامة فى المنطقة وبسبب الحوادث التى تحدث فيها نتيجة مطاردة البوليس المستمرة للمهربين وبسبب سوء الأحوال الجوية أيضا ٠ وعلى الرغم من أن الكثير من هؤلاء قد اقاموا سنوات طويلة فى تل الطوايلة وأجروا بيوتا يقيمون فيها او امتلكوها الا انهم ارتبطوا أكثر بالمدن التى وفدوا منها والتى تعيش فيها عائلاتهم واعتبروا أن اقامتهم فى تل الطوايلة اقامة مؤقتة حتى ولو امتدت الى عـدة سنوات ٠ وقد كان لبعضهم انشطة تمويهية تبرز وجودهم فى تل الطوايلة مثل قيادة سيارات الأجرة أو العمل فى المقاهى وما الى ذلك ٠ وعلى ذلك

ضمت المدينة فئات عديدة غير متجانسة تميزت بعدم ارتباط المصالح ولكن جمعها جميعا ـ فيما عدا فئة الموظفين والعسكريين ـ هدف واحد هو الافادة من فرصة التهريب المتاحة فى المنطقة ٠

التهريب :

اما عن عمليات التهريب نفسها ، فقد أتقن البدو هـذا النــوع من الأعمال اتقانا بالغا نتيجة تركيزهم فى هذا العمل بعد أن هجـــر معظمهم حياة الرعى والزراعة واذا كانت بعض الفئات الأخرى التى شاركت البـــدو المعيشة فى المنطقة قد اشتركت فى عمليات التهريب الا أن ذلك كان بدرجات متفاوتة فاختلفت كثافة أعمال التهريب التى مارستها كل فئة عن الأخـرى بينما ظل البدو هم أكثر الجماعات المقيمة فى المنطقــة ممارسة للتهريب ، وعلى سبيل المثال فان كثير من عمال التراحيل الذين فضلوا الاستقرار فى المنطقة بالاضافة الى هؤلاء الذين وفدوا من مدن أخرى تحت ستار ممارسة مهن أخرى قد اشتركوا فى عمليات التهريب عن طريق نقل البضائع أثنـــاء عودتهم فى الأجازات وأحيانا كانت تزيد عن الحد المسموح به ، ولـكن لم يكن ينظر الى ذلك على أنه نوع من التهريب ، كذلك فان سائقى سيارات النقل والأتوبيس وسيارات الأجره وغيرها ممن يمرون بالمنطقة اعتادوا أن يأخذوا معهم بعض البضائع لبيعها بسعر أعلى فى المدن التى يعيشون فيها ، وساعدهم على ذلك قدرتهم على اخفاء المهربات فى أماكن يصعب كشفها فى سياراتهم ، أو تكوينهم لعلاقات مع بعض ممن يقومون بعمليـــة التفتيش ٠ وقد فعل ذلك معظم من كان يعمل بانتظام على الطريق الموصل من تل الطوايلة الى المدن الأخرى فى الدولة التى تقع فيها تل الطوايلة ٠ أما البدو ، فكما ذكرت ، كانوا أكثر الجماعات اشتراكا فى التهريب على اعتبار انهم كانوا أكثر قدرة على معرفة خبايا المنطقة ٠

وقد كان العمل فى التهريب مرتبطا بظهور نماذج سلوكية وانماط من العلاقات تتميز تميزا كبيرا عمـا كان سائدا وقت ان كان الرعى فى الصحراء

والزراعة على تل الطوايلة هما كل ما يؤديه البدو من أعمال ، ذلك أن البضائع التى عمل البدو فى تهريبها مثل الملابس الأجنبية والأجهزة الكهربائية وغيرها كانت تمثل ثقافة جديدة بالنسبة لهم كما ستوضح فيما بعد . وقد قادت عملية التهريب البدو الى تداول العملة الصعبة والاتجار فيها حتى أن البدو كانوا يشاهدون وهم يتداولونها على المقاهى فى منطقة تل الطوايلة وفى المناطق المحيطة .وادراكا من البدو لقيمة العائد من التهريب باع كثير من البدو مصاغ الزوجات والأغنام لتكوين راس المال اللازم لعمليات التهريب ، وأنفقوا الكثير على بناء المخازن التى فكروا فى بنائها لاخفاء البضائع بها بعد أن زاد حجم التعامل فى المهربات وتطلب الأمر أماكن سرية لاخفاء الكميات الكبيرة منها ولمقابلة التجار الذين يتولون نقلها الى المدن لتسويقها . وقد استلزم العمل فى التهريب استخدام السيارات الملاكى ونصف النقل وغيرها وهذا ما أدى بالبدو الى أن يقدموا على استخدام السيارات وتعلم قيادتها ، وأصبحت السيارات ترى بجوار بيوتهم بكثرة وأصبحت الأسرة الواحدة تملك أكثر من سيارة .

وقد ارتبط التهريب بظاهرة جديدة هى اشتراك جميع افراد الأسرة البدوية فى مرحلة أو فى أخرى من العملية . بل أن المراة البدوية والفتاة البدوية قد شاركت فى عملية اجتياز الحدود بهدف تهريب البضائع ، وكذلك الأبناء صغار السن . وكان منطق البدو فى ذلك هو أن فى حالة وقوع المراة فى أيدى القائمين على حراسة الحدود قد يشفقوا عليها . كما أن محاكمة صغار السن سوف تتم أمام محاكم الأحداث وبالتالى فان النتيجة يمكن أن تكون أكثر احتمالا مما هو الحال عند القبض على الرجال ومحاكمتهم . وقد أدى هذا الى أن يحتقر البدو المقيمين فى مناطق مجاورة لتل الطوايلة نساء وفتيات بدو الطوايلة ويعتبرونهن قد انحرفن عن التقاليد البدوية اذ هن لن تسلمن من الأذى عند اشتراكهن فى عملية التهريب خاصة عند اجتياز الحدود سواء من جهة قوات حراسة الحدود أو المهربون الآخرين . ولهذا أبدى الكثير من البدو عزمهم عن العزوف عن الزواج من بنات قبائل

الطوايلة • كذلك فان هناك تعليقات كثيرة على سلوك الفتيات اللواتى تأثرن بالثراء وبالبضائع والملابس التى وفدت الى المنطقة مع عمليات التهريب فقد ذكر البعض أن فتيات تل الطوايلة أصبح لهن سلوكا غير تقليدى ، وتغيرت طريقتهن فى الحديث أثناء الكلام ، وأصبحن يطلقن أصـــواتا غير مهذبة • وقد ذكر أحد الأفراد رأيه فيهن قائلا « أنهن قد دخلن الحياة •• واذا دخلت بنت الصحراء الحياة فقد أصبحت مثل سكان المدن » وهو يعنى بذلك بعدها بعدا كاملا عن التقاليد البدوية •

وقد اختبروا البدو خلال سنوات التهريب فترة من الثراء لم يختبروها ولم يألفوها بحيث جذبت أقدامهم الى نماذج سلوكية لم يألفوهـا من قبـل فالفارق بين الحياة الجرداء التى كانوا يعيشونها وقت ممارسة الرعى والزراعة وبين الثراء الذى غلف حياتهم نتيجة التهريب فارقا كبيرا • وهناك الكثير من التغيرات التى حدثت فى سلوك البدوى الكثير للثراء • فقد اعتاد البدو الذهاب الى المدن وارتياد الكازينوهات والمراقص والانفاق ببذخ على النساء،واعتادوا الاتجار فى المخدرات وادمانها•ونظرا لأن شراء السيارات كان أمرا سهلا ميسورا للبدوى ، فيحكى أن بدويا طلب سيارة بدوى آخـر (مرسيدس) لاستخدامها وردها مرة أخرى ، وما حدث هو أن البدوى الأول اعطاها له ولم يقبل ردها وأعلن انه سيشترى غيرها • وعندما تصادمت سيارتان للبدو فى الطريق ونزل سائقا السيارتان أخذا بعضهما « بالأحضان » فالخسارة المترتبة عن التصادم لا تعنى شيئا بالنسبة للثروة التى يمتلكها كل منهما • والبدو يحكون ايضا عن انهم فى هذه الفترة كانوا يضعون نقودهم (العملات الورقية) فى صناديق من الكرتون ينتقلون بها من مكان الى آخر • ويلاحظ انهم رغم الثراء لم يعتادوا التعامل مع البنوك طوال فترة التهريب ، فقد بدأوا يقبلون على التعامل مع البنوك عنـدما أصاب هذا النوع من التجارة الـكساد (كما سنذكر فيما بعد) • والسمة الأساسية التى تميز بها سلوك البدو فى هذه الفترة هو الانفاق ببذخ الى الحـد الذى افتقر فيه كثير من البدو وبعد كساد التهريب على الرغم من انهم كونوا ثروات

طائلة ، قد استأجروا الشقق المفروشة فى المدن وتزوجوا للمرة الثانية والثالثة، وتزوجوا الزواج العرفى واهتموا بالمظاهر·ولم يكن البدوى يكترث لأية خسارة مادية حتى ولو صودرت البضائع المهربة لأنه سيستطيع فى اليوم التالى تعويضها فى عملية أخرى ·

لا شك ان التهريب قد علم البدو الكثير من نماذج السلوك التى لم يألفوها قبل ارتباطهم بهذا النشاط · فقد تعلم البدوى كيف يحقق اقصى ربح اثناء قيامه بالتهريب ، وعلى سبيل المثال فهو عندما كان يعبر الحدود من الدولة التى يعيش فيها (منطقة تل الطوايلة) لجلب المهربات كان لا يأخذ كل المبالغ التى سيشترى بها البضائع فى صورة نقدية ، بل كان يأخذ بضائع من نوعية نادرة أو ممنوعة فى البلد الأخرى ويبيعها بسعر غال ثم يشترى بالمبلغ البضائع التى سيهربها عبر الحدود الى داخل دولته · ولهذا فقد كان الربح مضاعفا بجانب زيادة كفاءة البدوى فى تعرفه على البضائع المختلفة وأساليب الاتجار فيها ، وطرق الهروب بها من أكثر من مكان فى الصحراء بعيدا عن أعين الشرطة ·

كذلك اعتاد البدو واكتسبوا مرونة الصعود والهبوط فى سلم التدرج الاجتماعى خاصة فيما يتعلق بالمستوى المادى · فعندما كانت تضبط بضاعة احد المهربين وتصادر فان رأس ماله يمكن ان يسترد فى عملية واحدة خاصة فى بداية مرحلة التهريب · وكان المتبع أنه عندما يحدث ذلك يبدأ البدوى يعمل من جديد كعامل تهريب بحيث يتقاضى أجرا يتفق عليه نظير توصيل بضاعة من منطقة الى اخرى · وأثناء هذه الفترة يعمل على تكوين رأس مال جديد يساعده بعد ذلك على الاستقلال مرة اخرى ·

ولم يؤثر التهريب على سلوك الكبار فقط فى تل الطوايلة بل اثر أيضا تأثيرا كبيرا على صغار السن ، وحتى على تلاميذ المدرسة ، فقد

أصبح عدم انتظام التلاميذ فى المدرسة ظاهرة شائعة . فتلميذ المدرسة الابتدائية يمكن أن يتغيب عن المدرسة يوما أو يومين فى الاسبوع لأنه يشترك فى عملية تهريب . بل أنه قد يغادر المدرسة فى منتصف اليوم الدراسى ليشترك فى عملية تهريب صغيرة أو لينقل بضاعة من مكان الى آخر فقد كان البدوى يفاضل بين بقاء ابنه فى المدرسة طول اليوم وبين المبلغ المادى الذى يمكن أن يحصل عليه اذا ترك المدرسة . وعلى سبيل المثال فقد كان التلميذ ينقل صندوق الشاى المهرب من مكان الى آخر فى مقابل أربعة جنيهات . فى ضوء ذلك قل الاهتمام بالمدرسة وزادت الاستهانة بالتعليم فالتلميذ كان يخرج من جيبه مبلغ مائة جنية ويقول للمعلم « هذا ناتج طلعة واحدة على الحدود » . بل أنه أدى الى نوع من الاستهانة بالعلم . فكثيرا ما اشتكى مدرسوا المدرسة من التلاميذ الذين يسألونهم عن المبالغ التى يتقاضونها كمرتبات شهرية ، ثم يضحكون وهم يقارنونها بما يحصلون عليه من التهريب اذ يجدون أن مرتب المدرس الشهرى يمكن أن يحصل عليه تلميذ المدرسة الابتدائية فى عملية تهريب صغيرة تتم فى عدة ساعات . وقد أدى هذا الى أن يقل عدد التلاميذ المنتظمين على المدرسة الابتدائية الوحيدة التى توجد فى تل الطوايلة الى الثلث تقريبا .

ومن أساليب السلوك التى تعلمها البدوى المهرب هى طرق تخطى الأسلاك الشائكة التى تفصل بين الحدود . وتعلم البدوى لذلك ارتداء حذاء خاص لكى لا تتمزق قدماه ، وتعلم تحمل الكثير من أنواع المتاعب والجروح التى تحدث نتيجة اصطدامه بالصخور والأسلاك فى المناطق التى يمارس فيها التهريب لأول مرة . كذلك تغير روتينه اليومى فأصبح ينام صباحا ويمارس العمل ليلا . وتعلم أن يحتفظ بصمته وسكونه اذا سمع حركة بجانبه .

وأهم ما تعلمه البدو ايضا المناورة مع قوات البوليس ، وحرس الحدود وبوابات التفتيش فعملية التهريب الواحدة كانت تمر بعدة مناطق متواجد

بهـا قـوة من القوات السابق ذكرها ، وكان على المهرب أن يتفن من الهروب ومغافلة القوات • وبالنسبة لبوابات التفتيش فقـد كان المهربون يهربون منها عن طريق انزال المهربات من السيارة قبل البوابة بمسافة كبيرة والدخول بها فى الجبل بعيدا عن الطريق الرئيسى ، وأثناء تفتيش السيارة يـكون المهربون قد نقلوا البضاعة الى مكان ما بعد نقطة التفتيش حيث يضعون فوقها البضاعة وينطلقون فى طريقهم • والبعض الآخر كان ينحرف بالسيارة الى طرق فرعية خلفية حيث لا يتم تفتيش السيارة عـلى الاطلاق اذ تمر السيارة من وراء نقطة التفتيش بمسافة بعيدة لا يمكن لأفراد قوة التفتيش رؤيتها •

واذا كان البدو يدركون أن بوابـات التفتيش القائمـة عـلى الطرق الرئيسية لا تشكل خطرا كبيرا على عملية التهريب ، فان الخطر الوحيـد الذى كان يخشاه البدو هو الدوريات التى تجوب الطرق الرئيسية والفرعيـة والمناطق الداخلية من الصحراء ، فالبـدو يمكن أن يفاجأوا بمقابلة قـوات بسيارة تمسح المناطق الصحراوية فى اى مكان ، ولهذا اعتادوا الحذر الشديد، واكتسبوا القدرة عـلى التصنت وسماع الأصوات من عـلى بعـد اكثر ممـا تعودوا عليها اثناء ممارسة الرعى قبل بدء التهريب ، واتفق قادة السيارات على اشارات صوتية خاصة يتبادلونها لتنبية بعضهم أثناء السير فى الطرق المظلمة لتعريف بعضهم ما اذا كان الطريق خاليا ام لا •

ولم يعتاد البدو مناورة السلطات فقط ، بل وصلوا الى درجة المخادعـة ومحاولة مغافلة المسئولين • فقـد أصر ضابط كبير على تفتيش مجموعـة من بيوت البدو بنفسه مع الجنود ، وكانت قد وصلت اليه اخبار عن تهريب كمية من الذهب وأنها مخبأة فى بيت من هذه البيوت • وعندما قام الضابط بالتفتيش اتصل البدو بسائق سيارته الذى كان يقف بعيدا منتظرا فى السيارة وهددوه بالقتل اذا لم يقبل نقل كمية الذهب فى السيارة والاحتفاظ بهـا الى أن يتسلمها منه سرا احد أبناء البدو فى نفس المكان الذى توضع فيـه

السيارة ليلا ٠ وأخفيت الـكمية تحتكرسى السائق ، وعندما لم يجـــد الضابط شيئا عاد الى سيارته التى نقلته الى مكانه وبها الذهب ٠ ويقـــول البدو أنه قد تم تسليمها فى المكان المحدد ٠ ويحـكى البـدو قصصـا كثيرة عن محاولات مثل هذه ، بعضها نجحت وبعضها فشلت وعن محاولات أخرى لرشوة الجنود فى سبيل السماح بتمرير المهربات ٠

وقد تخطت علاقة البدو والبوليس مرحلة الحذر الى ما يمكن أن نطلق عليه الجرأة فى استخدام القوة فى التعامل مع قوات البوليس والأمن والحـدود فـلم يعد منهج البدو هو منهج الهروب والاستسلام مع القوات ولكنه وصل فى أوقات ومواقف معينة الى المواجهة ومحاولة استخدام القوة الباطشـــة فقد اعتاد البدو تبادل النيران مع القوات ٠ وعندما كانت قوات البوليس أو حرس الحدود تفاجىء مجموعة من المهربين فاذا أدرك المهربون أن قوتهم تفوق القـوة المكلفة بضبطهم فانهم يهاجمونها ويتمردون عليهـا ويقتلون منها من يتمكنوا من قتله حتى يتمكنوا من الفرار ٠ ويحدث هذا بصفة خاصة اذا لم تحكم القوة الضابطة قبضتها على المهربين أثناء اقتيادهم الى قسم البوليس أو اذا اعطتهم فرصة لأن يتكلموا مع بعضهم أو اذا تمكن المهربون من مغافلة الجنود بأية صورة ٠ ففى هذه الحالات كان يحدث الاتفاق السريع على طريقة لمقاومة القوة ٠ أما اذا تقابل جندى مع مجموعة من المهربين فى منطقة نائية فهم ينتقمون منه عادة ٠ وقـد اعتاد البـدو القاء الحجارة من الأماكن المرتفعة على الجنود أثناء قيامهم بحملة على أى منطقة لتطهيرهـا من المهربين ٠ ويذكر البعض أساليب أخرى لجأ اليها البدو للتمكن من التهريب دون أن يصيبهم أذى فى حالة ضبط البضائع ، فهم يذكرون أن البعض قـد درب حميرا على اجتياز طرق محددة بحيث توضع المبالغ فى مكان معين فى « الخرج » الذى يوضع على الحمار ويسير الحمار فى طريق محدد ويعبر الحدود فيجد التاجر منتظرا عند نقطة محدده فيأخذ المبلغ ويضع البضاعة فى الخرج ويدير الحمار الى الاتجاه الآخر فيسير الحمـار فى الطريق عائدا

الى نفس المكان الذى بدأ منه حيث يكون المهرب فى انتظاره • وفى هذه الحالة اذا ضبطت البضاعة فان الحمار يعدم وتصادر البضاعة ولكن ينجو المهرب من القبض عليه •

طبيعة العلاقات بين الفئات السكانية المختلفة :

بعد مرور عدة سنوات على بداية التهريب كانت منطقة تل الطوايلة قد ضمت ثلاثة فئات من السكان هم البدو والموظفين الرسميين وفئة النازحين من المدن الأخرى للاشتراك فى عملية التهريب • كانت هناك علاقات قوية تربط بين البدو بسبب الأصل المشترك وعوامل القرابة والجوار والمصالح المشتركة هذا بالاضافة الى عامل الثقة الذى كان يصعب أن يتولد بينهم وبين أعضاء الجماعات الأخرى • أما فئة الموظفين القادمين لخدمة البدو فى المنطقة بمختلف تخصصاتهم ـ وهم من يكونون جماعة تعيش على هامش الجماعات الأخرى ـ فلم تكن تسود بينهم جميعا علاقات اجتماعية قوية • لكننا كنا نجد تآلفا كبيرا بين كل فئة من هذه الجماعة • فهناك تآلفا كبيرا بين فئة المدرسين ، وتآلفا آخر بين مجموعة الأطباء ، وثالثا بين العاملين فى البنك أو رجال البوليس • وقد ساهم فى ايجاد هذا التآلف العمل المشترك فى مهنة واحدة بجانب السكنى المشتركة • وقد ساهم فى عدم وجود علاقات بين فئات العاملين فى الجهات المختلفة عدم وجود نوادى أو أماكن مشتركة يلتقون بها • وكان بينهم جميعا شعور مشترك هو تلهفهم الى قرار نقلهم من المنطقة الى المناطق التى وفدوا منها •

أما النازحين من أجل الافادة من عمليات التهريب فعلى الرغم من انهم أيضا كانت تسود بينهم علاقات مشتركة الا أن الهدف الذى وفدوا من أجله الى المنطقة جعل علاقاتهم تتسم بالحذر • هذا بالاضافة الى انهم وفدوا من مناطق متفرقة لهذا لم تكن هناك عوامل تربط بينهم لا فى المنطقة ذاتها ولا خارجها • وسوف نهتم هنا اهتماما أكبر بتحليل العلاقات بين كل فئة وأخرى من الفئات الثلاثة السابقة :

(أ) علاقة البدو بالجهات الرسمية ومن يعملون فيها :

لاتربط البدو بالجهات الرسمية (فئة الموظفين) الا العلاقات الرسمية فالبدوى لا يتصل بأعضاء الجهات الرسمية الا من خلال المكاتب وللضرورة فقط كما هو الحال بالنسبة لاجراء الانتخابات أو شراء العلف من الجمعية التعاونية وقلما وجدت علاقات غير رسمية بين أفراد هذه الفئات ويساعد على ذلك النظرة الدنيا التى ينظر بها البدوى لأى فرد من أعضاء الفئات الأخرى نظرا لأن بدوى تل الطوايلة كان يشعر دائما أنه أكثر غنى وأقوى مقدرة مادية من هؤلاء الموظفين ، هذا بجانب الاستعلاء اذ يشعر البدو دائما أنهم أرقى من كل من لا ينتمى الى الأصل البدوى ۰ أما الموظفون فلم تكن الرغبة أيضا ملحة من جانبهم لاقامة أية علاقات غير رسمية مع البدو الا فيما ندر نتيجة شعورهم بالاختلاف الثقافى الكبير بينهم وبين البدو ، وشعورهم بأن فترة اقامتهم فى المنطقة مؤقتة سواء طالت أو قصرت ۰

(ب) علاقة البدو بالنازحين من مناطق أخرى بهدف الكسب المادى :

على الرغم من أن النازحين من مناطق أخرى لم يستطيعوا تكوين علاقات أساسية تصل الى مستوى التزاوج مع البدو ، الا أنه تكونت بينهم وبين البدو بعض العلاقات نتيجة اشتراكهم فى التهريب ۰ كما أن قوة الدافع الذى دفع بهم الى المجىء الى هذه المنطقة الجرداء (الاشتراك فى التهريب) قد ساعدهم على التكيف للمنطقة ومحاولة بناء علاقات ولو مظهرية لاظهار التكيف مع البدو أصحاب المنطقة ۰ فى ضوء ذلك حاول النازحون أن يتكيفوا بأية صورة مع البيئة والثقافة البدوية السائدة لكى يحصلوا على القبول الاجتماعى من البدو ، ولكن نظرا لأنهم كانوا يشعرون دائما بأن البدو أقل منهم شأنا وانهم أدنى فى المستوى التعليمى وأكثر اعتزازا بالأصول فان اكتسابهم للثقافة البدوية (خاصة اللهجة البدوية)

حدث فقط بسبب طول اقامتهم فى المنطقة وبسبب رغبتهم فى استخدام اللهجة البدوية لتاكيد ورفع المقدرة على التعامل مع البدو ٠

وهناك ثمة ظاهرة تدعو الى الاهتمام هى قبول بعض البدو وسكنى للنازحين بجوار بيوتهم ، بل انهم أجروا لهم حجرات داخل هذه البيوت ، وهذا غير مألوف لدى البدو ٠ وقد ذكر بعض الاخباريين أنهم لا يسمحون للشخص النازح بالسكنى لديهم الا اذا تأكدوا منه ٠ ولكن من الطبيعى أن هذا التأكد يتعلق بمدى اخلاصة للبدوى فيما يتعلق بعملية التهريب ٠

ويجب أن نلاحظ أن هذه العلاقات التى تولدت بين البدو وبين النازحين لم تكن علاقات متكافئة بل شابها الكثير من الحذر والشك كما سنذكر فيما بعد ـ وبصفة عامة كان البدو ينظرون الى فئة النازحين على انهم فئة من المستغلين للمنطقة وانهم اثروا على حساب البدو وأصحاب المنطقة ، ولهذا نشأ الكثير من الخلافات بين افراد من البدو والنازحين ٠

(جـ) العلاقات بين الموظفين وفئة النازحين :

لم توجد علاقات مكثفة واضحة بين الموظفين والنازحين ذلك أن الموظفين كانوا ينظرون الى النازحين على أنهم مهربين وفدوا الى المنطقة لهذا الغرض فقط ٠ وكل ما وجد هو نوع من الاتصالات الفردية المؤقتة بسبب تشابه اللهجة والثقافة ٠

وفى ضوء ما تقدم يمكننا أن نقرر أن طبيعة العلاقات بين الجماعات المقيمة فى تل الطوايلة كانت علاقات مميزة تتسم بالسطحية والحذر ويرجع ذلك الى عدة أسباب هى :

(أ) أن استيطان الفئات غير البدوية فى المنطقة كان استيطانا مؤقتا لهذا لم تكن هناك رغبة فى اقامة العلاقات المكثفة ٠

(ب) أن التركيب السكانى الذى جمع الفئات الثلاثة السابق الاشارة اليها تم فى ظروف خاصة هى ظروف التهريب • لهذا لم تكن هناك أهدافا مشتركة لكل من هاجروا الى المنطقة واقاموا بها ، يمكن ان تؤلف بينهم أو تدعوا الى نوع من التعاون وتكثيف العلاقات • فالموظفين اتوا لخدمة المنطقة رسميا ، والنازحين هاجروا لهدف التهريب •••• وهكذا •

(ج) أن عامل السعى نحو تحقيق مصالح مادية ينظر لها المجتمع على أنها غير مشروعة بالنسبة لفئة البدو والنازحين أبقت العلاقات فى ضعف شديد بسبب رغبة كل فئة فى تحقيق اقصى صالح لها على حساب الفئة الأخرى •

(د) كان لانتشار قوات الأمن والبوليس ومحاولة احكام القبضة على المهربين فى منطقة يعمل معظم من بها فى التهريب الى النظر الى كل العلاقات والتحركات نظرة شك ، مما جعل حركة الجمع حركة حذرة ، وقلل من رغبة اى شخص فى أن يزيد من دائرة علاقاته خشية أن يقع فى يد من يبلغ عنه أو عن نشاطه بعد أن يتعرف عليه •

ونتيجة لهذا الوضع اتسمت العلاقات بين الفئات السابق ذكرها بعدة سمات • أول هذه السمات هى نظرة الاستعلاء التى تنظر بها كل فئة الى الفئات الأخرى فالموظفين يعتبرون انفسهم ارقى من كل الفئات التى تعيش فى تل الطوايلة لأنهم هم فئة المتعلمين ، وهم وفدوا اساسا لتقديم خدمات الى يعيشون فى المنطقة بجانب أنهم لا يشتركون فى جرائم التهريب • أما النازحين فعلى الرغم من ادراكهم لأنهم ليس لهم وضعا اجتماعيا فى المنطقة سوى وضع المهربين فهم يشعرون أنهم سكان مدن وقد وفدوا الى هذه المنطقة الصحراوية القاحلة ورضوا بحياة مثل الحياة التى يحياها البدو لتحقيق غرض معين ، أما البدو فكما ذكرنا ينظرون نظرة استعلاء لكل

من هو غير بدوى ويعيش فى تل الطوايلة بسبب اعتزازهم بالأصل البدوى وبسبب اعتزازهم أيضا بقدرتهم المادية بعد أن اثروا من التهريب ٠ وقد نمت وتضخمت هويتهم فى هذه المنطقة بصفة خاصة بعد أن شعروا أن أبناء المناطق الأخرى انما وفدوا الى تل الطوايلة للافادة من التهريب وأدركوا أن بعضهم من العاطلين الذين ليس لهم أى عمل فى المناطق الأخرى ٠

ونتيجة لانتشار التهريب والأعمال غير المشروعة انتشرت أيضا ظاهرة الشك ، فالمهربين يشكون فى بعضهم ، ويشك رجال البوليس فى أى غريب يوجد فى المنطقة ، ويشك الغرباء فى البدو الذين يعرفون خبايا المنطقة وقد ارتبطت هذه الظاهرة بظاهرة أخرى هى التقرب لمن بيدهم السلطة أو ذويهم ذلك أن كل من كان يعمل عملا مشروعا كان يود التقرب لمن بيده السلطة لحمايته فى وقت الحاجة فى هذه المنطقة الخطرة ، كذلك حاول من يعملون فى أعمال غير مشروعة التقرب الى المسئولين والقائمين على ضبط عمليات التهريب لضمان أى قدر من التكتم على عملية أو أكثر من عمليات التهريب ٠ وقد سلك البدو طرقا متعددة لايجاد أية علاقة بينهم وبين المسئولين خاصة باستخدام المال ، ولكن لم تنجح هذه المحاولات على الاطلاق ٠ فقد كانت القوانين التى تتعلق بالتهريب ، بالاضافة الى وعيهم بالأثر السىء للتهريب أقوى من الاغراءات والمساومات التى قدمها البدو ٠

ومن الظواهر التى سادت مجتمع تل الطوايلة فى هذه الفترة الاضطراب وانهيار القيم وتفشى الجريمة ٠ وقد امتزج ذلك بجرأة نادرة فى الاعلان عن الجريمة وارتكابها ٠ فقد كان المهربون يعلنون أمام أى شخص يشكون فى أمره أنه يمكنهم « تشريحة » (قتلة) فى أى وقت ٠ وبالفعل تمت عمليات قتل بطرق شاذه ، وانتفى حتى الاحساس الانسانى لدى البعض ٠ فيذكر مثلا أن شخصا وجد شخصا آخر مطروحا على الأرض ودماؤه تنزف نتيجة اصابته بطلق نارى فقام بتفتيشه واستولى على ما معه من نقود

ثم تركه · ويذكر أيضا أن هناك عصابات تكونت من البدو ومن غير البدو· وهذه العصابات قامت بعمليات قتل واسعة النطاق تعرف عليها النـاس من معاينة الجثث المتعفنة التى وجدوها ·

وامتد الأمر الى حد تكوين عصابات تسطو على المهربين · فقـد انتشرت فى تل الطوايلة شائعات تؤكد تكوين عصابات من النـازحين الذين وفدوا من مناطق معينة كانت تهاجم المهربين وتستولى على المهربات · وقد أتبعت هذه العصابات طرقا عديدة للخداع ، فقـد ادعوا أنهم بـدو ينتسبون الى قبائل الطوايلة وتعلموا اللهجة البدوية وتكلموا بها · وقـد اثر هذا على الروح المعنوية لأبناء الطوايلة اذ وجدوا أنفسهم بين جمـاعة تدعى الانتساب اليهم وتخدعهم · ونظرا لأن المنطقـة امتلأت من البـدو الذين كانوا يجوبون الصحراء أو يسكنون مواقع أخرى بعيدة عن تـل الطوايلة فقد أدى هذا الى أن يصعب على البدوى القاطن اساسا فى تـل الطوايلة أن يفرق بين البدوى الحقيقى الذى ينتسب من قريب أو من بعيد الى قبائل الطوايلة وبين مدعى الانتساب الى قبائل الطوايلة من النازحين المخادعين وأفراد العصابات خاصة بعـد أن أتقنوا اللهجة وشابهوا البـدو فى كثير من أنماط سلوكهم · ويمكننا أن نتصور كيف يمكن أن يؤدى هذا الى فقدان الثقة بين جماعة بدوية متماسكة كانت تعتمد أساسا على الارتباط بالأصول والتشابه الثقافى فى نماذج السلوك المختلفة ، ويمكننا أن ندرك أيضا كيف يمكن أن يبث ذلك روح عدم الثقة بينهم ويؤدى الى نمط من الحذر لم يألفه البدو ولم يعتادوه ·

التغير الثقـافى :

ترتب على انتشار التهريب فى منطقة تل الطوايلة وما صاحب ذلك من تعديل فى الروتين اليومى والحياة اليومية للبدو ، وما ارتبط بالتهريب من ارتفاع فى المستوى المادى والمعيشى بعض التغيرات الثقافية · وسوف نحاول هنا أن نقدم نماذج من هذه التغيرات ·

ولعل أهم تغير يمكن أن نلمحة فى المنطقة هــو بنــاء البــدو لأعــداد كبيرة من البيوت وسكناهم فيها • فبدو تل الطوايلة مثلهم مثل كثير من الجماعات البدوية يعيشون فى خيام • وفى بداية فــترة التهريب كــانوا يستخدمون فى بناء المنازل مخلفات الحديد والمعادن الأخرى مثل الصفيح ولم تكن لديهم مقدرة مادية لبناء البيوت باستخدام المواد الأخرى مثــل الطوب والخرسانة • ولكن عندما ارتفع الدخل من التهريب استخدموا الحجر والطوب والأسمنت كمواد للبنـــاء ، كما استخدموا الأدوات والآلات التى تستخدم فى البناء فى المدن الكبرى • أكثر من ذلك فأن ثراء بعض الأفراد قد مكنهم من زيادة كمية الخرسانة فى البناء بينما شيد غيرهم ممن هم اقل ثراءا البيت من الحجارة مضافا اليها بعض الرمال والمــواد رخيصــة الثمن •

وقد تم بنــاء المنــازل عادة بعد حفر اساس يصل عمقه الى ٦٠ سم تحت سطح الأرض • ويتكون الأساس من الحجارة والطين وبعض الأسمنت اما الأسقف فتصنع من الأخشاب وهى عبارة عن أعمدة توضع بجـــوار بعضها • ولــكن بعض الموسرين بنو الأسقف من الخرسانة المسلحة •

وانقسم المنزل من الداخل الى أربع أو خمس حجرات تصطف فى صف واحد ، وأمامها حوش يحيط به سور يتوسطه باب المنزل الخارجى • وقــد عرف بدو تل الطوايلة طلاء الأبواب والشبابيك بالزيت وتخصيص حجرات للأغراض المختلفة • فتخصص حجرة لــكل ابن متزوج • وحجرة لــكل زوجة فى حالة تعدد الزوجات ، وحجرة للزوار ، كما خصص البعض حجرات للايجار وقد اهتم البدو بحجرة الزوار ففرشوها بالسجاجيد للجلوس عليها ووضعوا المساند بجوار الحوائط التى علقت عليها صور الأقارب • كذلك احتوت كثير من منازلهم على منضدة للطعام وكراسى للجلوس عليها الأمر الذى لم يكن مألوفا فى حالة السكنى فى الخيمة •

ويوضح التغير فى هذا الجانب من حياة البدو واثر عاملى الاستقرار والثراء فى نفس الوقت • فقد أدى هذان العاملان الى تغير شكل المسكن من المسكن المتنقل (الخيمة) الى المسكن المستقر (المنزل) ، فالبدوى أصبح قادرا على بناء المسكن وفى نفس الوقت لم يعد ممكنا ان يضع الأثاث الحديث الذى اشتراه أو يضع بضاعته فى خيمة • ومع ذلك لم تختف الخيمة تماما من عند بدو تل الطوايلة فقد ظل كثير منهم يحتفظ بالخيمة فى منزله ، وهم يقيمونها صيفا امام المنزل ويجلسون فيها اثناء النهار ، ذلك ان الخيمة اكثر اشفاقا على البدو فى اوقات الصيف من البيت ، كذلك فى حالة وجود افراح فان الرجال يجلسون فى الخيام خارج المنزل بينما تبقى النساء بداخله •

وقد لحق التغير ايضا الزى البدوى • فقد كانت ملابس المراة البدوية تتميز بأنها فضفاضة من الصدر والأكمام • ويتميز ثوبها بأنه طويل يتوسطه حزام عريض وكانت المراة البدوية ترتدى الطرحة على راسها ، وحذاء ذا رقبه طويلة تصل الى أسفل الركبة قليلا ، وبعد عملية التهريب استمرت هذه المواصفات قائمة بالنسبة للمتقدمات فى السن فقط ، اما صغيرات السن فقد طرأت على ملابسهن بعض التغيرات اذ أصبح الفستان قصيرا الى حد ما ، كما بدات الأكمام تضيق • واختفى الحذاء ذو الرقبة الطويلة بعد انتشار « الجوارب » كذلك الحال بالنسبة للطرحة السوداء فقد بدأت تختفى خاصة بالنسبة للفتيات ، وحل محلها الايشارب النايلون المستورد ذو الألوان الزاهية •

اما الملابس الداخلية للمراة البدوية فقد تغيرت باكثر سرعة ، وربما يكون ذلك بسبب توفرها كنوعية من البضائع المهربة ، بجانب هذا فتغيير الملابس الداخلية لا يمكن مشاهدته لذلك لا يتعرض للمقاومة ، هذا بالاضافة الى أن الرجال اصبحوا يفضلون ان ترتدى نساؤهم هذه الأنواع الجديدة • فقد اصبحت النساء والفتيات يرتدين « البرلون » و « والسوتيان » المهربة ،

وتغيرت أيضا أساليب تزين المرأة . فقد كانت المرأة قديما تتحلى بالخلاخيل التى بدأت تختفى ، كما كانت تتحلى بكردان كان يصنع قديما من الفضة ولكنه استبدل بالكردان الذهب . أصبحت المرأة ترتدى الأقراط الذهبية والأساور الفضية العريضة وتسمى « دملج » وبالنسبة للشعر بدأت الضفائر تختفى ويحل محلها الشعر القصير .

أما الرجل البدوى فكان زيه التقليدى يتكون من جلباب ، صديرى ، شال ، سروال ، بالطو اذا لزم الأمر . أما الحرام فقد كان يلبس فى الصيف ويستبدل فى الشتاء بالجرد . كما يرتدى البدوى أيضا طاقية أو عمامة ، وحذاء أو صندل ، ويقال أن البدو كانوا يلبسون الجلود سابقا . وقد ارتدى بعض رجال البدو فى تل الطوايلة « البرانيط » بدلا من الطواقى نظرا لأنها تحميهم من حرارة الشمس ، كما أن بعضا ممن يعملون فى الجهات الرسمية أصبحوا يفضلونها . كذلك بدأت تختفى بعض القطع من الملابس التقليدية. فلم يعد شباب تل الطوايلة يرتدون الحرام ولا العمامة الكبيرة ، وأصبحوا يكتفون بارتداء الجلباب « القفطان » و « الطاقية » و « الشنة » والصديرى « الفرملة » والسروال .يلاحظ أن السروال هو الزى الوحيد الذى لم يتغير ولكنه أصبح يستبدل بعد انتشار التهريب بالبنطلون « الهيلانكا » الذى يرد الى المنطقة ضمن البضائع المهربة أيضا .

وقد بدأ الرجال يهتمون بحلاقة رؤوسهم بعد أن كان الشعر مهملا ، وكانت طريقة الحلاقة قديما هى حلاقة كل الرأس مع ترك مربع مملوء بالشعر أعلى الرأس . ولكن تغير هذا وأصبح شبان البدو يحلقون رؤوسهم فى صالون افتتح فى تل الطوايلة . وقد لوحظ أنهم أصبحوا يميلون الى اطالة سوالفهم . وقد ساعد على التغير فى هذا الجانب سهولة انتقالهم الى المدن حيث يحلقون رؤوسهم هناك اذا لم يريدوا الالتزام بصالون تل الطوايلة .

وقد حدث تغير أيضا فى منطقة تل الطوايلة فيما يتعلق باستخدام الأساليب التكنولوجية الحديثة ، ذلك أن الانفتاح على العالم الخارجى من

خلال التعامل فى البضائع المهربة قد أدى الى تعرف البدو على كثير من الأجهزة والماكينات الحديثة ، فاشترى كثير منهم على سبيل المثال نوع معين من الماكينات الخاصة بالحفر يتميز بضآلة وزنه الى درجة أن البدوى يمكن أن يحمله اثناء ترحاله ، ويمكنه استخراج الماء بواسطته أينما حل فى الصحراء . وقد الح كثير من بدو الصحراء على أقاربهم الذين يسكنون تل الطوايلة لاستجلاب هذا النوع من الماكينات مع البضائع المهربة لشدة حاجتهم اليه . وبخلاف ماكينات الحفر هناك العديد والعديد من الماكينات والمخترعات والأجهزة التى عرفها بدو تل الطوايلة وسبق ذكرها .

وقد لحق التغير أيضا عادات الطعام ونوعيته . فقد كان طعام البدوى يتكون من لبن الماعز والعصيدة وخبز الشعير . ولكن عندما تمكن بدو السلوم من استجلاب الخضروات والفاكهة من المدن الكبرى باستخدام سياراتهم بدأت نوعية الطعام الذى يأكلونه تتغير على الرغم من أن أسعار الخضر والفاكهة تبلغ ضعف أسعارها فى تلك المدن بسبب نفقات النقل . وتحفظ الخضر والفاكهة فى ثلاجات توجد فى معظم المحال ، ولكن لا تعمل هذه الثلاجات الا من وقت الغروب حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل وذلك لأن ماكينة الكهرباء لا تعمل الا فى هذه الفترة فقط .

وقد تغيرت أيضا بعض عادات وتقاليد الزواج بسبب الظروف التى ارتبطت بعمليات التهريب وخاصة وجود الغرباء فى المنطقة . فقد كان الاحتفال بالزواج يبدأ قبل ليلة الزواج بعدة أيام اذ يتجمع الناس فى بيت صاحب الفرح وتذبح الذبائح وترقص راقصات البدو اثناء الغناء . وتزف العروس على جمل مع جهازها اثناء اطلاق البنادق ومصاحبة الأغانى . ويتلخص التغير الذى طرأ على هذه المظاهر التقليدية للاحتفال فى تل الطوايلة فاقتصر الفرح على ليلة أو ليلتين فقط ، كذلك أصبح الاحتفال يتم فى أضيق نطاق بحيث اختفت زفة العروس على الجمل واستبدلت بالسيارة . وعندما تغيرت مورفولوجية المكان وقربت المسافة بين البيوت بعكس تناثر الخيام فى الصحراء ــ أصبحت الزفة مجرد دوران مرة واحدة حول منزل العريس .

ومن أهم المظاهر التى بدأت تختفى فى تل الطوايلة هى رقصات الحجالة وذلك نتيجة شعور البدو بوجود غرباء فى المنطقة ، ونتيجة أن بعض الأفراد من غير البدو صدرت عنهم أفعال يصفها البدو بأنها « غير مهذبة » ، أثناء تلك الأفراح عموماً ، وأثناء حفلات الرقص بصفة خاصة ٠

ونود أن نوضح هنا أن هذا النوع من التغير قد تدخلت فيه عوامل جديدة بجانب مختلف العوامل التى أثرت فى ثقافة تل الطوايلة ٠ وهو أن هذه الثقافة حاولت الانكماش أمام تهديد أو خطر ثقافات أخرى ، مثل الخوف من الغرباء ، بجانب صدور بعض التصرفات التى أساءت الى البدو ٠ ومن الطبيعى ألا يكون هذا العامل هو الوحيد الذى سبب تغير هذا المظهر ، ولكنه عامل هام ، ومتكرر فى مواقف كثيرة ، فكثيرا ما يحاول أعضاء ثقافة متميزة عدم اظهار أنماط معينة من ثقافتهم اذا كانت تثير استغراب أو سخط أو دهشة الغرباء ٠

استمرت حركة التهريب ما يقرب من عشرة سنوات ثم بدأت تطرأ ظروفا جديدة على منطقة تل الطوايلة أدت الى التأثير على أنشطة البدو فيما يتعلق بعملية التهريب ولعل العامل الأساسى هو نشوب حرب بين الدولتين استدعت تمركز قوات عسكرية فى منطقة تل الطوايلة ٠ ففى خلال عام واحد زحفت قوات عسكرية مسلحة تقدر بالآلاف واستقرت فى تل الطوايلة وفى المناطق المحيطة بها ٠ ومن الطبيعى أن تحكم هذه القوات قبضتها على المنطقة وتضع قيودا على الحركة فيها تحقيقا للأمن وضمانا لاستقرار الأوضاع فى المنطقة ٠ ونظرا لأن عمليات تهريب البضائع كانت مخالفة أساسا للقانون بالاضافة الى انه يمكن أن تكون فرصة لنقل الأخبار أو الاضرار بالتحركات العسكرية بين البلدين فقد حرصت القوات العسكرية على تصفية عمليات التهريب تصفية كاملة فى مدى زمنى قصير الأمر الذى عرض النشاط الأساسى الذى كان يعمل فيه البدو خلال عشرة سنوات لهزة عنيفة أثرت عليهم تأثيرا قويا ٠ وساعد على سرعة القضاء على نشاط التهريب فى المنطقة

بالأعداد الكبيرة لأفراد القوات العسكرية مما أدى الى انتشار جغرافى متسع ومكثف غطى معظم منافذ وطرق المنطقة الفرعية التى كانت تستخدم فى التهريب ،بجانب الامكانيات التى تمتلكها القوات العسكرية والتى زادت من قدرة أفرادها على ضبط المهربين وتصفيتهم ٠ فالقوات العسكرية تمتلك الأسلحة الكافية لمهاجمة جيش آخر وبالتالى فقد كان من السهل عليهـا التفوق على جماعة من المهربين حتى ولو كانت مسلحة اذ أن تسليح هـذه الجماعة الأخيرة لا يقارن بتسليح القوات العسكرية ٠ بالاضافة الى ذلك فان القوات العسكرية قد تفوقت على البدو أيضا فى قدرتها على التعرف على خبايا الطرق الصحراوية ومخازن التهريب ، ذلك أنه اذا كانت لدى البدو خبرة فى مجاهل الصحراء فان القوات العسكرية لديها الفنيين من مختلف التخصصات الذين تدربوا تدريبا جيدا على حبك الخطط العسكرية فى المناطق غير المأهوله وغير المعروفة ، بالاضافة الى أجهزة الكشف ووسائل مسح المناطق برا وجوا ٠ لقـد أدى كل ذلك الى نوع من التفوق الذى مارسته القوات العسكرية على قوات البدو العاملة فى التهريب ٠ وادرك البـــدو فى وقت معين أنه اذا كانوا قد استطاعوا الصمود ومناورة قوات البوليس وقوات حرس الحدود عدة سنوات فانهم أدركوا فشلهم التام حتى فى مجرد مواجهة القوات العسكرية ٠ ولعل هناك عاملا هاما أدى الى تفوق القوات العسكرية هو أن هذه القوات عادة عنـدما تستقر فى منطقة ـ وخاصة فى حالة الحروبـ فان الدولة تخولها صلاحيات تتيح لها فرصة التحكم فى المنطقة وفرض القوانين والقواعد حتى على المواطنين لـكى تضمن سلامة وأمن المنطقة تحقيقا لسلامة وأمن الوطن نفسه ٠ بل أن من يرتكب خطأ أو يقترف جريمة تتعلق بقاعدة وضعتها هذه القوات يمكن أن يحاكم أمام القضاء العسكرى وبمقتضى القوانين العسكرية ٠ فقد أدى ذلك الى نوع من الحذر لدى البدو لـكى لا يقعوا تحت طائلة القانون العسكرى ٠ وأدى هذا الى ابتعادهم عن أى منطقة أو طريق يمكن أن يؤدى الى معسكرات الجيش بسبب خوفهم من الشك فى نواياهم والقبض عليهم ٠ ولهذا تركوا الكثير من الأماكن التى كانوا يخفون فيهـــا

البضائع المهربة وابتعدوا عن الطرق السرية التى كانوا يسلكونها قبل تمركز القوات بجوارها ، وفترت همة الكثير منهم اذ وجدوا أن عملية التهريب أصبحت طريقا وعرا محفوفا بالمخاطر كأسلوب لتحقيق الكسب .

وقد كان هذا التغير مربكا للبدو ، فقد كان البدو قد تركوا الزراعة والرعى واعتادوا على نشاط آخر هو التهريب ، وكان من الصعب عليهم ان يعودوا مرة أخرى الى نشاطهم الأول ، وحتى اذا أرادوا فان الزراعة كانت مستحيلة تماما فى المناطق التى كانت تتم زراعتها قبل ذلك بسبب تمركز القوات العسكرية بها ، وأدى ذلك الى هجرة كثير من النازحين وكثير من البدو للمنطقة ، وبقيت فيها أعدادا قليلة منهم ، فقد استمر فى المنطقة هؤلاء المرتبطين بأعمال ثابتة مثل أصحاب المحلات ومن عملوا فى المكاتب وحراس وخفر المدافن والأماكن العامة ، كذلك بقى الهاربين من أحكام أو الهاربين من لثأر من مناطق أخرى ، وبقى البدو الذين أمكنهم المعيشة فى المنطقة فى ظل التغيرات الجديدة .

أما بقية البدو فقد انقسموا الى فريقين : فريق كان قد أثرى من التهريب وحافظ على ثروته فحاول الابتعاد عن المنطقة واستثمر أمواله فى مشروعات تجارية ، وفريق آخر فقد ثروته ولم يستطع الحفاظ عليها ، وهذا أيضا هاجر من المنطقة وعاد بعض أفراده الى ممارسة الرعى أو الى العمل فى مناطق أخرى . ومما لاشك فيه أن بعض ممن استمروا فى المنطقة حاولوا الاستمرار فى نفس النشاط ، ولكنهم فشلوا تماما فى ان يحققوا مستوى اقتصادى مقبول من جراء ذلك . وحتى هؤلاء الذين كانوا قد أخفوا بضائع ومخدرات فى مخازن غير معروفة عندما تمكنوا من استخراج البضائع والمخدرات أدت الفترة الزمنية الطويلة الى التأثير على البضاعة المخزونة فقلت جودتها وتدنى سعرها الأمر الذى زاد من احساس البدو بالأزمة الاقتصادية .

والخلاصة أن بدو تل الطوايلة قد وجدوا أنفسهم فى وقت قصير قد أصبحوا ممنوعين من ممارسة نشاط التهريب الذى اعتمدوا عليه سنوات .

فى الوقت الذى كانوا قد باعوا فيه أراضيهم وحيواناتهم لشراء البضائع والسيارات التى استخدمت فى التهريب فتفرقوا من تل الطوايلة ولم يبقى فيها الا الفئات السابق الاشارة اليها ٠

ونود أن نشير فى هذا الصدد الى عدة نقاط هامة هى :

١ ــ أن نمط المعيشة وطبيعة النشاط الاقتصادى وما يرتبط بهما من ظروف خاصة بالبدو كجماعة صغيرة تعيش فى نطاق مجتمع قومى أكبر يتأثر تأثرا كبيرا بالظروف الاقتصادية السائدة فى المجتمع ، فقد نشطت حركة التهريب التى شارك فيها البدو بين الدولتين بسبب احتياج كل مجتمع منهما لنوعية من البضائع السائدة فى المجتمع الآخر فى الوقت الذى فرضته فيه كل دولة قيودا جمركية على حرية حركة البضائع من أراضيها الى أراضى الدولة الأخرى ٠

٢ ــ انماط معيشة البدو ونشاطهم الاقتصادى لا يتأثر فقط بظروف الدولة التى يعيشون فيها بل يتأثر ايضا بالعلاقات السياسية والاقتصادية بينها وبين الدول الأخرى ٠ فحينما أغلقت الحدود وشددت الاجراءات الجمركية نشطت حركة التهريب للعمل على تسريب أكبر كمية من البضائع غير الخاضعة للاجراءات الجمركية ٠ وعندما نشبت الحرب بين الدولتين وتمركزت القوات فى تل الطوايلة ادى هذا الى ان يكف البدو عن ممارسة النشاط ٠

٣ ــ أن قدرة البدو على تحديد نمط معيشتهم وتقرير نشاطهم الاقتصادى وبسط نفوذهم على المناطق يتناسب تناسبا عكسيا مع قوة الدولة المركزية وقدرة قواتها الضابطة (٢) ٠ فقد خضع البدو فى تل الطوايلة خلال فترة التهريب لسلطة البوليس الذى كان يمارس ضبطا فى المنطقة ٠ واذا كان البوليس قد تمكن من الحد من عمليات التهريب فان البدو قد اظهروا فى

---

(٢) يتفق هذا مع ما توصل اليه غيرنا ممن درسوا البدو فى مناطق أخرى ٠ فقد ذكرنا فى جزء سابق من هذا الكتاب أن نفوذ البدو يتناسب تناسبا عكسيا مع قوة الحكومة المركزية ومقدار سيطرتها على كل قطاعات الدولة ٠

بعض الأحيان تفوقهم على قوات البوليس بسبب عوامل متعددة مثل كثرة عددهم ودرايتهم بالصحراء وبسبب أسطول السيارات الحديثة التى كانوا يستخدمونها فى التهريب ٠ فالبعض يذكر أن بعض سيارات البدو الحديثة كانت أكثر سرعة الى الحد الذى كان يصعب فيه على السيارة التقليدية التى تقودها القوة العسكرية المطاردة أن تلحق به ٠ هذا بجانب الزيادة المضطردة فى قدرة البدو على المناورة ٠ ولكن بعد أن تمركزت قوات من الجيش فى تل الطوايلة وكانت أكثر تفوقا عددا وتدريبا وتسليحا طعن البدو فى قدرتهم على المناورة وخضعوا تماما للاوامر العسكرية ، وعملوا فيما سمحت لهم القوات العسكرية بالعمل فيه . فقد منحهم الجيش تصاريح لاقامة محلات لجميع المواد الاستهلاكية والغذائية التى لا يهتم الجيش بتوفيرها كنوع من ايجاد فرص للعمل أمام بدو المنطقة التى احتلتها القوات ٠ وقد حافظ البدو حفاظا شديدا على القواعد التى اتفق عليها بشأن ممارسة هذا النشاط أو أى نشاط آخر مثل توريد بعض المواد الغذائية للمعسكرات ٠وتجنبوا تماما افتراض أية مخالفة ، وسلموا الاراضى التى تمركزت عليها القوات طواعية وقبلوا ما حدده الجيش كمقابل أو تعويض عن الأرض راضين ٠ وحاولوا الحفاظ على مسافة جغرافية أمينة ومناسبة من القوات ، وحتى هؤلاء البدو الذين يجولون فى المنطقة بأغنامهم وأبقارهم تعلموا ألا يقتربوا الى معسكرات الجيش ، فالبدوى كان يترك أغنامه تدخل المعسكر وتأكل من الحشائش النامية حول الخيام ، أو يترك بقرته تأكل من بقايا المواد الغذائية التى تركها الجنود دون أن يقترب هو الى المعسكر ٠ وقد كان البدو مطمئنون جدا أن أغنامهم وأبقارهم لن يصيبها مكروه بسبب علمهم بأن قانونا عسكريا قاسيا سوف يطبق على أى جندى يذبح شاه أو حتى يدر لبن بقرة ٠

المراجـع العربيـة

- **ادارة الشئون الاجتماعية (الامانة العامة) .**

رعاية البدو وتحضيرهم وتوطينهم ، الجزء الثانى ، دار الطباعة الحديثة، سنة ١٩٦٥ .

- **د. أحمـد أبو زيد**

البناء الاجتماعى ، الجزء الثانى (الانساق) ، دار الكاتب العربى ، سنة ١٩٦٧ .

- **د. احمـد الخشـاب**

الاجتماع الدينى ، مكتبة القاهرة الحديثـة ، الطبعـة الثانيـة ، القاهرة سنة ١٩٦٤ .

- **الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء**

نتائج التعداد بالعينة لسنة ١٩٦٧ .

- **بيير ج .**

دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى لمصر الحديثة ، ترجمة وتقـديم د. عبد الخالق لاشين وعبد الحميد فهمى الجمال ، مكتبة الحرية ، جامعة عين شمس ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٧٦ .

- **جودت عبد الحميد يوسف**

مجلة الفنون الشعبية ، العدد ١٣ ، سنة ١٩٧٠ .

- **خير الله فضل عطيوة**

رحلة الألف عام مع قبائل أولاد على ، بدون ناشر ، سبتمبر سنة ١٩٨٢ .

- وضـــا فضـــل

الوضع الاجتماعى والسياسى للمرأة عند البدو الرعاة (بدو بوير أحمد) فى جنوب غربى ايران ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد الرابع عشر (السنة الرابعة) ، نيسان ، سنة ١٩٧٨ ٠

- اللواء رفعت الجوهرى

شريعة الصحراء ٠ عادات وتقاليد ، وزارة الشئون الاجتماعية والعمل - القاهرة ، سنة ١٩٦١ ٠

- اللواء رفعت الجوهرى

جنة الصحراء ٠ سيوة واحة جوبيتر آمون ، الدار القومية للطباعة والنشر ، سنة ١٩٦٢ ٠

- الامام شهاب الدين ابى عبد الله البغدادى

معجم البلدان ، المجلد السابع ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، سنة ١٩٠٦ ٠

- د٠ صفى الدين ابو العـز

دراسات فى جغرافية مصر ، سلسلة الألف كتاب (١٣٩) القاهرة ، سنة ١٩٥٧ ٠

- صلاح عبد المتعـــال

اسس فى تخطيط برامج التنمية الاجتماعية للمجتمعات الصحراوية ، مؤتمر التنمية الاجتماعية للبيئات الصحراوية ، وزارة الشئون الاجتماعيـــة ، اكتوبر سنة ١٩٦٦ ٠

- صلاح مصطفى الفوال

البداوة العربية والتنمية ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ ٠

- صلاح مصطفى الفوال

تنمية المجتمعات الصحراوية ، أسس نظرية ، مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة سنة ١٩٦٨ ٠

- **عبد الحميد لطفى**
الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٦٨ ·

- **عبد الله واكـد**
الوادى الجديد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٤ ·

- **د· محمد السيد غلاب**
البيئة والمجتمع ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، سنة١٩٦٩ ·

- **د· محمد عاطف غيث**
قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٩ ·

- **محمد عوض محمد**
السودان الشمالى ، سكانه وقبائله ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القـاهرة ، سنة ١٩٥١ ·

- **محيى الدين صابر ولويس مليكه**
البدو والبداوة مفاهيم ومناهج ، سرس الليان ، سنة ١٩٦٦ ·

- **مكى الجميـــل**
البدو والبداوة فى البلاد العربية ، سرس الليان ، سنة ١٩٦٢ ·

- **نظارة المالية ادارة التعداد**
القاموس الجغرافى للقطر المصرى ، المطبعة الأميرية ، مصر سنة ١٨٩٩ ·

- **هزاع المجـالى**
مذكراتى ،الطبعة الأولى ، بدون ناشر ، آيـار سنة ١٩٦٠ ·

- **وزارة الشئون الاجتماعية (الادارة العامة للتخطيط)**
مؤتمر التنمية الاجتماعية للبيئات الصحراوية ، مرسى مطروح ، ١٥ــ١٨ اكتوبر سنة ١٩٦٦ ·

- **يوسف فضل حسن**
الشلوخ ، أصلها ووظيفتها فى سودان وادى النيل الأوسط ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم سنة ١٩٧٦ ·

المراجـع الاجنبية

Abdalla Bujra,

The Social Implications of the developmental politics : A Case study from Egypt. In The Desert and the Sown (See Cynthia Nelson).

– Abdel Ghaffar M.,

Some Aspects of the Pastoral Nomadism in Sudan, The Sudan National population Committee and the Economic and Social Research Council, Khartoum, 1976.

— Babikr A.,

Urbanization and Desertification in the Sudan, with Special Reference to Khartoum. Geojornal., 1982.

Belgrave D.,

Siwa, The Oasis of Jupiter Ammon, London, 1923.

— Committee of Royal Anthrophological Institute,

Notes and Queries in Anthropology, Routledge and Kegan Paul, London, 1951.

– Cynthia Nelson,

The Desert and the Sown, Nomads in the Wider Society, Research Series,No. 21, Institute of International Studies, University of California. Berkeley, 1973.

— Davis F.,

Social Problems Enduring Major Essues and Social Change, New York and London, 1970.

— Donald P. Cole,

The Enmeshment of the Nomads in Sa'udi Arabian Society : The Case of Al Murrah. In The Desert and the Sown. (See Cynthia Nelson).

— El Sadek M.,

Manual Gynaecology, El Nassr Modern Book Shop, Fifth Edition, Cairo : 1972.

— Elwi A.,

Text Book of Pathology, Fifth Edition ; El Nassr Modern Book Shop, Cairo, 1970.

— Ernest Gellner,

Approaches to Nomadism. In the Desert and the Sown., (See Cynthia Nelson).

— Falls E.,

Three Days in the Libyan Desert, London, 1913.

— Fouad I.,

The Problem of Desertification in the Republic of the Sudan, with Special Reference to North Darfur provience, Development Studies and Research Centre (Khartoum) Monograph Series No. 8, 1978.

— Fouad I.,

The Role of the Women Peasants in the Process of Desertification in the Western Sudan., Unpublished Article. Bayreuth, W. Germany, 1981.

— Galal A.,

The Modernization of Poverty, A study in Political Economy of Growth in Nine Arab Countries (1945-1970). Leiden E.J. Brill., 1974.

— Louise E. Sweet,

Peoples and Cultures of the Middle East Vol. 1. Depth and Diversity, The Natural History Press, Garden City, New York, 1970.

— Mitchell D.,

A Dictionary of Sociology, Routledge and Kegan Paul, London, 1968.

— Peter G.

Politics and change in Al Karak. A study of a small arab town and its district, Oxford University press, 1973.

— Reza Fezel,

The Encapsulation of the Nomadic Societies in Iran, In the Desert and the Sown. (See Cynthia Nelson).

— Talal Asad,

The Beduin as Military Force : Notes of Some aspects of power Relations between Nomads and Sedentaries in Historical Perspective. In the Desert and the Sown. (See Cynthia Nelson)

Walter Cline

Notes on the people of Siwah and El Garah in the Libyan Desert, General Series in Anthoropology 1936.

سلسلة علم الاجتماع المعاصر

صدر منها :

الكتاب الأول :

ميادين علم الاجتماع : اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمود عودة ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، بدار المعارف ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٤ .

الكتاب الثانى :

نظرية علم الاجتماع : تأليف نيقولا تيماشيف ، ترجمة الدكاترة محمود عودة ومحمد الجوهرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعة الثامنة ، ١٩٨٣ .

الكتاب الثالث :

أساليب الاتصال والتغير الاجتماعى : تأليف الدكتور محمود عودة ، دار المعارف القاهرة ١٩٧٠ .

الكتاب الرابع :

تمهيد فى علم الاجتماع : تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٣ .

الكتاب الخامس

مجتمع المصنع دراسة فى علم التنظيم : تأليف الدكتور محمد على محمد ، الهيئة العامة للكتاب ، الاسكندرية ١٩٧٢ .

الكتاب السادس :

الصفوة والمجتمع : تأليف بوتومور وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨ .

الكتاب السابع :

الطبقات فى المجتمع الحديث : تأليف بوتومور وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الثالثة، دار المعارف سنة ١٩٨٤ ·

الكتاب الثامن :

علم الاجتماع الفرنسى المعاصر : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ١٩٧٩ ·

الكتاب التاسع :

قراءات معاصرة فى علم الاجتماع : للدكاترة علياء شكرى ومحمد على محمد ، ومحمد الجوهرى ، الطبعة الثانية ، دار الكاتب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ·

الكتاب العاشر :

دراسات فى التنمية الاجتماعية : تأليف الدكاترة السيد الحسينى ، ومحمد على محمد ، وعلياء شكرى ، ومحمد الجوهرى ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف القاهرة ١٩٨٤ ·

الكتاب الحادى عشر :

مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية : تأليف جون ركس ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى ومحمد سعيد فرح ، ومحمد على محمد ، والسيد الحسينى، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٣ ·

الكتاب الثانى عشر :

دراسات فى التغير الاجتماعى : تأليف الدكتور محمد الجوهرى وآخرون الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ·

الكتاب الثالث عشر :

دراسة علم الاجتماع : اختيار وترجمة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد ، السيد الحسينى ، **الطبعة الرابعة** ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ·

الكتاب الرابع عشر :

علم الاجتماع الريفى والحضرى : للدكتور محمد الجوهرى والدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨٣ ·

الكتاب الخامس عشر :

مقدمة فى علم الاجتماع : تاليف اليكس انكلز ، ترجمة وتقديم الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى والسيد الحسينى ، ومحمد على محمد ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، ١٩٨٣ ·

الكتاب السادس عشر :

مقدمة فى علم الاجتماع الصناعى : تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، **الطبعة الثالثة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٢ ·**

الكتاب السابع عشر :

علم الفولكلور – الجزء الأول : تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، ١٩٨١ ·

الكتاب الثامن عشر :

النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم : تأليف الدكتور السيد محمد الحسينى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٨١ ·

الكتاب التاسع عشر :

مصادر دراسة الفولكلور العربى : اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٣ ·

الكتاب العشرون :

الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية : اشراف الدكتور محمد الجوهرى دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة ، ١٩٨٣ ·

الكتاب الحادى والعشرون :

علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث : تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨١ ٠

الكتاب الثانى والعشرون :

علم الفولكلور ٠ الجزء الثانى (دراسة المعتقدات الشعبية)

تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ ٠

الكتاب الثالث والعشرون :

بعض ملامح التغير الاجتماعى والثقافى فى الوطن العربى ٠ دراسات ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية فى المملكة السعودية : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ٠

الكتاب الرابع والعشرون :

التراث الشعبى المصرى فى المكتبة الأوربية : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٧٩ ٠

الكتاب الخامس والعشرون :

الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الأسرة : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ ٠

الكتاب السادس والعشرون :

دراسات معاصرة فى علم الاجتماع : تاليف الدكتورة علياء شكرى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ٠

الكتاب السابع والعشرون :

عادات الطعام فى الوطن العربى : تاليف الدكتورة علياء شكرى ، دار المعارف ، القاهرة تحت الطبع ٠

الكتاب الثامن والعشرون :

الفلاحون والدولة : تاليف الدكتور محمود عـودة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب التاسع والعشرون :

تاريخ علم الاجتماع . الجزء الأول : تاليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة للجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

الكتاب الثلاثون :

علم الاجتماع والمنهج العلمى : تاليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

الكتاب الحادى والثلاثون :

اصول علم الاجتماع السياسى : تاليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٨٠ .

الكتاب الثانى والثلاثون :

جماعات الغجر . مع اشـارة خاصة لغجر مصر والبلاد العربية : تاليف الدكتور نبيل صبحى حنا ، الطبعةالأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

الكتاب الثالث والثلاثون :

الأنثروبولوجيا : اسس نظرية وتطبيقات عملية : تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

الكتاب الرابع والثلاثون :

علم الاجتماع السياسى : المفاهيم والقضايا : تاليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٨١ .

الكتاب الخامس والثلاثون :

علم الاجتماع العسكرى : التحليل السوسيولوجى لنسق السلطة العسكرية : تأليف الدكتور أحمد خضر ، الطابعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٨٠ ·

الكتاب السادس والثلاثون :

الفكر الاجتماعى · نظرة تاريخية عالمية : تأليف هايتز موس ترجمة الدكتور السيد الحسينى والدكتورة جهينة سلطان العيسى ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١ ·

الكتاب السابع والثلاثون :

التنمية والتخلف · دراسة بنائية : تاليف الدكتور السيد الحسينى، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ ·

الكتاب الثامن والثلاثون :

المدينة · دراسة فى علم الاجتماع الحضرى : تاليف السيد الحسينى، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ·

الكتاب التاسع والثلاثون :

النظرية الاجتماعية المعاصرة · دراسة لعلاقة الانسان بالمجتمع : تأليف على ليلة ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ ·

الكتاب الحادى والأربعون :

البناء السياسى فى الريف المصرى : تحليل لجماعات الصفوة القديمة والجديدة ، تاليف الدكتور أحمد زايد ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨١ ·

الكتاب الثانى والأربعون :

علم الاجتماع الأمريكى : دراسة لأعمال تالكوت بارسونز ، تأليف جى روشيه ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى والدكتور أحمد زايد ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨١ ·

الكتاب الثالث والاربعون :

البناية الوظيفية فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا : المفاهيم والقضايا : تاليف الدكتور على ليلة ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨١ ٠

الكتاب الرابع والأربعون :

علم الاجتماع والنقد الاجتماعى : تاليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى والسيد الحسينى وعلى ليلة وأحمد زايد ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨١ ٠

الكتاب الخامس والأربعون :

الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث : تحرير الن مرنتجوى ، ترجمة وتعليق الدكاترة محمد الجوهرى وعلى ليلة وأحمد زايد ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٨١ ٠

الكتاب السادس والأربعون :

علم الاجتماع ومشكلات وقت الفراغ : تاليف الدكتور محمد على محمد، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨١ ٠

الكتاب السابع والأربعون :

علم الاجتماع : تاليف جونسون ، ترجمة وتعليق الدكاترة علياء شكرى، ومحمد الجوهرى وعلى ليلة وأحمد زايد وحسن الخولى ، دار المعارف تحت الطبع ٠

الكتاب الثامن والأربعون :

الريف والمدينة فى مجتمعات العالم الثالث : مدخل اجتماعى ثقافى، تاليف الدكتور حسن الخولى ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨٢ ٠

الكتاب التاسع والأربعون :

المرأة المصرية بين البيت والعمل : تاليف الدكتور محمد سلامة أدم، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨٢ ٠

الكتاب الخمسون :

النظرية الاجتماعية فى الفكر اسلامى : تأليف الدكتورة زينب رضوان ـ دار المعارف الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ ٠

الكتاب الحادى والخمسون :

نحو نظرية اجتماعية نقدية : تأليف الدكتور السيد الحسينى ، **الطبعة** الأولى ، ١٩٨٢ ٠

الكتاب الثانى والخمسون :

التغير الاجتماعى ٠ اختيار وترجمة : الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى وعلى ليلة ، دار المعارف الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ ٠

الكتاب الثالث والخمسون :

النظرية الاجتماعية ودراسة الأسرة : تأليف الدكتورة سامية الخشاب، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ ٠

الكتاب الرابع والخمسون :

البناء الاجتماعى والثقافة فى مجتمع الغجر : دراسة أنثروبولوجية لتأثير البناء والثقافة والشخصية على التكامل الاجتماعى تأليف الدكتور نبيل صبحى حنا ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ ٠

الكتاب الخامس والخمسون :

المجتمع والثقافة والشخصية ٠ مدخل الى علم الاجتماع : تأليف الدكاترة محمد على محمد ، وغريب سيد أحمد ، وعلى عبد الرازق جلبى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٣ ٠

الكتاب السادس والخمسون :

التصنيع فى الدول النامية : تأليف الان مونتجوى ، ترجمة وتقديم الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ ٠

الكتاب السابع والخمسون :

علم اجتماع الادارة ۰ مفاهيم وقضايا : تاليف الدكتور عبد الهادى الجوهرى ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣ ۰

الكتاب الثامن والخمسون :

نقد علم الاجتماع الماركسى : دراسة فى النظرية الاجتماعية ۰
تأليف بوتومور ، ترجمة وتعليق الدكتور محمد على محمد والدكتور على جلبى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٣ ۰

الكتاب الستون :

دراسات فى علم الاجتماع السياسى : تاليف الدكتور عبد الهادى الجوهرى، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٣ ۰

الكتاب الحادى والستون :

معجم علم الاجتماع : ترجمة وتعليق الدكتور عبد الهادى الجوهرى ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ١٩٨٣ ۰

الكتاب الثانى والستون :

الشباب والمشاركة السياسية : تاليف الدكتور سعد ابراهيم جمعه ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٣ ۰

الكتاب الثالث والستون :

المدخل الى علم الاجتماع : تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٣ ۰

الكتاب الرابع والستون :

تنمية العالم الثالث ۰ الابعاد الاجتماعية والاقتصادية
للدكاترة على ليلة واحمد زايد ومحمد الجوهرى ۰ دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ، القاهرة ، سنة ١٩٨٣ ۰

الكتاب الخامس والستون

فلفريدو باريتو ودورة الصفوة فى اطار النظام : تاليف دكتور على ليلة ، الطبعة الأولى ، دار آتون للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

الكتاب السادس والستون :

العالم الثالث . قضايا ومشكلات : تاليف دكتور على ليلة ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة للتوزيع والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

الكتاب السابع والستون :

المرأة والمشكلة السكانية فى العالم الثالث ، تحرير ريتشارد أنكر وزملاؤه ترجمة الدكاترة علياء شكرى وحسن الخولى وأحمد زايد واعتماد عـلام ، مراجعة الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة للتوزيع والنشر القاهرة ، ١٩٨٤ .

الكتاب الثامن والستون :

الاتجاهات التقليدية والحديثـــة فى الأنثروبولوجيـا الاجتماعيـة : تاليف دكتور نبيل صبحى حنا ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

الكتاب التاسع والستون :

المجتمعات الصحراوية فى الوطن العربى ، تاليف دكتور نبيل صبحى حنا ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

الكتاب السبعون :

المرأة فى الريف والحضر . دراســة لأنماط العمل والتغيرات السكانية ، اشراف الدكتورة علياء شكرى ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٨٥ .

الكتاب الحادى والسبعون

الســكان والتنميــة ، دراســة انثروبولوجيــة فى قريتين مصريتين اشراف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

الكتاب الثانى والسبعون :

الانثروبولوجيا الاجتماعية : تاليف لوسى مير ، ترجمة الدكتورة علياء شكرى والدكتور حسن الخولى ، ومراجعة الدكتور محمد الجوهرى ، **الطبعة** الأولى دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥ ٠

الكتاب الثالث والسبعون :

المراة فى العمل الزراعى ، دراسة انثروبولوجية ، للدكاترة علياء شكرى ، وحسن الخولى واحمد زايد ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥ ٠

رقم الايداع ٥٧٦٩/ ٨٤

الترقيم الدولى x ـ ١٠٧٩ ـ ٠٢ ـ ٩٧٧

دار التضامن للطباعة
٢٢ شارع سامى - ميدان لاظوغلى
القاهرة - تليفون ٣٠٥٥٦